رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري

شرح وإيجاز

كامل كيلاني

الجزء الاول



ملتزم طبعه ونشره

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

رسالة الغفران

للشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرّى

شرح وإيجاز
كامل كيلانى

الجزء الاول

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول

إهداء الكتاب

مَوْلَاى :

مُنْذُ أَلْفِ عَامٍ – أَوْ قَرِيبٍ – تَغَنَّى صَاحِبُ الْغُفْرَانِ فِي مَنْثُورِهِ وَمَنْظُومِهِ بِالْمَثَلِ الأَعْلَى لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَرَاحَ يَنْشُدُهُ – حَيَاتَهُ – عَلَى غَيْرِ طَائِلٍ .

وَالْيَوْمَ يَتَحَقَّقُ لِشَارِحِ الْغُفْرَانِ فِي عَهْدِكَ الزَّاهِرِ – ذَلِكَ الْحُلْمُ الذَّهَبِيُّ الْجَمِيلُ الَّذِي عَزَّ عَلَى مُؤَلِّفِ الْغُفْرَانِ أَنْ يَظْفَرَ بِهِ .

مَوْلَاى :

وَلَقَدْ رَفَعْتُ بِالأَمْسِ إِلَى سُدَّةِ أَمِيرِنَا الْمَحْبُوبِ – فِي أَوَّلِ نَشَاءَتِهِ الطَّاهِرَةِ – أَوَّلَ لَبِنَةٍ سَوَّيْتُهَا فِي أَسَاسِ مَكْتَبَةِ الأَطْفَالِ .

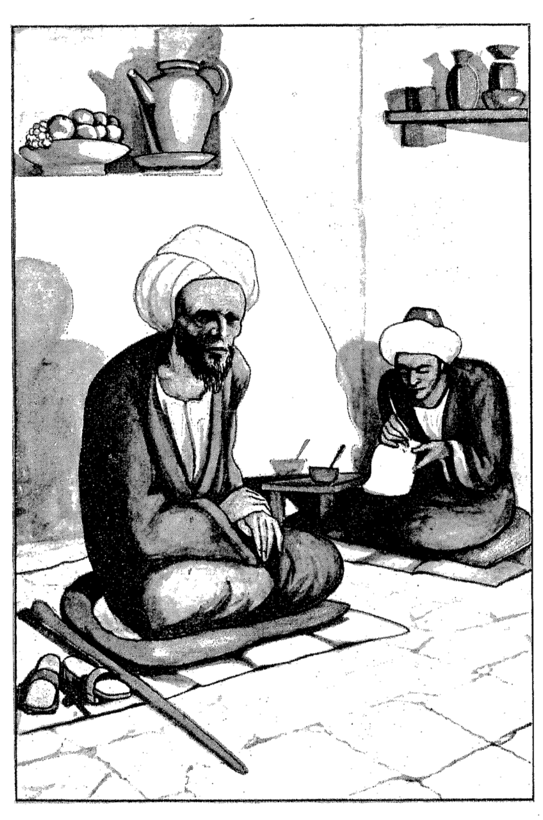
وَالْيَوْمَ يُسْعِدُنِي أَنْ أَرْفَعَ إِلَى سُدَّةِ مَلِيكِنَا الْمُصْلِحِ – وَهُوَ فِي مُقْتَبَلِ شَبِيبَتِهِ النَّاضِرَةِ – آخِرَ لَبِنَةٍ أَضَعُهَا فِي صَرْحِ مَكْتَبَةِ الشَّبَابِ .

وَأَنَا فِي هَذِهِ وَتِلْكَ لَا أَتَوَخَّى – بَعْدَ رِضَا اللهِ (سُبْحَانَهُ) – غَيْرَ رِضَاكَ ، رَاجِياً أَنْ تَظْفَرَ هَذِهِ – مِنْ رِعَايَةِ الْمَلِيكِ – بِمِثْلِ مَا ظَفِرَتْ بِهِ تِلْكَ مِنْ عِنَايَةِ الأَمِيرِ .

وَحَسْبِي أَنْ أُرَدِّدَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مَا أَسْلَفْتُهُ فِي ذَاكَ مِنْ مَوْفُورِ الْوَلَاءِ ، وَصَادِقِ الدُّعَاءِ :

« فَإِذَا قَبِلْتَ هَدِيَّتِي ، وَرَضِيتَ عَنْ هَذَا الْكِتَابْ
أَحْيَيْتَ فِي نَفْسِي الرَّجَا ءَ فَأَبْدَعْتُ فِي كُلِّ بَابْ
وَمَلَأْتَ قَلْبِي بِالْيَقِيـ ـنِ فَلَا أُبَالِي بِالصِّعَابْ »

كامل كيلاني



أبو العلاء كما تخيله شارح الرسالة

مقدمة

« أكتبُ هذا ، و بين يديَّ طبعة لرسالة الغفران ، أذاعها « كامل كيلانى » — منذُ حين — أكتبه ، وأنا أعلمُ أن هذه الطبعة قد ذاعتْ ، واستبق إليها الناس استباقاً لم يكن منتظراً ولا مرجوًّا ، فاغتبط للطبعةِ نفسها ، وعناية « كامل » بها ، ثم أغتبط لما ظفر به من التشجيع على هذا الجد ، وهذه العناية ، ثم أغتبط لأن روح أبى العلاء ، وفلسفته ، ومناهجه — فى الفهم والتفكير — قد أخذت تتغلغل فى طبقات المستنيرين من أهل الشرق العربى ، وليس هذا بالشىء القليل ، وما أشك فى أنه سينتج آثاره الحسنة بعد حين » .

تلك هى نبوءة الأستاذ العميد[1] منذ خمس عشرة سنة ، وقد صدَّق الزمن نبوءته التى أوحاها إليه رواج الطبعة الأولى من هذا السِّفر النفيس ، فقد نفدت الطبعة الثانية كما نفدت الطبعة الأولى فى زمن يسير ، ومضت نسخهما تطوِّف فى الآفاق ، فأصبحت كل نسخة منها مدداً فى مكتبة لأديب أو متأدب ، وحقق الشباب المفكر تأميلنا فيه ، ورأى فى هذا السفر الخالد مصداق ما حدثناه به : فنا من الأدب العالى يفخر به الفكر الإنسانى ، و يزهى بروعته الخيال العالى[2] ، فأقبل على هذه اللذائذ الفكرية المرتقيات — كما يقول شيخ

---

(١) انظر مقدمة الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية التى صدرنا بها الطبعة الثانية من رسالة الغفران ، وقد أعدنا نشرها فى هذه الطبعة الثالثة (ص ٦٦٩ — ٦٧٨) ومما كتبه الاستاذ العميد عن الطبعة الثانية من الغفران فى مقدمة كتاب « صور جديدة من الادب العربى » قوله : وقد راجت رسالة الغفران هذه — فى مصر والشرق العربى ، بل رأيت من المستشرقين — فى أوربا — من يرضى عنها ، ويعجب بها . »

(٢) صدرنا الطبعتين الاولى والثانية بما يلى :

الى الشباب المفكر ، الذى أدرك حقيقة الادب الحى ، وعرف قيمته وأثره فى احياء النفوس ، وانهاض الشعوب .

الى الشباب المفكر الذى اطلع على الآداب الغربية ، فسحرته أنغامها العديدة ، وهاله خضمها الزاخر ، الجياش بشتى احساسات الحياة وخوالجها ومثلها الرائعة ، وعطف على الآداب العربية فأحرج صدره ما فيها من الخلط وسوء الاختيار ، فعزف عنها مزدرياً ناقما — وله بعض العذر — واندفع متهافتا على الادب الغربى الذى وجد فيه لكل خالجة وتراء تشجيه أنغامه ، وتملأ فراغ نفسه ، وتحلق بها فى أسمى ملكوت تطمح اليه .

الى هذه الفئة من الشباب ، أقدم هذا الكتاب الذى أرى فيه فناً من الادب العالى ، أجرؤ فأزعم — لا متحمساً للغتنا ، ولا متعصبا لآدابنا ، ولا مجازفا فى زعمى — أنه لا يقل عن أجل أثر أخرجه أكبر رأس عربى مفكر ، وهنا نمسك القول حذرا من الاسراف والشطط . . . »

المعرة — ونفدت الطبعة الثانية منذ عشر سنوات — أو تزيد — ثم شغلتنى مكتبة الأطفال عن إظهار هذه الطبعة إثر نفاد سابقتها حتى أتاح الله هذه الفرصة ، وقدَّر لها الظهور فى هذا الثوب الأنيق .

ولا يَدْهَشَنَّ القارئ إذا حدثته بأن إقبال الشباب العربى على هذه الرسالة ، قد أحيا فى نفسى ميت الآمال ، وحفزنى ذلك النجاح إلى إنشاء مكتبة الأطفال . فقد تحقق لى أن الطفل العربى إذا تعهدناه فى أول نشاءته بالتثقيف العربىّ ، و يسَّرنا له سبل البيان العربى ، حسن رأيه فى أدبنا ، وصفا تفكيره ، واستقامت فطرته ، وقد أثبتت الأيام صدق ما رأيناه ، ثم بدت فى هذه الأيام بشائر طيبة ، فرأينا طائفة من كرام المربين يقتفون أثرنا فى هذه الطريق و ينتهجون ما رسمناه من خطط ومناهج، فحمدنا لهم تلك المحاولات المشكورة، ودعونا لهم بالسداد والتوفيق ، وما زال أملنا معقوداً بنجاحهم القريب ، متى ضاعفوا من عزماتهم وأخلصوا نياتهم ، وتصدى كل منهم لما يحسنه ، واقتصر الميدان على أهله .

ولئن كانت رسالة الغفران حافزة لنا إلى إظهار مكتبة الأطفال ، لقد كانت تلك المكتبة معوِّقة لنا عن المبادرة بإظهار هذه الرسالة إثر نفادها .

ولقد آثرت الروية ، واخترت التريث ، ولم أدفع بالكتاب إلى المطبعة إلا بعد أن احتفلت له وحشدت — لتجويده — كل ما أملك ، حتى قربته — ما وسعنى الجهد — من الكمال الفنى المنشود ، رغبة فى أن أجزى بالشكر لأبناء العروبة على ما بذلوه من تقدير وتشجيع . وإن إقبال شبابنا على الآثار العلائية المبْدَعة ، وتزودهم من هذا المنهل الفكرى الصافى ، لدليلا أى دليل ، على أصلة النهضة الأدبية التى يرفع أعلامها أعلام هذا العصر ومفكروه ، وإن فى نفاد الطبقات المتعاقبة من آثار المعرى لفألاً صادقاً — كما قلت فى مقدمة الطبعة الثالثة من « اللزوميات » — يبشر بخير النتائج ، وينبئ بأحمد الغايات .

*
* *

ولقد جلونا هذه الطبعة الجديدة وقد أنست بالنص الكامل لرسالة ابن القارح ، وهى الرسالة التى بعث بها صاحبها إلى أبى العلاء ، فأجابه عليها برسالة الغفران[1] .

---

(١) انظر (الجزء الأول ص ٢١ و ٢٢) لترى السبب الذى دعا ابن القارح الى تأليف هذه الرسالة التى حفزت المعرى الى انشاء رسالة الغفران .

وقد أضفنا إليها طائفة صالحة من رسائل المعرى ، فى فقه اللغة ، وفنون الأدب . وضروب شائقة من طريف الحكمة وجميل المودة ، ثم ذيلنا ذلك بترجمه وسيطة لجحيم « دانتى » إذ كان الباحثون قد أفاضوا — لهذا العهد — فى صلتها بغفران « أبى العلاء » .

وقد أخذنا أنفسنا — فى إخراج هذه المجموعة من الرسائل المبدَعة — بأن تقيد نصوصها بالشكل الكامل ، وإن بيان « أبى العلاء » لجدير أن يضبط كله ، إذ كان ذلك الكاتب المتفرد مغربًا فى لفظه وأسلوبه ، على عمق أغراضه ومعانيه .

وما أحوج القارئ — لآثار هذا الفيلسوف الأديب — إلى أن يضاعف يقظته لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصى مرماه الخفى ، ويجلو فطنته لاكتناه مغزاه المستسر، ويحشد قواه الفكرية كلها فلا يتوزعها الصواب فى إعراب كلمة أو تصريفها أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل المقادة ، ميسور التأتى ، هيّن الدرك ، للأديب المتمكن ، ولكنه — على ذلك — شَدّما يكون حجر عثرة فى طريق الشُّداة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم — على الرغم منهم — أن يستمتعوا بهذه الكنوز الأدبية الجديرة بالجد والمعاناة . واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحًا دقيقًا ، ينكشف به المقصود من معانيها فى عرض الكلام .

ويسيرٌ غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير أبى العلاء من كتاب الغريب المنصوص عليه صراحة فى المعجمات ، فان امتلاك أبى العلاء لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظة من جزل النظم والنثر ، وتمرسه بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهدّيه لأبكار المعانى وعيون الكلام ، وتوفقه فى ابتداع الصورة الفنية الرائعة . وحشده أفانين مختلفة من مُعْجب التصاوير وبارع الصيغ ، وتبحره فى التاريخ ، إلى حد أن قال — وصدق — :

« ما مرّ فى هــذه الدنيـا بنو زمن   إلا وعندى — من أخبارهم — طرف »

كل أولئك قد أجرى لسانه بالكثير الأكثر من صور ألفاظ تدل — بعـد الروية ، ومد البحث — على غير المعروف الظاهر من معانيها ، مما توسعت به اللغة ، وتشعّب التصريف ، فصار واجبًا أن نحد المراد من اللفظ فى سياق الجملة حدا دقيقًا ، وأن نفسره

بما يقتضيه ذلك السياق ، معتمدين — فى ذلك — على ما يقع لأيدينا من أجلاد اللغة ، وكتب الألفاظ ، باذلين الوسع فى التحرز والتخير والتحقيق .

*
* *

وقد توخينا — على ذلك — أن نترجم لمن وردت أسماؤهم — فى هذه المجموعة — من الكتاب والشعراء وكلّ ذى فن .

وضاعف الجهد فى هذا الصنيع ، أن أبا العلاء كان بعلمه مُدلاً ، ولوفرة معارفه مستخدما ، فكان يشير إلى الكاتب أو الشاعر أو العالم باسمه ، وهو معروف بلقبه ، أو ينعته بكنيته ، وهو معروف بنسبته ؛ مما أثبت له فى صدور معاصريه عظيم المنزلة ، وشديد الإعجاب ؛ فلقينا فى كشف هذه المعميات — بالصدر الرحب — بعض العناء . ومما رسمناه لأنفسنا فى الترجمة أن تكون شرحاً لما أشار إليه أبو العلاء حين عرض لأولئك الأعلام ، حتى يَغنَى القارئ عن المراجعة والاستعانة بغير الكتاب الذى بين يديه ، فيجد كفايته من توضيح الاشارات بأدنى نظر ، وأيسر جهد . ورأينا ألا نخلى هذه المجموعة من دراسة لفلسفة أبى العلاء وتفصيل لآرائه فى الحياة والناس وما وراء الكون ؛ فألزمنا أنفسنا ألا يعرض أبو العلاء لمعنى فلسفىّ، أو يلمع إلى فكرة من خواص فكره ، إلا ألحقنا بها ما يماثلها فيما نقل عنه ؛ ولا جرم أن شعر أبى العلاء ونثره يفسر بعضه بعضاً ، فهو يلمح إلى الفكرة فى بيت ، ويوضحها فى بيت آخر ، ويزيدها إبانة وتوضيحاً فى متناثر أبيات أخرى . فلا منتدح لمن يتناول بالبحث إحدى نواحى أبى العلاء من أن يستقرى شعره ونثره ، ويتفطن إلى النظائر والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ؛ حتى تنفسح أمامه سُبُل الموازنة والمقابلة والترجيح . وفى أضعاف هذه المجموعة حمل لبعض العبء عن الباحثين ، فلقد فصلنا فيها أبواباً من فلسفة أبى العلاء ، وعمّرْناها بمختلف أقواله فى كل منها ، وكشفنا الغطاء عن مستورها ، وجلوناها مواد مهيأة للفائدة والانتفاع ؛ آملين أن يكون الباحثون بها فى أمْن مِنَ الخطأ فى الحكم ، والخطل فى الاستشهاد .

وثمة جانب من العمل فى هذه المجموعة ما كان أحرانا أن نمسك عن القول فيه ، إذ كان القول أيًّا كان لا يصف على الحقيقة ما عانيناه منه . ذلك هو جانب التصحيح لنصوص الرسائل التى حفلت هذه المجموعة بها . ويشهد الله لقد تفشاها التحريف والتصحيف ، بل المسخ والتشويه ؛ فأحال الكثير من جملها أعقد من ذنب الضب ؛ سواء فى ذلك الرسائل التى سبق طبعها ، والرسائل التى ظلت مخطوطة حتى إعداد هذه المجموعة للطبع . وقد آلينا على أنفسنا ألا ندخر فى تصحيحها من جهد ولا كد ؛ فصبرنا للجامح حتى سلس ، وتأتَّيْنا للمستعصى حتى انقاد . وتوسلنا إلى ذلك بما اتسع له الامكان من وسائل المراجعة للكتب ، والتقليب للرأى ، والإذكاء للفطنة ، والحدّ للذهن ، والتوطينِ للنفس — مهما بعدت الشُّقَّةُ — على بلوغ الغاية .

وقد انقسمت هذه المجموعة من الرسائل لذلك الجانب من التصحيح إلى قسمين : قسم حوى مباحث من فقه اللغة ، ورواية الشعر ، وعلم الأدب ، فكان من همنا فى هذه المباحث أن نتصيدها فى مظانها ، ثم نعارض ما فى المظانّ بما أثر عن أبى العلاء ، مستأنسين بما نجد من هذه المباحث فى استقامة الجمل ، وسلامة الألفاظ ، وصحة السياق . فأما القسم الثانى ، فهو نثر أبى العلاء الذى أملاه إنشاء ، لا مرجع عنه إلا إليه ، ولا بديل منه إلا مرآته . فكنا نقف منه موقف الأناة والتروّى ، لا نقنع فى تصويبه بعفو الخاطر ، ولا نرضى فيما يظهر لنا من وجوه التَّصْوِيب بأن يسير الكلام على وجه الصحة ، مؤديا حقّ الإفهام . ولكننا كنا نستعين بما خبرنا من أساليب أبى العلاء ، وما استظهرنا من ألفاظه الدائرة ، وما عرفنا من ديباجته وطابعه فى نسج العبارات . وما نزال فى بحث وتقصٍّ ، ووزن وتفضيل ؛ حتى تنقشع سحائب التحريف عن لفظ لائق بالنَّسْق ، جارٍ من ألفاظ أبى العلاء على عِرْقٍ ؛ فيأخذ اللفظ مكانه بين ما قبله من الألفاظ وما بعد ، مأخذ الدرة من العِقْد ؛ لا اجتلابَ ثَمّ ولا تكلف ، ولا استكراهَ ولا تَعَسُّف .

وما نحب أن نفيض القول فى تفصيل ما بذلنا من جهد فى إخراج هذه المجموعة الحافلة ، فها هى ذى بين يدى القارئين تصف نفسها بنفسها ، وتدل بيومها على أمسها . وفى مكنة

المنصفين أن يتمثلوا لأنفسهم وهم يقلبون من أوراقها المئين ، أننا وقفنا من كل كلمة فى كل سطر فى كل صفحة منها وقفة التحقيق والتفتيش والتحرى ، فى غير ضنانة بالجهد ، ولا إيثار للدعة . مجتهدين ألا نخرج من فصل إلى فصل قبل إيفائه حقه من العنايه والتعهد ؛ محاذرين فى مباحث التاريخ وعلوم العربية المقتضبة فى مطاوى الرسائل أن ندعها متعبة للراغبين فى البحث ، مضيعة لوقتهم فى الرجوع إلى المصادر ؛ عامدين فى أمثال هذه المباحث إلى إضاءة ما حولها ، والافاضة فى بيانها ، والاستطراد إلى لبابها ، تمكينا للدارس المستقصى من آرابه فى دراسته واستقصائه . واضعين نصب أعيننا ألاَّ يشعر قارئ بحاجة إلى شرح غريب ، أو تفسير غامض ، أو تجلية إشارة ، أو تفصيل مجمل ؛ إلا وجد قضاءها على حبل الذراع .

*
* *

« أما بعد » فهذا جهد — بل جهاد — بذلناه ، لا نريد به إلاَّ وجه الأدب وحده ، وهو — كما قلنا فى مقدمة ديوان ابن زيدون — زكاةُ الأديب ، وإنما امتثلنا مثلال الأسلاف ، الذين بذلوا من ذات أنفسهم لتظل حياة الأدب موصولة على الزمن عصرا بعد عصر ، وجيلا بعد جيل . وما رأينا كالأدب : على صاحبه الغرم إذا أخذ ، وعليه مثل ذلك الغرم إذا أعطى . فالأديب يشقى تعلما ، كما يشقى تعليما ، والأدب يضنى صاحبه فى حاليه ، فهو يُبلى من يخدمه ، كما يُبلى من يستخدمه .

على أننا قد رضينا — من قبل ومن بعدُ — بالشقاء والضنى ، فهل رضى الأدب عما أدينا ونؤدى ؟ ذلك غاية ما نأمله ، فلا والله ما يعنينا من شئ إلا أن نجيب تلك النزعة الفنية الصادقة التى نزلت منا منزل الشغاف — منذ نعومة الظفر — فحببت إلينا الأدب ، وحفزتنا إلى التفانى له وفيه .

فإن بلغنا — بهذا الصنيع — غايةً من الرضا ، فهى حسبنا ، وعند الله ثواب المحسنين .

كامل كيلانى

المنامة

حدث عليّ بن الجهم ، قال :

كان الشعراء يجتمعون — فى كل جمعة — فى القبة المعروفة بهم فى جامع « بغداد » ينشدون الشعر ، ويعرض كل منهم على أصحابه ما يكون قد نظمه بعد مفارقتهم فى الجمعة التى قبلها . فبينا أنا فى جمعة من تلك الجمع ، ودعبل ، وابن أبى الشيص ، وابن أبى فنن ، والناس مجتمعون ، يسمعون إنشاد بعضهم ، أبصرت شابا فى أُخْرَيات الناس جالساً فى زى الأعرابى :

فلما فرغ كل منهم وقطع إنشاده ، التفت الشاب إلينا وقال :

« قد سمعت إنشادكم — منذ اليوم — فاسمعوا إنشادى »

فقلنا : « هات » فأنشد : « فَحْوَاكَ عينٌ — على نجواك — يا مَذِلُ[1] »

ثم مر فيها منشداً ، حتى أتى قوله :

« تَغايرَ الشِّعرُ فيه — إذْ سَهِرْتُ له — حتى حَسِبتُ قوافيه ستَقْتتِلُ »

فعقد « ابن أبى الشيص » — عند هذا البيت — خنصره ، ثم مرّ فيها الشاب إلى أن أتى على آخرها ، ثم أنشد أخرى . فقلنا له : « لمن هذا الشعر ؟ »

فقال : « لمن أنشدكموه » .

فقلنا له : « ناشدناك الله ! من تكون ؟ » قال : « أنا أبو تمام الطائى ! »

قال ابن أبى الشيص : « فرفعنا مجلسه — حينئذ — وعظمناه تعظيما كبيراً . »

---

(١) المذل : هو الذى يفشى السر ، والشطر الثانى قوله : « حتام لا يتقضى قولك الخطل » ، والقصيدة فى مدح المعتصم ، ومن أروع ما فيها قوله :

« له رياض ندى ، لم يكب زهرتها — خلف ، ولم تتبختر — بينها — العلل »

وقوله : « يحميـــــه لألاؤه ، أو لوذعيته — من أن يذال : بمن ، أو : ممن الرجل ؟ »

فهل عرف القارئ : ماذا كان من أثر هذا البيت الرائع[1] الذى عقد « ابن أبى الشيص » خنصره عند سماعه ؟ وكيف أوحت إلى ذهن المعرى قصة هذه القوافى المتوثبة إلى القتال ؟ لقد وعى أبو العلاء هذا المعنى ، كما وعاه « ابن أبى الشيص » وأصحابه ، وعقد خنصره عند سماعه ، وأكبرَ من « أبى تمام » هذا الخيال البارع الذى مثل قوافيه كائناتٍ حيةً ، توشك أن تقتتل لتظفر بشرف الخلود فى شعر أبى تمام ، واختزن المعرى هذه اللفتة البارعة ، كما يختزن القاصُّ الموهوب كل مشهد رائع من مشاهد الحياة ، وكل معنى مُجَوَّد مبتكر ، ليعرضه — أبهى عرض — فى مكانه الجدير به من قَصَصِهِ المتخيَّرِ المُبْدَع .

فلما أتيحت للمعرى فرصة الكلام عن « أبى تمام » تمثل قوافيه كائناتٍ حيةً ، توشك — لو علمت نبأ مصابه — أن تولول عليه نادبات[2] .

ولم يقف خيال المعرى عند تخيلِ هـذه القوافى كائناتٍ حيةً ، تأسف وتحزن وتسير فى الجنائز ، فتخيل أبيات لبيد قد نقلت فى الجنة قصوراً فخمة[3] .

ومتى أعجب المعرى بأبيات « لبيد » فتمثلها قصوراً فاخرة ، فلا عجب إذا دفعه تحقيره الرجز إلى تمثل أبيات الرجاز قد تحولت بيوتًا حقيرة[4] . ولا غرو أن يتمثل بيت الخنساء فى أخيها صخر ، وقد أصبح — فى الدار الآخرة — حقيقة راهنة ، وبدا أخوها — فى الجحيم — كالجبل الشامخ ، والنار تضطرم فى رأسه ، وهو يقول لأخته : « لقد صح مزعمُك فىّ » . وإنما يعنى قولها :

« وإن صخراً لتأتمُّ الهُداة به كأنه عَلَمٌ فى رأسه نار[5] »

كما يتمثل معلقة امرئ القيس كلها عجوزاً فاجرة ، فيقول فى رسالة الإغريض[6] :

---

(١) المفهوم من القصة أن هذا البيت كان بدء التعارف بين أبى تمام وابن الجهم ، ثم تمت الألفة بعد ذلك حتى قال فيه أبو تمام .

« إن يُكدِ مطَّرف الاخاء ، فإننا لغدو ، ونسرى فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال ، فماؤنا عذب ، تحدَّر من غمام واحد
أو يفترقْ نسب ، يؤلف بيننا أدب ، أقمناه مُقامَ الوالد . »

(٢) انظر (ص ٢٦٨) . (٣) انظر (ص ٨٦) . (٤) (انظر ص ١٨٩) .
(٥) انظر (ص ١٣٤) (٦) انظر (ص ٥٨٩)

« وإنّ « قفا نبك » على حسنها وقدم سنها — لتقر بما يبطل شهادة العدل الرّضى، فكيف بالبغى الأنثى ؟ قاتلها الله عجوزاً لو كانت بشرية ، كانت من أغوى البرية »

ثم يتخيل أعمارنا ومنايانا ، كأنهن الآيات فى النثر ، والمنايا فواصلهن ، وكأنهن الأبيات فى الشعر ، والمنايا قوافيهن ، فيقول فى الأولى :

« إن أعمارنا كآى أبينت والمنايا لهن مثل الفواصل »

ويقول فى الثانية :

« وأعمارنا أبيات شعر ، كأنما أواخرها للمنشدين قوافى »

ولا يفوته حين يعرض لذكر أعلام النحو والصرف أن يقول :

« أتت علل المنون فما بكاهم - من اللفظ - الصحيحُ ، ولا العليلُ
ولو أن الكلام يحس شيئاً لكان له — وراءهم — أليل »

ولو شئنا أن نتقصى هذا اللون — وحده — من خيال المعرى — وهو ضروب وأفانين لا تحصى ، لضاق بنا المقام الرحيب ، فكيف بهذه اللمحة العاجلة .

وإنما عنانا — فى هذه الومضة الخاطفة — أن نعرض للقارئ مثلاً من سعة خيال المعرى ، ولوناً من ألوان تفننه وابتداعه ، وانفساح أفقه ، وأصالة الروح القصصى فى نفسه ، وقد اخترنا هذا المثل من بين مئات من أشباهه ونظائره المبثوثة فى نظمه ونثره لنرى القارئ كيف أصبح الخيال القصصى فى نفس المعرى متين الأواصر، عميق الأغوار ، تكاد كل كل ملاحظة تعن له تتحول قصة ، أو مشهداً من قصة ، أو منظراً من مشهد قصصى ، أو إيحاء بقصة ، أو خلاصة لها ، أو موجزاً لأقصوصة ، أو إشارة — بعيدة أو قريبة — إليها .

وسيانِ — فى عالم الفن الصادق — أن تطول القصة أو تقصر الأقصوصة ، فإن فى البذرة — على ضآلتها — كل عناصر الدوحة السامقة ، ولن يضير المعرى أن يوجز بعد أن أصاب الهدف ولم يخطئ الصميم ، كما لا ينفع غيره أن يسهب ويطيل ما دام قد تنكب السبيل ، ولم يصب الأهداف البعيدة .

ولم يقف خيال أبي العلاء القصصي عند تمثل القوافي كائنات حية ، فلقد طالما تمثل المعرى أشباه ذلك ، فتخيل الزمن كله وليداً لاهياً فقال :

« أظن زماني : كونه وفساده وليداً ببطن الأرض يلهو ويلعب »

كما تمثل الليل والنهار خيطي باطل ، فقال :

« نهار وليـل عوقبا ، أنا فيهما — كأني بخيطي باطل — أتشبث »

وتخيل النجوم — كما تخيل القوافي — كائنات حية ، ثم أبعد في خياله فرآها كالأناسي متنافرة ، متخالفة في أديانها ، بعد أن تمثلها مفعمة بالإحساس موفورة العواطف فقال :

فهل الكواكب مثلنا — في ديننا — لا يتفقن ، فهائد ، أو مسلم
ولعـل مكة في السماء كمكة وبها نضار ، ويذبل ، ويلملم

ثم تعمق في تصوره ، وأوغل في تخيله ، فقال من قصيدة :

وإن صح أن النيرات محسة فماذا نكرتم من وداد ، ومن صهر ؟
لعـل سهيلاً ، وهو فحل كواكب تزوج بنتاً للسماك ، على مهر
يقولون : « تأتي فوقنـا مثل ما أتى بنو الأرض،في حال السرار، أوالجهر»
فيا ليت شعرى ! هل تراع من الردى وتركع نسكا ، بالعشـاء وبالظهر
وتكذب ؟ إن المين في آل آدم غرائز جاءت بالنفـاق وبالعهر

ثم قال من قصيدة أخرى :

سـبحان خالقهن لست أقو ل : الشهب كابيـة مع الدهر
لا ، بل أفكر : هل رزقن حجى نجساً يمزن به من الطهر ؟
أم هل لأنثـاها الحَصان ، بذي التـ ذكير ، من قربى ومن صهر ؟
أم يخطب العَـوّى السماك ويعـ طيها الذى ترضـاه من مهر ؟

ألا يرى القارئ المنصف أن هذا التفكير الجبار قد اجتاز آفاقاً من الخيال قل أن يرتادها أحدث القصاصين ؟ وكيف يرى القارئ قصة الشيخ أبي هدرش[1] وقصة

(١) انظر جنة العفاريت (ص ١٠٣)

الحورية[1] وما إليهما من روائع القصص العلائى الخلاّب . وثم لون من الأقاصيص تفيض به رسائل المعرى وأشعاره ، وقد نبهنا إليه فى مواطنه ، نجتزئ منه بقوله [2] :

« وابك على طائر ، رماه فتًى   لاهٍ ، فأوهى بفهره[3] الكتفا
أو صادفته حِبالةٌ نُصبت ،   فظل فيها كأنما كُتِفا
بَكَّر يبغى المعـاش مجتهداً   فقُصَّ — عند الشروق — أو نُتِفا
كأنه — فى الحياة — ما فرع الغصـ   نَ ، فغنَّى عليه ، أو هَتَفا »

ومن يدرى كم قصة رائعة من قصص المعرى لم تصل إلينا لضياعها فيما ضاع من كتبه الكثيرة الخالدة ؟ وثَم أبيات لخص فيها المعرى قصصاً عالية — قبل أن يولد مؤلفوها — أبرع تلخيص ، كتلك الأبيات الثلاثة التى قدمنا بها ترجمة « جلفر » وقد لخص فى البيتين الأولين قصة « جلفر فى بلاد الأقزام والعمالقة » ثم لخص فى البيت الثالث مغزى القصة وروحها ومرمى مؤلفها البعيد ، حتى خيل إلينا أن « سويفت » — مؤلف هذه القصة — قد استوحى خيال المعرى حين كتبها ، واستلهم قوله :

« زعموا رجالا ، كالنخيل جسومهم   ومعـاشراً ، قاماتهم أشـبار
إن يصغروا ، أو يعظموا ، فبقدرة ،   ولربنـا الإعظـام والإكبار
يُستصغر الحى الحقير ، وتحتـه   أمم تَوَهَّمُ أنه جبـــار »

ومن العجائب أننا حين ترجمنا قصة : « القول يبق[4] » لبول إرفييه ، لم نجد مقدمة أجدر بتلخيصها من قول أبي العلاء :

« إن شئت إبليس أن تلقاه منصلتاً   بالسيف يضرب ، فاعمِد للجماعاتِ
تجـدهمُ فى أقاويل مخالفـة   وجه الصواب ، وأسرار مذاعاتِ
يبا كرون بألباب — وإن خلصت —   معصيـة ، وبأهواء مطـاعاتِ
قالوا ، وقلنا : دعاو ، ما تفيد لنـا   إلا الأذى ، واختصاماً فى المداعاة »

---

(١) انظر (ص ١٠١) (٢) ومن أمثلة ذلك ما تراه فى (ص ٥٨٣ — ٥٨٦) وغيرها من صفحات الكتاب (٣) بحجره (٤) ارجع إلى كتاب : « روائع من قصص الغرب »

ولو شاء « برنارد شو » أن يمهد لقصته : « الزّنجية باحثة عن الله » لما رأى فى تلخيصها أبرع من الأبيات المنسوبة إلى المعرى[1] :

« عجبت لكسرى وأشياعه وغسل الوجوه ببول البقر » الخ

*
* *

أما بعد ، فان فى أبى العلاء — من المزايا القصصية الباهرة — ما يكاد يفرده من بين شعراء العربية وكتابها ، وقد كدنا نقول : من بين شعراء الدنيا وكتابها قاطبة . ولا غرو فى ذلك ، فان أكبر ميزات القاص الموهوب موفورة عنده ، تزخر بها نفسه الحاشدة ، « ويتم بها باعه الرحيب » ، فهو — فيما يعرف قراؤه وناقدوه — مستوفز الحس ، واسع الخيال ، رحب الأفق ، شديد التنبه ، وقد عاش فى عصر ازدهرت فيه القصة ، وبلغت شأوًا عظيما . وهو — إلى ذلك — دائم التقليب لوجوه الرأى المتباينة ، كثير المقابلة والموازنة بين فروضها المختلفة وخصائصها المنسجمة والمتفاوتة ، ساحر الأداء ، بارع السخرية ، خلاق معان ، ومستحدث أخيلة . وقل أن تجتمع هذه المزايا كلها فى علَم من أعلام القصة ، إلا سمت به إلى أرفع ذروة فنية .

وقد رأى القارئ — فى هذه اللمحة العابرة — أمثلة من براعته القصصية ، وتطلعه الدائم إلى الرحلات الفكرية ، وعرف كيف سرى بفكره فى مجازات معنوية شاسعة ، يتيه فيها جبابرة العقول . ولم يكن بين المعرى وبين أن يملأ الدنيا قصصا مطولة خالدة ، إلا أن تهيأ له الفرص ، وتخلق لأدبه المناسبات الحافزة ، كمناسبة رسالة الغفران التى أظفرت الأدب العربى منه بهذا الكنز الحافل بأروع الذخائر الفنية العالية ، الباقية — على الدهر — ما بقى الفن وأهله .

كامل كيلانى

(١) ارجع إلى هذه الأبيات فى تاريخ : أبى الفداء (ج ٢ ص ١٧٦)

الجزء الثاني

القسم الأول من الرسالة

الغفران كوميديا إلهية مسرحها الجنة والنار

الغُفْرَان كوميديا إلهيّة مَسرحُها الجَنّة والنّار

تمهيد

وصلت الرسالة[1] التي بحرها بالحكم مسجور[2]، ومن قرأها لا شك مأجور[3]، إذ كانت تأمر بتقيّل الشرع[4]، وتعيب من ترك أصلاً إلى فرع؛ وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من اتساق عقودها الفاخرة؛ ومثلها من شفع ونفع، وقرّب عند الله. وفي قدرة ربنا — جلّت عظمته — أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور؛ ولعلّه — سبحانه — قد نصب لسطورها المنجية من اللهب، معاريج[5] من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء، بدليل الآية:

« إليه يصعد الكلم الطيّب، والعمل الصالح يرفعه »

وهذه الكلمة الطيبة كأنها المعنيّة بقوله: « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. »

وفي تلك السطور كلم كثير، كلّه عند الباري — تقدّس — أثير[6]

---

(١) يعني رسالة ابن القارح (٢) مملوء (٣) مثاب (٤) تقيّل الشرع: اتباعه

(٥) جمع معراج وهو: السلم والمصعد (٦) مقبول، أو مفضل

الفصل الأول

الفـــــردوس

وقد غُرِسَ لمولاىَ الشيخ الجليل — إن شاء الله — بذلك الثناء ، شجرٌ فى الجنةِ لذيذُ اجْتناءٍ ، كلُّ شجرة منه تأْخُذُ ما بين المشرق إلى المغرب بظلٍّ غاطٍ[١] . والْوِلْدانُ الْمُخَلَّدونَ فى ظلال تلك الشجر قيامٌ وقُعودٌ ؛ يقولون — واللهُ القادرُ عَلَى كل شىء عزيزٌ — : « نحنُ وهذه الشجر صِلَةٌ من الله لِعَلِىِّ بن منصور[٢] ، نُخبأُ له إلى نفخِ الصورِ » وتجرى فى أصول ذلك الشجرِ : أنهار تَخْتَلِجُ[٣] من ماءِ الحيوانِ[٤] ، وَالكَوْثرُ يَمُدُّها فى كلِّ أوانٍ ، مَن شَرب مِنها النُّغْبَةَ[٥] فلا مَوتَ ، قد أَمِن هنالك الْفَوْتَ ؛ وَسُعُدٌ[٦] مِنَ اللبنِ مُتَخَرِّقَاتٌ[٧] ، لا تَغَيَّرُ بأَنْ تطولَ الأَوْقاتُ ؛ وَجعافرُ[٨] مِن الرَّحيقِ[٩] المختومِ ، كما قال عَلْقَمَةُ[١٠] :

(١) ظليل (٢) هو ابن القارح (٣) تُنْتَزَع (٤) الحياة (٥) الجرعة (٦) جمع سعيد ، وهو النهر (٧) متفجرات ، ولعل المعنى تخرقت فيها الرياح : أى ليست براكدة ، أو لعله يعنى أنها متسعة ، من تخرق فى الكرم : اتسع فيه (٨) أنهار صغيرة فوق الجداول (٩) أطيب الخمر

(١٠) علقمـــــة الفحـــل

توفى سنة ٥٦١ م

هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمى ، شاعر جاهلى لم يدرك الإسلام . وقد سمى : علقمة الفحل ، من أجل أن يتميز فى الأخبار من شاعر آخر فى قبيلته يسمى : « علقمـة الخصى ابن سهل » أدرك الإسلام وأسلم . وقيل : إنما سمى الفحل لأنه خلَف امرأ القيس على زوجه بعد أن طلقها لتفضيلها علقمة عليه ، حين حكّماها فى أيهما أشعر ؛ وهى قصة تروى كثيراً فى كتب الأدب ببعض الاختلاف ، ونحن نثبتها هنا محررة عن الأغانى ، وموشح المرزبانى ، وفيها مثل من حرية النساء ومنزلتهن من الأدب فى الجاهلية :

تَشْفِي الصُّداعَ وَلا يُؤْذِيهِ صَالِبُهَا[1]   وَلَا يُخَالِطُ[2] مِنْهَا الرَّأْسَ تَدْوِيمُ[3]

لما نزل امرؤ القيس فى طىء ، تزوج امرأة منهم يقال لها أم جندب . وكان مُفرَّكاً : تبغضه النساء إذا وقع عليهن . فأتى أم جندب من الليل ، فأبغضته ، فجعلت تقول : « أصبحْ ليلُ ، يا خير الفتيان أصبحت ، أصبحت ، فقم » فقام ينظر ، فإذا الليل كهيئته ، فقال لها : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : لا شىء ! قال : لتخبرنى ، قالت : « كرهتك ، لأنك ثقيل الصدر ، خفيف العجز ، سريع الهراقة ، بطىء الإفاقة » فلم تزل عنده . فأتاه علقمة بن عبدة ، وكان صديقاً له . فقال أحدهما لصاحبه : أينا أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ؛ فتنازعا وتلاحيا . فقال علقمة : قد رضيت بامرأتك أم جندب حكماً بينى و بينك . فحكماها . فقالت أم جندب لهما : قولا شعراً تصفان فيه الصيد ، على قافية واحدة ، وروى واحد . فقال امرؤ القيس قصيدته التى مطلعها :

« خليـــلىّ مُرَّا بى على أم جُندَب   نُقَضِّ لبانات الفؤاد المعـــذب »

فنعت فيها فرسه والصيد ، حتى فرغ منها .

وقال علقمة : ذهبتَ من الهجران فى كل مذهب   ولم يك حقاً طول هذا التجنب

فقالت أم جندب لامرىء القيس : « فرس ابن عبدة أجود من فرسك . علقمة أشعر منك ! قال لها : وكيف ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط أُلهوب ، وللساق دِرَّة   وللزجر منها وقع أَخْرجَ مِهذَب

(ألهوب : يعنى ألهب جريه حين زجره ، وللساق درة : أى إذا غُمز در بالجرى . والخرج بياض فى سواد ، وبه سمى الأخرج وهو ذكر النعام . ومهذب : أى مسرع فى عدوه) فزجرت فرسك بصوتك ، وجهدته بسوطك ، ومريته فأتعبته بساقك .

وقال علقمة : « فأدركهنّ ثانياً من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب »

فأدرك فرسه الصيد ثانياً من عنانه ، لم يضربه بسوط ، ولم يتعبه » .

فغضب امرؤ القيس ، وقال: ليس كما قلتِ ، ولكنك هو يته . ثم طلقها . فخلفه عليها علقمة.

وقد غنى ابن سريج لعلقمة أبياتاً مطلعها :

« هل ما علمت وما استودعت مكتوم   أم حبلها — إذ نأتك اليوم — مصروم »

وسيمر بك حديثه الخيالى مع ابن القارح فى هذا الجزء . وفيه طائفة من رائع شعره

(١) صالبها : حُمياها (٢) لا يخامر (٣) التدويم : الدُّوار يعقب السكر .

وَيعمِدُ إليها المغترِفُ بِكُؤوسٍ من العَسْجَدِ[1] ، وَأَبارِيقَ خُلقت من الزَّبَرْجَدِ ؛ لو رآها أبو زُبَيْدٍ[2] لعلِمَ أنهُ ما تَشَبَّبَ بخيرٍ ، وَهَزِئَ بقوله :

---

(١) الذهب

(٢) أبو ز بيد

هو حرملة بن المنذر الطائى ، كان نصرانياً ، ومات على دينه ، وهو ممن أدرك الجاهلية والإسلام ، فعد فى المخضرمين .

واسمه (أبو ز بيد) . وقد يسمى (زُبَيْداً) للتمليح ، قال يخاطب أمه :

نفسى فداء أبى وهب وقَلَّ له   يا أم ز بد ، فخلى اليوم أو سيرى

وقد جاء فى الأغانى : يا أم زيد ، وهو تحريف .

ونظير هذا التمليح (الز بير) فقد يسمى (ز برا)

وكانت صفية بنت عبد المطلب أم الز بير بن العوام ترقص ولدها الز بير ، وتنشد :

« كيف رأيت ز برا

أأقطا أو تمــرا ؟

أم قرشيــاً صقـــرا ؟ »

و يروى أن طول أبى ز بيد كان ثلاثة عشر شبراً ، وأنه كان ممن إذا دخل مكة دخلها متنكراً لجماله . وكان من زوار الملوك ، وخاصة ملوك العجم ، عالماً بسيرهم .

وقد اشتهر بوصفه للأسد ، فإنه لقيه أثناء خروجه فى صُيَّابة من أشراف قبائل العرب . فأكثر من وصفه بعد ذلك فى شعره ، حتى لامه قومه ، وقالوا له : قد خفنا أن تسبنا العرب بوصفك له ، فلم يعرض له بعد ذلك حتى مات . وقد قص على عثمان بن عفان قصة لقائه للأسد ، وهى قطعة أدبية من رائع البيان .

وكان أبو ز بيد يشرب الخمر ، ونادم الوليد بن عقبة أيام ولايته الكوفة لعثمان بن عفان . فلما شهد الناس على الوليد بالسكر عند عثمان ، عزله عن الكوفة ، فخرج منها ، فقال أبو ز بيد من قصيدة طو يلة :

« وَأَبَارِيقُ ، مِثْلُ أَعْنَاقِ طَيْرِ الْــــمَاءِ ، قَدْ جِيبَ[١] فَوْقَهُنَّ خَنِيفُ[٢] »

ولو نظر إليها عَلْقَمَةُ لَبَرِقَ[٣] وَفَرِقَ[٤] ، وعلِمَ أنه قد طَرِقَ[٥] . ما ابْنُ عَبَدَةَ وما فَرِيقُهُ ؟ قد خسِرَ وَكُسِرَ إبريقُه . نَظْرَةٌ إلى تلك الأَبارِيقِ خيْرٌ من بنت الكَرْمَةِ العاجِلِيَّةِ ، ومن كل رِيقٍ ضَمِنَتْهُ هذه الدارُ الخادعةُ . ولو بَصُرَ بها عَدِىٌّ بن زَيْدٍ[٦] ، لَشُغِلَ عن المُدامِ وَالصَّيْدِ ، واعترف بأَنَّ

من يخنك الصفاء أو يتبدل   أو يزل مثل ما تزول الظلال
فاعلمَنْ أننى أخوك أخو الو   د حياتى حتى تزول الجبال
ليس بخلاً عليك عندى بمال   أبداً ما أقل نعـــلاً قبال
ولك النصر باللسان و بالكـــف   إذا كان لليدين مصال

وله مع الوليد أقاصيص ، و يروى أنه أوصى بأن يدفن إلى جنبه .

وترجمته الوافية منشورة فى الجزأين الحادى عشر ، والثالث عشر من الأغانى .

(١) شُق أو قدَّ (٢) ثوب غليظ أبيض من الكتان (٣) تحير ، دهش
(٤) اشتد فزعه (٥) ضعف عقله

(٦) عدى بن زيد العبادى

شاعر جاهلى نصرانى ، قبيلته تميم ، وموطنه الحيرة ؛ دخل الأرياف ، فثقل لسانه .

ومن مختار شعره قوله :

« أعاذل ما يدريك أنَّ منيتى   الى ساعة فى اليوم ، أو فى ضحى الغد
ذرينى ، فإنى إنما لى ما مضى   أمامى من مال — إذا خفت عودى
وحمت لميقـــات الىَّ منيتى   وغودرت — ان وسدت أولم أوسد —
وللوارث الباقى من المـال . فاتركى   عتابى ، فإنى مصلح ، غير مفسد »

وقوله من قصيدة أخرى له :

« أيها الشامت المعير بالدهـــــر ! أأنت المبرأ الموفور ؟ »

أَبارِيقَ مُدَامهِ أمرٌ هَيِّنٌ لا يُعـدَلُ بنابتٍ من حَمَصِيصٍ[١] ، أو ما حُقِّرَ من خَرْبَصِيصٍ[٢] . فأَما الأُقَيْشِرُ السَّعْدِيُّ[٣] ، فإِنه قال — ولعله سيندم — :

أَفْنَى تِلَادِى[٤] وَمَا جَمَّعْتُ مِنْ نَشَبٍ[٥]   قَرْعُ الْقَوازِيزِ[٦] أَفْوَاهَ الْأَبَارِيقِ

الى أن يقول :

« وتبينْ رب الخورنق إذ أشـــرف يوماً ، وللهـــدى تفكير
سره حاله وكثرة ما يمـــلك والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه ؛ فقال : « وما غبـــطة حى – إلى الممات – يصير ! »

*
* *

ثم بعد القلاع والملك والأمـــة وارتهم هناك قبـــور
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألـــوت به الصبا والدبور . »

(١) بقلة رملية حامضة (٢) هنة فى الرمل لها بصيص كأنها عين الجراد ، أو نبات له حب يتخذ منه طعام ، والغرض هنا التحقير

(٣) الأقيشر

كنيته أبو معرض . موطنه الكوفة . كان أحمر الوجه فسمى الأقيشر ، وكان خليعاً ماجناً سكيراً ، وهجّاء مقذعاً . يغضب إذا قيل له « يا أقيشر » . ومن أحسن شعره قوله :

« وصهباء جرجانية لم يطف بها   حنيف ، ولم تنفر بها ساعة قدر
أتانى بهـا يحيى ، وقد نمت نومة   وقدغابت الشعرى، وقد خفق النسر
فقلت: اصطبحها، أو لغيرى فاهدها   فما أنا بعد الشيب – ويحك – والخمر
إذا المرء وفّى الأر بعين ، ولم يكن   له دون ما يأتى حياء ولا ستر —
فدعه ، ولا تنفس عليه الذى أتى   و إن جر أرسان الحياة له الدهر . »

(٤) قديمى (٥) مال (٦) جمع قازوزة وهى قدح الشرب

ما هو وما شرابهُ ؟ تقَضَّتْ فى الخائنة آرَابُهُ ! لو عاين تلك الأَباريق لأَيقن أنهُ فُتِنَ بالغرورِ ، وَسُرَّ بغير موجب للسُّرُورِ . وكم عَلَى تلك الأنهارِ مِن آنِيَةِ زَبَرْجَدٍ وَياقوتٍ ، بين أصْفرَ وأحمرَ وَأَزْرَقَ ، يُخَالُ — إن لُمِسَ — أحرَقَ ، كما قال الصَّنَوْبَرِيّ :

تَخَيَّلُهُ سَاطِعًا وَهْجُهُ فَتَأْبَى الدُّنُوَّ إلى وَهْجِهِ

وفى تلك الأنهارِ أوانٍ على هيئةِ الطيرِ السَّابحةِ[١] ، والغَانية عن الماء[٢] السَّائحةِ، فمنها ما هو على صُوَرِ الكَرَاكِيّ ، وَأُخَرُ تُشَاكِلُ المَكَاكِيّ ؛ وعلى خَلقِ طواويسَ وَبطٍّ ، فبعضٌ فى الجاريةِ وبعضٌ فى الشطِّ ؛ يَنبع من أفواهها شَرابٌ ، كأنه — من الرِّقَّةِ — سرابٌ ، لوجرَع منه جَرْعةً الحَكَمِيُّ[٣] لحكم بأنه الفَوْزُ ، وَشهد

---

(١) المائية (٢) البرية

(٣) ترجمة الحكمى « أبى نواس »

سنة ١٤٥ — سنة ١٩٩ هـ

الحسن بن هانئ « الحكمى » ويكنى أبا نواس ، مولده بالأهواز ، ونشأته فى البصرة (انتقل إليها قبل أن يتجاوز الثانية من عمره)

أسلمته أمه الى عطار ، ولكن نفسه كانت لا تميل الى هذه الصناعة ، لميله الشديد الى الشعر ، فكان كثيراً ما يغشى أندية العلم والأدب — حتى مر به الشاعر الماجن الظريف « والبة بن الحباب » — وكان أبو نواس معجباً به على السماع — فصحبه ، وسار معه الى بغداد ، وسنه أكثر من ثلاثين سنه ، فلقى العلماء والشعراء ، حتى نبه اسمه وطار صيته ، وقد اتصل بالرشيد ثم بابنه الامين

ومن مختار شعره قوله فى رثاء الأمين :

طوى الموت ما بينى و بين محمد وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديمها أحاديث نفس - ما لها الدهر - ذاكر

له كلُّ وَصَّافٍ للخمر — من مُحدَث وَعتيقٍ — أن أصنافَ الأشربة المنسوبة إلى الدار الفانية، كَخمرِ عانة وَأَذرعاتٍ وغزَّة وبيتِ رَاس، وما جُلِبَ من بُصْرَى، وما اعتُصِر بصَرْخدٍ أو أرضِ شام، وما تردد ذكره من كُميتِ بابلَ وَصُرَيْفِينَ،

لئن عمرت دور بمن لا أحبهم ، لقد عمرت ممن أحب المقابر
وكنت عليه أحذر الموت وحده فلم يبق لى شىء عليه أحاذر

ومن شعره الذى يمثل نفسه اللاهية الماجنة قوله :

وداهريٍّ سما فى فرع مكرمة من معشر خلقوا — فى الجود — غايات
ناديته بعد ما مال النجوم ، وقد صاح الدجاج — ببشرى الصبح — مرات
فقلت — والليل يجلوه الصباح كما يجلو التبسم عن غر الثنيات — :
« يا أحمد المرتجى فى كل نائبة ! قم سيدى اعص جبار السموات ! »

*
* *

وها كها قهوةً صفراء صافية منسوبة لقرى هِيت وعانات
صدمته بحمياها لأبسطه باللين طوراً ، وبالتشديد تارات
حتى تغنى — وما تم الثلاث له حلو الشمائل محمود السجيات :
« يا ليت حظى من مال ومن ولد أنى أجالس لُبنى بالعشيات »

ومن غزله فى الأمين قوله[1] :

أصبحت صَبًّا ، ولا أقول بمن من خوف من لا يخاف من أحد
ان أنا فكرت فى هواى له حسبت رأسى قد طار عن جسدى
انى — على ما ذكرت من فرق — لَآمِلٌ أن أناله بيدى

---

(١) رووا أنه كان يشرب يوماً مع الأمين ، فنشط للسباحة فلبس ثياب ملاح . ولبس كوثر (خادم الأمين) مثل ذلك . ووقعا فى البركة . فنظر أبو نواس الى بدن محمد . فرأى ما لم ير مثله ، فلما كان من غد ، جاء الحسين بن المنذر مسلما عليه . فلما سأله الحسين عن خبره مع الأمين قال له أبو نواس : « ويلك ! رأيت الفتنة ! » ثم حدثه بخبره وأنشد تلك الابيات ، فقال له : « ويحك اتق الله فى رأسك . فانه إن بلغه ذلك قتلك » فأمسك أبو نواس بعد ذلك .

وما عُمِلَ منْ أجناسِ المُسْكِرَاتِ وما وُلِّدِ من النَّخِيل : إِذَا كانت تلك النُّطْفَةُ[١] مَلِكَةً ، لا تَصْلُحُ أن تكونَ برعاياها مُشتبكةً[٢] . وَيُعَارِضُ تلكَ المُدَامةَ أنهارٌ من عسلٍ مُصفًّى ؛ ما كَسَبَتْهُ النحلُ الغَادِيةُ الى الأنوَارِ ، ولا هو فى مُومٍ[٣] مُتوارٍ ، ولكن قال له العزيزُ القادرُ : « كُنْ » فكانَ .

وَاهاً لذلك عَسلاً لو جعلهُ الشاربُ المَحْرُورُ غذاءَهُ طول الأبد ، ما قُدِّرَ له عَارِضُ مُومٍ[٤] ، ولا لَبِسَ ثوبَ المحمومِ ، وذلك كُلُّهُ بدليلِ الآيةِ : « مَثَلُ الجَنَّةِ الَّتى وُعِدَ المُتَّقُونَ ، فيها أَنْهارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[٥] وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيها مِنْ كلِّ الثَّمَرَاتِ » فليتَ شعرِى عنِ النَّمِرِ بْنِ تَوْلَبٍ العُكْلِيّ[٦] ، هل يُقْدَرُ له أن يذوقَ ذلك الأَرْىَ[٧] ، فيعلَمَ أن شُهْدَ الفانيةِ إذا قِيس إليهِ

---

(١) الماء القليل (٢) متصلة بها أو منسوبة إليها ، والمقصود أن هذه الخمور على جودتها واختلافها لا تمت بصلة إلى خمر الجنة (٣) شمع (٤) مرض شديد الوطأة (٥) آجن : متغير الطعم واللون

(٦) النمر بن تولب العكلى

شاعر جاهلى أدرك الاسلام ، قبيلته عكل ، وقد وفد على النبي ومدحه بشعره ، وكان جواداً ، واسع العطاء ، وهو صاحب البيت المشهور :

أهيم بدعد ما حييت — فان أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

وفى رواية أخرى : « فيا ليت شعرى من يهيم بها بعدى ؟ » والبيت ينسب إلى سواه أيضاً وله مجموعة جميلة يرجع إليها من شاء فى جمهرة أشعار العرب « ص ٢١٦ »

(٧) العسل

وُجدَ يُشَاكِهُ(١) الشَّرْىَ(٢) ، وهو لما وَصَف أُمَّ حِصْنٍ(٣) ذَكَرَ حُوَّارَى(٤) بسمن ، وعسلاً مُصفى ، قال :

« أَلَمَّ بِصُحْبَتِى وَهُمُ هُجُوعٌ   خَيالٌ طارِقٌ مِنْ أُمِّ حِصْنِ
لَهَا ما تَشْتَهِى عَسَلًا مُصَفًّى   -إِذاشَاءتْ-وَحُوَّارَى بِسَمْنِ »

ولو خالط مَنٌّ(٥) من عسل الجِنانِ ما خلقهُ اللهُ سبحانه فى هذه الدارِ الخادعةِ كَالصَّابِ والمَقِرِ(٦) ، لَعُدَّ من اللذائذِ المُرْتَقِياتِ .

*
* *

وإذا مَنَّ اللهُ — تبارك اسمُهُ — بِوُرُودِ تلك الأنهارِ ، صادَ فيها الواردُ سمكَ حَلَاوَةٍ — لَمْ يُرَ مِثْلُهُ — لَوْ بَصُرَ بِهِ أَحْمَدُ بنُ الحُسَيْنِ(٧) لاحتقر الهدية التى

---

(١) يشابه   (٢) الحنظل   (٣) حبيبته   (٤) دقيق ينقى من لباب البر

(٥) المن : كل طل ينزل من السماء على شجر أو حجر و يحلو و ينعقد عسلا و يجف جفاف الصمغ ، والمن كيل أو ميزان يبلغ رطلين وقيل المن شرعاً مائة وثمانون مثقالاً وعرفاً مائتان وثمانون . والمقصود مكيال صغير   (٦) المر

(٧) احمد بن الحسين « المتنبى »

٣٠٣ — ٣٥٤ هـ

اسمه احمد بن الحسين ، لقبه المتنبي ، كنيته أبو الطيب ، ولادته بالكوفة ، وكان أبوه سقاء نشأ أبو الطيب محباً للعلم والأدب ، قوى الحافظة ، فلما ترعرع حمله أبوه الى الشام يتنقل به من باديتها الى حاضرتها ، واستمر فى تلقى العلم ، فأتقن اللغة وتعمق فى معرفة حواشيها وحفظ الكثير من شعر الجاهلية وغيره

نشأ بعيد الهمة ، كبير النفس ، فلم يقنع بالشهرة الأدبية ، بل طمحت نفسه الى السيادة بالفتح ! فدعا الى بيعته قوماً من مريديه من أبناء سنه فبايعوه ، وما كاد يتم له ذلك ، حتى وصل خبره الى والى البلدة ، فقبض عليه وحبسه ؛ ثم أطلقه الوالى بعد حين .

أُهْدِيَتْ إِليهِ، فقال فيها :

فيقال انه خرج الى بنى كلب ، وأقام فيهم وادعى أنه علوى ، ثم ادعى النبوة — وفى هذا كلام كثير ربما عدنا الى مناقشته

قالوا : « ولما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ ، أمير حمص من قبل الأخشيدية ، فقاتله وأسر من كان معه من بنى كلب وغيرهم من قبائل العرب ، وحبسه فى السجن دهراً طويلاً ، حتى كاد يتلف ، فسئل فى أمره ، فاستتابه وكتب عليه وثيقة ، وأشهد فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ؛ وأطلقه . فكان المتنبى كلما ذكر له قرآنه بعد ذلك حاول التنصل من تبعته »

*
* *

ثم اشتهر بالشعر ، فتسابق الملوك الى استدنائه بالجوائز . ومنهم سيف الدولة بن حمدان فقدم عليه المتنبى سنة ٣٣٧ هـ ، ومدحه بكثير من غرر قصائده ، ثم وقع بين المتنبى وابن خالويه النحوى المشهور قول فى مجلس سيف الدولة ، فوثب على المتنبى ، فضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه ، ولم يدافع سيف الدولة عنه .

فغضب المتنبى ، ورحل الى مصر . وتقرب من عدو بني حمدان كافور الإخشيدى سنة ٣٤٦ هـ وامتدحه انتقاماً من سيف الدولة، فأكرمه كافور ، ثم ارتاب فيه لما رأى من كبره وتعاليه ، وقال : « يا قوم ! من ادعى النبوة بعد محمد (صلعم) ، ألا يدعى الملك مع كافور ؟ »

فأم أبو الطيب بغداد ، ثم فارس ، حيث امتدح عضد الدولة ابن بويه الديلمى، فأجزل عطاءه ، وعاد من فارس قاصداً بغداد حيث قتل فى طريقه .

ومن أجمل ما نختاره من شعره قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر   فالآن أقحم حتى لات مقتحم
لأتركن وجوه الخيل عابسة   والحرب أقوم من ساق على قدم
بكل منصلت ما زال منتظرى   حتى أدلت له من دولة الخدم

أَقَلُّ مَا فِي أَقَلِّهَا سَمَكٌ يَلْعَبُ فِي بِرْكَةٍ مِنَ الْعَسَلِ(١)

وقوله من قصيدة أخرى :

« تمرست بالآفات حتى تركتها تقول : « أمات الموت أم ذعر الذعر ؟ »
وأقدمت إقـدام الأتىّ كأن لى سوى مهجتى ، أو كان لى عندها وتر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها فمفترق جاران دارهما العمـر
ولا تحسبن المجـد زقا وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك ، وأن تُرى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك فى الدنيـا دويا ، كأنما تداول سمع المـرء أنمله العشر »

وفيها يقول :

« ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقـر ، فالذى فعل الفقر »

***

وقوله من قصيدة طويلة :

« يا ساقيىّ ! أخمر فى كؤوسكما أم فى كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ؟ مالى لا تغيرنى هذى المدام ، ولا هذى الأغاريد
ماذا لقيت من الدنيا ، وأعجبه أنى بما أنا باك منـه محسود »

وقد ذكرنا نخبة مختارة من شعره الرائع فى كتاب نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى بمناسبة المقارنة التى عقدناها بينه وبين ابن هانىء الشاعر الأندلسى الذى كان يعاصره ، وفى كتابنا « صور جديدة من الأدب العربى » إلمامة تعنى المستزيد فليرجع إليهما من شاء .

(١) هذا البيت من قصيدة له ارتجلها فى صباه حين أهدى اليه عبيد الله بن خلكان هدية فيها سمك من سكر ولوز من عسل ، وأولها :

« قد شغل الناس كثرة الأمل وأنت بالمكرمات فى شغل »

ومنهـا :

« هدية ما رأيت مهديها الا رأيت العباد فى رجل
أقل ما فى أقلها سمك يسبح فى بركة من العسل »

فأمّا الأنهارُ الخمْرِيَّةُ ، فتلعبُ فيها أَسْماكٌ — هِيَ على صُوَرِ السَّمكِ — بَحْرِيَّةٌ وَنَهْرِيَّةٌ ؛ فإذا مدَّ المؤمن يدَهُ الى واحدةٍ من ذلك السَّمك شربَ مِن فِيها عذباً لَوْ وَقعتِ الجُرْعَةُ منهُ فى البحرِ الذى لا يَسْتَطِيعُ مَاءَهُ الشَّارِبُ ، حَلَتْ منهُ أَسَافِلُ وَغَوَارِبُ[1] ،

ندامى الفردوس

وَكَأَنِّى به — وقد استحقَّ تلكَ الرُّتبةَ — وقدِ اصطفَى له ندامَى منْ أُدباء الفِردوْسِ ، كأَخِى ثُمَالَةَ[2] ، وأخِى دَوْسٍ[3] .....

---

(١) الغارب هو الكاهل ، أو ما بين السنام الى العنق ، والمقصود به هنا سطح البحر

(٢) أخو ثمالة « المبرد »

اسمه محمد بن يزيد ، و يكنى أبا العباس، وأخا ثمالة ؛ و يلقب بالمبرد ، صاحب كتاب الكامل الذائع الصيت ؛ وهو الذى يقول فيه الشاعر :

سألنا عن ثمالة كل حى ، فقال القائلون : « ومن ثُماله ؟ »
فقلت : « محمد بن يزيد منهم » فقالوا : « الآن زدتهم جهاله ! »

(٣) أخو دوس « ابن دريد »

٢٢٣ — ٣٢١

اسمه محمد بن الحسن، كنيته أبو بكر ، وموطنه البصرة — ولد ونشأ بها ، وأخذ من علمائها كالرياشى والسجستانى — ثم غادرها الى عمان أثناء فتنة الزنج التى حدثت بها « ارجع الى ديوان ابن الرومى (ج ٣ من ص ٤١٩ — ٤٢٧) » فأقام بها اثنتى عشرة سنة آخذاً اللغة والشعر عن الأعراب ، ورجع إلى البصرة شاخصاً الى فارس منتجعاً الشاه بن ميكال وولده ، وألف لهما كتاب الجمهرة — فى اللغة — فقلداه الديوان ، وقد أبدع فى مدحهما فى مقصورته الخالدة حين قال من كلام رائع :

. . . .

هما اللذان أثبتا لى أملا قد وقف اليأس به على شفا
تلافيا العيش — الذى رنقه صرف الزمان — فاستساغ ، وصفا
وأجر يا ماء الحيا لى رغداً ، فاهتز غصنى بعد ما كان ذوى
هما اللذان سمَوا بناظرى من بعد إغضائى على لذع القذى
هما اللذان عمَرا لى جانبا من الرجاء ، كان قِدما قد عفا

إلى أن يقول :

إن ابن ميكال – الأمير – انتاشنى من بعد ما قد كنت كالشىء اللَّقَى
ومد ضبعىّ أبو العباس ، من بعد انقباض الذرع والباع الوزى

ولما عزلا عن عمالة فارس ، وانتقلا إلى خراسان ، ذهب ابن دريد إلى بغداد سنة ٣٠٨ ﻫ فاحتفى به أهلها ، وأجرى عليه الخليفة « المقتدر » خمسين ديناراً فى كل شهر ، حتى أصيب بالفالج ، ومات سنة ٣٢١ .

ومن الملح التى يرويها عنه بعض من حضر مجالسه ، أنه كان يتضجر ممن يخطىء فى قراءته ، فحضر غلام وضىء ، فجعل يقرأ ويكثر الخطأ — وابن دريد صابر عليه — فتعجب أهل المجلس ، فقال رجل منهم : « لا تعجبوا ، إن فى وجهه غفران ذنوبه » فسمعها ابن دريد ، فلما أراد الرجل أن يقرأ قال ابن دريد : «هات يامن ليس فى وجهه غفران ذنوبه ! » قالوا : « فعجبوا من صحة سمعه مع علو سنه » .

وقال بعضهم فيه :

« من يكن للظباء صاحب صيد فعليه بمجلس ابن دريد
إن فيه لأوجها قيدتنى عن طِلاب العلا بأوثق قيد »

ويروون عنه أنه كان مولعاً بآلات الطرب ، وقد بلغ من حبه الخمر أن سائلا سأله شيئا ، فلم يجد ما يعطيه إلا دن نبيذ ، فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به ، فقال : « ليس عندى سواه » وقرأ قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

قالوا : وأُهدى إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : أُخرجنا دنا فجاءنا عشرة ! » .

. . . .

وأخبـــاره طويلة وحياته حافلة وشعره رائع ؛ وهو جدير أن يعنى الأدباء بأدبه وتفهّم شخصيته الجذابة، عناية خاصة ؛ ومقصورته الطويلة من آيات الشعر العربى . وليس يتسع هذا المقام الضيق إلى التوسع فى ترجمته أو التمثل بشعره الجميل ، غير أننا نكتفى من ذلك بأبيات قلائل تعد بمثابة إشارات إلى خطره العظيم وشاعريته الباهرة ، فمن ذلك قوله — وهو يعد فى رأينا انتباهاً إلى أحد الأسس الثلاثة التى بنى عليها النقادة الفرنسى تين (Taine) نظريته فى تفهم حياة الأدباء ، وهى : « الزمن والبيئة والجنس » — قال :

وكل قرن ناجم فى زمن   فهو شبيه زمن فيـه بدا

ومن أبدع معانيه قوله فى تلك المقصورة أيضاً :

لو كانت الأحـــلام ناجتنى بما   ألقاه يقظان ، لأصمانى الردى
منزلة ، ما خلتهـــا يرضى بهـــا   لنفسه ، ذو أدب ولا حجـــا
شيم سحاب خلب بارقـــه   وموقف بين ارتجـــاء ومنى
فى كل يوم منزل مستوبل   يشتف ماء مهجتى ، أو مجتوى
ما خلت أن الدهر يَثنينى على   ضراء - لا يرضى بها ضب الكدى
أُرمق العيش على برض ، فان   رمت ارتشافا، رمت صعب المنتشى

*
* *

أراجعٌ لى الدهر حولا كاملا   إلى الذى عود ، أم لا يرتجى ؟
يا دهر ! إن لم تك عتبى ، فاتئد ،   فان إروادك والعتبى ســـوا
رفـــهْ علىّ طالمـــا أنصبتنى   واستبق بعض ماء غصن ملتحى

وهنا يقول ويبدع :

لا تحسبن يا دهر أنى ضارع   لنكبـة تعرقنى عرق المُـدى
مارستَ من لو هوت الأفلاك من   جوانب الجو عليـــه ما شكا
لـكنها نفثـــة مصدور - إذا   جاش لغام من نواحيها - غما
رضيت قسرا ؛ وعلى القسر رضًى   من كان ذا سخط على صرف القضا

وَابنِ مَسْعَدَةَ الْمُجَاشِعِيِّ(١) ، وَيونُسَ بنِ حَبِيبٍ الضَّبِّيِّ(٢) ، فهم — كما جاء فى

إن الجديدين – إذا ما استوليا على جديد – أدنياه للبلى
ما كنت أدرى – والزمان مولع بشت ملموم ، وتنكيث قوى –
أن القضاء قاذفى فى هوة لا تستبل نفس من فيها هوى الخ الخ

ونختم هذه المختارات بقوله من قصيدة طويلة ، فياضة بالشاعرية العالية :

وبالشعر يبدى المرء صفحة عقله فيعلن منه كل ما كان يكتم
وسيان من لم يمتط اللب شعره فيملك عطفيه وآخر مفحم
جوانب أرجاء البلاد مطلة تبيد الليالى ، وهى لا تتخرم
ألم تر ما أدت الينا وسيرت على قدم الأيام عاد وجرهم
هم اقتضبوا الأمثال صعبا قيادها فذل لهم منها الشريس الغشمشم
وقالوا : الهوى يقظان ، والعقل راقد وذو العقل مذكور، وذو الصمت أسلم
ومما جرى كالوسم فى الدهر قولهم : على نفسه يجنى الجهول ويجرم
وكالنار فى يبس الهشيم مقالهم : ألا إن أصل العود من حيث يقضم
فقد سيروا ما لا يسير مثله فصيح على وجه الزمان وأعجم

وأحب أن يرجع القارىء الى رثائه فى الجزء الثالث من كتاب الأمالى لأبى على القالى (ص ٢٢٩) ليتبين مكانه فى قلوب معاصريه . ولقد أصاب أبو العلاء وأحسن كل الإحسان حين لقبه بشيخ الأزد ، أثناء استشهاده بشعره فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ؛ وسيمر بك ذلك فى حينه

(١) الأخفش الأوسط

نحوى ، عالم باللغة والأدب ، أخذ العربية عن سيبويه ، وصنف كتباً كثيرة ، منها : كتاب تفسير معانى القرآن

(٢) يونس بن حبيب الضبى

أخذ الأدب عن أبى عمرو بن العلاء ، وحماد بن سلمة ؛ وغلب عليه النحو ، حتى أخذ عنه أبو زيد الأنصارى النحوى ، وخلف الأحمر

الـكتاب العزيز — : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ ، إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ، لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ »

فَصدْرُ أحمدَ بنِ يحيى[١] هُنَالكَ قد غُسلَ من الْحقدِ عَلَى محمدِ بنِ يزيدَ[٢]، فصارا يتصافيانِ ويتوافيانِ ، وأبو بشرٍ عَمرُو بنُ عُثمانَ « سيبوَيْهِ »[٣] قد رُحِضَتْ[٤] سُوَيدَاءُ قلبهِ من الضِّغْنِ على عَلِيِّ بنِ حَمزةَ الـكسائِيِّ[٥] وأَصحابِهِ لِمَا فعلوا بهِ في

وقد عرف عنه شدة التعصب لرؤبة بن العجاج ، حتى إنه كان لا يبالى أن يسىء الى بعض ذوى الرفعة والجاه فى سبيل الذود عن أستاذه رؤبة ، ومن أدلة تعصبه له ، أنه سئل يوماً : « من أشعر الناس ؟ » فقال : « العجاج ورؤبة » فقيل : « لم نعن الرجاز » فقال : « هما أشعر أهل القصيد ، وإنما الشعر كلام ، وأجوده أشعره ! »

ومن مؤلفاته كتاب : « معانى القرآن » وكتاب : « اللغات » وكتاب : « الأمثال »

(١) هو المشهور بثعلب النحوى اللغوى ، وكان بينه وبين المبرد منافاة

(٢) هو أبو العباس المبرد « وقد مرت ترجمته فى ص (١٦) »

(٣) سيبويه

توفى سنة ١٨٣ هـ

اسمه عمرو بن عثمان مولى الحارث بن كعب ، وكنيته أبو بشر ، ولقبه سيبويه — وهى كلمة فارسية معناها « رائحة التفاح » — ونشأته بالبصرة ، وقد أصبحت شهرته فى النحو مضرب الأمثال ، وذاع صيته ونبه شأنه ، ولا سيما بعد كتابه الذى ألفه فى النحو واستبق اليه الناس استباقاً ، وبلغ من إجلال شأنه وإكبار خطره أن أبا عثمان المازنى قال فيه : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً فى النحو — بعد كتاب سيبويه — فليستحِ ! » وقول أبى العباس المبرد — لكل من أراد دراسة هذا الـكتاب — : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيماً لشأنه

وسيبويه أشهر من أن يحتاج الى ترجمة أو تعريف (٤) غسلت

(٥) الكسائى (توفى سنة ١٨٩ هـ)

اسمه على بن حمزة ، ولقبه الكسائى ، وأصله فارسى . وهو أشهر نحاة الكوفة ، أخذ عن

مجلس البَرامكةِ، وأبو عُبيدةَ(١) صافِي الطويّةِ لعبدِ الملكِ بنِ قَريبٍ(٢). «والملائكةُ يدخلون عليهمْ مِنْ كُلِّ بابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» وهو معهم كما قال البكريُّ(٣):

الخليل بن احمد؛ واستقدمه خلفاء بنى العباس والبرامكة إلى بغداد لتعليم أبنائهم. اشتهر بعدائه لسيبويه وكثرة التعريض به. ومما يذكر لهما منازعتهما فى مسألة الزنبور والنحلة وتعصب الأمين للكسائى — مع أن الحق مع سيبويه — لأنه معلمه. وقد فصلنا هذه القصة فى كتابنا «صور جديدة من الأدب العربى» فلاحاجة لذكرها هنا

(١) أبو عبيدة — توفى سنة ٢٠٩ ﻫ.

اسمه: معمر، اسم أبيه: المتنبى التيمى، كنيته: أبو عبيدة

انفرد عن بقية الرواة بسعة حفظه لأخبار العرب وأنسابهم وعلومهم وآدابهم، واشتهر بمناظراته مع الأصمعى فى مجلس الرشيد

وكان متعصباً على العرب؛ وكان يرى رأى الخوارج، وكان لحاناً سبّاباً، وقد أولع بالمثالب حتى إنه ألف فيها كتاباً، ولم ينج من طعنه شريف. وكان شديد الثقة بنفسه، وقد بلغ من مغالاته فى الاعتداد بها، ما أثر عنه من قوله: «ما التقى فرسان فى جاهلية أو إسلام إلا عرفتهما وعرفت فارسيهما»

وهذا كلام يدل على الغرور والخيلاء، على أنه حفظ لنا كثيراً من أخبار العرب التى كانت تضيع: لولا ما تركه من المؤلفات العديدة، وإن كان لم يصلنا منها الا النزر اليسير

(٢) الأصمعى — توفى سنة ٢١٤ ﻫ

اسمه عبد الملك بن قريب، ولقبه الأصمعى، وقبيلته قيس، وموطنه البصرة، وقد قدم إلى بغداد فى أيام الرشيد. كان واسع الرواية، حاضر المحفوظ، متبحراً فى اللغة؛ ولا أدل على ذلك من الكتب التى أفردها خاصة بأسماء الوحوش والإبل والخيل والنبات والشجر، إلى غير ذلك

(٣) أعشى قيس — توفى سنة ٦٢٩ م

اسمه ميمون بن قيس، وكنيته أبو بصير، ولقبه الأعشى، وقبيلته بكر بن وائل، ومسكنه الحيرة، ومن أكبر ما امتاز به شعره أن العرب كانوا يتغنون به — كما كان هو يتغنى بشعره أيضاً —

. . . .

ومن ثَم دعَوه « صناجة العرب » وهو لقب كبير الخطر يدل على ما أحرزه من صيت ورفعة شأن

ولعل أكبر عيوبه أنه كان — فيما يقول مؤرخو الآداب — أول من سن للشعر طريقاً غير محمودة لتكسبه به ، ونحن ننقم عليه هذه الخلة الممقوتة إذا صحت عنه .

أما شعره فرائع فياض بأسمى العواطف والإحساسات ، وهو يمتاز بموسيقية خاصة وروح خفيفة، وأسلوب مشرق بالحياة والقوة . وقد اشتهر بوصفه للخمر ، وكان يشتريها من نصارى الحيرة الذين كان يكثر التردد عليهم والاختلاط بهم ، ويحتمل أن يكون ذلك قد أثر فى عقيدته ، فقد قالوا عنه : إنه كان قدرى المذهب ، واستدلوا على ذلك بقوله :

« استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجلا »

وهذا بيت جامع دقيق يصح أن يكون خلاصة مذهب فلسفى — على إيجازه !

*
* *

أما خطره ، وأثر شعره فى نفوس معاصريه الجاهليين ، فقد وصل إلى أبعد حد ، فقد كان لا يمدح أحداً إلا رفعه ، وأكبر دليل على ذلك حكايته المشهورة مع المحلق ، فقد كانت القافِيَّةُ التى امتدحه الأعشى بها سبباً فى تزويج بناته الثمانى

ولم يغفل أعداء النبى عن هذه الميزة الباهرة التى امتاز بها شعر الأعشى ، فخشوا أن يسلم فيمدح النبى فيذيع أمره ويقبل الناس على دينه ، وعرفوا من الأعشى حبه المال وحرصه عليه ؛ فعزم أبو سفيان وقومه على إغرائه بالرجوع ورصدوه فى طريقه ، فلما وصل إليهم قالوا له : « أين أردت يا أبا بصير ؟ » فقال : « أردت صاحبكم هذا لأسلم » فقالوا : « إنه ينهاك عن خلال ويحرمها عليك ، وكلها لك موافق » قال « وما هن ؟ » فقال أبو سفيان بن حرب : « القمار » قال : « لعلى أن أصبت منه عوضاً عن القمار ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الربا » قال : « ما دنت ولا أُدِّنت ! ثم ماذا ؟ » قالوا : « الخمر » قال : « أوه . أَرجع إلى صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها ! » فقال له أبو سفيان : « وهل لك فى خير مما هممت به ؟ » قال : « وما هو ؟ » قال : « نحن وهو الآن فى هدنة ، فتأخذ مائة من الإبل ، وترجع إلى بلدك — سَنَتَك هذه — وتنتظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه ، كنت قد أخذت خلفا ،

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُرْتَفِقاً[1] وَقَهْوَةً[2] مُزَّةً[3] رَاوُوقُهَا[4] خَضِلُ[5]

لا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهْىَ رَاهِنَةٌ[6] إِلَّا « بِهَاتِ » وَإِنْ عَلُّوا ، وَإِنْ نَهِلُوا

يَسْعَى بِهَا ذُو زُجَاجَاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلِّصٌ أَسْفَلَ السِّرْبَالِ مُعْتَمِلُ[7]

ومستجيبٍ[8] تَخَالُ الصَّنْجَ[9] يُسْمِعُهُ إِذَا تُرَجِّعُ[10] فِيهِ الْقَيْنَةُ الْفُضُلُ[11]

وأبو عُبَيْدَةَ يُذاكِرُهُمْ بوقائِعِ العرَبِ ، وَمقاتِلِ الفرْسانِ ، وَالاصْمعِىُّ يُنْشدُهُمْ ما أحسنَ قائِلُهُ .

وتَهَشُّ نفوسهمْ لِلعَبِ ، فيقْذِفونَ تلك الآنيةَ فى أنهارِ الرَّحيق ، وَيُصَفِّقُها[12] الْماذِىُّ[13] المعترضُ أىَّ تصفيقٍ ؛ وتَقْتَرِعُ[14] تلك الآنيةُ ، فيُسْمَعُ لها أصواتٌ ، تُبْعَثُ[15] بِمثلِها الأمواتُ ، فيقولُ الشيخ : « آه لمصْرَعِ الأعشى مَيمونٍ ! ودِدتُ أنه

و إن ظهر علينا ، أتيته » فقال : « ما أكره ذلك » فقال أبو سفيان : « يا معشر قريش ! هذا الأعشى ، لئن أتى محمد أو اتبعه ، ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل » ففعلوا ، فأخذها ، وانطلق إلى بلده ، فلما قرب من اليمامة سقط عن ناقته ، فدقت عنقه ، ودفن بها .

(١) متلطفاً — مترفقاً ، وقيل المرتفق هو المتكىء على المرفق (٢) خمراً (٣) لذيذة الطعم — فيها مزازة (٤) إناؤها ، وقيل الراووق هو ما يخرج من ثقب الدن (٥) مبتل — ند ، فهو يترشف نداه (٦) معدة ، دائمة لا تنقطع (٧) النُّطَف واحدها نَطَفٌ ، وهو القرط ؛ أما المعتمل فالدائب الخفيف الحركة (٨) قيل هو العود ، تظن أن الصنج أسمعه صوته ، فأجابه العود (٩) نوع معروف من آلات الطرب (١٠) تُصرفه من شدة إلى لين (١١) هى المتفضلة فى ثوب واحد أى المتوشحة به مخالفة بين أطرافه على عاتقها — وقيل هى التى عليها ثوب بلا درع أو التى تحت درعها إزار (١٢) يصفقها : يلطمها ، و يمتزج بها . والمعنى أن الماذى الذى يعترض أنهار الرحيق يلطم الآنية و يمتزج بما فيها (١٣) العسل الأبيض (١٤) يصك بعضها بعضاً (١٥) تحيا بعد الموت

ما صدَّتهُ قريْشٌ لمَّا توجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم[1]، ولو أنه أسلم لجازَ أن يكونَ بيننا فى هذا المجلسِ فَيُنْشِدَنا غريبَ الأوْزانِ ، مما نُظم فى دار الأحزان ، ويُحَدِّثنا حديثه مع هَوْذَةَ بن عَلِيٍّ[2]، وعامر بن الطُّفيلِ[3] وَيزيدَ بنِ مُسْهِرٍ ، وغيرهمْ ممن مدحه أو هجاهُ ، وخافه فى الزمن أو رجاهُ » .

---

(١) ذكرنا قصة ذلك عند ترجمة الأعشى فى الصفحتين ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء

(٢) هوذة بن على

كان ملكاً على اليمامة، وكان نصرانياً فأسلم، ثم ارتد ، وذلك أنه قال : « إن جعل لى محمد الأمر من بعده أسلمت ونصَرته » فقال النبى (صلعم) : « لا ، ولا كرمة ، اللهم اكفنيه » فمات بعد قليل

(٣) عامر بن الطفيل

فارس قيس ، وابن عم لبيد ، كان أعور عقياً . أتى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال له : « أتجعل لى نصف ثمار المدينة وتجعلنى ولى الأمر من بعدك وأسلم ؟ » فقال — صلى الله عليه وسلم — : « اللهم اكفنى عامراً واهد بنى عامر » فانصرف وهو يقول : « لأملأنها خيلا جردا ورجالاً مردا ، ولأربطن بكل نخلة فرساً » فطعن فى طريقه فمات . ومن مختار شعره قوله :

و إنى و إن كنت ابن فارس عامر ... وسيدها المشهور فى كل موكب

فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب

ولكننى أحمى حماهـــا ، وأتقى ... أذاها ، وأرمى من رماها بمنكب

ومن أجمل شعره قوله :

قضى الله فى بعض المـكاره للفتى ... برشد ، وفى البعض الهوى ، ما يحاذر

ألم تعلمى أنى — إذا الإلف قادنى ... إلى الجور — لا أنقاد ، والإلف جائر

نزهة ابن القارح

ثم إنه — أدامَ اللهُ تمكينَهُ — يخْطُرُ له حديثُ شيءٍ كان يُسَمَّى « النزْهَة » في الدار الفانيةِ ، فيركبُ نجيباً(١) من نُجُبِ الجَنَّةِ ، خُلقَ من ياقوتٍ وَدُرٍّ ، في سَجْسَجٍ(٢) بَعُدَ عن الحَرِّ والقُرِّ ؛ فيَسيرُ في الجَنةِ على غير مَنْهجٍ ، ومعهُ شيءٌ من طعام الخُلود ، فإذا رأى نجيبَهُ يَمْلعُ(٣) بين كُثْبانِ العَنْبَرِ ، رفع صوته مُتمثِّلاً بقولِ البَكْريِّ(٤) :

لَيْتَ شِعْرى مَتى تَخُبُّ(٥) بنا النَّا قَةُ بَينَ العُذَيْبِ فَالصَّيْبونِ(٦)
مُحْقِبًا(٧) زُكْرَةً(٨) وَخُبْزَ رَقاقٍ وحِبَاقًا(٩) وَقِطْعَةً مِنْ نونِ(١٠)

حـديث الأعشى

فيَهْتِفُ هاتِفٌ : « أَتَشْعرُ أيها العبد المغفورُ له ، لِمَنْ هذا الشِّعرُ ؟ »

فيقول الشيخ : « نعم ، حدثنا أهلُ ثِقَتِنا عن أهلِ ثِقَتِهِمْ ، أن هذا الشِّعرَ لِمَيْمونِ بنِ قيْسٍ بنِ جَنْدَلٍ » فيقول الهاتفُ : « أنا ذلك الرَّجلُ ، مَنَّ اللهُ عَلَيَّ

---

(١) جملا كريماً (٢) جو معتدل (٣) يسير سيراً سريعاً وخفيفاً (٤) هو الأعشى وقد مرت ترجمته في ص ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من هذا الجزء (٥) الخبب : نوع من سير الإبل (٦) العذيب والصيبون مكانان ببلاد العرب (٧) واضعاً في الحقيبة (٨) زقا صغيراً للخمر (٩) الحباق: الحزمة من القت . وقد شرحها أبو العلاء بقوله : «جرزة البقل» ، ومنه قول الشاعر:

فأتونا بدرمق وحباق وشواء مرعبل وصناب

(١٠) النون : السمك ، ومعنى الأبيات أنه يبدى شوقه الشديد الى ركوب ناقته مسرعة به في رحلتها نحو العذيب والصيبون ، وقد وضع في حقيبته زق خمر صغيراً وخبز رقاق وحزمة من القت وقطعة من السمك ، وهذا هو كل زاده الشهي في تلك الرحلة الجميلة التي يتوق اليها

بعد ما صِرْتُ مِن جَهَنَّمَ على شَفيرٍ ، ويَئِسْتُ من الْمَغفرَةِ » فيلتفِتُ إليهِ الشيخ هَشًّا بَشًّا مُرْتاحاً ، فإذا هوَ بشابٍّ غُرانِق[1] ، وقد صارَ عشاهُ حَوَرًا ، وانْحِناءُ ظَهْرِهِ قَواماً ، فيقول : « سَحَبَتْنِي الزَّبانيةُ إلى سَقرَ ، فرأيْتُ رَجلًا في عَرَصاتِ القيامة يَتَلألأُ وَجْهُهُ تَلألُؤَ القمر ، والناس يَهتِفونَ بِهِ من كل أَوْبٍ[2] : « يا محمدُ ! يا محمدُ ! الشَّفاعةَ ! الشفاعَةَ ! نَمُتُّ بكذا ونَمُتُّ بكذا » فصرخْتُ في أَيْدِي الزَّبانيةِ : « يا محمدُ ، أَغِثْنِي ، فإنَّ لي بكَ حُرْمَةً ! » فقال : « يا عَلِيُّ ! بادِرْهُ فانْظُرْ ما حُرْمَتُهُ » فجاء عَلِيُّ بنُ أبي طالبٍ — صلوات الله عليه — وأنا أُعْتَلُ[3] كيْ أُلْقَى في الدَّرْكِ الأسفلِ مِن النارِ ، فَزَجَرَهُمْ عَنِّي ، وقالَ : « ما حُرْمَتُكَ ؟ » فقلت : « أنا القائلُ :

أَلَا أَيُّهٰذَا السَّائِلِي أَيْنَ يَمَّمَتْ ... فإنَّ لهَا في أَهْلِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا
فَآلَيْتُ لَا أَرْثِي لهَا مِنْ كَلالَةٍ ... وَلَا مِن حَفًى حتى تُلاقي محمَّدَا
مَتَى ما تُناخِي عِنْدَ بابِ ابن هاشِمٍ ... تُرِيحِي وَتَلْقَيْ مِن فَوَاضِلِهِ نَدَا
أَجِدَّكَ[4] لَمْ تَسْمَعْ وَصاةَ محمَّدٍ ... نَبِيِّ الْإِلٰهِ حينَ أَوْصَى وَأَشْهَدَا
إِذا أَنْتَ لم تَرْحَلْ بزَادٍ مِن التُّقَى ... وَأَبْصَرْتَ بَعْدَ الْموْتِ مَن قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لا تَكُونَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لم تُرْصِدْ[5] لِمَا كَانَ أَرْصَدَا[6]

---

(١) جميل (٢) الأوب : الطريق ، ومن كل أوب أي من كل طريق أو من كل جهة
(٣) يُجَرّ بعنف (٤) أجدك - بفتح الجيم وكسرها- أي : أبجد منك هذا ، وهو منصوب على نزع الخافض (٥) أرصد الرقيب أي نصبه على الطريق (٦) معنى الأبيات : أيها السائلي أين تذهب بي ناقتي ، إنها ذاهبة إلى يثرب ، إلى محمد بن عبد الله ، وقد أقسمت لا أريحها ولا أشفق عليها مهما تجد من الإعياء والتعب حتى تبلغ أعتاب هذا النبي الكريم ،

وقد كنتُ أُومِنُ باللهِ وبالحِساب ، وَأُصدِّقُ بالبعث وَأنا فى الجاهلية الجَهْلاء »

فذهب عَلىٌّ إلى النبي — صلى اللهُ عليهِ وسلم — فقال : « يا رسولَ الله ، هذا أَعْشى قيْسٍ : قد رُوِىَ مدحُهُ فيكَ ، وَشَهِدَ أَنَّكَ نَبِىٌّ مُرْسَلٌ » فقال : « هَلَّا جاءَ فى الدارِ السَّابقةِ ؟ » فقال عَلِىٌّ : « قد جاء، وَلٰكنْ صدَّتْهُ قُرَيْشٌ وَحُبُّهُ للْخَمرِ(١) » فشفع لى ، فَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ على أن لا أَشْربَ فيهـا خمراً ، فقَرَّتْ عيْنايَ بذلكَ . وإنَّ لِى منادِحَ(٢) فى العسلِ وماءِ الحيوانِ(٣) ، وكذلكَ منْ لَمْ يتُبْ منَ الخمرِ فى الدنيا لَمْ يُسْقَهَا فى الآخرةِ

حديث زُهير بن أبى سُلمى

وَينظرُ الشيخُ فى رياضِ الجنةِ ، فيَرَى قصريْنِ مُنيفينِ(٤) فيقول فى نفسهِ : « لَابلُغنَّ هذيْنِ القصريْنِ ، فأَسأَلُ : لمن هُمَا ؟ » فإذا قرُبَ منهمَا ، رأَى عَلَى أَحدِهمَا مكتوباً : « هذا القصرُ لزهَيْرِ بْنِ أَبِى سُلْمَى الْمُزَنِىِّ(٥) » وعَلَى الآخرِ :

فإذا انتهت الى بابه رأت من كرمه وفواضله ما ينسيها كل ما لقيته من الجهد والنصب . وأنت ، ألم يبلغك بر بك ما أوصى به هذا النبي لتدرك السبب الذى حفزنى الى لقائه ، لقد حث على التزود من التقى والعمل بما أتى به من التشريع السامى ؟ و بيّن مآل المتهاونين فى تنفيذ تلك الوصايا الحكيمة ومقدار ما يلحق المفرطين من الندم الشديد حين يرون ما يزف من الخير – فى الدار الآخرة – الى من أطاعه وعمل بنصائحه فى الدار الأولى

(١) ارجع الى ص٢٢و٢٣ (٢) جمع مندوحة ، أى سعة أو غنية (٣) ماء الحياة (٤) عاليين

(٥) زهير بن أبى سلمى

توفى سنة ٦٣١ م أى قبل البعثة بسنة

هو من مزينة — إحدى قبائل مضر — وقد اشتهرت أسرته بالشعر ، واشتهر بمدحه هرم ابن سنان ، كما اشتهر بالتفوّق فى إجادة الحكم ، مع الصدق وعدم المبالغة ، والبعد عن المعاظلة

فى الكلام ، وتجنب حوشى اللفظ ، ومن خير شعره قوله من معلقته :

سألنا فأعطيتم ، وعدنا فعدتم ، ومن أكثر التسآل - يوماً - سيحرمِ
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته — أو نقصه — فى التكلمِ
• لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

. . . .

سئمت تكاليف الحياة ، ومن يعش ثمانين حولا — لا أبالك — يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عَمِ
رأيت المنايا خبط عشواء ، من تصب تمته ، ومن تخطئْ يعمر فيهرم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ، ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه ، يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ، ومن يهد قلبه إلى مطمئن البر لا يتجمجم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يعص أطراف الزجاج ، فإنه يطيع العوالى ، ركبت كل لهذم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة - وإن خالها تخفى على الناس - تعلم

وقوله من قصيدة أخرى :

أرونا خطة لا ضيم فيها يسوى بيننا فيها السواء
فإن ترك السواء ، فليس بيني وبينكم - بنى حصن ! - بقاء
فإن الحق مقطعه ثلاث : يمين ، أو نفار ، أو جلاء

وقوله :

ألا ليت شعرى ! هل يرى الناس ما أرى من الأمر ؟ أو يبدو لهم ما بدا ليا ؟

. . . .

بدا لى أن النـاس تفنى نفوسهم وأموالهم ، ولا أرى الدهر فانيا
وأنى متى أهبط من الأرض تلعة أجد أثراً قبـلى جديداً وعافيا
أرانى — إذا أمسيت — أمسيت ذا هوى فثم — إذا أصبحت — أصبحت غاديا
إلى حفرة أهوى إليهـا مصمة يحث إليهـا سائق من ورائيا *

*\
* *

بدا لى أن الله حق فزادنى إلى الحق تقوى الله ، ما كان باديا
بدا لى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئاً إذا كان جائيا
وما إن أرى نفسى تقيها منيتى وما إن تقى نفسى كرائم ماليا

وقوله :

ولا تـكثر على ذى الضغن عتبا ولا ذكر التجرم للذنوب
ولا تسأله عمـا سوف يبدى ولا عن عيبه لك فى المغيب
متى تك فى صديق أو عدو تخبرك الوجوه عن القـلوب

وقوله :

وذى نسب ناء بعيد وصلته بمال ، وما يدرى بأنك واصله
وذى نعمة تممتهـا وشكرتها وخصم يكاد يغلب الحقَّ باطله
دفعت بمعروف من القول صائب إذا ما أضل الناطقين مفاصله
وذى خطل فى القول ، يحسب أنه مصيب ، فما يلمم به فهو قائله
عبأت له حلماً وأكرمت غيره وأعرضت عنه وهو باد مقـاتله

وقوله :

إن كنت لا ترهب ذمى ، لمـا تعرف من صفحى عن الجاهل
فاخش سكوتى — إذ أنا منصت فيك لمسموع خنـا القائل
السامع الذم شريك له ومطعم المأكول كالآكل
مقـالة السوء إلى أهلهـا أسرع من منحـدر سـائل

الأَسَدِىّ[١] » فيعجَبُ من ذلك ويقولُ : « هذَانِ ماتَا فى الْجَاهليَّة ، وَلَكِنْ

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق و بالباطل
فلا تَهِجْ – إن كنت ذا إربة – حَرْب أخى التجربة العاقل
فإن ذا العقل – إذا هجته – هجت به ذا خبل خابل
تبصر من عاجل شداته عليك غب الضرر الآجل

وهذه القصيدة تنسب لزهير مرة ، ولمحمد بن حازم الباهلى أخرى

(١) عبيد بن الابرص الأسدى
توفى سنة ٥٥٥ م

قبيلته مضر، وهو من بنى أسد ، عمر طويلا حتى قتله المنذر بن ماء السماء حين ورد عليه فى يوم بؤسه . وتفصيل ذلك أن المنذر غضب يوما، فقتل نديمين له من بنى أسد ؛ فلما أصبح ندم ، فبنى على قبريهما ضريحين أسماهما : الغريين ، وجعل لنفسه يومين فى السنة يجلس فيهما هناك – أسمى أحدهما يوم النعيم والآخر يوم البؤس ؛ فكان أول من يطلع عليه فى يوم النعيم يعطيه مائة من الإبل ، وأول من يطلع عليه فى يوم البؤس يقتله و يطلى بدمه الغريين . وقد اتفق أن جاءه عبيد فى يوم بؤسه فقتله

ومن مختار شعره قوله :

لكل ذى غيبة إياب وغائب الموت لا يؤوب

وقوله :

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

وأكثر أبيات معلقته غير جار على الوزن العربى المعروف ؛ واختلال الوزن فيها واضطرابه ظاهران . كقوله :

أفلح بما شئت قد يبلغ بالضعـ ـف وقد يخدع الأريب

وقد أشار أبو العلاء إلى ذلك فقال :

وقد يخطىء الرأى امرؤ – وهو حازم – كما اختل فى وزن القريض عبيد

رَحْمَةُ رَبِّنا وَسِعَتْ كُلَّ شيءٍ، وسوفَ أَلْتَمِسُ لقاءَ هذين الرجلَيْن، فأَسْأَلُهُما: «بِمَ غُفِرَ لهُما؟» فيبتَدِئُ بزهيرٍ، فيجدُهُ شابًّا كالزَّهرةِ الجَنِيَّةِ، كأَنه ما لبس جِلبابَ هرَمٍ، ولا تأَفَّفَ من البَرَمِ(١)، وكأَنه لم يقل في المِيمِيَّةِ:

«سَئِمتُ تَكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يَعِشْ ثمَانِينَ حَولاً – لا أَبالَكَ – يَسْأَمِ»

وَلم يَقلْ في الأُخرى:

«أَلم تَرَنِي عُمِّرْتُ تِسعينَ حِجَّةً وَعشْرًا تِباعًا عِشْتُها وَثمَانِيَا»

فيقولُ: «جَيْرِ، جَيْرِ(٢)، أَنت أَبو كعبٍ وَبُجَيْرْ!» فيقولُ: «نَعمْ» فيقولُ «بِمَ غُفِرَ لك، وقد كنتَ في زمانِ الفترَةِ والناس هَمَلٌ، لا يَحسنُ منهم العملُ؟» فيقول: «كانت نفسي من الباطلِ نَفوراً، فصادفتُ مَلِكاً غفوراً؛ وكنتُ مؤْمناً بِاللهِ العظيم، ورأَيتُ فيما يرى النائمُ جبلاً نزل من السماء فمن تعلق به من سكانِ الأرض سَلِمَ. فَعلِمتُ أَنهُ أَمرٌ من أَمرِ اللهِ، فَأَوصيتُ بَنِيَّ وقلت لهم عند الموتِ: «إِن قام قائمٌ يدعوكم إِلى عبادةِ اللهِ فأَطيعوهُ» ولوْ أَدركتُ «محمداً» لَكنتُ أَوَّلَ المؤْمنينَ. وقلتُ – في الميميَّةِ – والسفهُ ضاربٌ بالجِرانِ(٣) –:

وتعليل هذا الاختلال والاضطراب في نظرنا، أنه كان – فيما نظن – يوقع القصيدة على نغمة خاصة به، غير تلك التي كان يوقع عليها سواه من العرب، فلو اهتدينا إلى طريقة إنشاده الخاصة، والأسلوب الذي كان يغني به هذا الوزن الجديد، لما أحسسنا في معلقته بشيء من الشذوذ الذي نحسه فيها اليوم

ومما يتمثل به من شعره بيته الرائع قوله:

لا أعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زاداً

(١) الضجر (٢) نعم، نعم (٣) الجران: مقدم عنق الناقة، والضرب بالجران كناية عن الإقامة

فَلاَ تَكْتُمُنَّ اللهَ مَا فِي نُفُوسِكُمْ ... لِيَخْفَى، وَمَهْمَا يُكْتَمِ : اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ حِسَابٍ، أَوْ يُقَدَّمْ فَيُنْقَمِ (1)

فيقول : أَلستَ القائلَ :

وَقَدْ أَغْدُو عَلَى ثُبَةٍ (2) كِرَامٍ ... نَشَاوَى (3) وَاجِدِينَ لِمَا نَشَاءُ
يَجُرُّونَ الْبُرُودَ وَقَدْ تَمَشَّتْ ... حُمَيَّا (4) الْكَأْسِ فِيهِمْ وَالْغِنَاءُ (5)

أَفأُطلقتْ لكَ الخمرُ كغيرك من أصحاب الخلود، أَم حُرِّمت عليك مثلما حُرِّمت على أعشى قيسٍ ؟ » فيقولُ زهيرٌ : « إِنَّ أَخَا قيس أدرك محمداً ، فوَجبتْ عليه الْحُجَّةُ ، لأنه بُعِثَ بتحريم الخمر وحَظْرِ ما قبُحَ ، وَهَلكتُ أنا والخمر كغيرها من الأشياء ، يشربُها أتباعُ الأنبياء . فلا حجَّةَ عليَّ » فيدعوهُ الشيخُ إلى المنادمة ، فيجدهُ من ظِرَاف الندماء ، فيسأله عن أخبار القدماء .

حديث عبيد

ثم ينصرفُ إلى « عَبيدٍ » فاذا هو قد أُعطِيَ بقاءَ التأبيد (6) ، فيقولُ : «السلام عليكَ يا أَخا بنى أَسَدٍ » فيقول : « وعليك السلام — (وأهلُ الجنة أذكياء) — لعلك تريدُ أن تسأَلَنِى بِمَ غُفِرَ لى ؟ » فيقول : « أَجَلْ . وإِن فى ذلك لعجباً ! »

---

(1) يقول : اتركوا الرياء فلا فائدة منه ، ولا تخفوا ما تضمرون ، فإن الله عليم بذات الصدور ، وهو مُجازٍ كل إنسان بما يضمره عاجلاً أو آجلاً (2) جماعة (3) سكارى (4) حميا الكأس : سورتها وشدتها ، أو إسكارها وأخذها بالرأس (5) معنى البيتين : ويا رب مجلس أنس غدوت اليه فنعمت فيه بمنادمة إخوان كرام صفا بهم وقتنا ، واكتمل بجمعهم أنسنا ، ولم ينقصنا شىء من جالبات السرور ، وقد تمكنت سورة الخمر من رءوس هؤلاء الندامى ، فمشوا مترنحين يختالون فى أبرادهم (6) التأبيد : الخلود

فيقول عبيدٌ : « إنى دخلتُ الهاويةَ ، وكنتُ قلتُ فى أيام الحياة :

من يَسألِ الناس يَحرموه　　وسائلُ اللهِ لا يَخيبُ

وسارَ هذا البيتُ فى آفاقِ البلادِ ، فلم يزلْ يُنشَدُ ويَخفُّ عنى العذابُ ، حتى أُطلقتُ من القيودِ والأصفادِ ؛ ثم كُرِّرَ إلى أن شَمِلتنى الرَّحمةُ ببركة هذا البيتِ . « وَإِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ رَحيمٌ »

فَإذا سمعَ الشيخُ ما قال ذانِكَ الرَّجُلان ، طَمِعَ فى سلامةِ كثيرٍ مِن أصناف الشعراء .

حديث عدى بن زيد[1]

فيقولُ لِعَبيدٍ : « أَلكَ علمٌ بِعَدِىٍّ بنِ زَيْدٍ العِبَادِىِّ ؟ فيقولُ : « هذا منزلُهُ قريباً منكَ . » فيقِفُ عليهِ ، فيقولُ : « كيفَ كانتْ سلامتُكَ عَلَى الصراطِ ؟ » فيقولُ : « إنِّى كنتُ عَلَى دِينِ المسيحِ ، وَمنْ كانَ مِنْ أَتباعِ الأنبياء قبلَ أن يُبْعَثَ « مُحَمَّدٌ » فلا بأسَ عليهِ ، وإنما التَّبعةُ عَلَى منْ سجدَ للأَصنامِ » .

فيقولُ الشيخُ : « لقدْ هممتُ أن أَسأَلَكَ عنْ بيتِكَ الذى استَشهَدَ بهِ سِيبَوَيْهِ وهوَ قولُكَ :

أَرَوَاحٌ مُوَدِّعٌ أَمْ بُكُورُ　　أَنْتَ فانْظُرْ لِأَىِّ حَالٍ تَصِيرُ

فإنهُ يَزْعُم أَنَّ (أَنْتَ) يجوز أَن تُرْفَعَ بفعل مُضمرٍ يفسره قولُكَ : فانْظُرْ ، وأنا أستبعدُ هذا المذهبَ ولا أظنُّكَ أردتَهُ » فيقولُ عَدِىُّ بنُ زَيْدٍ : « دَعْنى مِن هذه الأباطيل ! »

---

(١) انظر ترجمته فى ص ٨

« ولكنى كنتُ فى الدار الفانيةِ صاحبَ قَنَصٍ ، فهل لك أن نَرْكَبَ فَرَسَيْنِ من خيلِ الجَنَّة ، فَنبعَثَهما عَلَى صِيرَانها[١] ، وخِيطانِ[٢] نَعامِها ، وأسرابِ ظِبائها ، وعاناتِ[٣] حُمُرِها ، فإن للقَنيصِ لَذّةً ! » فيقول الشيخ : « إنما أنا صاحبُ قلمٍ ، ولم أكُن صاحبَ خَيْلٍ ! وما يُؤمِنُنى إذا رَكِبْتُ طِرْفاً — وأنا كما قال القائلُ :

لَمْ يَرْكَبوا الخَيْلَ إلّا بَعْدَ ما كَبِرُوا فَهُمْ ثِقالٌ عَلَى أكْتافِها عُنُفُ

أن يَلحَقَنى ما لَحِقَ صاحبَ المُتَجَرِّدَةِ لَمّا حُمِل على اليَحْموم ؟ ويجوز أن يَقْذِفَنى السّابحُ[٤] على صخورِ زُمُرُّدٍ ، فيكسِرَ لى عَضُداً أو ساقاً ، فأصيرَ ضُحْكَةً فى أهلِ الجِنانِ ! » فيبتَسِمُ عَدِيٌّ ، ويقولُ : « وَيْحَكَ ! أما علِمْتَ أن الجَنة لا يُرْهَبُ لديْها السَّقَمُ ، ولا تَنْزِلُ بِسَكْنِها النِّقَمُ ؟ » فيَرْكَبانِ سابحَيْنِ من خَيلِ الجَنةِ ، مَرْكَبُ كلٍّ واحدٍ مِنْهُما لو عُدِلَ بِمَالِكِ العاجلَةِ مِن أوّلها إلى آخِرها لرَجَحَ بها[٥] ، وزاد فى القيمَةِ عليها ، فإذا نظر إلى صِوارٍ[٦] تَرْتَعُ فى رِياض الفِرْدَوْسِ ، صَوَّبَ الشيخ الرُّمْحَ لِأَخْنَسَ[٧] ذَيَّالٍ[٨] ، فإذا لم يبقَ بين السِّنانِ وبينه إلاّ قِيدُ ظُفْرٍ ، قال : « أَمْسِكْ — رَحِمَكَ اللهُ — فإنى لَسْتُ من وَحْشِ الجَنة التى أنْشَأَها اللهُ سبحانه ، ولم تكن فى الدار الزائلةِ ، ولكنى كنتُ أرُوضُ فى

---

(١) الصيران جمع صيار وهى لغة فى صوار ، والصوار بالضم (ويكسر) : القطيع من بقر الوحش (٢) جماعات النعام (٣) العانة : القطيع من حمر الوحش (٤) الحصان الذى إذا جرى صار كأنه يسبح (٥) فى اللغة : رجح الشىء الشىء : زاد وزنه عليه . وفيها أيضاً : راجحه فرجحه ، أى وازنه فكان أكبر منه وزناً . ولم نجد رجح به فيما بين أيدينا من كتب اللغة — فلعله تجوّز فى التعدية (٦) جماعة من بقر الوحش (٧) ثور وحشى (٨) طويل الذيل

بعض القِفارِ، فمرَّ بي رَكْبٌ مؤمنون قد أكْرَى[1] زادُهمْ، فصرعوني، واستعانوا بي على السفر، فعوَّضَنيَ اللهُ بأن أسكنني في الخُلود». فيَكُف عنه الشيخ، ويَعْمِدُ لِعِلْجٍ[2] وَحْشِيٍّ، ما التَّلَفُ عنده بِخَشِيٍّ؛ فإذا صار الخَرْصُ[3] منه بقدرِ أنْمُلَةٍ قال: «أمْسِكْ يا عبدَ اللهِ، فإنَّ اللهَ أنعمَ عليَّ ورفع عني البُؤْسَ؛ وذلك أني صادَنِي صائدٌ بِمِخْلَبٍ، وكان إهابي[4] له كالسَّلَبِ[5]؛ فباعه في بعضِ الأمصار، فاتُّخِذَ منه غَرْبٌ[6]، شُفِيَ بمائه الكَرْبُ، وتطهَّرَ بِنَزِيعِهِ[7] الصالحون، فشمِلَتْنِي بَرَكَةٌ من أولئك، فدخلتُ الجنة ارْزَقُ فيها بغير حسابٍ» فيقول الشيخُ: «فينبغي أن تَتميَّزْنَ، فمن كان منكُنَّ دخل الفانيةَ، فما يجب أن يختلطَ بوحوش الجنة» فيقولُ ذلك الوَحْشِيُّ: «لقد نَصَحْتنا نُصْحَ الشفيق، وسوف نَمْتَثِلُ ما أمَرْتَ».

حديث الهُــذَلي[8]

وينصرِفُ مولايَ الشيخُ وصاحبُهُ عَدِيٌّ، فإذا هُما برَجُلٍ يَحْتَلِبُ ناقةً في إناءٍ من ذَهَبٍ، فيقولانِ: «مَنِ الرَّجُلُ؟» فيقولُ: «أبو ذُؤَيْبٍ الهُذَلِيُّ»،

---

(١) أكْرَى: زاد ونقص — ضد — والمراد هنا النقصان (٢) العلج: الحمار (٣) الخرص — بفتح الخاء وكسرها —: السنان أو الرمح القصير (٤) جلدي (٥) ما يسلبه الرجل من قرنه (٦) الغرب: الدلو العظيمة (٧) ما ينتزع من الماء

(٨) أبو ذؤيب الهذلي

اسمه خويلد بن خالد، وهو شاعر جاهلي إسلامي، خرج مع عبد الله بن الزبير في غزوة فمات ومما يروونه عنه أنه كان يهوى امرأة من قومه؛ وكان قد وجه رسولاً إليها من قومه يقال له خالد بن زهير، فخانه، فقال:

فيقولانِ : « حَيِيتَ وَسَعِدْتَ ، أَتَحْتَلِبُ مع أَنْهارٍ من لبَنٍ ! » فيقولُ : « لا بأْسَ . إنما خَطرَ لى ذلك ، مِثْلَما خطرَ لكما الْقَنَصُ ، وإنى ذَكَرْتُ قَوْلى فى الدهر الأَوَّلِ :

تريدين كيما تجمعينى وخالدا ... وهل يجمع السيفان – ويحك – فى غمد
أخالد ! ما راعيت منى قرابة ... فتحفظني فى الغيب أو بعض ما تبدى

ومن غريب المصادفات أن أبا ذؤيب هذا كان قد خان فى هذه المرأة ابن عمه « مالك بن عويمر » فانتهز خالد هذه المناسبة ليعيره بها ، ويتخذ منها تكأة يبرر بها خيانته ، فقال :

فلا تجزعن من سنة – أنت سِرْتَهَا – ... وأول راض سنة من يَسيرها
وكنت إماماً للعشيرة ، تنتهى ... إليك – اذا ضاقت بأمر صدورها
ألم تنتقذها من ابن عويمر ... وأنت صفى نفسها ووزيرها ؟

وفى هذه الأبيات تهكم لاذع وسخرية قاتلة ؛ وفيها أيضاً مهارة وافتنان فى إظهار هذا التهكم ، وفيها حجة مفحمة لا تقبل النقض . وأنَّى يتنصل ، و بأى حق يجزع من معاملة الناس بمثل ما عاملهم به ؟ أليس من أصدق الصدق قوله : « وأول راض سنة من يسيرها » ! نعم ولا نحسب القارىء فى حاجة إلى تنبيهه إلى ما فى البيتين الآخرين من الجمال والفن !

ومن مختار شعر أبى ذؤيب قوله لخالد بن زهير هذا ، وهو من أجود الشعر :

فما حمل البختى – عام غياره – ... عليه الوسوق برها وشعيرها
بأكثر مما كنت حملت خالداً، ... وشر أمانات الرجال غرورها !

إلى أن يقول :

فإن حراماً أن أخون أمانة ... وآمن نفساً ليس عندى ضميرها
أحاذر – يوماً – أن تبين قرونتى ... ويسلمها إخوانها ونصيرها
وما يحفظ المكتوم من سر أهله ... إذا عقد الأسرار ضاع كبيرها
من الناس ، إلا ذو وفاء يعينه ... على ذاك منه صدق نفس وخيرها

*
* *

رعى خالد سرى ليالى نفسه ... توالى على قصد السبيل أمورها

وَإِنَّ حَدِيثًا مِنْـكِ لو تَعْلَمِينَهُ ... جَنَى النَّحْلِ فى أَلْبَانِ عُوذٍ[1] مَطَافِلِ

مَطافيلَ أَبْكَارٍ حَدِيثٍ نِتاجُها ، ... تُشَابُ بِمَاءٍ مِثْلِ ماءِ الْمَفاصِلِ[2]

فَقَيَّضَ اللهُ بقُدْرَتِهِ لى هذه النَّاقةَ مُطْفِلًا ، فقُمْتُ أَحْتَلِبُ على العادة . وَأُرِيدُ أن أشوبَ ذلك بضَرَبِ[3] نَحْلٍ . » فإذا امْتلَأ إناؤُهُ من الرِّسْلِ[4]، كَوَّنَ الْبَارِئُ — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — خَلِيَّةً من الْجَوْهَرِ ، رَتَعَ ثَوْلُها[5] فى الزَّهَرِ ؛ فَاجْتَنَى ذلك أبو ذُؤَيْبٍ ومزَجَ حَلِيبَهُ ، فيقولُ : « أَلا تَشْرَبانِ ؟ » فيَجْرَعانِ من ذلك الْمِحْلَبِ[6] جُرَعًا لو فُرِّقَتْ عَلَى أَهْلِ « سَقَرَ » لفازُوا بالْخُلْدِ ، فيقولُ عَدِيٌّ : « الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانا لِهَـذَا وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلاَ أَنْ هَدَانا اللهُ ، لقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ . وَنودُوا : أَنْ تِلْـكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ »

حديث النابغتين

ويمضى فى نُزْهَتِهِ تلك بشابَّيْنِ يَتحادَثانِ ، كلٌّ واحدٍ مِنْهُما على باب قَصْرٍ من دُرٍّ ، قد أُعْفِيَ من الْبُؤْسِ والضُّرِّ ؛ فيُسَلِّمُ عليهما ويقولُ : « مَنْ أَنْتُما ؟

فلما تراماه الشباب وغيـه ... —وفى النفس منه غدرة وفجورها—

لوى رأســه عنى ، ومال بوده ... أغانيج خود كان قدما يزورها

تعلقه منها دلال ومقـلة ... تظل لأصحاب السقام تديرها

(١) جمع عائذ، وهى القريبة العهد بالنتاج (٢) ماء المفاصل: هو الماء بين جبلين من رمل ورضراض ، وهو من أصفى أنواع المياه وأعذبها ، ومعنى البيتين : إن لأحاديثك الجميلة لذة عظيمة أجدها فى نفسى ، وعذوبة لا يماثلها إلا عذوبة الشهد امتزج بأصفى ألبان الإبل (٣) الضرب : العسل (٤) اللبن (٥) الثول : جماعة النحل (٦) إناء اللبن

— رَحِمَكُما اللهُ — وقد فَعَلَ[1] » فيقولانِ : « نَحْنُ النَّابِغتانِ : نابغَةُ بنى جَعْدَةَ[2] ونابغةُ بنِى ذُبْيَانَ »

---

(١) أى قد رحمهما الله بإدخالهما الجنة

(٢) النابغة الجعدى — توفى سنة ٥٨ هـ بأصبهان

كنيته أبو ليلى ، ولقبه النابغة الجعدى ، وهو قيس بن عبد الله الجعدى ، شاعر مخضرم ، اشتهر بوصف الخيل و إنكار الخمر فى الجاهلية وهجر الأزلام والأوثان ، وقد عمر فى الاسلام حتى شهد مع علىٍّ وقائع صفين ، وظاهره بيده ولسانه

وشخصية الجعدى من الشخصيات الجذابة ، وشعره جميل يزينه الصدق والدقة وعزة النفس . ومن أجمل ما نختاره منه رائيته المشهورة التى مدح بها النبى (ص) حين وفد عليه ، وفيها يقول :

ولا خير فى حلم ، إذا لم يكن له   بوادر ، تحمى صفوه أن يكدرا

ولا خير فى جهل ؛ إذا لم يكن له   حليم – إذا ما أورد الحلم أصدرا

وهذا أبرع وأشمل من بيت المتنبى الذى اقتبس فيه هذا المعنى فقال :

ووضع الندى – فى موضع السيف – بالعلى   مضر ، كوضع السيف فى موضع الندى

وما أروع ما قاله الجعدى فى تلك القصيدة :

و إن جاء أمر لا تطيقان دفعه   فلا تجزعا مما قضى الله ، واصبرا

ألم تريا أن الملامة نفعها   قليل ، إذا ما الشىء ولى وأدبرا

تهيج البكاء والندامة ، ثم لا   تغير شيئاً غير ما كان قدرا

إلى أن يقول :

و إنا لقوم ، ما تعود خيلنا   – إذا ما التقينا – أن تحيد وتنفرا

*
* *

وعند ما تولى معاوية الخلافة ، كتب إلى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله ، فدخل النابغة على معاوية — وعنده مروان — وأنشد أبياتاً ؛ من أروعها وأدلها على إبائه وشجاعته ، وأدقها فى تصوير نفسه العالية وشاعريته الفياضة — قوله :

فيقولُ — ثَبَّتَ اللهُ وَطْأَتَهُ — :

« أَمَّا نابغةُ بنى جَعْدَةَ ، فقد استوْجَبَ ما هو فيه بالْحَنيفيَّةِ[1] ، وَأَمَّا أنت يا أَبا أُمامةَ[2] فما أدرِى ما جهَتُكَ ؟ » فيقولُ الذُّبْيانِيُّ[3] : « إِنى كنت مُقِرًّا بالله ، وَحَجَجْتُ البيتَ فى الْجاهِلِيَّة ، أَلَمْ تسمعْ قَوْلِىَ :

و إن تأخذا أهلى ومالى بظِنة　　فإنى لحـرّاب الرجال محـرب

صبور على ما يكره المرء كله　　سوى الظلم ، إنى — إن ظلمت — سأغضب

فارتاع معاوية ، والتفت إلى مروان ؛ فقال : « ما ترى ؟ » قال . « أرى ألا ترد عليه شيئاً » قال : « ما أهون والله عليك أن ينجحر هذا فى غار ، ثم يقطع عرضى علىّ ، ثم تأخذه العرب فترويه ، اردُد عليه كل شيء أُخذته ! »

وستمر بك تلك المشاجرة « الخيالية » التى وقعت بينه و بين الأعشى فى الجنة ، وهى تمثل شجاراً عنيفاً بين شخصيتين من أكبر شخصيات العرب إذ يقول الأعشى للجعدى :

« .... وان بيتاً مما بنيت ليعدل بمائة من بنائك ! و إن أسهبت فى منطقك . فإن المسهب كحاطب الليل ؛ و إنى لفى الجرثومة من ربيعة الفرس ، وهل جعدة إلا رائدة ظليم نفور ! »

« أتعيرنى مدح الملوك يا جاهل : ولو قدرتَ على ذلك لهجرتَ اليه أهلكَ وولدكَ ؟ ولكنك خلقت جباناً لا تدلج فى الظلماء الداجية ، ولا تهجر فى الوديقة الصاخدة »

فيجيبه الجعدى — مغضباً — :

« اسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم إن دخولك الجنة من المنكرات ؛ ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون فى الدرك الأسفل من النار ! ولقد صلى بها من هو خير منك ! ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت إنك قد غلط بك . . . . الخ الخ »

(١) بالإسلام　(٢) يعنى النابغة الذبيانى

(٣) النابغة الذبيانى (توفى سنة ٦٠٤ م)

هو زياد بن معاوية بن ضباب ، ويكنى : أبا أمامة ، وأبا عقرب ، وأبا ثمامة ، كان يضرب له قبة بسوق عكاظ يحكم فيها بين الشعراء ، وكان نديم النعمان وقد مدحه بكثير من القصائد الجميلة

فَلَا لَعَمْرُ الَّذِى قد زُرْتُهُ حِجَجًا(١) وَما هُرِيقَ(٢) عَلَى الأَنْصَابِ(٣) مِن جَسَدِ(٤)
وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ(٥) الطَّيْرَ تَمْسَحُها(٦) رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ الغَيلِ وَالسَّعَدِ(٧)

وقولىَ :

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَهَلْ يَأْثَمَنْ ذُو إِمَّةٍ(٨) وَهْوَ طَائِعُ

ثم غضب عليه النعمان لوشاية المنخل الشاعر به فى وصفه المتجردة امرأة النعمان ، فهرب النابغة الى بنى غسان ، ونزل بعمرو بن الحارث الأصغر ، ملك الغساسنة ، فمدحه بقصيدته الشهيرة التى افتتحها بهذه الأبيات الثلاثة الرائعة :

كِلينى لهم يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطىء الكواكب
تطاول حتى قلت : « ليس بمنقض وليس الذى يرعى النجوم بآئب »
وصدر أراح الليل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ثم رضى عنه النعمان ، فعاد اليه . ومن أجمل شعره قوله :

قامت تراءى بين سجفى كلة كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
سقط النصيف – ولم ترد إسقاطه – فتناولته واتقتنا باليد

وقوله :

نظرت اليك بحاجة لم تقضها نظر السقيم إلى وجوه العود

وستمر بك طائفة أخرى من شعره وأخباره فى موضعها

(١) الحجج : السنين . ويروى : « فلا لعمر الذى مسّحت كعبته » (٢) أريق وصب (٣) هى الحجارة التى كانوا يذبحون عليها القرابين حول الكعبة ، ومفردها نُصُب (٤) دم (٥) اللائذات . أى الطير اللائذات (٦) تتبعها وتمر أيديها عليها بلطف (٧) الغيل والسعد هنا موضعان ؛ وخلاصة معنى البيتين أنه يقسم بالله الذى حج إلى بيته مراراً ، ويقسم بما أريق على حجارة الكعبة المقدسة من دماء القرابين ، وبمن أمّن طيور تلك الناحية التى يلاطفها ركبان مكة بين الغيل والسعد ؛ ليثبت للنعمان أنه صادق فيما يقول . (٨) الشرعة والدين

بِمُصْطَحِباتٍ مِنْ لَصَافٍ وَثَبْرَةٍ[١] يَزُرْنَ أَلالاً[٢] سَيْرُهُنَّ تَدَافُعُ[٣]

ولم أُدْرِكِ النَّبِيَّ — صلى اللهُ عليهِ وسلم — فتقومَ الْحُجَّةُ عَلَيَّ بخلافِهِ، وَإِنَّ اللهَ — تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ — يغفِرُ ما عظُمَ وَقَلَّ

فيقولُ : « يا أَبا سَوادةَ ويا أبا أُمامةَ ويا أبا لَيْلَى ! اجعلوها ساعةَ مُنادَمةٍ ، فإن مِن قوْلِ شَيْخِنا الْعِبادِيِّ :

أَيُّها الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بِدَدَنْ إن هَمِّى فى سَمَاعٍ وَأَذَنْ[٤]

وَشَرابٍ خُسْرُوَانِيٍّ إذا ذَاقَهُ الشيْخُ تَغَنَّى وَارْجَحَنّ[٥]

فكَيف لنا بِأَبِى بَصِيرٍ[٦] ؟ » فلا تَتِمُّ الكلِمةُ إلَّا وأبو بَصِيرٍ قد خَمَسَهُمْ[٧]، فيسبِّحون اللهَ وَيُقَدِّسونهُ وَيَحْمَدُونهُ على أن جمع بينهُمْ ، وَيَتْلو[٨] هذه الآيةَ : « وهوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ » فإذا أَكلوا مِن طيِّبات الْجَنَّة ، وشرِبوا مِن شرابِها الذى خَزنهُ اللهُ لعبادِهِ الْمُتَّقِينَ، قال الشيخ : « يا أبا أُمامةَ إنك لَحَصِيفُ[٩] الرَّأْيِ لَبِيبٌ ، فكيف حَسَّنَ لكَ لُبُّكَ أن تقولَ لِلنُّعْمانِ بنِ الْمُنْذِرِ :

---

(١) لصاف وثبرة ماءان بناحية الشواجن فى ديار ضبة بن أد (٢) جبل بعرفات (٣) المعنى انه يقسم للنعمان ليزيل ما علق بنفسه من الريبة ويمحو منها الأثر السيء الذى خلفته وشايات أعدائه ويؤكد له أنه بار فى قسمه وأنه غير حانث فى يمينه (٤) الددن أو الدد : اللهو أو اللعب . والأذَن : الاستماع فى إعجاب (٥) اهتز وتمايل ، والمعنى : أَلْهُ أيها القلب وانس همومك فإنى مولع بسماع الغناء ومعاقرة ذلك الشراب الخسروانى الذى ينسى الشيخ — حين يشربه — وقار شيخوخته فيتمايل من النشوة راقصاً مغنياً . وقد مرت ترجمة العبادى هذا فى ص ٨ (٦) الأعشى ، وقد مرت ترجمته فى ص ٢١ (٧) صار خامسهم (٨) أى الشيخ ابن القارح (٩) سديد أو محكم

زَعَمَ الْهُمَامُ بأَنَّ فَاها بارِدٌ ... عَذْبٌ ، إذا ما ذُقْتَهُ قُلْتَ : ازْدَدِ
زَعَمَ الْهُمَامُ — ولَمْ أَذُقْهُ — بأنهُ ... يُشْفَى بِبَرْدِ لِثَاتِها الْعَطِشُ الصَّدِى[1]

ثم استمرَّ بكَ القولُ حتى أنكَرَهُ عليك خاصَّةٌ وعامَّةٌ » فيقولُ النَّابغَةُ —بذَكَاءٍ وفَهْمٍ— : « لقد ظَلَمنى من عابَ عَلَيَّ ، ولو أنْصَفَنى لَعلِمَ أننى احْتَرَزْتُ أشدَّ احْتِرَازٍ ، وذلك أن النُّعْمانَ كَانَ مُسْتَهْتَرًا[2] بتلك الْمَرْأَةِ ، فأَمرَنى أن أذكُرَها فى شعرى ، فأَدَرْتُ ذلك فى خَلَدِى ، فقلتُ : « إن وَصَفْتُها وَصْفاً مُطْلَقاً ، جازَ أن يكون بغيرها مُعَلَّقاً » وَخَشيتُ أن أذكُرَ اسْمَها فى النظمِ فلا يكون ذلك موافقاً للملكِ ، لِأَن الملوكَ يأْنفُونَ من تَسْمِيَةِ نِسائِهِمْ ؛ فرأَيْتُ أن أُسْنِدَ الصفةَ إليهِ ، فأقولَ : (زَعَمَ الْهُمَامُ) إذ كنتُ لو ترَكْتُ ذكْرَهُ لظنَّ السامعُ أن صِفَتى على المشاهدةِ ؛ والأبياتُ التى جاءت بَعْدُ داخلَةٌ فى وَصفِ الْهُمَامِ ، فمن تأَمَّل المعنى وَجدهُ غيرَ مُخْتَلّ . وكيف يُنْشدُونَ : « وَإذَا نظرتَ رَأَيْتَ أَقْمَرَ مُشْرِقًا » وما بعده ؟ » فيقولُ الشيخ : « يُنْشَدُ : وَإذا نَظَرْتَ ، وَإذا لَمسْتَ ، وإذا طَعَنْتَ ، وإذا نَزَعْتَ ، على الْخِطابِ » فيقولُ النابغةُ : « قد يَسُوغُ هذا ، ولكنَّ الأجْوَدَ أن تجْعلُوهُ إخبارًا عن الْمُتَكَلِّم ، لأن قوْلِىَ : « زَعمِ الهمامُ » يؤدِّى معنى قوْلنا : « قالَ الهُمامُ » فهذَا أَسلمُ ، إذْ كَانَ الملِكُ إنما يحكى

---

(١) الشديد الظمأ ؛ والمعنى أن الملك النعمان حكى لنا أن رضاب زوجه المتجردة لذيذ حلو الطعم ، كلما ارتشفته ازددت هياماً به واندفاعاً إلى رشفه ، فإذا تذوقته وقد أجهدك العطش أزال ظمأك وأثلج صدرك ، ذلك هو ما يحكيه لنا المليك أرويه عنه ، و إن كنت لم أذقه (٢) متفانياً فى حبها .

عن نفسهِ . وإذا جعلتموهُ على الخِطاب قَبُحَ ؛ إنْ نسبتموهُ إلىَّ فهُوَ مُنْدِيةٌ[١] ، وإنْ نسبتموه إلى النُّعْمانِ فهُوَ إزْراءٌ وَتنَقُّصٌ »

فيقولُ : « لِلّهِ دَرُّكَ يا كَوكَبَ بنِي مُرَّةَ ! ولقد صَحَّفَ عليك أهلُ الْعلمِ مِنَ الرُّواةِ ، وكيف لِي بأَبَوَىْ عَمْرٍو الْمَازِنِيِّ وَالشَّيْبانِيِّ ، وَأَبِي عُبَيْدَةَ ، وَعبدِ الملكِ وغيرِهم من النَّقَلَةِ ، لأسأَلَهُمْ كيف يَرْوُونَ ، وأنت شاهِدٌ ؛ لِتَعْلَمَ أَنِّي غيرُ المُتَخَرِّصِ[٢] ولا الوَلّاغِ[٣] » فلا يَقِرُّ هَذا القوْلُ فى حُذُنَّةِ[٤] أَبِي أُمَامَةَ[٥] إلاّ والرُّوَاةُ أجْمَعُونَ قد أَحْضَرَهُمُ اللّهُ القادرُ من غير مشقّةٍ نالَتْهُمْ ، ولا كُلفَةٍ فى ذلك أصابَتْهُمْ ؛ فيُسَلِّمُونَ بِلُطْفٍ ورفْقٍ ، فيقولُ :

« مَنْ هذه الشُّخُوصُ الْفِرْدَوْسِيَّةُ ؟ »

فيقولونَ : « نحن الرُّوَاةُ الذين شئْتَ إحْضَارَهُمْ آنفاً » فيقولُ : « لَا إِلهَ إلاّ اللّهُ ! كَيْفَ تَرْوونَ قولَ النّابغةِ فى الداليَّةِ : وَإذا نظرتُ . وإذا لَمَسْتُ ، وإذا طعنْتُ ، وإذا نزعْتُ : أَبِفتْحِ التاء أَمْ بِضَمِّهَا ؟ » فيقولونَ : « بفتحها » فيقولُ : « هذا شيخُنَا أبو أُمَامَةَ يختارُ الضمَّ ، ويُخبِرُ أنهُ حكاهُ عنِ النُّعْمانِ » فيقولونَ : « هو كما جاء فى الكتاب الكريم : « والْأَمرُ إليكِ ، فانظري ماذا تأْمُرِينَ ؟ »

فيقولُ الشيخُ : « مضى الكلامُ فى هذا يا أَبا أُمَامَةَ ، فأَنْشِدْنا كلمَتَكَ التى أولهَا :

---

(١) المندية : الكلمة يعرق منها الجبين (٢) الكاذب (٣) الذى لا يبالى بالمذام
(٤) أُذُن (٥) النابغة الذبيانى وقد مرت ترجمته فى ص ٣٩

أَلِمَّا عَلَى الْمَمْطُورَةِ[١] الْمُتَأَبِّدَهْ[٢] أَقَامَتْ بِهَا فِى الْمَرْبَعِ[٣] الْمُتَجَرِّدَهْ[٤]

مُضَمَّخَةٌ بِالْمِسْكِ مَخْضُوبَةُ الشَّوَى[٥] بِدُرٍّ وَيَاقُوتٍ لَهَا مُتَقَلِّدَهْ

كَأَنَّ ثَنَايَاهَا – وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهَا – مُجَاجَةُ[٦] نَحْلٍ فِى كُمَيْتٍ[٧] مُبَرَّدَهْ

لِيَقْرِرْ بِهَا النُّعْمَانُ عَيْنًا ، فَإِنَّهَا لَهُ نِعْمَةٌ فِى كُلِّ يَوْمٍ مُجَدَّدَهْ[٨]

فيقولُ أبو أُمَامَةَ : « ما أَذْكُرُ أَنِّى سلكتُ هذا القَرِيَّ[٩] قَطُّ » فيقولُ مولاى الشَّيْخُ : « إِنَّ ذلكَ لَعَجَبٌ ! فمنِ الذى تَطَوَّعَ فنَسَبَهَا إليك ؟ » فيقولُ : « إنها لَمْ تُنْسَبْ إِلَىَّ على سبيل التطوعِ ، ولٰكنْ على معنى الْغَلَط والتَّوَهُّمِ ؛ ولعلها لِرجُلٍ منْ بنِى ثَعلَبَةَ بنِ سعدٍ » فيقولُ نابغةُ بنِى جَعْدَةَ : « صَحِبَنِى شابٌّ فى الجْاهليةِ ونحن نريدُ الحِيرَةَ ، فأَنْشَدَنِى هذه الْقَصِيدَةَ لنفسهِ ، وَذَكَرَ أنه ابنُ ثعلبةَ ، وصادف قُدُومُهُ شَكَاةً[١٠] منَ النُّعمانِ ، فلم يَصِلْ بها إليهِ » فيقولُ نابغةُ بنى ذُبيانَ : « ما أَجْدَرَ ذلك أَنْ يكونَ ! »

---

(١) الأرض التى أصابها مطر (٢) التى سكنها الوحوش (٣) محل الإقامة فى الربيع (٤) اسم امرأة النعمان (٥) الأطراف ، ومخضوبة الشوى أى ملونة أطرافها بالحناء (٦) ريق (٧) خمر (٨) المعنى : عرجا على تلك الارض التى جادها الغيث بسقياه ، حيث تقيم المتجردة زوج النعمان التى ينعم بحسنها الدائم التجدد كل يوم والتى تضمخت بالمسك ، وخضبت أطرافها بالحناء ، وتقلدت بالدر ، وماثل طعم ريقها – و إن كنت لم أذقه – شهداً ممزوجاً بخمر بارد . وهذه أبيات تبدو عليها مسحة التكلف والبعد عن الأسلوب الجاهلى لمن ينظر اليها بأدنى تأمل ، ونرجح أنها من مختلقات الرواة – وما أكثرها – وهى عندنا تقليد غير متقن للدالية النابغة التى وصف فيها المتجردة زوج النعمان ، وقد ورد ذكرها فى ص (٤٢) من هذا الجزء (٩) قَرِيُّ الماء : مسيله . والمراد هنا : الطريق أو المذهب (١٠) الشَّكَاة : المرض، أو أهونه

مجلس غنـــاء

ويمُرُّ رَفٌّ[١] من إِوَزِّ الْجنةِ، فلا يَلْبَثُ أن يَنزِلَ على تلك الرَّوضة، ويقِفَ وَقوفَ مُنْتَظِرٍ لأمرٍ، ومن شأنِ طَيرِ الْجَنَّةِ أن يتكلَّمَ.

فيقولُ: «ما شأْنُكُنَّ؟» فيقُلْنَ: «أُلْهِمْنا أن نسقُطَ فى هذه الرَّوْضةِ فنُغَنِّيَ لمن فيها من شَرْبٍ» فيقولُ: «على بركَةِ الله القديرِ» فيَنْتَفِضْنَ فيصِرْنَ جَوارِيَ كَوَاعِبَ، يَرْفُلْنَ[٢] فى وَشْيِ[٣] الْجنةِ، وبأَيْدِيهِنَّ الْمَزاهِرُ[٤] وأنواعُ ما يُلْتَمَسُ به الْمَلاهى؛ فيَعْجَبُ — وحُقَّ له العجَب — وليس ذلك ببديعٍ من قدرة اللهِ جَلَّتْ عَظَمَتُهُ. فيقولُ لإِحْداهُنَّ على سبيل الامْتحانِ: «اعْمَلى قوْلَ أبى أُمامةَ — وهو هذا القاعِدُ —:

أَمِنَ الِ مَيَّةَ رَائِحٌ[٥] أَوْ مُغْتَدِ[٦] عَجْلانَ ذا زَادٍ وَغَيْرَ مُزَوَّدِ

ثَقيلًا أَوَّلَ» فتَصْنَعهُ، فتجيءُ به مُطرِبًا، وفى أعْضاءِ السامعِ مُتَسَرِّبًا؛ ولو نُحِتَ صَنَمٌ من أحْجارٍ، ثم سَمِع ذلك الصوتَ لرَقَصَ، فيقولُ: «هَلُمَّ خَفيفَ الثَّقيلِ الأوَّلِ» فتنبعِثُ فيه بِنَغَمٍ لو سمعهُ الْغَريضُ[٧]، لَاقَرَّ أن ما تَرَنَّمَ به مريضٌ؛ فإذا أجادَتْهُ، قال: «عليْكِ بالثَّقيلِ الثانى» فتأْتِى به، فإذا رأى ذلك قال: «سُبحانَ اللهِ! كلما كُشِفَتِ القدرةُ بدت لها عَجائِبُ، فصيري إلى خَفيف الثقيلِ الثانى، فإنَّكِ لَمُجيدَةٌ مُحْسِنَةٌ» ثم يقترحُ عليها الرَّمَلَ وَخفيفَهُ، وأَخاهُ الهَزَجَ،

---

(١) سرب (٢) يتخايلن أو يتبخترن (٣) حرير (٤) جمع مزهر، وهو نوع من آلات الطرب (٥) عائد وقت المساء (٦) ذاهب وقت الغداة أى الضحى (٧) المغنى الحاذق. وهو هنا اسم مغن معروف

فإذا تيقن لها حَذَاقَةً ، وعرف منها بالعودِ لَباقَةً ، هَلَّلَ وَكَبَّر ، وَأَطالَ حَمْدَ رَبهِ وَاعْتَبَرَ ، وقال : « وَيْحَكِ ! أَلَمْ تكونى الساعةَ إِوَزَّةً طَائِرَةً ، فمن أَيْنَ لكِ هذا العِلْمَ ؟ لوْ نشأْتِ بين مَعْبَدٍ وابْنِ سُرَيْجٍ ، لَمَا هِجْتِ السامعَ بهذا الْهَيْجِ ! فكيف نَفَضْتِ عنْكِ بَلَهَ الإِوَزِّ ؟ » فتقولُ : « وما الذى رَأَيتَ من قُدْرَةِ بارِئِكَ ؟ إنك عَلَى سِيفِ[1] بَحْرٍ ، لا يُدْرَكُ لهُ عِبْرٌ[2] ، سُبحانَ من يُحيي الْعظامَ وهى رَميمٌ ! »

حديث لبيـــد[3]

فبينما هم كذلك ، إذ مرَّ شابٌ . . . .

---

(١) السِّيف : الشاطئ (٢) العبر : الساحل الآخر

(٣) لبيـــد

توفى سنة ٦٨٠ م .

هو من بنى عامر بن صعصعة ، وأمه عبسية .

عاش نحو ١٤٥ سنة ، أكثرها فى الجاهلية ، وأسلم وهو فى التسعين من عمره ، وصحب النبي (ص) فى هجرته إلى المدينة ، ومات — فى أواخر خلافة معاوية — بالكوفة .

كان بين قبيلته و بنى عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان ابن المنذر ، وكان على العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين ملاعب الأسنة ، عم لبيد ؛ وكان الربيع مقربا عند النعمان يؤاكله و ينادمه ؛ فأوغر صدره على العامريين ، فلما دخل وفدهم على النعمان ، أهمله ؛ فخرجوا غضابا ، فسألهم لبيد عن أمرهم — وكان يومئذ صغيراً يرعى إبلهم و يسرحها — فاحتقروه لصغره ، فلما ألح عليهم أشركوه معهم ، فوعدهم بالانتقام لهم ثم هجا الربيع بأبيات مشهورة كرهت فيه النعمان .

*
* *

وقد هجر الشعر فى الإسلام ، واستعاض عنه بقراءة القرآن، ومن مختار شعره قوله فى رثاء أخيه لأمه ، وكان اسمه أربد — وقد بكى المعتصم حين سمع هذه القصيدة — :

. . . . في يده

بلينا ، وما تبــلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعــدنا والمصانع
وقد كنت في أكناف دارِ مَضنة ففارقني جار بأربد نافــع
فلا جزع — إن فرق الدهر بيننا — فــكل امرىء يوما له الدهر فاجع
وما المرء إلا كالشهــاب وضوئه ، يحور رمادا — بعــد ما هو ساطع
وما المرء إلا مضمرات من التقى وما المال والأهلون إلا ودائع
وما النــاس إلا عاملان ، فعامل يتبر ما يبني ، وآخــر رافع
فمنهــم سعيد آخــذ بنصيبه ومنهــم شقي بالمعيشــة قانع
أليس ورائي — إن تراخت منيتي — لزوم العصا تحنَى عليهــا الأصابع
أخبّر أخبار القرون التي مضت أدبّ كأني كلمــا قمت راكع
فأصبحت مثل السيف – أخلق جفنه تقادم عهد القَين . والنصل قاطع
فلا تبعدن ، إن المنيــة موعد علينا ، فــدان للطلوع وطالــع
أعاذل ! ما يدريك — إلا تَظَنِّيا — إذا رحل السفــار ، من هو راجع
أتجزع مما أحــدث الدهر بالفتى ؟ وأي كــريم لم تصبه القوارع ؟
لعمرك ، ما تدرى الضوارب بالحصى ولا زاجرات الطــير ، ما الله صانع

وقوله :

الا تسألان المــرء ، ماذا يحاول ؟ أنحب فيقضى ؟ أم ضلال و باطل ؟
حبائله مبثوثــة في سبيــله ويفنى إذا ما أخطــأته الحبائل
إذا المرء أسرى ليــلة ، خال أنه قضى عملا ، والمرء – ما عاش – عامل
فقولا له — إن كان يقسم أمره — ألمــا يعظك الدهر ؟ أمك هابل !
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى ولا أنت مما تحــذر النفس وائل
فإن أنت لم تصدقك نفسك فانتسب لعلك تهــديك القرون الأوائل
فإن لم تجد من دون عدنان باقيا ودون معــد ، فلتزعك العواذل
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم : بلى كل ذى رأى إلى الله واسل

. . . .

ألا كل شيء ما خلا الله — باطل   وكل نعيم — لا محالة — زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم   دويهية تصفر منها الأنامل
وكل امرىء يوما سيعلم سعيه   إذا كشفت عند الإله الحصائل

وقوله من معلقته الرائعة :

أو لم تكن تدرى « نوار » بأننى   وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يعتلق بعض النفوس حمامها
بل أنت لا تدرين كم من ليلة   طلق لذيذ لهوها وندامها
قد بت سامرها ، وغاية تاجر   وافيت إذ رفعت وعز مدامها

*
* *

إنّا — إذا التقت المجامع — لم يزل   منا لِزَازُ عظيمة جشامها
ومقسم يعطى العشيرة حقها   ومغذمر لحقوقها هضامها
من معشر سنت لهم آباؤهم   ولكل قوم سنة وإمامها
لا يطبعون ولا يبور فعالهم   اذ لا يميل مع الهوى أحلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما   قسم الخلائق بيننا علامها
فضلا وذو كرم يعين على الندى   سمح كسوب رغائب غنامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر   أوفى بأوفر حظنا قسامها
فبنى لنا بيتاً رفيعاً سمكه   فسما إليه كهلها وغلامها
وهم السعاة إذا العشيرة أفظعت   وهم فوارسها ، وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم   والمرملات إذا تطاول عامها

وقوله :

تمنى ابنتاىَ أن يعيش أبوهما   وهل أنا إلا من ربيعة أو مضرْ ؟
إذا حان يوماً أن يموت أبوكما   فلا تخمشا وجهاً ، ولا تحلقا شعَرَ
وقولا : « هو المرء الذى ليس جاره   مضاعاً ، ولا خان الصديق ولا غدر »

مِحْجَنٌ[1] ياقوتَ ، فيسلمُ عليهم ، فيقولونَ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فيقولُ : « أنا لبيدُ ابْنُ رَبيعةَ بْنِ مالكِ بْنِ جعفرِ بْنِ كُلَيْبٍ » فيقولُ : « أَكْرَمْتَ ، أَكْرَمْتَ ، لو قلتَ لَبيدٌ وَسَكَتَّ ، لَشُهِرْتَ باسْمِكَ ، فما بالكَ في مغفرةِ رَبِّكَ ! » فيقولُ : « أنا بِحَمْدِ اللهِ في عيشٍ قَصَّرَ أن يصفَهُ الواصفونَ ، لا هَرَمَ ولا بَرَمَ ! »

فيقولُ الشيخُ : « تبَارَكَ المَلِكُ القُدُّوسُ ، ومن لا تدركُ يقينَهُ الحُدُوسُ[2] ، كأنك لم تقل في الدار الفانِيَةِ :

« وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا وَسُؤَالِ هَذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبيدُ ؟ »

ولم تَفُهْ بقولك :

« فَتَى أَهْلِكْ فَلاَ أَحْفِلُهُ[3] بَجَلِي[4] الآنَ مِنَ العَيْشِ بَجَلْ

مِنْ حَيَاةٍ قَدْ مَلِلْنَا طُولَهَا وَجَدِيرٌ طُولُ عَيْشٍ أَنْ يُمَلْ[5] »

فأنشِدْنَا مِيميَّتَكَ المعلقةَ ، فيقولُ : « هيهاتَ ، إِنِّي تركت الشِّعْرَ في الدار الخادعةِ ، ولن أعود إليه في الدار الآخرةِ ، وقد عُوِّضْتُ ما هو خيرٌ وأَبَرُّ »

فيقولُ : « أَخبِرْنِي عن قولِكَ :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُهَا

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

وسيمر بك طرف من أخباره وأشعاره في الرسالة .

(١) العصا المنعطفة الرأس كالصولجان

(٢) الظنون (٣) أي فلا أبالي (٤) بَجَلِي : حسبي وكفاني

(٥) خلاصة معنى البيتين هو : « متى وافاني أجلي لم أكترث له ، فقد طالت حياتي ، فمللت العيش » .

هل أَرَدْتَ ببعضٍ معنى كلٍّ ؟ » فيقولُ لَبيدٌ : « كلا . إنما أردتُ نفسى ، وهذا كما تقولُ لِلرَّجُلِ : إذا ذهب مالُكَ ، أَعْطاكَ بعضُ الناس مالاً . وأنت تعنى نفسَكَ فى الحقيقةِ . وظاهرُ الكلام واقعٌ على كل إنسانٍ ، وعلى كل فِرْقَةٍ تكون بعضاً للناس »

فيقولُ : « أخبِرْنى عن قولك : « أَوْ يَرْتَبِط » هل مَقْصِدُكَ : إذا لم أَرْضَها أو لم يَرتبطْ ؟ أم غرضك أَتْرُكُ المنازلَ أو يرتبط ، فيكون « يَرتبط » كالمحمولِ على قولك ترَّاكُ أمكنةٍ ؟ » فيقولُ لَبيدٌ : « الوجْهَ الأولَ أردتُ »

غنـــاء الحور

ويخطُر له غِناءِ الْقِيان بالفُسطاطِ ومدينةِ السلامِ ، ويذكُرُ تَرْجيعَهنَّ بِبيميَّةِ المخبَّلِ السعديِّ ، فتندفعُ تلك الجوارى التى نقلتْهنَّ القدرةُ من خلقِ الطير إلى خلق الْحُورِ ، تُلَحِّنُ قولَ الْمُخَبَّلِ السَّعْدِيِّ :

«ذَكَرَ الرَّبابَ ، وَذِكْرُها سُقْمُ — وَصَبا ، وَليسَ لمنْ صَبا عَزْمُ
وَإذَا أَلَمَّ خَيــالُهَا طرِفَتْ — عَيْنِى فماءُ شُئُونِها[1] سَجْمُ[2]
كَاللُّؤلُؤِ الْمَسْجور[3] تُوبِعَ فِى — سِلْكِ النِّظَامِ فخانهُ النَّظْمُ[4] »

فلا يمرُّ حرفٌ ولا حركةٌ إلاّ ويُوقعُ مَسرَّةً لو عُدِلَتْ بمسرات أهل العاجلةِ — منذ خَلقَ اللهُ آدمَ إلى أن طوى ذُرِيتَهُ — لكانت الزَّائدةَ على ذلك زيادةَ

---

(١) الشئون : مجارى الدموع (٢) مسكوب (٣) المنظوم (٤) تذكَّر الرباب فشَجاه ذكرها ، وحن اليها فخارت قواه ووهن عزمه ، وألم به خيالها فسحت عيناه بالدموع كما انفرط عقد من اللؤلؤ المنظوم فتساقط متتابعاً

اللُّجِّ المتَمَوِّج على دمعةِ الطفل ، والْهضْبِ[1] الشامخ على الْهباءةِ[2] الْمُنْتَفِضَةِ.
ويقولُ لِنُدَمائِهِ: « ألا تسمعونَ قولَ السَّعدىِّ[3] :

« وَتقولُ عاذلتِي — وليسَ لَهَا بِغَدٍ وَلا ما بَعــــدَهُ عِلمُ :

---

(١) الهضب : المرتفع من الأرض ، أو الجبل المنبسط ، أو كل جبل خلق من صخرة واحدة

(٢) الهباءة : القطعة من الهباء ، وهو الغبار يشبه الدخان و يرى منبثاً فى ضوء الشمس . وقد وهم بعض الكتاب فظن أن المراد بالهباءة هنا : الأرض ، ومنها هباءة غطنان . والصواب ما ذكرنا ، و يؤيده قول المعرى : المنتفضة ، فهذا يقطع الشك

(٣) المخبل السعدى

اسمه ربيعة بن مالك ، وقبيلته بنو شماس من ولد أنف الناقة ، ومما رواه صاحب كتاب « الشعر والشعراء » عن المخبل هذا أنه هجا الزبرقان بن بدر ، وذكر أخته خليدة ، ثم مر بها - بعد حين - وقد أصابه كسر ، وهو لا يعرفها ، فآوته وجبرت كسره ، فلما عرفها قال :

« لقد ضل حلمى فى خليدة ضلة سأعتب نفسى - بعدها - وأتوب

وأشهد - والمستغفَــر الله - أننى كذبت عليها ، والهجاء كذوب »

وهذا ندم حار يدل على تو بة صادقة وضمير شريف يتأثر بالصنيع و يعترف بالجميل ، وقل من الناس من يخلص فى ندمه ، و يعترف بخطئه

ومن خير ما اختاره له «ابن قتيبة» صاحب ذلك الكتاب النفيس «الشعر والشعراء» قوله :

« فإن يك غصنى أصبح اليوم ذاويا وغصنـك من ماء الشباب رطيب

فإنى حنى ظهرى حوان تركنـه عريشاً ، فمشيى فى الرجال دبيب

وما للعظـام الراجفـات من البـلى دواء ، وما للركبتـين طبيب

إذا قال أصحابى : «ربيع ! ألا ترى؟ » أرى الشخص كالشخصين وهو قريب[1]

فلا يعجبنْك المرء ، إن كان ذا غنى سـتتركه الأيام — وهو حريب

وكائن ترى - فى الناس -من ذى بشاشة ومن شأنه الإقتـار — وهو نجيب

---

(١) انظر الى افتنان ابن الرومى فى أداء هذا المعنى فى داليته الرائعة التى رثى بها شبابه ، فقال :

وبورك طرفى ، فالشخوص حيـاله قرائن ، من أدنى مدى ، وهى فرد

« ارجع الى ديوان ابن الرومى « ج ٣ من ص ٣٩٠ — ٣٩٤ » وانظر ص ٦٤ من هذا الجزء

« إِنّ الثَّرَاءَ(١) هوَ الْخُلودُ وإِنّ المَرْءَ يَكْرُبُ(٢) يَوْمَهُ الْعُدْمُ »

وَلَئِنْ بَنَيْتِ لِىَ الْمُشَقَّرَ(٣) فى عَنْقَاءَ(٤) تَقْصُرُ دُونَهَا الْعُصْمُ(٥)

لَتُنَقِّبَنْ عَنِّى الْمَنِيَّةُ ، إِنَّ اللهَ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حُكْمُ(٦) »

فيقولُ : « إنهُ الْمِسكينُ قالَ هذه الأبياتَ وبنُو آدمَ فى دارِ المحنِ والبلاءِ ، والوالدةُ تخافُ المنيةَ على الولدِ ، والفقرُ يُرْهبُ ويُتَّقَى ، والمالُ يُطلبُ ويُسْتبقَى . فالحمدُ للهِ الذى أذهبَ عنَّا الْحزَنَ ، إنَّ ربَّنَا لغفورٌ شكورٌ ، الذى أَحَلَّنَا دارَ الْمُقَامَةِ من فضلهِ ، لا يَمَسُّنَا فيها نصَبٌ ولا يَمَسُّنَا فيها لُغُوبٌ(٧) . فتباركَ اللهُ القُدُّوسُ ، نقَل هؤلاءِ الْمُسْمِعَاتِ(٨) ، من زِىِّ رَبَّاتِ الأَجنحةِ(٩) ، إلى زِىِّ رَبَّاتِ الأكفَالِ المترجِّحةِ(١٠) ، ثم ألهمهُنَّ بالحكمةِ حفظَ أشعارٍ لم تَمْرُرْ قبلُ بمسامِعهنَّ ، فَجِئْنَ بها مُتقنةً ، محمولةً على الطرائقِ مُلَحَّنةً ! . ولقد كانت الجاريةُ فى الدار العاجلةِ إذا تُفرِّسَتْ فيها النَّجابةُ ، وأُحضرتْ لها المُلَحِّنةُ لِتُلقِىَ إليها ما تعرفُ

---

(١) فى نسخة اليازجى : « إن الثواء » وهو تحريف ظاهر ! (٢) يدنى أجله ويقرب يومه (٣) هو مكان فى بلاد العرب (٤) سامقة شديدة العلو ، وهى صفة لموصوف محذوف هو كلمة « قنة » (٥) جمع أعصم ، وهو الوعل (٦) معنى الأبيات : تلحانى عاذلتى على كرمى ، لأنها ترى فى الغنى كل معانى الراحة والخلود ، وترى الانسان إذا صفرت يده من المال اسود عيشه وارتبك أمره ، وهذا لعمرى رأى مأفون دفعها إليه قصر نظرها وجهلها بالغد ، ولو أنها رشدت لعلمت أن كل ما فى الدنيا من زخرف وزينة عبث وضلال ، وأن الموت سيختم هذه الحياة الخادعة ، فلا تصده عنا قنة سامقة نلوذ بها فى كنف جبل شاهق ، ولا تفلتنا من قضاء الله حيلة ، وإذن فما قيمة المال ندخره ونبخل به ؟ ؟ ومن لعاذلتى بأن تدرك هذه الحقيقة فتعذرنى وتكف عن لومى ! (٧) اللغوب : شدة التعب والإعياء (٨) المغنيات (٩) الطيور (١٠) النساء

من ثَقيلٍ وخفيفٍ ، تُقيمُ معها الشَّهْرَ والشَّهْرَيْنِ قبلَ أن تُلَقَّنَ بيتاً من الغزَلِ أو بيتينِ ، ثم تُعْطَى الْمِائةَ أو الْمِائتَيْنِ ، فسبحان القادرِ ! » .

مشاجرةُ الجعديِّ والأعشى

ويقولُ نابغةُ بني جَعْدَةَ — وهو جالسٌ يَسْتَمِعُ — : « يا أَبَا بَصيرٍ ! أهذه الرَّبَابُ التي ذكرها السَّعْدِيُّ هي رَبَابُكَ التي ذَكَرْتَهَا في قولك :

« بِعَاصِي الْعَوَاذِلِ طَلْقِ الْيَدَيْنِ يُعْطِي الْجَزِيلَ وَيُرْخِي الْإِزَارَا
فَمَا نَطَقَ الدِّيكُ حَتَّى مَلَا تُ كُوبَ الرَّبَابِ لَهُ، فَاسْتَدَارَا
إِذَا انْكَبَّ أَزْهَرُ[1] بَيْنَ السُّقَا ةِ، تَرَامَوْا بِهِ غَرَبًا أَوْ نُضَارَا[2] »

فيقولُ أبو بَصيرٍ[3] : « قد طالَ عُمْرُكَ يا أبا لَيْلَى ، وأَحْسَبُكَ أصابكَ الْفَنَدُ[4] ، فبقيتَ على فَنَدِكَ إلى اليوم ! أَمَا عَلِمْتَ أن اللواتي يُسَمَّيْنَ بِالرَّبَابِ أكثرُ من أن يُحْصَيْنَ ؟ أَفَتَظُنُّ أن الرَّبَابَ هذه هي التي ذكرها القائلُ :

---

(١) الأزهر : إبريق الخمر ، قال عنترة :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر في الشمال المفدم

أي شربت الخمر بعد أن سكن قيظ الهواجر الشديد ، بالقدح المجلو المنقوش بزجاجة صفراء مخططة قرنتها بإبريق مسدود الرأس بالفدام (٢) الغرب : الفضة، أو القدح أو الجام الفضي أو الذهب . ومعنى الأبيات أنه حل بساحة كريم ينفق المال غير مصيخ لعذل اللائمات و يمشي متبختراً ، وأنه نادمه وقت السحر فما أذن ديك الصباح حتى دارت الكؤوس ، وكان الندامى لفرط سرورهم بالخمر لا يكاد يوضع إبريق مدامة حتى يتراموا به متهافتين على الشراب .
(٣) كنية الأعشى وتقدمت ترجمته في ص ٢١ من هذا الجزء (٤) الخرف : أفن الرأي والضلال

مَا بَالُ قَوْمِكِ يَا رَبَابُ خُزْرا[1] كَأَنَّهُمُ غِضَابُ
غارُوا عَلَيْكِ ، وَكَيْفَ ذَا لِكِ وَدُونَكِ الْخَرْقُ[2] الْيَبَابُ[3]

أوِ التى ذكرها امْرُؤُ القيْسِ فى قولِهِ :

دار لهنـدٍ والربابِ وفَرْتَنَى ولَمِيسَ، قبلَ حوادث الأيام »

*
* *

فيقولُ نابغةُ بنى جَعْدَةَ : « أتُكَلِّمُنى بِمثلِ هذا الكلامِ يا خَليعَ بَنى ضُبَيْعَة ، وقد مِتَّ كافِراً وأقْرَرْتَ على نَفسكَ بالفاحِشةِ ، وأنا لقيتُ النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وسلمَ ، فأنْشَدْتُهُ كلمتى التى أقولُ فيها :

« بَلَغْنا السَّماءَ مَجْدُنا وَسَناؤُنا[4] وَإِنَّا لَنَبْغى فوْقَ ذلك مَظْهَرا[5] »

فقال لى : « إلى أيْنَ يا أبا لَيْلَى ؟ » فقلتُ : « إلى الجَنةِ بك يا رَسولَ الله ! » فقال : « لا يَفْضُضِ اللهُ فاكَ ! »

أغَرَّكَ أنْ عَدَّكَ بعضُ الْجُهَّالِ رابعَ الشعراء الأرْبعة — وكذب مُفَضِّلُكَ — وإنى لأطْولُ منك نَفَسًا ، وأكثرُ تَصَرُّفًا ، ولقد بَلغْتُ — بعدد البيوتِ — ما لم يَبْلُغْهُ أحدٌ من العرب قبلى ، وأنت لاهٍ بِعَفارَتِكَ[6] تَفتِرى على كرائمِ قومكَ ، وإن صَدقْتَ نِخَزْيًا لك ولِمُقارِّكَ[7] »

---

(١) الخزر : ضيق العين (٢) الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح (٣) اليباب : الخراب حيث لا يقيم أحد ، ومعنى البيتين : « ما الذى أسخط قومكِ فضاقت أعينهم من الغضب والنظر الشزر ، أيغارون عليك من الأعداء والمغيرين و بينك و بين الناس تلك الصحراء الواسعة التى لا يسكنها إنسان وهى وحدها كفيلة بحمايتك منهم ؟ » (٤) رفعتنا (٥) مكاناً نصعد اليه (٦) العفارة : الخبث والنكر ، وهى أيضاً تلقيح النخل و إصلاحه ، والمقصود هنا المعنى الأول ، أى أنك كنت لاهيا بأضاليلك وأعمالك الخبيثة (٧) مُخالِطكَ

فيغضبُ أبو بصيرٍ ، فيقولُ : « أتقولُ هذا ، وإن بيتاً مما بَنَيْتُ ليُعْدَلُ بمائةٍ مِن بنائِكَ ؟ وإن أَسْهَبْتَ فى منطقِكَ ، فإنَ المُسْهِبَ كحاطِبِ الليلِ . وإنى لَفِى الْجُرْثومةِ[1] من ربيعة الفرَسِ ، وهل جَعْدَةُ إلا رائِدَةُ ظَليمٍ[2] نفورٍ ؟ أَتُعَيِّرُنى مدحَ الملوكِ يا جاهِلُ ؟ ولو قَدَرْتَ على ذلك لهَجَرْتَ إليه أهلَكَ ووَلَدَكَ . ولكنك خُلِقْتَ جباناً ، لا تُدْلِجُ[3] فى الظلماء الدَّاجيةِ ، ولا تُهَجِّرُ[4] فى الوَديقَةِ[5] الصَّاخِدَةِ[6] »

فيقولُ الْجَعْدِىُّ : « اسْكُتْ يا ضُلَّ بْنَ ضُلّ ، فأُقْسِمُ إن دخولكَ الجنةَ من المُنْكَرات ، ولكن الأقضيةَ جرَتْ كما شاء الله ! لحُقَّكَ أن تكونَ فى الدَّرْكِ الأسفل من النارِ ، ولقد صَلِىَ بها من هو خَيْرٌ منك . ولو جاز الغَلَطُ على رَبِّ العِزَّةِ ، لَقُلْتُ : إنك غُلِطَ بك ، أَلَسْتَ القائلَ :

« فَدَخلْتُ — إذْ نَامَ الرَّقِيـبُ — فَبِتُّ دُونَ ثِيابِهَا
حَتى إذا ما اسْتَرْسَلَتْ لِلنَّوْمِ بَعْـدَ لِعابِهَا[7]
قَسَّمْتُهَا نِصْـفَيْنِ كُلُّ مُسَوَّدٍ[8] يُرْمَى بِهَا[9]
فَثَنَيْتُ جِيدَ غَرِيرَةٍ[10] وَلَمَسْتُ بَطْنَ حِقابِهَا[11]
كَالْحُقَّةِ[12] الصَّفْرَاء صَا كَ[13] عَبِيرُهَا[14] بِمَلابِهَا[15]

---

(١) الصميم (٢) ذكر النعام (٣) لا تسير ليلاً (٤) لا تسير فى الهاجرة
(٥) الوديقة : شدة الحر ، والمراد هنا وقت الهاجرة والحر الشديد (٦) الشديدة القيظ
(٧) ملاعبتها (٨) سيد (٩) يحرزها ، أو يظن به الظنون من أجلها (١٠) الجميلة ، أو التى لا تجربة لها (١١) وسطها (١٢) الحقة وعاء من خشب أو عاج (١٣) امتزج — اختلط — لصق (١٤) العبير : أخلاط من الطيب (١٥) الملاب : نوع من العطر أو الطيب قيل هو الزعفران

وَإِذَا لَهَا تَامُورَةٌ[1] مَرْفُوعَةٌ لِشَرَابِهَا[2] »

وَاستقلَلْتَ[3] بنى جعدةَ ، ولَيَوْمٌ من أيامهم يرجعُ بمساعى قومكَ ! وَزَعَمْتَنِي جباناً وَكَذَبْتَ ، لَأَنَا أشجعُ منك ومن أبيكَ ، وَأَصْبَرُ على إدلاج الْمُظْلِمَةِ ذات الْارِيزِ[4] ، وأشدُّ إدلاجاً فى الهاجرةِ أمِّ الصَّخْدَانِ[5] ! »

ويثِبُ نَابغةُ بنى جعدَةَ على أبى بَصيرٍ ، فَيَضْرِبُهُ بِكوزٍ من ذهبٍ

فيقولُ الشيخُ — أصلحَ اللهُ بهِ — : «لاَ عرْبَدَةَ[6] فى الجنانِ ، إنمَا يُعرفُ ذلك بين السِّفْلةِ والهِجَاجِ[7] ، وإنك يا أبَا لَيْلَى لَمُتَتَرِّعٌ[8] . ولولا أن فى الكتاب الكريم: « لا يُصَدَّعُونَ عنهَا ولا يُنْزَفُونَ » لظَنَنَّاكَ أصَابكَ نَزْفٌ فى عقلكَ » . ويُرِيدُ أن يُصلحَ بين الندماء . فيقولُ : « يجبُ أن يُحْذَرَ من مَلَكٍ يَعْبُرُ ، فيرى هذا المجلسَ ، فيرفعُ حديثَهُ إلى الْجَبَّارِ الْأَعظم ، فلا يجُرُّ ذلك إلا إلى ما تكرهانِ .

---

(١) التامورة : الوعاء فيه الخمر أو الإبريق أو الدن (٢) معنى الأبيات : تحينت غفلة الرقيب فدخلت عليها ، وما زلت بها حتى استسلمت للنوم بعد أن أخذت حظها من اللعب ، فطويتها تحتى كما يفعل كل سيد جليل القدر بخليلته التى حامت حوله الظنون من أجلها ، ونعمت بضمها وعناقها ؛ ومتعت نفسى بلمس بطنها وخاصرتها ، فكأنما لمست حقا من العاج امتزج بطيبه زعفرانه ، ثم حضر إبريق الخمر ورفع متهيئاً للشراب (٣) رأيتهم قلة ، فاستخففت بهم . وما أبدع قول السموءل فى مثل هذا المعنى من لاميته المشهورة :

« تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : « إن الكرام قليل !
وما قل من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول
وما ضرنا أنا قليل ، وجارنا عزيز ، وجار الأكثرين ذليل! »

(٤) الصقيع أو البرد الشديد (٥) الصخدان : اليوم الشديد الحر (٦) العربدة : الإيذاء وسوء الخلق (٧) الحمقى (٨) نزّاع إلى الشر ، أو مسرع إلى ما لا ينبغى .

واسْتَغْنَى رَبُّنَا أن تُرْفَعَ الأخبارُ إليه ، ولـكن جرى ذلك مجرى الْحَفَظَةِ فى الدار العاجلةِ . أَمَا عَلِمْتُمَا أن « آدَمَ » خرج من الجنةِ بذنبٍ حَقِيرٍ[١] ! فغيرُ آمِنٍ مَن وُلِدَ أن يُقْدَرَ لهُ مثلُ ذلك ! فَسأَلْتُكَ بِاللهِ يا أَبَا بَصِيرٍ : هل يَهْجِسُ لك تَمَنِّى الْمُدَامِ ؟ » فيقولُ : « كَلاَّ وَاللهِ ، إِنهَا عندى كَمِثْلِ الْمَقِرِ ، لا يَخْطُرُ ذكرُها بِالْخَلَدِ ، فالحمدُ للهِ الذى سقانى عنها[٢] السُّلْوَانَةَ[٣] »

* * *

فيقولُ :

« يا أَبَا لَيْلَى ! إن اللهَ — جلَّتْ قدرتهُ — مَنَّ علينا بهؤلاء الْحُورِ الْعِينِ اللواتى حَوَّلَهُنَّ عن خَلْقِ[٤] الْإِوَزِّ ، فَاخْتَرْ لنفسك واحدةً منهُنَّ ، فلتذهبْ معك إلى منزلكَ تُلاَحِنُكَ أَرَقَّ اللِّحَانِ ، وتُسْمِعُكَ ضُرُوبَ الْأَلْحَانِ . »

فيقولُ لَبيدُ بْنُ رَبِيعَةَ[٥] : « إنْ أَخَذَ أبو لَيْلَى قَيْنَةً ، وأَخَذَ غَيْرُهُ مثلَهَا ، أَلَيْسَ يَنتشرُ خبَرُها فى الْجَنَّةِ ؟ فلا يُؤْمَنُ أن يُسَمَّى فَاعِلُو ذلك : أَزْوَاجَ الْإِوَزِّ ؟ » .

فتُضْرِبُ الجماعةُ عنِ اقتِسَامِ أُولئكَ الْقِيَانِ[٦] .

---

(١) ومن أجل هذا الذنب أنحى عليه « المتنبى » بقوله — مخاطباً أبناء آدم :

« أبوكم آدم سن المعاصى وعلمكم مفارقة الجنـان »

(٢) بدلنى منها (٣) العسل (٤) فطرة (٥) مرت ترجمته فى ص ٤٦ من هذا الجزء

(٦) انظر إلى ما فى هذه الجملة الرشيقة من الدعابة الحلوة والفن الدقيق ، فهى تمثل سذاجة القوم وطيبة قلوبهم أبدع تمثيل

حسان بن ثابت[1]

وَيَمُرُّ حسّانُ بنُ ثَابتٍ ، فيقولونَ : « أَهْلًا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ! أَلا تَحَدَّثُ معنا

---

(١) حسان بن ثابت

توفى سنة ٥٤ هجرية

هو حسان بن ثابت الأنصارى ، وكنيته أبو الوليد ، ولد بالمدينة ، وعاش فى الجاهلية والاسلام ، وتكسب بالشعر ، فقد مدح المناذرة والغساسنة، وازدحمت عنده صلات آل جفنة (من ملوك غسان) الذين غالى فى مدحهم ، وقد بلغ من حبهم إياه أنهم لم ينكروه بعد إسلامه ، بالرغم من نصرانيتهم

أسلم حسان مع الأنصار — حين هاجر الرسول إلى المدينة — فلما اشتد إيذاء قريش للنبى بالهجاء وقال لأصحابه : « ما يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ — لباه حسان قائلا : « أنا لها ! » وضرب بلسانه أرنبة أنفه وقال : « والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء ! والله لو وضعته على صخر لفلقه ، أو على شعر لحلقه ! » فقال له النبى : « كيف تهجوهم ؟ وأنا منهم ! » فقال : « أسلُّك منهم كما تسل الشعرة من العجين ! » فقال : « اهجهم وروح القدس معك ! » ثم وقف شعره على مناصرته ، وانقطع إلى مدحه والنضح عنه .

وقد اشتهر حسان بأنه كان جباناً ، مخلوع القلب ؛ وسترى فى هذه المناقشة «الخيالية» التى دارت بينه و بين ابن القارح ما يؤيد ذلك :

ومن أروع ما قال ، بيته الفذ :

وإنّ امرأً أمسى وأصبح سالماً   من الناس — إلا ما جنى — لسعيد

وقد حكى أحدهم أنه سمعه — فى جوف الليل — وهو ينوه بأسمائه، و يقول : « أنا حسان ابن ثابت ! أنا ابن الفُرَيعة ! أنا الحسام ! » فلما أصبح سأله عن السبب فى ذلك وعما أعجبه ، فقال له حسان : « عالجت بيتاً من الشعر فلما أحكمته ، نوهت بأسمائى ؛ وذكر له ذلك البيت :

سَاعَةً ؟ » فَإِذَا جلسَ إِليهم قالوا : « أَين هذه الْمَشْرُوبَةُ من سَبِيئَتِكَ[1] التى ذكرتَهَا فى قولك :

كَأَنَّ سَبِيئَةً مِنْ بَيْتِ رَاس[2] … يَكُونُ مِزَاجَهَا عسَلٌ وَمَاءُ

عَلَى أَنْيَابِهَا . أَوْ طَعْمَ غَضٍّ … مِنَ التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِنَاءُ

عَلَى فِيهَا ؛ إِذَا مَا اللَّيْلُ قَلَّتْ … كَوَاكِبُهُ ، ومَالَ بِهَا الْغِطَاءُ

إِذَا مَا الْأَشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ - يَوْمًا - … فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الْفِدَاءُ[3]

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فان للبيت روعة وجمالاً لا يقفان عند حد ، وهو إلى ذلك يحوى حكمة أصيلة لا يتردد مفكر فى إكبارها و إكبار الذهن الذى أخرجها !

ومثل حسان ، جدير أن يفخر بهذا البيت الخالد !

وستمر بك فى هذا الحديث بضع أبيات جميلة من شعره .

(١) خمرك (٢) اسم قرية بالشام مشهورة بجودة الخمر ، وهى إحدى الأماكن التى أحرزت شهرة كبيرة فى ذلك ، وهو يصف فى هذه الأبيات ريق امرأة (٣) هذه الأبيات الأربعة من قصيدة طويلة لحسان قالها فى مدح النبى — قبل فتح مكة — وهجا فيها أبا سفيان — قبل أن يسلم — لأنه هجا النبى ، وقد ورد قبل هذه الأبيات قوله :

ديار من بنى الحسحاس قفر … تعفّيها الروامسُ والسماء

وكانت لا يزال بها أنيس … خِلالَ مُروجها — نَعم وشَاء

فَدَع هذا ، ولكن منْ لطيف … يؤرقنى — إذا ذهب العِشاء

لشعثاء التى قد تيمته … فليس لقلبه منها شفاء

كأن سبيئة من بيت رأس الخ .

وقد ورد بعدها قوله :

نوليها الملامة إن ألمنا … إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاء

ونشربها فتتركنا ملوكا … وأُسداً ، ما ينهنهنا اللقاء

وَيحكَ ! ما استَحْيَيْتَ أن تذكرَ هذا في مِدْحَتِكَ رسُولَ الله ؟ »

فيقولُ : « إنه كان أسجحَ خُلقاً مما تَظُنُّونَ . وَلم أقلْ إلا خيراً ، لم أذكرْ أنِّي شَرِبْتُ خمراً ، ولا رَكبتُ — مِمَّا حُظِر — أمراً ، وإنما وصفتُ رِيقَ امرأةٍ : يجوزُ أن تكونَ حِلا لِي ، ويمكنُ أن أقوله على الظن ! وقد شَفع في أبي بصير بعد ما تهكَّم في مواطن كثيرة ! وما سُمِعَ بأكرم منه. لقد أَفِكْتُ فجلدَني مع مِسْطَحٍ، ثم وهب لي أُخْتَ ماريةَ، فولَدَتْ لي عَبدَ الرَّحمن ، وهي خالةُ ولدِهِ « إبراهِيمَ »

وهو[1] — زَيَّنَ اللهُ الآدابَ ببقائِهِ — يَخطُرُ في ضميره أشْياءُ يريد أن يذكرَها لحسَّانٍ وغيرِهِ ، ثم يخاف أن يكونوا لما طلب غير محسنين ، فيُضْربُ عنها إكراماً للجليس .

ويقول قائل من القوم : « كيف جُبْنُكَ يا أبا عبدِ الرحمن ؟ »

فيقول : « أَلِي يقال هذا — وقومي أشجعُ العربِ — أراد سِتَّةٌ منهم أن يميلوا على أهلِ المَوْسِمِ بأسْيافِهِمْ ، وأَجارُوا النَّبِيَّ صلى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ، على أن يُحارِبوا معهُ كلَّ عَنودٍ[2] ، فرمتهم رَبيعَةُ ومُضَرُ وجميعُ العَرَبِ عن قوسِ العَدَاوَةِ ، وَأَضْمَرُوا لهم ضِغْنَ الشَّنَآنِ .

وفي هذه القصيدة يقول بعد أبيات :

« ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوَّف نخبٌ هواء
بأن سيوفنا تركتك عبداً وعبد الدار سادتها الإماء
هجوت محمداً ، فأجبتُ عنه وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء . » الخ الخ

والقصيدة طويلة مشهورة وهي في أول ديوانه ، فليرجع إليها من شاء .

(١) أي ابن القارح (٢) جائر عن القصد

وَإِن ظهر منى تَحَرُّزٌ فى بعض المواطن، فإنما ذلك على طريقة الْحَزْمِ ، كما جاء فى الكتاب الكريم : « وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ »

ويفترقُ أهلُ ذلك المجلسِ ، بعدَ أن أقامُوا فيهِ كعُمُرِ الدنيا أضعافاً كثيرةً .

عُـوراَنُ قيس

فبينما هو[1] يطوفُ فى رياضِ الجنة، لَقِيَهُ خمسَةُ نَفَرٍ على خمسةِ أَيْنُقٍ، فيقولُ : « ما رأيْتُ أَحْسَنَ من عيونِكُمْ فى أهل الْجِنانِ ، فمن أنتم خَلَّدَ اللهُ عَليكمِ النَّعِيمَ ؟ »

فيقولونَ : « نحن عورانُ[2] قَيْسٍ : تَمِيمُ بْنُ مُقْبِلٍ العَجْلَانِيُّ[3]، وَعَمْرُو بْنُ أَحْمَرَ[4] البَاهِلِيُّ ، وَالشَّمَّاخُ مَعْقِلُ بْنُ ضِرَارٍ ، وراعى الإِبِلِ عُبَيْدُ بْنُ الْحُصَيْنِ النُّمَيْرِيُّ ، وَحُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ الْهِلَالِيُّ »

فيقولُ لِلشَّمَّاخِ بْنِ ضِرَارٍ[5] : « لقد كان فى نفسى أَشْياءُ من قصيدتك التى على الزَّاىِ ، وكلمتك التى على الْجِيمِ ، فأَنْشِدْنيهما لا زِلْتَ مُخَلَّداً كريماً ! »

---

(١) أى ابن القارح (٢) جمع أعور (٣) ستمر بك ترجمته بعد صفحات

(٤) ترجمته فى صفحة ٦٣

(٥) الشماخ معقل بن ضرار

شاعر مخضرم، رجاز على البديهة ، ميال إلى الهجاء ، ذاع صيته فى وصف القوس والخمر ، وقد بلغ من إعجاب الحطيئة (الشاعر المشهور وستمر بك ترجمته) به ، أنه قال: « أبلغوا الشماخ أنه أشعر غطفان كلها ! » ولعل السر فى إعجاب الحطيئة به هو اشتراكه معه فى النزوع إلى الشر !

والشماخ هذا هو صاحب البيتين المشهورين فى مدح عرابة الأنصارى . وهما قوله :

« رأيت عرابة الأوسى يسمو ... إلى الخيرات منقطع القرين

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عرابة باليمين »

فيقولُ : « لقد شَغلَنى عنهما النَّعيمُ الدائمُ ، فما أذكرُ مِنْهُما بيتاً وَاحِدًا » فيقولُ لِفَرْطِ حُبِّهِ بالأَدَبِ : « لقد غَفلْتَ أيها المؤمِنُ وأضعتَ ! أما عَلِمْتَ أن كلمتيك أنفعُ لك من ابْنَتَيْكَ ؟ ذُكِرْتَ بهما فى المواطن ، وَشُهِرْتَ عند راكب السَّفَرِ والقاطنِ . وإن القصيدةَ من قَصَائدِ النَّابغةِ لَأَنْفَعُ له من ابْنَتِهِ « عَقْرَبَ » ولعل تلك شَانَتْهُ وما زَانتْهُ ، وأصابها فى الجاهلية سِباءٌ[1] ، وما وفَّرَ لِأَجْلِها الْحِباءَ[2] . وإن شِئْتَ أن أُنْشِدَكَ قصيدَتَيْكَ ، فإن ذلك ليس بِمُتَعَذِّرٍ عَلَيَّ »

فيقولُ : « انْشِدْنى — صَفَتْ عليك نعمَةُ اللهِ — » فَيُنْشِدُهُ :

«عَفا مِن سُلَيْمَى بَطْنُ قَوٍّ ، فَعالِزُ ، فَذَاتُ الغَضَى ، فالْمُشْرِفاتُ النَّوَاشِزُ[3]»

فيَجِدُهُ بها غيرَ عَليمٍ ، ويَسْأَلُهُ عن أشياءَ منها فيُصَادِفُهُ بها غير بَصيرٍ .

فيقولُ : « شَغلَتنى لذائِذُ الْخُلودِ عن تعهُّدِ هذه المنكَرَاتِ ، إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ، وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّما كنتُ أَسِقُ[4] هَذِهِ الأُمُورَ وَأَنا آمُلُ أَن أُقْفِرَ[5] بِها ناقةً ، أَوْ أُعْطَى

---

(١) أسر (٢) العطاء (٣) « بطن قو » و « عالز » و « ذات الغضى » أسماء أماكن ببلاد العرب — والمشرفات النواشز الجبال الشديدة الارتفاع ؛ ومعنى البيت : أن كل تلك الأماكن — التى ذكرها — قد أقفرت من سليمى !

وهذا البيت مطلع قصيدة له . قالها فى وصف القوس ومنها قوله :

« وذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ! ولها – أن يغرق السهم – حاجز
إذا أنبض الرامون عنها ترنمت ترنم ثكلَى أوجعتهـــا الجنائز »

وما أبدع قول ابن الرومى فى تشبيهه برنين القوس :

« تصمى المحب ، وتلقَى – الدهر – شاكية كالقوس ؛ تصمى المنايا ، وهى مرنان »

(٤) أجمع (٥) أعطى وأمنح

كَيْلَ عِيالِى سَنةً، وَأنا الآنَ فى تَفَضُّلِ اللهِ، أَغْتَرِفُ فى مَرافِدِ العَسْجَدِ من أنهارِ اللَّبنِ ، فتَارةً ألْبانَ الإبلِ ، وتارَةً ألْبَانَ البقرِ ، وإنْ شِئْتُ لَبنَ الضَّأْنِ فإنهُ كَثيرٌ جَمٌّ ، وكذلك لبَنُ المَعِزِ ؛ وإنْ أَحْبَبْتُ وِرْداً من رِسْلِ الْأَرَاوَى[1] ، فَرُبَّ نهْرٍ منهُ كأنهُ دِجْلَةُ أو الفُراتُ ! وَلقد أرانِى فى دارِ الشِّقْوةِ أجْهَدُ أخْلاَفَ شِياهٍ لجَبَاتٍ[2] لاَ يَمْتَلِئُ مِنْهُنَّ القَعْبُ[3] ! » فيقُولُ الشيخُ : « فَأَيْنَ عَمْرُو بْنُ أَحمرَ[4] » فَيقولُ عَمْرُو : « هأَنَذَا » فيقولُ : أنْشِدْنى قولَكَ :

« بَانَ الشَّبَابُ، وَأَخْلَفَ الْعمْرُ وَتَغَيَّرَ الْإِخْوَانُ وَالدَّهْرُ »

فقدِ اختلفَ الناسُ فى تفسيرِ الْعمْرِ — بِالْفَتْحِ — فقيلَ : إنكَ أَردتَ البقاءَ ،

---

(١) لبن الوعول (٢) قليلة اللبن (٣) القدح الغليظ الضخم

(٤) عمرو بن أحمر

فى الموشح وغيره من كتب الأدب : عمرو بن أحمر .

وقال العسقلانى فى الإصابة : عمرو بن الأحمر الباهلى .

وقال المرزبانى : مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام ، فأسلم وغزا مغازى فى الروم ، وأصيب بإحدى عينيه هناك . ونزل الشام ، وتوفى على عهد عثمان بعد أن بلغ سناً عالية . وهو صحيح الكلام ، كثير الغريب .

وقال أبو الفرج : قال عمرو بن أحمر فى الإسلام شعراً كثيراً ، ومدح الخلفاء الذين أدركهم وخالد بن الوليد . وكان فى حبسة الشام . ولم يلق أبا بكر ، ومدح عمر فمن دونه .

*
* *

قال صاحب الموشح صفحة ٨٠ :

أقوى عمرو فى بيتين متقار بين من أبيات أولها :

ما للكواكب يا عيساء قد جعلت تزور عنى وتطوى دونى الحجر

فقال فيها :

وكنت أمشى على رجلين معتدلاً فصرت أمشى على أخرى من الشجر

وقيلَ : إنك أردتَ الوَاحدَ من عُمُورِ الأَسْنَانِ، وهوَ اللحْمُ الذى بينَهَا »
فيقولُ عَمْرُو مُتَمَثِّلًا :

ثم قال بعده :

فقد جعلت أرى الشخصين أربعة   والواحـــد اثنين مما بورك البصر[1]

وأتبعه بقوله :

وقد جعلت إذا ما قمت يثقلنى   ردفى فأنهض نهض الشارب السكر

وقال صاحب الموشح أيضاً فى صفحة ٨٨ :

قال ابن أحمر :

غادرنى سهمـــه أعشى وغادره   سيف ابن أحمر يشكو الرأس والكبدا

أراد غادرنى سهمه أعور ، فلم يمكنه ، فقال : أعشى .

قلنا : ولعل ابن أحمر لم يرد التصريح بما أصابه ، ورغب فى تهوينه ، فعدل عن العور إلى العشاء ، لأنه أخف ضرراً ، وأنجح فى الموازنة بين ما فعل به خصمه ، وما فعل هو بخصمه . فإذا حَسُنَ هذا التوجيه ، بطلت نقدة المرزبانى . ولكلٍّ وجهة .

*
* *

ويستشهد اللغويون كثيراً على الألفاظ بشعر عمرو هذا ، وكثيراً ما تجد هنالك قولهم : «قال ابن أحمر» وذلك لفصاحة عمرو ، وإكثاره من الغريب فى شعره ؛ فمن ذلك ما فى اللسان فى استشهاده على أن العمور منابت الأسنان ، واحدها عَمْر ؛ بهذا البيت الذى أورد المعرى .

ومن ذلك ما فى الكتاب للصولى ، قال : العرب تسمى أول ليلة من الشهر : النحيرة ، لأن الهلال نحرَها ، أى رؤى فى نحرها ومطلعها ، قال ابن أحمر :

ثم استمر عليها واكف همع   فى ليلة نحرت شعبان أو رجبا

---

(١) أخذ ابن الرومى هذا المعنى كما نبهنا على ذلك فى هامش صفحة ٥١ تعليقاً على قول المخبل السعدى : « أرى الشخص كالشخصين وهو قريب »

خُذَا وَجْهَ هَرْشَى[1] أَوْقَفَاهَا، فإنَّهُ ... كِلاَ جَانِبَيْ هَرْشَى لَهُنَّ طَرِيقُ

ولم تترُكْ فِيَّ أهوالُ القيـــامَةِ غُبْرًا[2] لِلْإِنْشَادِ، أمَا سمعتَ الآيَةَ :
« يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى الناسَ سُكَارَى، ومَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ »

وقد شهِدْتَ الموقِفَ، فالْعَجَبُ لك إِذْ بَقِيَ معك شيءٌ من روايتك . »

*
* *

فيقولُ الشيخُ : « إنِى كنتُ أُخْلِصُ الدُّعاءَ فى أعقَابِ الصلوَاتِ — قبلَ أَنْ أَنتقلَ من تلك الدارِ — أَن يُمتِّعَنِيَ اللهُ بِأَدَبِى فى الدنيا والآخِرَةِ . فَأَجَابَنِي إلى مَا سَأَلتُهُ، وهوَ الحميدُ المجيدُ . »

ثم يذكرُ له أشياءَ من شعره، فَيَجِدُهُ، عن الجوَابِ مُسْتَعْجِمًا .

ومن شعر ابن أحمر ما أثبته صاحب الإصابة :

« متى تطلب المعروف فى غير أهله ... تجد مطلب المعروف غير يسير
وإن أنت لم تجعل لعرضك جنة ... من الذم سار الذم كل مسير »

(١) هرشى : ثنية فى طريق مكة قريبة منها، والمراد من التمثيل بهذا البيت أن كلا التأويلين صحيح، فليأخذ من يأخذ بأيهما شاء (٢) غبر كل شىء : بقيته

حكاية تميم بن أُبَىّ

فيقول « أَيُّكُمْ تَمِيمُ بْنُ أُبَيّ ؟[١] » فيقول رَجلٌ مِنهم : « هَأَنَذَا ! » فيقول : « أَخْبِرْنِى عَن قوْلكَ :

يَا دَارَ سَلْمَى خَلاَءً لَا أُكَلِّفُهَا ... إِلَّا الْمَرَانَةَ حَتَّى تَسْأَمَ الدِّينا

مَا أَرَدتَ بِالْمَرَانَةِ ؟ فقــدْ قِيلَ إِنَّكَ أَرَدتَ اسْمَ امْرَأَةٍ ! وَقيلَ هِيَ اسْمُ

---

(١) تميم بن أُبَيّ

فى كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : « تميم بن أبى مقبل » . وفى بلوغ الأرب للألوسى : « تميم بن مقبل » . وفى خزانة الأدب : « تميم بن أُبَيّ بن مقبل » . وقال : « وأُبَيّ — بالتصغير وتشديد الياء — » . وهو يوافق ما بين أيدينا من نسخ رسالة الغفران .

*
* *

وتميم هذا شاعر مخضرم ، معدود فى الفحول ، لما أدرك الاسلام كان يبكى أهل الجاهلية . وقد عاش نحو مائة وعشرين سنة .

قال البغدادى : كان تميم يهاجى النجاشى الشاعر ، فهجاه النجاشى ؛ فاستعدى عليه تميمٌ عمرَ رضى الله عنه . فقال : يا أمير المؤمنين ، هجانى ! فقال عمر : يا نجاشى ، ما قلت ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، قلت ما لا أرى فيه عليه بأساً .

وأنشـــده :

إذا الله جازى أهل لؤم بذمة ... فجازى بنى العجلان رهط بن مقبل

فقال عمر : إن كان مظلوماً استجيب له ، وإن لم يكن مظلوماً لم يستجب له .

قالوا : وقد قال أيضاً :

قبيلته لا يغدرون بذمـــة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليت آل الخطاب كذلك !

قالوا : فإنه قال :

ولا يردون الماء إلا عشية ... إذا صدر الوراد عن كل منهل

أَمَةٍ ، وَقِيلَ الْعَادَةُ » فيقول : تَمِيمٌ « وَاللهِ مَا دَخَلْتُ مِنْ بَابِ الْفِرْدَوْسِ وَمَعِى

فقال عمر : ذلك أقل للزحام .

قالوا : فإنه قال :

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف ونهشل

فقال عمر : يكفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه !

قالوا : فإنه قال :

وما سمى العجلان إلا لقوله   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : كلنا عبد ، وخير القوم خادمهم !

قال تميم : فسله يا أمير المؤمنين عن قوله :

أولئك إخوان اللعين وأسوة الـ   ـهجين ورهط الواهن المتذلل

فقال عمر : « أما هذا فلا أعذرك عليه » . فحبسه ، وقيل جلده .

قال الحصرى القيروانى فى زهر الآداب :

كان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، إذ كان عبد الله بن كعب جدهم إنما سمى العجلان لتعجيله القرى للضيفان ، وذلك أن حيا من طىء نزلوا به ، فبعث إليهم بقراهم عبداً له ، وقال له : أعجل عليهم . ففعل العبد ، فأعتقه لعجلته .

فقال القوم : ما ينبغى أن يسمى إلا العجلان ، فسمى بذلك . فكان شرفاً لهم ، حتى قال النجاشى هذا الشعر ، فصار الرجل (من رهط بن مقبل) إذا سئل عن نفسه . قال : كعبى . و يرغب عن العجلان .

***

ومن غرر شعر تميم ما أنشد له دعبل :

« فأخلفْ وأتلفْ إنما المـــال عارة   وكله مع الدهر الذى هو آكله

وأيسر مفقود ، وأهون هالك   على الحى من لا يبلغ الحى نائله »

ومن شعره :

« خليلىّ لا تستعجلا وانظرا غـــدا   عسى أن يكون الرفق فى الأمر أرشدا »

كلِمةً مِنَ الشِّعْرِ وَلا الرَّجَزِ ، وَذلكَ أَنِّي حُوسِبْتُ حِسَاباً شَدِيداً . وَقِيلَ لِي : « كُنْتَ فِي مَنْ قاتَلَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ » وَانبَرَى إِلَيَّ النَّجَاشِيُّ الْحَارِثِيُّ ، فَمَا أَفْلَتَ مِنَ اللَّهَبِ حَتَّى سَفَعَنِي[1] سَفَعَاتٍ . وَإِنَّ حِفْظَكَ لَمُبْقٍ عليكَ ، كأَنَّكَ لَمْ تَشْهَدْ أَهْوَالَ الحِسابِ ، وَمُنَادِيَ الْحَشْرِ يقولُ : « أَيْنَ فُلاَنُ ابْنُ فُلاَنٍ » وَالشُّوسُ[2] الْجَبَابِرَةُ مِنَ الْمُلُوكِ تَجْذِبُهُمُ الزَّبَانِيَةُ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَالنِّسْوَةُ ذَوَاتُ التِّيجَانِ يَصِرْنَ بِأَلْسِنَةٍ مِنَ الْوَقُودِ ، فَتَأْخُذُ فِي فُرُوعِهِنَّ وَأَجْسادِهِنَّ ، فَيَصِحْنَ : «هَلْ مِنْ فِدَاءٍ ؟ هَلْ مِنْ عُذْرٍ يُقَامُ ؟» والشَّبَابُ مِنْ أَوْلَادِ الأَكَاسِرَةِ يَتَضَاغَوْنَ[3] فِي سَلَاسِلِ النَّارِ ، وَيقولونَ : « نَحْنُ أَصْحَابُ الْكُنُوزِ ، نَحْنُ أَرْبَابُ الْفَانِيَةِ ، وَلَقَدْ كَانَتْ لَنَا إِلَى النَّاسِ صَنَائِعُ وَأَيَادٍ ، فَلاَ فَادِيَ وَلَا مُعِينَ ا »

فَهَتَفَ دَاعٍ مِنْ قِبَلِ الْعَرْشِ : « أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ، فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » لَقَدْ جَاءَتْكُمُ الرُّسُلُ فِي زَمانٍ بَعْدَ زَمانٍ ، وَبَذَلَتْ لَكُمْ مَا وُكِّدَ مِنَ الْأَيْمَانِ ، وقيلَ لَكُمْ فِي الْكِتَابِ : «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ» فَكُنْتُمْ فِي لَذَّاتِ السَّاخِرَةِ[4] وَاغِلِينَ[5] ، وَعَنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ مُتَشَاغِلِينَ . فَالآنَ ظَهَرَ النَّبَأُ « لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ »

وقد استشهد الرضى فى شرح الكافية على أن سراويل غير منصرف عند الأكثرين بقول تميم يصف الثور الوحشي :

أتى دونها ذَبّ الرياد كأنه فتى فارسيٌّ فى سراويل رامح

(١) لطمنى (٢) الشجعان الجريئون على القتال (٣) يتضورون ، أو يصيحون صياح الضعفاء المستخذين (٤) الدنيا (٥) ممعنين ومسرفين ، أى منغمسين فى لذائذها

الفصل الثاني

يوم الموقف

حكاية ابن القارح

فيقول(١) : « أَنَا أَقُصُّ عَلَيْكَ قِصَّتِي :

لَمَّا نَهَضْتُ أَنتفِضُ مِنَ الرَّيْمِ(٢) ، وَحَضَرْتُ حَرَصَاتِ(٣) الْقِيَامَةِ ، ذَكَرْتُ الآيَةَ : « تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ والرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا » فطَالَ عليَّ الأَمَدُ ، واشتَدَّ الظَّمَأُ ، وأَنَا رجلٌ مِهْيَافٌ(٤) ، فافتَكَرْتُ(٥) فرَأَيْتُ أَمْرًا لَا قِوَامَ لِمِثْلِي بِهِ ، وَلقِيَنِي الْمَلَكُ الْحَفِيظُ بِمَا زُبِرَ(٦) لِي منْ فِعْلِ الخيْرِ ، فوجدتُ حَسنَاتِي قليلةً كَالنُّفَإِ فِي الْعَامِ الأَرْمَلِ(٧) ، إِلا أن التَّوْبَةَ فِي آخِرِهَا كَأَنَّهَا مِصباحُ أَبِيلٍ(٨) ، رُفِعَ لِسَالِكِ السَّبِيلِ .

---

(١) أى ابن القارح (٢) القبر (٣) ساحات (٤) الرجل المهياف : السريع العطش ، كما شرحها المعرى نفسه ، وزاد غيره : أو شديده . ومثله : المُهتاف

(٥) فى نسخ الرسالة : افتكرت ، وكذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

قال افتكار فى الحوادث صادق جعل الصعاب من الحذار مذلله :
« هفت الحنيفة ، والنصارى ما اهتدت ويهود حارت ، والمجوس مضلله
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر ديّن لا عقل له »

أما ما فى المعاجم المعتمدة ، فهو : فكَر فى الشىء وأفكر وفكّر وتفكّر ، وليس فيها افتكر . على أن المعاجم ذكرت أن الفكرة اسم من « الافتكار » كالرحلة من الارتحال .

(٦) كُتب (٧) النفَأ : الرياض ، والعام الأرمل : قليل المطر (٨) الأبيل — كأمير — كلمة معربة ، ومعناها رئيس النصارى ، أو الراهب

حديثه مع رضوان

فلمَّا أَقمْتُ فى المَوقفِ زُهَاءَ شَهرٍ أَو شَهرَيْنِ ، وخِفْتُ من الغَرَقِ ، فى العَرَقِ ، زَيَّنَتْ لِى النَّفْسُ الكاذِبَةُ أَنْ أَنظمَ أَبياتًا فى رِضْوَانَ ، خازِنِ الجِنَانِ ، عَمِلْتُهَا فى وَزْنِ : « قِفَا نَبْكِ منْ ذِكْرَى حَبيبٍ وَعِرْفَانِ » وَوَسَمْتُهَا بِرِضْوَانَ ، ثُمَّ ضَانَكْتُ[١] النَّاسَ حتَّى وَقفتُ منهُ بحيثُ يَسْمعُ وَيَرَى ، فمَا حَفَلَ بِى ، وَلَا أَظُنُّهُ أَبهَ لِمَا أَقُولُ، فغَبَرْتُ[٢] بُرْهَةً نحوَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ منْ أَيَّامِ الفَانيَةِ ، ثُمَّ عَمِلْتُ أَبياتًا فى وَزْنِ :

بَانَ الخَليطُ وَلَوْ طُووِعْتَ مَا بَانَا ... وَقَطَّعُوا مِنْ حِبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانَا[٣]

---

(١) ضايقت . زاحمت (٢) مكثت (٣) الخليط : الركب ، والأقران ، جمع : قرن : ومعناه فى الأصل : الحبل يجمع به البعيران . والمراد فى هذا البيت أنهم قطعوا ما كان يجمع بينه و بين حبيبه من أسباب اللقاء

وهذا البيت مطلع قصيدة لجرير الخَطَفَى ، يهجو بها الأخطل ، ومن رقيق أبياتها الغزلية :

قالت : أَلِمَّ بنا إن كنت منطلقاً ... ولا إخالك بعـــد اليوم تلقانا

يا طيب هل من متاع تمتعين به ... ضيفاً لكم باكراً يا طيب عجلانا

ما كنت أول مشتاق أخى طرب ... هاجت له غدوات البين أحزانا

يا أم عمرو جـــزاك الله مغفرة ... ردى على فؤادى كالذى كانا

قد خنتِ من لم يكن يخشى خيانتكم ... ما كنتِ أول موثوق به خانا

لقد كتمتُ الهـــوى حتى تهيّمنى ... لا أستطيع لهـــذا الحب كتمانا

لا باركَ الله فى الدنيـا إذا انقطعت ... أسباب دنياكِ من أسباب دنيانا

إن العيون التى فى طرفهـا مرض ... قتّلننا ثم لم يحيين قتـــلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله أركانا

وَوَسَمْتُهَا بِرِضوَانَ ، ثم دَنَوْتُ منهُ ، فَفعلْتُ كَفِعْلِيَ الأوّلِ ، فَكَأَنِّى أُحَرِّكُ

وهو جرير بن عطية بن حذيفة الخطفَى ، وكنيته أبو حزرة .

وقد ولد باليمامة فى خلافة عثمان ، ونشأ بدوياً يرعى غنمه ، وكان هو وأهله فقراء يغلب عليهم الشعر يهجون به أعداءهم ، وقد هجا جرير البعيث ، وهو من قوم الفرزدق ، فانتصر الفرزدق لقومه ، فاشتبك جرير والفرزدق فى مهاجاة دامت عشر سنين

وقد رحل جرير إلى البصرة وظل يهاجي الفرزدق ومن يتدخل فى شأنه كالأخطل ، فاتصل بولاة العراق ، كبشر بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، ثم اتصل بعبد الملك بن مروان ، ومن بعده من خلفاء بنى أمية ، وزاحم الفرزدق على أبوابهم فزحمه .

و يمتاز شعر جرير بمتانة القافية ، والبعد عن التعقيد ، والسلامة من التكلف . وامتاز نسيبه بالرقة والعذوبة ، على أنه لم يعشق قط ، وقد قال : « لو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكى على شبابها »

وقد قيل : أمدح بيت قول جرير :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

وأهجى بيت قوله :

فغض الطرف إنك من نمير   فلا كعبا بلغت ولا كلابا

وأغزل بيت قوله :

إن العيون التى فى طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وأفخر بيت قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا

وأبلغ بيت فى التهكم قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعا   أبشر بطول سلامة يا مربع

وأخبار جرير لا يتسع لها هذا المقام ، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق .

ثَبِيرًا[1] وَالتَمِسُ من الْعِضْرِمِ[2] عَبِيرًا ، فلَمْ أَزَلْ أَتَتَبَّعُ الأَوْزَانَ التى يُمكِنُ أَنْ يُوسَمَ بهَا رِضوَانُ حتَّى أَفْنَيْتُهَا ، وَأَنَا لَا أَجِدُ عندهُ مَغُوثَةً ، ولَا ظَنَنْتُهُ فَهِمَ مَا أَقُولُ، فلمَّا اسْتَقْصَيْتُ الْغَرَضَ فَمَا أَنْجَحْتُ، دَعَوْتُ بأَعْلَى صَوتى: «يا رِضوَانُ! يا أَمِينَ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الأعْظَمِ عَلَى الْفَرَادِيس ! أَلَمْ تَسْمَعْ نِدائِى بِكَ ، واسْتِغَاثَتِى إِليكَ ؟ » فقالَ : « لقدْ سَمِعْتُكَ تَذْكُرُ رِضوَانَ ومَا عَلِمْتُ مَقْصِدَكَ ، فما الَّذِى تَطْلُبُهُ أَيُّهَا المِسْكِينُ ؟ فأَقولُ : « أَنَا رجلٌ لَا صَبْرَ لِي عَلَى اللُّوَابِ[3] ، وَقَدِ اسْتَطَلْتُ مُدَّةَ الْحِسابِ ، وَمَعِى صَكٌّ[4] بالتَّوْبَةِ ، وَهِيَ لِلذُّنُوبِ كُلِّهَا مَاحِيَةٌ ، وَقدْ مَدحْتُكَ بأَشْعَارٍ كَثِيرةٍ وَوَسَمْتُهَا بِاسْمِكَ » فقالَ : « وَمَا الأَشْعَارُ ؟ » فقلت : « الأَشْعَارُ جَمْعُ شِعْرٍ ، والشِّعْرُ كَلَامٌ مَوْزُونٌ تَقبلُهُ الْغَرِيزَةُ عَلَى شَرَائطَ إِنْ زَادَ أَو نَقَصَ أَبَانَهُ الْحِسُّ ، وكَانَ أَهْلُ الْعَاجِلَةِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلى الْمُلوكِ والسَّادَاتِ فجِئْتُ بشىءٍ منهُ إِلَيكَ ، لَعلكَ تأْذَنُ لِى بالدُّخُولِ فى هَذَا الْبَابِ ، فقَدِ اسْتَطَلْتُ ما النَّاسُ فِيهِ ، وَأَنَا ضَعِيفٌ مَنِينٌ[5] ولا رَيْبَ أَنِّى مِمَّنْ يرْجُو الْمَغْفِرَةَ ، وَتَصِحُّ لَهُ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى » فقال : « إِنَّكَ لَغَبِينُ الرَّأْىِ ، أَتأْمَلُ أَنْ آذَنَ لكَ بغَيْرِ إِذْنٍ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ ؟ هَيهاتَ هيهاتَ ! وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ[6] مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ ! »

حديثه مع زُفَرَ

فَتَرَكْتُهُ وَانْصَرَفْتُ بأَمَلِى إِلى خَازِنٍ آخَرَ يُقالُ لَهُ زُفَرُ ، فَعَمِلْتُ كَلِمَةً وَوَسَمْتُهَا باسْمِهِ ، فى وَزْنِ قَوْلِ لَبِيدٍ :

---

(١) اسم جبل (٢) قال أبو العلاء : العضرم : تراب يشبه الجص (٣) العطش قالوا : «إذا طافت الإبل على الحوض ، ولم تقدر على الماء لكثرة الزحام ، فذلك اللواب.» (٤) إذن أو وثيقة (٥) المنين: الضعيف (والقوى) –ضد– والمراد هنا أنه ضعيف (٦) التناول أو الاختلاط

تَمَنَّى ابْنَتَاىَ أَنْ يَعيشَ أَبُوهُمَا وَهلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْمُضَرْ[1]

وَقَرُبْتُ منهُ، فأَنْشَدْتُهَا، فكَأَنِّى إِنَّمَا أُخَاطِبُ رَكُوداً صَمَّاء، لِأَسْتَنْزِلَ[2] أَبُوداً عَصْمَاءَ[3]، وَلَمْ أَتْرُكْ وَزْنًا مُقيَّداً وَلَا مُطلقاً يَجوزُ أَنْ يُوسَمَ بِزُفَرَ أَلَّا وَسَمْتُهُ بِهِ، فَمَا نَجَعَ، فقلتُ: «رَحِمَكَ اللهُ! كُنَّا فِى الدَّارِ الذَّاهِبَةِ نَتَقَرَّبُ إِلى الرَّئِيسِ وَالْمَلِكِ بالْبَيْتَيْنِ وَالثلاثَةِ فَنجدُ عِنْدَهُ مَا نُحِبُّ، وَقَدْ نَظَمْتُ فِيكَ مَا لَوْ جُمِعَ لَكَانَ دِيوَانًا وَكأَنَّكَ مَا سَمِعْتَ لِى!» فقالَ: «لَا أَشْعُرُ بالَّذى حَمْتَ[4]، وَأَحْسَبُ هَذَا الَّذِى تَجيئُنِي بِهِ قُرْآنَ إِبْليسَ الْمَارِدِ، ولا يَنْفُقُ[5] عَلَى الْمَلَائِكَةِ، إِنَّمَا هُوَ لِلْجَانِّ، وَعَلَّمُوهُ وَلَدَ آدَمَ. فَمَا بُغيَتُكَ؟» فذَكَرْتُ لَهُ مَا أُرِيدُ، فقالَ: «وَاللهِ مَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ، ولا أَمْلِكُ لِخَلْقٍ مِنْ شَفْعٍ، فَمِنْ أَىِّ الأُمَمِ أَنْتَ؟» فقلتُ: «منْ أُمَّةِ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فقالَ «صَدَقْتَ. ذَلِكَ نَبِىُّ الْعَرَبِ، وَمِنْ تِلْكَ الجِهَةِ أَتيْتَنِى بالْقَرِيضِ، لِأَنَّ إِبْليسَ اللَّعِينَ نَفَثَهُ فى إِقْلِيمِ الْعَرَبِ فَتَعَلَّمَهُ نِسَاءٌ ورجالٌ، وَقَدْ وَجَبَ عَلَىَّ نُصْحُكَ، فعليْكَ بِصَاحِبِكَ. لَعَلَّهُ يَتوَصَّلُ إِلى مَا ابْتَغَيْتَ»

فيَئِسْتُ مِمَّا عِندَهُ.

---

(١) مر ذكر هذا البيت فى أبيات فى ترجمة لبيد (صحيفة ٤٦ من هذا الجزء)

(٢) فى نسخ الرسالة: لأستنزل، ويصح به الكلام، على أنه قد يكون تحريفاً، صوابه: لأستزل. واستزله: حمله على أن يزل، فيتصيده، وبذلك تتساوق الجملة، إذ تتحقق المقابلة بين الزلل والاعتصام (٣) المراد بالركود الصماء، الأرض الغليظة، أو الجبل. والمراد بالأبود العصماء: البهيمة المتوحشة المستعصمة بالجبل (٤) حمت: قصدت (٥) يروج

حديثه مع حمزة بن عبد المطلب[1]

فجعلتُ أتخلّلُ العالَمَ، فإذا أنا برجُلٍ عليه نورٌ يتلألأُ، فقلت: «مَنْ هذا الرَّجُلُ؟» فقيلَ: «هذا حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلبِ صَرِيعُ وَحْشِيّ، وهؤلاء الذينَ حَوْلَهُ مَن استُشْهِدُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ في أُحُدٍ» فقلتُ لِنَفْسِي الْكَذُوبِ: «الشِّعْرُ عِنْدَ هَذَا أَنْفَقُ[2] منهُ عِندَ خَازِنِ الْجِنَانِ، لِأنَّهُ شَاعِرٌ وَإِخْوَتُهُ شُعَرَاءُ، وَكَذَلِكَ أَبُوهُ وَجَدُّهُ، ولعلّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ إِلّا مَنْ نَظَمَ شَيْئًا مِنْ مَوْزُونٍ، فَعَمِلْتُ أَبْيَاتًا عَلَى مَنْهَجِ أبياتِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ[3] التي رَثَى بِهَا حَمْزَةَ، وَأَوَّلُهَا:

صَفِيَّةُ قُومِي وَلَا تَعجِزِي   وَبَكِّي النِّسَاءَ عَلَى حَمْزَةَ

وَجِئْتُ حَتَّى وَلِيتُ[4] مِنهُ، فَنَادَيْتُ: «يَا سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ، يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ

---

(١) حمزة بن عبد المطلب هو عم النبى، وكان أسن منه بأربع سنوات أو أقل، وقد أسلم فاعتز به الإسلام، وشهد غزوتى بدر وأحد، وقتله فى الثانية وحشى بن حرب (٢) أروج – أجدى

(٣) كعب بن مالك

هو كعب بن مالك بن عمرو بن القين البدوى الأنصارى الخزرجى، وهو أحد رجال الصحابة، وكان من كبار الشعراء، مشهوراً فى الجاهلية. فلما جاء الإسلام كان من شعراء النبى صلوات الله عليه، وشهد الغزوات. ثم كان من شيعة عثمان، وأغاثه يوم الثورة. وكف بصره فى أخريات أيامه. وعاش سبعاً وسبعين سنة

قال روح بن زنباع: أشجع بيت وصف به رجل قومه، قول كعب بن مالك:

نصِل السيوفَ — إذا قصرن — بخطونا   يوماً ونلحقهـا إذا لم تلحق

(٤) أى دنوت وقربت. وليس فيما بين أيدينا من كتب اللغة إلا، وَلِيَ فلان فلاناً، أى دنا منه، فلعل أبا العلاء ضَمَّنَ وَلِيَ معني دنا. فقال: وَلِيَ منه، كما يقال: دنا منه. وهو سائغ.

صَلَّى اللهُ عليهِ وَسَلَّمَ ! يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ! » فلمَّا أَقْبَلَ عَلَيَّ بِوَجْهِهِ ، أَنْشَدْتُهُ الْأَبْيَاتَ ، فقال : وَيْحَكَ ! أَفِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ تَجِيئُنِي بِالْمَدِيحِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ الآيَةَ ؟ « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »

فقلتُ : « بَلَى ، قَدْ سَمِعْتُهَا وَسَمِعْتُ مَا بَعْدَهَا « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ، ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ، وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيهَا غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ[١] أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ »

فقالَ : « إِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى مَا تَطْلُبُ ، وَلَكِنْ أُنْفِذُ مَعَكَ تَوْرًا[٢] إِلَى ابْنِ أَخِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، لِيُخَاطِبَ النَّبِيَّ — صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ — فِي أَمْرِكَ » فَبَعَثَ مَعِي رَجُلًا ، فلَمَّا قَصَصْتُ قِصَّتِي عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : « أَيْنَ بَيِّنَتُكَ ؟[٣] »

مقابلة أبي على الفارسي[٤]

وَكُنْتُ قَدْ رَأَيْتُ فِي الْمَحْشَرِ شَيْخًا لَنَا كَانَ يَدْرُسُ النَّحْوَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، يُعْرَفُ بِأَبِي عَلِيٍّ الْفَارِسِيِّ ، وَقَدِ امْتَرَسَ[٥] بِهِ قَوْمٌ يُطَالِبُونَهُ وَيَقُولُونَ : « تأَوَّلْتَ

---

(١) غبرة (٢) التَّوْر : الرسول (٣) صحيفة حسناتك

(٤) أبو علي الفارسي : ٢٨٨ — ٣٧٧ هـ

اسمه : الحسن ، وكنيته : أبو علي الفارسي : واسم أبيه أحمد بن عبد الغفار ، اشتهر في علم النحو ، وأقام بحلب عند سيف الدولة بن حمدان مدة ، وجرت محاضرات بينه و بين أبي الطيب المتنبي ، وانتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة بن بويه ، وعلت منزلته هناك ومات في بغداد سنة ٣٧٧ هـ . وقد مر في ترجمة ابن القارح — في الجزء الأول — أنه كان تلميذاً لأبي علي الفارسي ، وأنه درس عليه النحو ، ومن ثم ترى حسن المناسبة في هذا الحديث ، إلى روعة الخيال وجمال التمثيل (٥) تعرّضوا له ، ولجّوا معه

عَلَيْنَا وَظَلَمْتَنَا » فلمَّا رَآنِى أَشَارَ إِلَىَّ بِيَدِهِ ، فَجِئْتُهُ ، فإِذَا عِنْدَهُ طَبَقَةٌ ، مِنْهَا يَزِيدُ بنُ الْحَكَمِ الْكِلاَبِىُّ[1] وهُوَ يقولُ : « وَيحَكَ ، أَنْشَدْتَ عَنِّى هذا الْبَيْتَ بِرَفْعِ الْمَاءِ ، يَعْنِى قَوْلَهُ :

« فَلَيْتَ كَفافًا كَانَ شَرُّكَ كُلُّهُ ... وَخَيْرُكَ عَنِّى مَا ارْتَوَى الْمَاءَ مُرْتَوِى[2] »

وَلَمْ أَقُلْ إِلَّا الْمَاءَ ، وَكَذَلِكَ زَعَمْتُ أَنِّى فَتَحْتُ الْمِيمَ فى قَوْلِى :

« تَبَدَّلْ خَلِيلًا بِى ، كَشَكْلِكَ شَكْلُهُ ، ... فَإِنِّى خَلِيلًا صَالِحًا بِكَ مَقْتَوِى[3] »

---

(١) يزيد بن الحكم الكلابى

هو يزيد بن الحكم الثقفى ، شاعر جاهلى من بنى كلاب بن ربيعة بن صعصعة . ومن مختار شعره قوله :

دفعناكم بالقول ، حتى بطرتم ... وبالراح ، حتى كان دفعُ الأصابع
فلما رأينـــا جهلكم غير منته ... وما كان من أحلامكم غير راجع
مسسنا من الآباء شيئا ، وكلنـا ... إلى حسب فى قومه غير واضع
فلمـــا بلغنا الأمهات ، وجدتمُ ... بنى عمكم كانوا كرام المضاجع[1]

* * *

بنى عمنا لا تشتمونا ، ودافعوا ... على حسب - ما فات قيد الأكارع
وكنا بنى عم - نزا الجهل بيننا - ... فكل يوفى حقـــه غير وادع

وستمر بك — بعد أسطر قلائل — قصيدته الرائعة التى تعد من غرر الشعر العربى

(٢) ما ارتوى الماء مرتوى ، أى دائماً أبداً ، ومعنى البيت : « ليت خيرك يعادل شرك فيكف هذا عنى ذاك ، وأصبح آمناً منك أبداً »

(٣) مقتو أى متبدل به ، ومعنى البيت : « اختر لنفسك صديقاً آخر يشبهك وتشبهه ؛ فانى متبدل بك خليلاً صالحاً » وهو يخاطب ابن عمه ويقرعه على سوء سلوكه معه ، ويعلن إليه ضيق ذرعه بما تحمله منه من الإساءة المتكررة ، ونفور طبعه من خطته الجائرة .

---

(١) كرام الأمهات

وَإِنَّمَا قُلْتُ : « مُقْتَوِى » بِضَمِّ الْمِيمِ ا »

وهذا البيت والذى يليه من قصيدة رائعة له — هى من أجمل الشعر العربى وأجوده وأدقه فى شرح النفوس وتحليلها مع براعة الأداء وقوة الشاعرية — وهى :

تكاشرنى كُرْهاً كأنك ناصح ... وعينك تبدى أن صدرك لى دوى
لسانك ماذىٌّ[1] ، وغيبك علقم ... وشرك مبسوط ، وخيرك منطوى
فليت كفافاً كان خيرك كله ... وشرك عنى ، ما ارتوى الماء مرتوى
عدوك يخشى صولتى — إن لقيتُه — ... وأنت عدوى ، ليس ذاك بمستوى
تصافح من لاقيت لى ذا عداوة ... صفاحاً ، وعنى بين عينيك منزوى
أراك إذا لم أهو أمراً هويته ... ولست لما أهوى من الأمر بالهوى
أراك اجتويت الخير منى ، وأجتوى[2] ... أذاك ، فكل يجتوى قرب مجتوى[3]
وكم موطن — لولاى — طحت كما هوى ... بأجرامه من قُلة النيق[4] منهوى
إذا ما ابتنى المجد ابن عمك لم تعن ... وقلت : « ألا يا ليت بنيانه خوى »
فإنك — إن قيل ابن عمك غانم — ... شجٍ أو عميد أو أخو مغلة لوى
تملأت من غيظ علىّ ؛ فلم يزل ... بك الغيظ حتى كدت بالغيظ تنشوى
وما برحت نفس حسود حسبتها ... تذيبك ، حتى قيل : هل أنت مكتوى ؟
وقال النطاسيون : « إنك مُشْعَرٌ ... سلالا » ألا بل أنت من حسد دوى
جمعت ، وفحشاً ، غيبة ونميمة ، ... خصالاً ثلاثا لست عنها بمرعوى
أفحشاً وجبناً ، واختناء[5] عن الندى ... كأنك أفعى كدية فر محجوى[6]
فيدحو بك الداحى إلى كل سوأة ... فيا شر من يدحو بأطيش مدحوى
بدا منك غش طال ما قد كتمته ... كما كتمت داء ابنها أم مدّوى[7]

(١) عسل أبيض (٢) أكره (٣) كاره (٤) أرفع موضع فى الجبل ، ومعنى البيت « كم موقف آزرتك فيه لحميتك من التلف ، ولو لم أفعل لهويتَ كما يهوى الشىء من أعلى قمة فى الجبل »
(٥) الاختناء التقبض (٦) منطوى (٧) المدوى الذى يأخذ الدواية ، وهى جلدة رقيقة تركب اللبن ، يقال دوى اللبن يدوى فهو مدو . وأقبل الصبيان على اللبن يدوونه ، أى يأخذون ما عليه من الجلدة. ولأم مدو قصة طريفة ، فانظرها فى الأمالى .

وَإِذَا جَمَاعَةٌ مِنْ هذَا الْجِنْسِ ، كُلُّهُمْ يَلُومُونَهُ عَلَى تَأْوِيلِهِ .

فقلتُ : « يَا قَوْمِ إِنَّ هـذِهِ أُمُورٌ هَيِّنَةٌ ، فَلاَ تَمْتَنِتُوا[١] هذَا الشَّيْخَ ، فإِنَّهُ مَا سَفَكَ لَـكُمْ دَمًا ، وَلَا احْتَجَنَ[٢] عَنْـكُمْ مَالًا » .

فَتَفَرَّقُوا عَنْهُ . وَشُغِلْتُ بِخِطَابِهِمْ ، وَالنَّظَرِ فِي حَوِيرِهِمْ[٣] ، فَسَقَطَ مِنِّي الْـكِتَابُ الَّذِي فِيهِ ذِكْرُ التَّوْبَةِ ، فَرَجَعْتُ أَطْلُبُهُ ، فَمَا وَجَدْتُهُ

حديثه مع علي بن أبي طالب[٤]

فَأَظْهَرْتُ الْوَلَهَ وَالْجَزَعَ ، فقالَ أَمِيرُ الْمُـؤْمِنِينَ : « لَا عَلَيْكَ[٥] أَلَكَ شَاهِدٌ بِالتَّوْبَةِ ؟ » فقلتُ : « نَعَمْ ! قَاضِي حَلَبَ وَعُدُولُهَا[٦] » فقالَ : « بِمَنْ يُعْرَفُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ » فأَقولُ : « بِعَبْدِ الْمُنْعِمِ بنِ عَبْدِ الْـكَرِيمِ ، قَاضِي حَلَبَ — حَرَسَهَا اللهُ — فِي أَيَّامِ شِبْلِ الدَّوْلَةِ » فَأَقَامَ هُنَاكَ هَاتِفًا يَهْتِفُ فِي الْمَوْقِفِ : « يَا عَبْدَ الْمُنْعِمِ ابْنَ عَبْدِ الْـكَرِيمِ قَاضِيَ حَلَبَ فِي زَمَانِ شِبْلِ الدَّوْلَةِ ! هَلْ مَعَكَ عِلْمٌ مِنْ تَوْبَةِ عَلِيِّ بنِ مَنْصُورِ بنِ طَالِبٍ الْحَلَبِيِّ ؟ » فلمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ ، فَأَخَذَنِي الْهَلَعُ[٧] وَالرِّعْدَةُ ، ثُمَّ هَتَفَ الثَّانِيَةَ ، فلمْ يُجِبْهُ مُجِيبٌ ! فَطُرِحْتُ إِلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ نَادَى الثَّالِثَةَ ، فأَجَابَهُ قَائِلٌ يقولُ : « نَعَمْ قَدْ شَهِدْتُ تَوْبَةَ عَلِيِّ بنِ مَنْصُورٍ ، وَذَلِكَ بِأَخَرَةٍ[٨] منَ الْوَقْتِ ، وَحَضَرَتْ مَتَابَهُ عِنْدِي جَمَاعَةٌ منَ العدولِ ، وَأَنَا يَوْمَئِذٍ قَاضِي حَلَبَ وَأَعْمَالِهَا . »

---

(١) لا ترهقوه ، وترفقوا به (٢) ضم إلى نفسه (٣) محاورتهم (٤) ستمر بك ترجمته وطرف من أخباره فى الجزء الثالث من هذا الكتاب (٥) لاضير عليك (٦) جمع عدل ، وهو العادل الذى ترضى شهادته (٧) شدة الجزع (٨) جاء أَخَرة ، و بأَخَرَةٍ : أى آخر كل شىء .

فعندَ ذَلِكَ نَهَضْتُ وَقَدْ أَخذَتْ الرَّمَقَ[١] ، فَذَكَرْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ — عَلَيْهِ السلاَمُ — مَا أَلْتَمِسُ ، فأَعْرَضَ عَنِّى ، وَقَالَ : « إِنَّكَ لتَرُومُ مُمْتَنِعاً ، وَلَكَ أُسْوةٌ بوَلَدِ أَبِيكَ آدمَ »

وروده الحوض

وَهَمَمْتُ بالْحَوْضِ ، فكِدْتُ لَا أَصِلُ إليه ، ثُمَّ نَغَبْتُ مِنْهُ نَغَبَاتٍ[٢] لا ظَمَأَ بَعْدَهَا ، وَإِذَا الْكَفَرَةُ يَحملُونَ أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْوُرُودِ ، فَتَذُودُهُمْ[٣] الزَّبَانيَةُ بِعِصِيٍّ تَضْطَرِمُ نَاراً ، فيَرْجعُ أَحَدُهُمْ وَقَدِ احْتَرَقَ وَجْهُهُ أَوْ يَدُهُ ، وَهُوَ يَدْعُو بوَيْلٍ وَثُبُورٍ[٤]

حديثه مع فاطمة

فَطُفْتُ عَلَى الْعِتْرةِ الْمُنْتَخَبِينَ ، فقلتُ : « إِنِّى كُنْتُ فى الدَّارِ الذَّاهِبَةِ إِذَا كَتَبْتُ كِتَاباً وَفَرَغْتُ منهُ قلتُ فى آخِرِهِ : « وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَعَلَى عِتْرَتِهِ الْأَخْيَارِ الطَّيِّبِينَ » وَهذِهِ حُرْمَةٌ لِى وَوَسِيلَةٌ »

فقالوا : « مَا نَصْنَعُ بكَ ؟ » فقلتُ : « إِنَّ مَوْلاتَنَا فَاطِمَةَ[٥] — عليها السلامُ — قَدْ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ مُنذُ دَهْرٍ . وَإِنَّهَا تَخْرُجُ فى كُلِّ حِينٍ مِقْدَارُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ سَاعَةً منْ سَاعَاتِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ . فتُسَلِّمُ عَلَى أبيها وَهوَ قَائِمٌ لشَهَادةِ الْقضاءِ . ثُمَّ تَعُودُ إلى مُسْتَقَرِّهَا فِى الْجِنَانِ ، فإِذَا هِىَ خَرَجَتْ كَالْعَادَةِ فَاسْأَلُوهَا فى أَمْرِى

---

(١) بقية الروح (٢) جرعا (٣) تطردهم وتدفعهم (٤) هلاك

(٥) فاطمة الزهراء : توفيت سنة ١١ هـ

هى بنت رسول الله صلوات الله عليه ، وقد تزوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فولدت له الحسن والحسين وأم كلثوم وزينب ، وكانت فصيحة عاقلة . وقد توفيت بعد أبيها بستة أشهر ، ويروى عنها بعض الأحاديث النبوية .

بأَجْمعِكمْ ، فلعلّها تَسْأَلُ أَبَاهَا فِيَّ » فلمّا حَانَ خُرُوجُهَا ، وَنَادى الْهَاتِفُ أَنْ غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ يَا أَهْلَ الْمَوْقِفِ حَتَّى تَعْبُرَ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ — صلى اللهُ عليهِ — اجْتَمعَ منْ آلِ أَبِي طَالِبٍ خَلْقٌ كَثِيرٌ منْ ذُكورٍ وَإِنَاثٍ مِمَّنْ لَمْ يَشْرَبْ خَمْراً ، وَلَا عَرَفَ قَطُّ مُنْكَراً ، فلقُوهَا فى بَعْضِ السَّبِيلِ . فلمّا رَأَتْهُمْ قَالَتْ : « مَا بَالُ هذِهِ الزَّرافةِ؟[1] أَلَكُمْ حَالٌ تُذْكَر؟ » فقالوا : « نَحْنُ بِخَيْر . إنَّا نَلْتَذُّ بِتُحَفِ أَهْلِ الْجَنَّةِ . غَيْرَ أَنَّا مَحبُوسُونَ لِلكَلِمةِ السابقةِ ، وَلَا نُرِيدُ أَنْ نَتسرَّعَ إلى الْجَنَّةِ قبلَ الميقَاتِ ، إِذْ كُنَّا آمنِينَ نَاعِمِينَ ، بدليلِ قَوْلِهِ « إِنَّ الَّذين سَبقَتْ لَهُمْ منَّا الْحُسْنَى أُولَئكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لَا يَسمعونَ حَسِيسَهَا[2] وَهُمْ فيما اشْتَهتْ أَنْفُسُهُمْ خَالدُونَ ، لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتلقَّاهُمُ الْمَلَائكَةُ هذَا يَوْمُكُمُ الَّذى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » . وَكَانَ فِيهِمْ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ[3] ، وَابْنَاهُ مُحَمَّدٌ[4]

---

(١) الجماعة (٢) صوتها الخفى

(٣) على بن الحسين : ٣٨ هـ — ٩٤ هـ

هو أبو الحسن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الملقب بزين العابدين . كان يضرب به المثل فى الحلم والورع ، ولد بالمدينة وتوفى بها . ومن شواهد نبله أنه أحصى بعد موته من كان يقوتهم سراً فإذا هم نحو مائة بيت ، حتى قال بعض أهل المدينة : « ما فقدنا صدقة السر إلا بعد موت زين العابدين . »

(٤) محمد بن على : توفى سنة ١١٤ هـ

هو محمد بن على زين العابدين بن الحسين ، وقد مرت ترجمة أبيه فى هذه الصفحة ويلقب محمد بن على بأبى جعفر الباقر ، وكان ناسكاً عابداً ، ويروى له فى تفسير القرآن آراء وأقوال ، ولد بالمدينة ، وتوفى خارجها ، فنقلت جثته إليها ، ودفن بها .

وَزَيْدٌ[١] ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَبْرَارِ الصَّالِحِينَ ، وَمَعَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ امْرَأَةٌ أُخْرَى تَجْرِي مَجْرَاهَا فِي الشَّرَفِ وَالْجَلَالَةِ ، فَقِيلَ : « مَنْ هَذِهِ ؟ » فَقِيلَ : « خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى[٢] » وَمَعَهَا شَبَابٌ عَلَى أَفْرَاسٍ مِنْ نُورٍ ، فَقِيلَ : « مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ » فَقِيلَ : « عَبْدُ اللهِ ، وَالْقَاسِمُ ، وَالطَّيِّبُ ، وَالطَّاهِرُ ، وَإِبْرَهِيمُ[٣] ، بَنُو مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »

---

(١) زيد بن على : توفى سنة ١٢٢ هـ

زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، أقام بالكوفة ، وقرأ على واصل بن عطاء رأس المعتزلة ، واقتبس منه علم الاعتزال ، وخرج على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٠ هـ داعياً إلى العمل بالكتاب والسنة ، ورد المظالم ، والعدل فى القسمة . وكان عامل العراق آنئذ يوسف بن عمر الثقفى ، فكتب يوسف إلى الحكم بن أبى الصلت يأمره بقتال زيد ، ففعل ، ودارت معارك ختمت بقتل زيد ، فحمل رأسه إلى الشام ونصب على باب دمشق . وإلى زيد بن على تنسب الطوائف الزيدية الباقية إلى يومنا هذا فى اليمن وغيرها .

(٢) خديجة بنت خويلد : توفيت قبل الهجرة بثلاث سنين

خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى ، أول زوجة للرسول صلوات الله عليه ، وكانت أسن منه بخمس عشرة سنة ، ولدت بمكة ، ونشأت فى بيت شرف ويسار ، وتزوجت برجل مات عنها ، وكانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام ، فتستأجر لذلك الرجال . وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تجارة لها إلى الشام فربحت ربحا عظيما ، فأرسلت إليه من يعرض عليه زواجه منها ، فلما تزوجها ولدت له القاسم وعبد الله (وهو الطاهر والطيب) وزينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة ، وكان بين كل ولدين سنة . ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاها الى الإسلام ، فأسلمت ، ومكثا يصليان سراً إلى أن ظهرت الدعوة الإسلامية . وتوفيت خديجة بمكة .

(٣) هكذا فى جميع النسخ . والذكور من أولاد النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة : عبد الله ، والقاسم ، وإبرهيم . أما الطيب والطاهر فلقبان ، قيل إنهما لقبا عبد الله .

فَقَالَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَةُ الَّتِي سَأَلْتُ: «هَذَا وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَائِنَا قَدْ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ تَوَسَّلَ بِنَا إِلَيْكَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ ـ فِي أَنْ يُرَاحَ مِنْ أَهْوَالِ الْمَوْقِفِ، وَيَصِيرَ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَتَعَجَّلَ الْفَوْزَ»

فَقَالَتْ لِأَخِيهَا إِبْرَهِيمَ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ ـ: «دُونَكَ الرَّجُلَ» فَقَالَ لِي: «تَعَلَّقْ بِرِكَابِي» وَجَعَلَتْ تِلْكَ الْخَيْلُ تَخَلَّلُ النَّاسَ؛ وَتَنْكَشِفُ لَهَا الْأُمَمُ وَالْأَجْيَالُ[1]. فَلَمَّا عَظُمَ الزِّحَامُ، طَارَتْ فِي الْهَوَاءِ، وَأَنَا مُتَعَلِّقٌ بِالرِّكَابِ

حديثه مع النبي

فَوَقَفَتْ عِنْدَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ: «مَنْ هَذَا الْأَتَاوِيُّ[2]؟»

فَقَالَتْ: «هَذَا رَجُلٌ سَأَلَ فِيهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ» وَسَمَّتْ جَمَاعَةً مِنَ الْأَئِمَّةِ الطَّاهِرِينَ، فَقَالَ: «حَتَّى يُنْظَرَ فِي عَمَلِهِ» فَسَأَلَ فِي عَمَلِي، فَوَجَدَهُ فِي الدِّيوَانِ الْأَعْظَمِ. وَقَدْ خُتِمَ بِالتَّوْبَةِ؛ فَشَفَعَ لِي، فَأُذِنَ لِي فِي الدُّخُولِ

عبور الصراط

فَلَمَّا خَلَصْتُ مِنْ تِلْكَ الطُّمُوشِ[3] قِيلَ لِي: «هَذَا الصِّرَاطُ، فَاعْبُرْ عَلَيْهِ» فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا لَا عَرِيبَ[4] عِنْدَهُ، فَبَلَوْتُ نَفْسِي فِي الْعُبُورِ، فَوَجَدْتُنِي لَا أَسْتَمْسِكُ، فَقَالَتِ الزَّهْرَاءُ[5] ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهَا ـ لِجَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِيهَا:

فلعله سهو من أبي العلاء، إذ اشتبهت عليه الأسماء بالألقاب، فعد الذكور خمسة. وجل من لا يسهو، فالعصمة لله وحده.

(١) الأجيال: أجناس الناس، كالترك، والروم، والزنج .... (٢) الغريب

(٣) جمع طمش، وهو الناس (٤) لا أحد (٥) هي السيدة فاطمة، وقد تقدمت ترجمتها

« يَا فُلاَنَةُ ، أَجِيزِيهِ[1] » فَجَعَلَتْ تُمَارِسُنِي[2] وَأَنَا أَتَسَاقَطُ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ فَقُلْتُ لَهَا : « يَا هَذِهِ ! إِنْ أَرَدْتِ سَلَامَتِي ، فَاسْتَعْمِلِي مَعِي قَوْلَ الْقَائِلِ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ :

« سِتٌّ إِنْ أَعْيَاكِ أَمْرِي   فَاحْمِلِينِي زَقَفُونَهْ »

فَقَالَتْ : « وَمَا زَقَفُونَةُ ؟ » قُلْتُ : « أَنْ يَطْرَحَ الإِنسَانُ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفَيِ الآخَرِ ، وَيُمْسِكَ بِيَدَيْهِ ، وَيَحْمِلَهُ وَبَطْنُهُ إِلَى ظَهْرِهِ . أَمَا سَمِعْتِ قَوْلَ الْجَحْجَلُولِ مِنْ أَهْلِ كَفْرِ طَابٍ :

صَلَحَتْ حَالَتِي إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى   صِرْتُ أَمْشِي إِلَى الْوَرَى زَقَفُونَهْ[3]

فَقَالَتْ : « مَا سَمِعْتُ بِزَقَفُونَةَ وَلاَ الْجَحْجَلُولِ وَلاَ كَفْرِ طَابٍ إِلاَّ السَّاعَةَ ! » فَتَحْمِلُنِي ، وَتَجُوزُ كَالْبَرْقِ الْخَاطِفِ . فَلَمَّا جُزْتُ ، قَالَتِ الزَّهْرَاءُ — عَلَيْهَا السَّلَامُ — : « قَدْ وَهَبْنَا لَكَ هَذِهِ الْجَارِيَةَ ، فَخُذْهَا كَيْ تَخْدُمَكَ فِي الْجِنَانِ . »

حواره مع رضوان

فَلَمَّا صِرْتُ إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ ، قَالَ رِضْوَانُ : « هَلْ مَعَكَ مِنْ جَوَازٍ ؟ » فَقُلْتُ : « لاَ » فَقَالَ : « لاَ سَبِيلَ إِلَى الدُّخُولِ إِلاَّ بِهِ »

---

(١) اجعليه يجوز ، أى يعبر (٢) تعالجنى (٣) كفر طاب قرية من قرى الشام ، وفيها يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أرى كفر طاب أعجز الماء حفره   وبالس أغناها الفرات عن الحفر
كذلك مجرى الرزق ، واد به ندى ،   وواد به فيض ، وآخر ذو جفر

و بالس قرية بالشام

فَبَعِلْتُ[1] بِالأَمْرِ ، وَعَلَى بَابِ الْجَنَّةِ — مِنْ دَاخِلٍ — شَجَرَةُ صَفْصَافٍ ، فَقُلْتُ : « أَعْطِنِي وَرَقَةً مِنْ هَذِهِ الصَّفْصَافَةِ ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى الْمَوْقِفِ ، فَآخُذَ عَلَيْهَا جَوَازاً » فَقَالَ : « لاَ أُخْرِجُ شَيْئاً مِنَ الْجَنَّةِ إِلاَّ بِإِذْنٍ مِنَ الْعَلِيِّ الأَعْلَى — تَقَدَّسَ وَتَبَارَكَ »

فَلَمَّا دَجِرْتُ[2] بِالنَّازِلَةِ ، قُلْتُ: « إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، لَوْ أَنَّ لِلأَمِيرِ أَبِي الْمُرَجَّى خَازِناً مِثْلَكَ ، لَمَا وَصَلْتُ أَنَا وَلاَ غَيْرِي إِلَى دِرْهَمٍ مِنْ خَزَائِنِهِ ! »

دخوله الجنـــــة

وَالْتَفَتَ إِبْرَهِيمُ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ — فَرَآنِي وَقَدْ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ ، فَرَجَعَ إِلَيَّ ، فَجَذَبَنِي جَذْبَةً حَصَّلَنِي بِهَا فِي الْجَنَّةِ ، وَكَانَ مُقَامِي[3] فِي الْمَوْقِفِ مُدَّةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ مِنْ شُهُورِ الْعَاجِلَةِ ، فَلِذَلِكَ بَقِيَ عَلَيَّ حِفْظِي، مَا نَزَفَتْهُ[4] الأَهْوَالُ ، وَلاَ نَهَكَهُ تَدْقِيقُ الْحِسَابِ .

---

(١) وصلت حيرتي وخوفي وسأمي الى حد لم أدر معه ما أصنع

(٢) حِرت (٣) إقامتي (٤) ما أذهبتْه

الفصل الثالث

نَعِيمُ الفِـــرْدَوْس

حديثه مع حميـــد بن ثور[1]

وَيَنْصَرِفُ عَنْهُ رَشِيداً إلى حُمَيْدِ بْنِ ثَوْرٍ ؟ فيقُولُ :

« إِيهِ يَا حُمَيْدُ ! لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ :

أَرَى بَصَرِى قَدْ رَابَنِي – بَعْدَ صِحَّةٍ –   وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا[2]

وَلَنْ يَلْبَثَ الْعَصْرَانِ[3] يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ   إِذَا طَلَبَا ، أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا[4]

فَكَيْفَ بَصَرُكَ الْيَوْمَ ؟ » فَيَقُولُ : « إِنِّي لَأَكُونُ فِي مَغَارِبِ الْجَنَّةِ ، فَأَلْمَحُ الصَّدِيقَ مِنْ أَصْدِقَائِي وَهُوَ بِمَشَارِقِهَا ، وَبَيْنِي وَبَيْنَهُ مَسِيرَةُ أُلُوفِ أَعْوَامٍ

---

(١) حميد بن ثور الهلالى .

شاعر إسلامى من عامر بن صعصعة ، ينسبون إليه البيت المشهور الذى جرى مجرى المثل ، وهو قوله :

ينـام بإحدى مقلتيه ، ويتقى   بأخرى الأعادى ، فهو يقظان نائم

(٢) فى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

يداوى المريض لـكيما يصح   وهل صحة الجسم إلا مرض ؟

(٣) الليل والنهار   (٤) تيمَّمَهُ : قَصَدَه ، ومعنى البيتين : ضعف بصرى بعد أن كان صحيحاً ، وكفى بالصحة منذرا بالمرض ، فقد آلى الزمن ليسقمن كل صحيح ، وليس يعجز الزمن الدائر بأيامه ولياليه أن يدرك غايته وشيكا .

لِلشَّمْسِ الَّتِي عَرَفْتَ سُرْعَةَ سَيْرِهَا فِي الْعَاجِلَةِ ، فَتَعَالَى اللهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ بَدِيعٍ[1] »

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي الدَّالِيَّةِ الَّتِي فِيهَا — :

تَتَابَعَ أَعْوَامٌ عَلَيْهَا هَزَلْنَهَا وَأَقْبَلَ عَامٌ ، يُنْعِشُ النَّاسَ ، وَاحِدُ »

فَيَقُولُ حُمَيْدٌ : « لَقَدْ شُغِلْتُ بِمَا وَهَبَ لِي رَبِّي الْكَرِيمُ ، وَلَا خَوْفَ عَلَيَّ وَلَا حَزَنَ ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُعْمِلُ فِكْرَهُ السَّنَةَ وَالْأَشْهُرَ فِي الرَّجُلِ قَدْ آتَاهُ اللهُ الشَّرَفَ وَالْمَالَ ، فَرُبَّمَا رَجَعَ بِالْخَيْبَةِ ، وَإِنْ أُعْطِيَ فَعَطَاءٌ زَهِيدٌ ، وَلَكِنَّ النَّظْمَ فَضِيلَةُ الْعَرَبِ »

حديثه مع لبيد[2]

وَيَعْرِضُ لَهُمْ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَيُقْسِمُ عَلَيْهِمْ لَيَذْهَبُنَّ مَعَهُمْ ، فَيَمْشُونَ قَلِيلًا ، فَإِذَا هُمْ بِأَبْيَاتٍ ثَلَاثَةٍ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ نَظِيرُهَا بَهَاءً وَحُسْنًا . فَيَقُولُ لَبِيدٌ : « أَتَعْرِفُ أَيُّهَا الْأَدِيبُ الْحَلَبِيُّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ ؟ إِنَّهَا قَوْلِي :

إِنَّ تَقْوَى[3] رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ[4] وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَعَجَلْ
أَحْمَدُ اللهَ ، فَلَا نِدَّ لَهُ بِيَدَيْهِ الْخَيْرُ مَا شَاءَ فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى نَاعِمَ الْبَالِ ، وَمَنْ شَاءَ أَضَلّ[5]

---

(١) البديع — هنا — ما اخترع على غير مثال سابق

(٢) تقدمت ترجمته فى ص ٤٦ (٣) خشية (٤) غنيمة (٥) معنى الأبيات : أربح غنم يصيبه الإنسان هو خشية الله مصرف الأمور ، فله الحمد ، لا كفو له ، بيده الخير ، يهدى من يشاء و يضل من يشاء ، وهو على ما يشاء قدير

صَيَّرَهَا رَبِّي أَبْيَاتاً فِي الْجَنَّةِ أَسْكُنُهَا أُخْرَى الْأَبَدِ »

فَيَعْجَبُ هُوَ وَأُولَئِكَ الْقَوْمُ ، وَيَقُولُونَ : « إِنَّ اللهَ قَدِيرٌ عَلَى مَا أَرَادَ ! »

مأدبة فى الجنـــة

وَيَبْدُو لَهُ[1] أَنْ يَصْنَعَ مَأْدُبَةً فِي الْجِنَانِ ، يَجْتَمِعُ فِيهَا مَنْ أَمْكَنَ مِنْ شُعَرَاءِ الْخَضْرَمَةِ وَالإِسْلَامِ ، وَالَّذِينَ أَصَّلُوا كَلَامَ الْعَرَبِ ، وَجَعَلُوهُ مَحْفُوظاً فِي الْكُتُبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَتَأَنَّسُ بِقَلِيلِ الْأَدَبِ ، وَيَخْطُرُ لَهُ أَنْ تَكُونَ كَمَآدِبِ الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، إِذْ كَانَ الْبَارِى لَا يُعْجِزُهُ — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِجَمِيعِ الْأَغْرَاضِ مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ وَلَا إِبْطَاءٍ ، فَتُنْشَأُ أَرْحَاءٌ[2] عَلَى الْكَوْثَرِ ، تُجَعْجِعُ لِطَحْنِ بُرِّ[3] الْجَنَّةِ ، وَإِنَّهُ لَأَفْضَلُ مِنْ بُرِّ الْهُذَلِيِّ[4] الَّذِى قَالَ فِيهِ :

«لَا دَرَّ دَرِّيَ[5] إِنْ أَطْعَمْتُ رَائِدَكُمْ   قِرْفَ الْحَتِيِّ[6] وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزُ[7]»

بِمِقْدَارٍ تَفْضُلُ بِهِ السَّمَوَاتُ الْأَرَضِينَ

*
* *

وَيَجِسُ[8] فِي صَدْرِهِ أَرْحَاءٌ تَدُورُ فِيهَا الْبَهَائِمُ ، فَيَمْثُلُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا شَاءَ مِنَ الْبُيُوتِ فِيهَا أَحْجَارٌ مِنْ جَوَاهِرِ الْجَنَّةِ ، تُدِيرُ بَعْضَهَا جِمَالٌ تَسُومُ فِي عِضَاهِ[9] الْفِرْدَوْسِ ، وَأَيْنُقٌ ، وَصُنُوفٌ مِنَ الْبِغَالِ وَالْبَقَرِ

---

(١) أى ابن القارح (٢) الأرحاء ، جمع رحى ، وهى المعروفة (٣) قمح (٤) هو أبو ذؤيب ، وقد مرت ترجمته فى ص٣٥ (٥) لا دَرَّ درى . أى لا كثر خيرى ، ولا زكا عملى .
(٦) القرف : القشر ، والحتىّ : قشر الردىء من ثمار شجر الدوم (٧) معنى البيت : لا بارك الله فى مالى إذا أطعمت نازلكم قشر الدوم ، مع وفرة ما لدى من القمح الزائد عن حاجتى (٨) يجس : يقع فى ضميره ، أى يكون فى خاطره على وجه التمنى ، ولعل اللفظ : يهجس ، أى يمر بباله ، والمعنى لا يتغير على كلا اللفظين (٩) شجر ذو شوك

فَإِذَا اجْتَمَعَ مِنَ الطَّحْنِ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ كَافٍ لِلْمَأْدُبَةِ ، تَفَرَّقَ خَدَمُهُ مِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ ، فَجَاءوا بِالْجِدَاءِ وَضُرُوبِ الطَّيْرِ الَّتِي جَرَتِ الْعَادَةُ بِأَكْلِهَا . وَسِيقَتِ الْبَقَرُ وَالْغَنَمُ ، وَالإِبِلُ ، لِتُعْتَبَطَ ؛ فَارْتَفَعَ يُعَارُ الْمَعِزِ وَثُوَاجُ الضَّأْنِ وَصِيَاحُ الدِّيَكَةِ لِعِيَانِ الْمُدْيَةِ ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الَّذِي ابْتَدَعَ خَلْقَهُ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ[١] ، وَصَوَّرَهُ بِلَا مِثَالٍ

فَإِذَا حَصَلَتِ النُّحُوضُ[٢] فَوْقَ الْأَوْفَاضِ[٣] ، قَالَ : « أَحْضِرُوا مِنَ الْجَنَّةِ الطُّهَاةَ السَّاكِنِينَ بِحَلَبَ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَانِ » فَتَحْضُرُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ ، فَيَأْمُرُهُمْ بِاتِّخَاذِ الْأَطْعِمَةِ ، وَتِلْكَ لَذَّةٌ يَهَبُهَا اللهُ — عَزَّ سُلْطَانُهُ — بِدَلِيلِ قَوْلِهِ : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ، وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ؛ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ »

فَإِذَا أَتَتِ الْأَطْعِمَةُ افْتَرَقَ غِلْمَانُهُ الَّذِينَ كَأَنَّهُمُ اللُّؤْلُؤُ الْمَكْنُونُ لِإِحْضَارِ الْمَدْعُوِّينَ ، فَلَا يَتْرُكُونَ فِي الْجَنَّةِ شَاعِرًا إِسْلَامِيًّا وَلَا مُخَضْرَمًا ، وَلَا عَالِمًا بِشَيْءٍ مِنْ أَصْنَافِ الْعُلُومِ ، وَلَا مُتَأَدِّبًا إِلَّا أَحْضَرُوهُ ، فَيَجْتَمِعُ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، فَتُوضَعُ الْخُونُ[٤] مِنَ الذَّهَبِ ، وَالْفَوَاثِيرُ[٥] مِنَ اللُّجَيْنِ[٦] ، وَيَجْلِسُ عَلَيْهَا الْآكِلُونَ ، وَتُنْقَلُ إِلَيْهِمُ الصِّحَافُ[٧]

---

(١) الرويّة : النظر والتفكير ، والمراد أن خَلْقَ الله لم يحتج منه سبحانه إلى جهد ومشقة
(٢) النحوض جمع نَحْض ، وهو المكتنز من اللحم (٣) الأَوْفاض جمع وَفَض ، وهو ما يُقْطَعُ عليه اللحم مثل الوَضَم (٤) جمع خوان (بكسر الخاء أو ضمها) وهو ما يوضع عليه الطعام ليؤكل (٥) جمع فاثور ، وهى الأخونة أيضاً ، أو الطسُوت (٦) الفضة
(٧) جمع صحفة ، وهى قصعة أقل من الجفنة

مجلس أنس وغناء

فَإِذَا قَضَوُا الْأَرَبَ مِنَ الطَّعَامِ ، جَاءَتِ السُّقَاةُ بِأَصْنَافِ الْأَشْرِبَةِ ، وَالْمُسْمِعَاتُ بِالْأَصْوَاتِ الْمُطْرِبَةِ ، وَيَقُولُ[1] : « عَلَيَّ بِمَنْ فِي الْجَنَّةِ مِنَ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ ، مِمَّنْ كَانُوا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ، فَقُضِيَتْ لَهُ التَّوْبَةُ » . فَتَحْضُرُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ ، فِيهِمُ الْغَرِيضُ ، وَمَعْبَدٌ ، وَابْنُ سُرَيْجٍ ، إِلَى أَنْ يَحْضُرَ إِبْرَهِيمُ الْمَوْصِلِيُّ ، وَابْنُهُ إِسْحَاقُ

حديث الجرادتين[2]

فَيَقُولُ قَائِلٌ مِنَ الْجَمَاعَةِ ، وَقَدْ رَأَى أَسْرَابَ[3] قِيَانٍ قَدْ حَضَرْنَ : « مِنَ الْعَجَبِ أَنَّ الْجَرَادَتَيْنِ فِي أَقَاصِي الْجَنَّةِ ! »

فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ[1] قَالَ : « لَا بُدَّ مِنْ حُضُورِهِمَا » فَيَرْكَبُ بَعْضُ الْخَدَمِ نَاقَةً مِنْ نُوقِ الْجَنَّةِ ، وَيَذْهَبُ إِلَيْهِمَا — عَلَى بُعْدِ مَكَانِهِمَا — فَتُقْبِلَانِ عَلَى نَجِيبَيْنِ أَسْرَعَ مِنَ الْبَرْقِ

فَإِذَا حَصَلَتَا عَلَى الْمَجْلِسِ ، حَيَّاهُمَا وَبَشَّ بِهِمَا ، وَقَالَ : « كَيْفَ خَلَصْتُمَا إِلَى دَارِ الرَّحْمَةِ بَعْدَ مَا خَبَطْتُمَا فِي الضَّلَالِ ! » فَتَقُولَانِ: «قُدِّرَتْ لَنَا التَّوْبَةُ ، وَمِتْنَا عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ »

---

(١) أى ابن القارح (٢) الجرادتان – فيما زعموا – مغنيتان غنتا لوفد عاد الجرهمى بمكة ، فشغلوا عن الطواف بالبيت ، وسؤال الله فيما قصدوا له ، فهلكت عاد وهم لاهون

(٣) جمع سرب ، أى قطيع من النساء

فَيقُولُ : « أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكُمَا ، أَسْمِعَانَا شَيْئًا مِنَ الْقَصِيدَةِ الْحَائِيَّةِ الَّتِي تُرْوَى لِعَبِيدٍ مَرَّةً ، وَلِأَوْسٍ أُخْرَى ، وَمَا سَمِعْنَا قَطُّ بِعَبِيدٍ وَلاَ أَوْسٍ[1]. فَتُلْهِمَانِ أَنْ تُغَنِّيَا بِالْمَطْلُوبِ ، فَتُلَحِّنَانِ :

هَبَّتْ تَلُومُ وَلَيْسَتْ سَاعَةَ اللاَّحِي[2] ... هَلاَّ انْتَظَرْتِ بِهَذَا اللَّوْمِ إِصْبَاحِي

قَاتَلَهَا اللهُ : تَلْحَانِي وَقَدْ عَلِمَتْ ... أَنِّي لِنَفْسِيَ إِفْسَادِي وَإِصْلاَحِي

إِنْ أَشْرَبِ الْخَمْرَ أَوْ أُرْزَأْ لَهَا ثَمَنًا ... فَلاَ مَحَالَةَ يَوْمًا أَنَّنِي صَاحِي

وَلاَ مَحَالَةَ مِنْ قَبْرٍ بِمَحْنِيَةٍ[3] ... أَوْ فِي مَلِيعٍ[4] كَظَهْرِ التُّرْسِ وَضَّاحِ

فَتُطْرِبَانِ مَنْ سَمِعَ ، وَتَسْتَفِزَّانِ الأَفْئِدَةَ بِالسُّرُورِ .

وَيَكْثُرُ حَمْدُ اللهِ — سُبْحَانَهُ — كَمَا أَنْعَمَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالتَّائِبِينَ ، وَخَلَّصَهُمْ مِنْ دَارِ الشِّقْوَةِ إِلَى مَحَلِّ النَّعِيمِ .

---

(١) يعنى أن الجاريتين تغنيانهم بما يطلبون بالرغم من أنهما لم تسمعا بهذه القصيدة ولا باللذيْن تنسب إليهما من قبل (٢) اللائم (٣) محنية أو محنوة أو محناة ، جمعها محانٍ ، وهى معاطف الأودية (٤) المليع : طريق ضيقة ذاهبة فى الأرض إلى مسافة قريبة ، قاعها أقل من قامة ، أو هو الأرض المستوية ، أو الأرض التى لا نبات فيها

حديث جران العود النميرى

وَيَلتَفِتُ، فَإِذَا هُوَ بِجِرَانِ الْعَوْدِ[١] النُّمَيْرِيِّ، فَيُحَيِّيهِ وَيُرَحِّبُ بِهِ، وَيَقُولُ لِبَعْضِ الْقِيَانِ : « أَسْمِعَانَا قَوْلَ هَذَا الْمُحْسِنِ :

حَمَلْنَ جِرَانَ العَوْدِ حَتَّى وَضَعْنَهُ بِعَلْيَاءَ[٢] فِي أَرْجَائِهَا الْجِنُّ تَعْزِفُ[٣]

وَقُلْنَ : « تَمَتَّعْ لَيْلَةَ النَّأْيِ هَذِهِ فَإِنَّكَ مَرْجُومٌ[٤] غَدًا أَوْ مُسَيَّفُ[٥] »

---

(١) جِرَانُ العَوْد

الجِرَان : مقدم عنق البعير من مذبحه إلى منحره ، والعَوْد : البعير المسن .

وجران العود لقب هذا الشاعر ، وإنما لقب بذلك لقوله مخاطبا امرأتيه — وقد أغضبتاه :

خذا حــذراً ياجارتىّ ، فاننى رأيت جران العود قد كان يصلح

يعنى بذلك أنه كان قد اتخذ سوطا من جران العود يضرب به نساءه فهو يخيفهما به ، وكان قد لقى منهما مكروها ، فقال فى ذلك أبياتا جميلة منها :

ألا لا تغرن امرأً نوفلية على الرأس بعدى أو ترائب وضّح

الى أن قال :

خذا نصف مالى ، واتركا لى نصفه، وبينا بذم ، فالتعــزّب أروح

وأوجز ما يوصف به هذا الشاعر هو كلمة « محسن » التى وصفه بها أبو العلاء ، فان أظهر ميزة لشعره — وهو مجموع فى ديوان صغير مخطوط بدار الكتب — هى الإحسان . وقد اقترحنا فى الطبعتين السابقتين من هذه الرسالة على دار الكتب أن تطبع هذا الديوان النفيس ، فلبت اقتراحنا متفضلة، وأخرجته فى أبهى حلة وأجمل رواء (٢) العلياء : رأس الجبل ، أو المكان العالى ، والمعنى أنهن وضعننى موضعاً لا يوصل إليه (٣) تصوّت (٤) مرمىٌّ بالحجارة (٥) مقتول بالسيف . ومعنى البيت : قلن لى : « انتهز فرصة هذه الليلة وتمتع بنا ، فربما كانت آخر لياليك من الدنيا ، لأنك قد ترجم غدا بالحجارة ، أو تقتل بالسيف »

وَأَحْرَزْنَ مِنِّي(١) كُلَّ حُجْزَةِ(٢) مِئْزَرٍ   لَهُنَّ، وَطَاحَ(٣) النَّوْفَلِيُّ(٤) الْمُزَخْرَفُ

(١) منعن عني (٢) الحجزة معقد الإزار ، أو موضع التكة من السراويل .

(٣) سقط (٤) شيء من صوف تختمر به نساء العرب ، وقيل : هو ضرب من الحلى يدرنه على رءوسهن تحت الخمار . والنوفلى أيضاً ضرب من الامتشاط ، وهو ما نذهب إليه هنا ، فيكون المعنى أن شعورهن المنسقة المزخرفة قد تهدلت

. و يروى هذا البيت قبل سابقه فى النسختين الخطية والمطبوعة من رسالة الغفران ، ولكننا آثرنا رواية الأبيات كما هى فى ديوان الشاعر ، لأن المعنى ينتظم على هذه الصورة ، فالغوانى يبحن له معابثتهن ؛ و يشتد المزح والمغازلة ، حتى تتهدل شعورهن ، فإذا أراد المزيد منعنه ؛ فأحرزن منه حجز مآزرهن بالعفة .

أما تفسير الأبيات على الرواية الأخرى ، فيحتاج إلى تكلف

*
* *

وهذه الأبيات الثلاثة من قصيدة مطولة لهذا الشاعر بلغت فى الإجادة شأوا بعيداً ، واذا استشهد بعض الأدباء ببضع أبيات قلائل لعمر بن أبى ربيعة أو جميل أو غيرهما ، على وجود شيء من محاولة العرب للشعر القصصى ؛ فإن فى هذه القصيدة وحدها مثلا واضحاً لتلك المحاولة ، لعلنا لا نجد له شبيهاً آخر فى كل ما نقرأ من شعر العرب . وتنيّف أبيات هذه القصيدة على السبعين بيتا .

ونحب أن نحيل القارئ إلى ديوان ذلك الشاعر المحسن ، ونكتفى هنا بايراد بضعة أبيات متفرقة منها ؛ تعطى فكرة موجزة عن أغراض القصيدة وهى :

ذكرتَ الصبا فانهلت العين تَذرف   وراجعك الشوق الذى كنت تعرف

وكان فؤادى قد صحا ، ثم هاجنى   حمائم ورق ، بالمدينــة هتّف

*
* *

فَتَصِيبُ الْقَيْنَةُ وَتُجِيدُ

. . . .

وقالت لنا والعيس صُعْرٌ من البرى وأحجافها بالجندل الصم تقذف

. . . .

فموعدك الشط الذى بين أهلنا وأهلك ، حتى نسمع الديك يهتف

. . . .

فلما علانا الليـــل أقبلت خفية لموعدها ، أعلو الأكام وأظلف

. . . .

فأقبلن يمشين الهوينا تهـاديا قِصَار الخطا ، منهن راب ومزحف
فلما هبطن السهل واحتلن حيلة ومن حيـلة الإنسان ما يتخوف
حملن جِرّان العود حتى وضعنه بعلياء — فى أرجائهـا الجن تعزف

. . . .

ولمـا رأين الصبح ، بادرن ضوءه دبيب قطا البطحاء ، أو هن أقطف
وأدركن أعجازا من الليل بعد ما أقام الصــلاة العابد المتحنف
وما أُبْنَ حتى قلن : « يا ليت أننا تراب، وليت الأرض بالناس تخسف! »
فإن ننج من هذى ولم يشعروا بنا فقد كان بعض الخير يدنو فيصرف
فأصبحن صرعى فى الحجال وبيننا رماح العــدا والجانب المتخوف
يبلغهن الحـاج كل مكاتب طويل العصا أو مقعد يتزحف
ومكمونة رمداء لا يحذرونهـــا مكاتبــة ترمى الكلاب وتحذف

ويقول فى ختامها

فأصبحت غريد الضحى قد ومقننى بشوق ، ولمـات المحبين تشغف

أى أصبحت فرحا طروبا قد شغفن بى ، واللقاء يهتاج الشغف

فَإِذَا أُعْجِبَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ إِحْسَانِهَا وَإِصَابَتِهَا ، قَالَتْ : « أَتَدْرُونَ مَنْ أَنَا ؟ » فَيَقُولُونَ : « لَا وَاللهِ ! » فَتَقُولُ : « أَنَا أُمُّ عَمْرٍو الَّتِي يَقُولُ فِيهَا الْقَائِلُ :

تَصُدُّ الْكَأْسَ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو ... وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا

وَمَا شَرُّ الثَّلَاثَةِ أُمَّ عَمْرٍو ... بِصَاحِبِكِ الَّذِي لَا تَصْبَحِينَا[1] »

فَيَزْدَادُونَ بِهَا عَجَبًا ، وَلَهَا إِكْرَامًا ، وَيَقُولُونَ : « لِمَنْ هَذَا الشِّعْرُ ؟ أَلِعَمْرِو ابْنِ عَدِيٍّ اللَّخْمِيِّ ، أَمْ لِعَمْرِو بْنِ كُلْثُومٍ التَّغْلَبِيِّ ؟ »

فَتَقُولُ : « أَنَا شَهِدْتُ نَدْمَانَيْ جَذِيمَةَ : مَالِكًا وَعَقِيلًا ، وَصَبَحْتُهُمَا الْخَمْرَ الْمُشَعْشَعَةَ[2] ، لَمَّا وَجَدَا عَمْرَو بْنَ عَدِيٍّ ، فَكُنْتُ أَصْرِفُ الْكَأْسَ عَنْهُ ، فَقَالَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ ، فَلَعَلَّ عَمْرَو بْنَ كُلْثُومٍ حَسَّنَ بِهِمَا كَلَامَهُ ، وَاسْتَزَادَهُمَا فِي أَبْيَاتِهِ[3] »

رقص الحـــور

وَيَذْكُرُ الْأَبْيَاتَ الَّتِي تُنْسَبُ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ ، وَالْخَلِيلُ يَوْمَئِذٍ فِي الْجَمَاعَةِ ، وَأَنَّهَا تَصْلُحُ لِأَنْ يُرْقَصَ عَلَيْهَا ، فَيُنْشِئُ اللهُ الْقَادِرُ بِلُطْفِ حِكْمَتِهِ شَجَرَةً مِنَ الْجَوْزِ ، فَتُونِعُ لِوَقْتِهَا ، ثُمَّ تَنْفُضُ عَـــدَدًا لَا يُحْصِيهِ إِلَّا اللهُ — سُبْحَانَهُ — وَتَنْشَقُّ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُ عَنْ أَرْبَعِ جَوَارٍ يَرُقْنَ الرَّائِينَ ، يَرْقُصْنَ

---

(١) صَبَحَه ، كمنعه : سقاه صَبُوحاً ، وهو ما أصبح عند القوم من شراب

(٢) الممزوجة بالماء (٣) أى فى معلقته المعروفة التى مطلعها :

ألاهبي بصحنك فأصبحينا ... ولا تبقى خمور الأندرينا

عَلَى الْأَبْيَاتِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى الْخَلِيلِ ، وَأَوَّلُهَا :

« إِنَّ الْخَلِيطَ تَصَدَّعْ[1] فَطِرْ بِدَائِكَ أَوْ قَعْ
لَوْلَا جَوَارٍ حِسَانٌ مِثْلُ الْجَآذِرِ[2] أَرْبَعْ
لَقُلْتُ لِلظَّاعِنِ : « اظْعَنْ[3] إِذَا بَدَا لَكَ ، أَوْ دَعْ »

فَتَهْتَزُّ أَرْجَاءُ الْجَنَّةِ .

*
* *

وَيَقُولُ : « لِمَنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ ؟ » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « لَا أَعْلَمُ ! » فَيَقُولُ : « إِنَّا كُنَّا فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ نَرْوِي هَذِهِ الْأَبْيَاتَ لَكَ ! » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « لَا أَذْكُرُ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَا قِيلَ حَقًّا » فَيَقُولُ : « أَنَسِيتَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ وَأَنْتَ أَذْكَى الْعَرَبِ فِي عَصْرِكَ ؟ » فَيَقُولُ الْخَلِيلُ : « إِنَّ عُبُورَ الصِّرَاطِ يَنْفُضُ الْخَلَدَ[4] مِمَّا اسْتُودِعَ ! »

*
* *

وَيَعْبُرُ طَاوُسٌ مِنْ طَوَاوِيسِ الْجَنَّةِ ، يَرُوقُ مَنْ رَآهُ حُسْنًا ، فَيَشْتَهِيهِ أَبُو عُبَيْدَةَ مَصُوصًا[5] ، فَيَتَكَوَّنُ كَذَلِكَ فِي صَحْفَةٍ مِنَ الذَّهَبِ . فَإِذَا قَضَى مِنْهُ الْوَطَرَ ، انْضَمَّتْ عِظَامُهُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ تَصِيرُ طَاوُسًا كَمَا بَدَا[6] ، فَتَقُولُ الْجَمَاعَةُ : « سُبْحَانَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » ، هذا كما جاء في

---

(١) تفرق (٢) جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه
(٣) ارحل أو سر ، والمعنى : قد تفرق الجمع فماذا أنا صانع بعد نأى من أحب ، ولو خلا الركب من هؤلاء الحسان الأربع لتساوى عندى إقامته ورحيله (٤) القلب أو البال أو النفس ، والمعنى : أن عبور الصراط ينسى المرء ما علم ، من شدة الهول والفزع
(٥) المصوص : طعام من لحم الطير ، يطبخ وينقع فى الخل (٦) أى كما كان

الكتابِ الكريم : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى . قَالَ : أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ : بَلَى . وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي . قَالَ : فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ[1] إِلَيْكَ ، ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا . ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا . وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »

وَيَفْتَرِقُ أَهْلُ ذَلِكَ الْمَجْلِسِ ، وَهُمْ نَاعِمُونَ .

حديثه مع الحوريتين

وَيَخْلُو[2] بِحُورِيَّتَيْنِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ ، فَإِذَا بَهَرَهُ ما يَرَاهُ مِنَ الْجَمَالِ ، قَالَ : « أَعْزِزْ عَلَيَّ بِهَلَاكِ الْكِنْدِيِّ[3] :

---

(١) أحضرهن وقطعهن (٢) أى ابن القارح

(٣) الكندى « امرؤ القيس » : توفى سنة ٥٦٠ م

هو ابن حجر بن عمرو الكندى ، بلده نجد ، وأبوه أحد ملوك بنى أسد .

كان امرؤ القيس ماجناً لاهياً ، فطرده أبوه ، فظل على لهوه وتبطله حتى قتل بنو أسد أباه لظلمه ، فصمم على الأخذ بثأر أبيه ، وحاربهم فقهرهم مراراً ، ولكنه أبى أن يكتفى بما أحرزه من الفوز على أعدائه ، ولم يقنع بما أدركه من الثأر ، وطلبَ المزيد ، فسئم أصحابه وخذلوه ؛ فاستنجد بقيصر ملك الروم على أعدائه ، فاحتفى به ، ولكن وشاية دنيئة من أعداء امرئ القيس غيرت عليه قلب القيصر ، فأهلكه .

ويعده جمهور مؤرخى الآداب أفحل شعراء الطبقة الأولى من الجاهليين ، ويقولون : إنه أول من وصف النساء وشبههم بالظباء والمها ، وإنه أول من ابتكر المعانى الجميلة الدقيقة ، وأجاد الاستعارة والتشبيه ، إلى آخر تلك الأوصاف التى أفاض فى سردها نقاد الأدب الأقدمون

على أن لشعره روعة يشعر بها كل من تذوق الأدب ، وفيه سحر لا تراه إلا فى شعر القليل من فحول الشعراء ، كالأعشى والذبيانى ، وقليل من أضرابهما .

انظر إلى دقته مثلاً فى وصف الليل وتبرمه بطوله – إذ يقول فى معلقته الخالدة :

فيا لك من ليل كأَنَّ نجومه   بكل مُغَار الفَتل شُدَّت بيذبل

وانظر إلى ضيق ذرعه بذلك الليل الذى أمله طوله وأضجره ، فأصبح يترقب طلوع الصباح بفارغ الصبر ، لينقذه من سآمته التى سببها طوله . ثم التفاتته المملوءة بالفطنة ودقة الملاحظة ، وانتباهه الى أن ذلك الصباح الذى يترقبه بلهف وشوق ليس خيراً من ليله المضجر . فإنك لتتمثل تلك الصورة جلية شديدة الوضوح فى البيت التالى – على إيجازه — :

ألا أيها الليل الطويل ! ألا انجل   بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل

*
* *

وانظر إلى ابداعه وافتنانه ، وقدرته العظيمة على تحليل أدق خوالجه فى لاميته الساحرة التى يقول فيها :

لقد زعمت « بسباسة » اليوم أننى   كبرت ، وأن لا يحسن اللهو أمثالى

ويا رُب يوم قد لهوت وليلة   بآنسة ، كأنها خط تمثال

تنورتها من أذرعات ، وأهلها   بيثرب ، أدنى دارها نظر عال

نظرت إليها – والنجوم كأنها   مصابيح رهبان ، تُشَبُّ لقُفَّال

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حَباب الماء ، حالاً على حال

فقالت : « سباك الله ! إنك فاضحى   ألست ترى السُّمَّار والناس أحوالى ؟ »

فقلت : « يمين الله أبرح قاعداً   ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى »

حلفت لها بالله حِلفة فاجر :   «لَناموا ، فما إن من حديث ، ولا صالى»

فأصبحت معشوقاً ، وأصبح بعلها   عليه القتام – سيئ الظن والبال

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفانى – ولم أطلب – قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مُؤَثَّل   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وما المرء – ما دامت حُشاشة نفسه –   بمدرك أطراف الخطوب ولا آلى

قَوْلَهُ :

وما أجمل قوله فى معلقته :

كأنى غـداة البين، يوم ترحـلوا — لدى سَمُرات الحى — ناقف حنظل
وقوفاً بهـا صحبى علىّ مطيهـم يقولون : « لا تهلك أسى ، وتجمل »
وإن شفائى عـبرة مهراقة فهل عنـد رسم دارس من معول
كدأبك من أم الحُوَيْرث قبلها وجارتهـا أم الرباب بمأسـل
إذا قامتا تَضَوَّع المسـك منهما نسيم الصبا جاءت بريَّا القَرنفـل
ففاضت دموع العين منى صبابة على النحر حتى بل دمعى محمـلى
ألا رب يوم لك منهن صـالح ولا سـيما يوم بدارة جلجـل
ويوم دخلت الخدر ، خدرَ عُنَيْزَة فقالت : «لك الويلات ! إنك مُرْجلى»
تقول — وقد مال الغبيط بنا معاً — : « عقرت بعيرى يا امرأ القيس، فانزل »
فقلت لها : « سيرى — وأرخى زمامه ولا تبعدينى عن جناك المعـلل »
أفاطمُ مهلاً ، بعضَ هـذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى
أغرِكِ منى أن حبَّك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعـل
فمثلك حبلى قـد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم مُحْوِلِ
إذا ما بكى من خلفها انصرفت له بشق — وتحتى شقها لم يحـوَّل
وما ذرفت عينـاك إلا لتضربى بسهمَيْكِ فى أعشارِ قلبٍ مقتَّـل

* * *

وبيضةِ خـدر لا يرام خبـاؤها تمتعت من لهو بها غير مُعْجَـل
تسلت عمـايات الرجال عن الصبـا وليس فؤادى عن هواك بمُنْسَـلِ

* * *

وليل كموج البحـر أرخى سدوله علىّ بأنواع الهمـوم ليبتـلى
فقلت له — لمـا تمطى بصلبـه ، وأردف أعجازا ، وناء بكلكل : —

كَدأْبِكَ (١) مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا ... وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ (٢)
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ (٣) الْمِسْكُ مِنْهُمَا ... نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرَيَّا (٤) الْقَرَنْفُلِ (٥)

وَأَيْنَ صَاحِبَتَاهُ مِنْكُمَا ، لاَ كَرَامَةَ لَهُمَا وَلاَ نِعْمَةَ ؟ لَجَلْسَةٌ مَعَكُمَا بِمِقْدَارِ دَقِيقَةٍ مِنْ دَقَائِقِ الدُّنْيَا خَيْرٌ مِنْ مُلْكِ بَنِي آكِلِ الْمُرَارِ وَبَنِي النَّضْرِ بِالْحِيرَةِ . وَآلِ جَفْنَةَ مُلُوكِ الشَّامِ ! »

وَيُقْبِلُ عَلَى كُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يَتَرَشَّفُ رُضَابَهَا ، وَيَقُولُ : « إِنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ لَمِسْكِينٌ مِسْكِينٌ ، تَحْتَرِقُ عِظَامُهُ فِي السَّعِيرِ ، وَأَنَا أَتَمَثَّلُ بِقَوْلِهِ :

« ألا أيها الليل الطويل ! ألا انجلِ ... بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل ! كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها ... بأمراس كتان إلى صم جندل »
وقد أغتدى ، والطير فى وكناتها ... بمنجرد ؛ قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا ... كجلمود صخر حطه السيل من عل

ونختم هذه النخبة بقوله :

إذا قلت : هذا صاحب قد رضيته ... وقرت به العينان ، بدلت آخرا
كذلك جدى (١) ما أصاحب صاحبا ... من الناس ، إلا خانني وتغيرا

وسيمر بك طرف من أخباره وشعره فى هذا الجزء ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن :

(١) كعادتك (٢) اسم جبل (٣) انتشرت رِفحته (٤) الريا : هى الرائحة الطيبة
(٥) المعنى « عادتك فى حب هذه ، كعادتك من قبل فى حب أم الحويرث وأم الرباب وقد كانتا : يعبق منهما المسك أنى ذهبتا ، كما انتشر عطر القرنفل الذكى ، حملته ريح الصبا »
ويوضح هذين البيتين قوله فى البيت الذى قبلهما من معلقته

وإن شفائى عبرة مهراقة ... فهل عند رسم دارس من معوّل ؟

---

(١) حظى ، وبخنى

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْغَمَامِ ... وَرِيحَ الْخُزَامَى وَنَشْرَ الْقُطُرْ
يُعَلُّ بِهِ بَرْدُ أَنْيَابِهَـــا ... إِذَا غَرَّدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرْ(١)

فَتَسْتَغْرِبُ(٢) إِحْدَاهُمَا ضَحِكاً؛ فَيَقُولُ: «مِمَّ تَضْحَكِينَ؟» فَتَقُولُ: «فَرَحًا بِتَفَضُّلِ اللهِ! أَتَدْرِي مَنْ أَنَا يَا عَلِيُّ بْنَ مَنْصُورٍ؟» فَيَقُولُ: «أَنْتِ مِنْ حُورِ الْجِنَانِ اللَّوَاتِي خَلَقَهُنَّ اللهُ جَزَاءً لِلْمُتَّقِينَ، وَقَالَ فِيكُنَّ: «كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ» فَتَقُولُ: «أَنَا كَذَلِكَ بِإِنْعَامِ اللهِ الْعَظِيمِ! عَلَى أَنِّي كُنْتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ أُعْرَفُ بِحَمْدُونَةَ، وَأَسْكُنُ فِي بَابِ الْعِرَاقِ بِحَلَبَ، وَأَبِي صَاحِبُ رَحًى، وَتَزَوَّجَنِي رَجُلٌ يَبِيعُ السَّقَطَ(٣)، فَطَلَّقَنِي لِرَائِحَةٍ كَرِهَهَا مِنْ فِيَّ؛ وَكُنْتُ مِنْ أَقْبَحِ نِسَاءِ حَلَبَ، فَلَمَّا عَرَفْتُ ذَلِكَ زَهِدْتُ فِي الدُّنْيَا، وَتَوَفَّرْتُ عَلَى الْعِبَادَةِ، وَأَكَلْتُ مِنْ مِغْزَلِي وَمِرْدَنِي(٤)، فَصَيَّرَنِي ذَلِكَ إِلَى مَا تَرَى!»

*
* *

وَتَقُولُ الْأُخْرَى: «أَتَدْرِي مَنْ أَنَا يَا عَلِيُّ بْنَ مَنْصُورٍ؟ أَنَا تَوْفِيقُ السَّوْدَاءُ الَّتِي كَانَتْ تَخْدُمُ فِي دَارِ الْعِلْمِ بِبَغْدَادَ، عَلَى زَمَانِ أَبِي مَنْصُورٍ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الْخَازِنِ، وَكُنْتُ أُخْرِجُ الْكُتُبَ إِلَى النُّسَّاخِ»

---

(١) استحر: أي صاح في السحر (٢) استَغْرَبَ في الضحك، واستُغْرِب — بالبناء للمجهول —: بالغ وأغرق، وكذلك أَغْرَبَ. وهذا هو المقصود، وليس المراد أنها تظهر الغرابة في صورة الضحك، وإن كان الكلام يحتمله، ولكن الأول أدخل في باب الفصاحة، وأشبه بأسلوب أبي العلاء في هذه الرسالة (٣) رديء المتاع: والخسيس الرذل من كل شيء، وبائعه السقَطيّ (٤) المِرْدَن: المغزل

فَيَقُولُ : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ! لَقَدْ كُنْتِ سَوْدَاءَ ، فَصِرْتِ أَنْصَعَ مِنَ الْكَافُورِ ! » فَتَقُولُ : « أَتَعْجَبُ مِنْ هَذَا ، وَالشَّاعِرُ يَقُولُ لِبَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ :

لَوْ أَنَّ مِنْ نُورِهِ مِثْقَالَ خَرْدَلَةٍ فِي السُّودِ كُلِّهِمِ ، لاَبْيَضَّتِ السُّودُ »

حـــدائق الحور

وَيَمُرُّ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ ، فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللهِ ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْحُورِ الْعِينِ ، أَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ، فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا ، لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ »

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « هُنَّ عَلَى ضَرْبَيْنِ ، ضَرْبٍ خَلَقَهُ اللهُ فِي الْجَنَّةِ لَمْ يَعْرِفْ غَيْرَهَا ، وَضَرْبٍ نَقَلَهُ اللهُ مِنَ الدَّارِ الْعَاجِلَةِ لَمَّا عَمِلَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ »

فَيَقُولُ ـ وَقَدْ عَجِبَ مِمَّا سَمِعَ ـ : « فَأَيْنَ اللَّوَاتِي لَمْ يَكُنَّ فِي الدَّارِ الْفَانِيَةِ ؟ وَكَيْفَ يَتَمَيَّزْنَ مِنْ غَيْرِهِنَّ ؟ »

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « اُقْفُ أَثَرِي »

فَيَتْبَعُهُ ، فَيَجِيءُ بِهِ إِلَى حَدَائِقَ لَا يَعْرِفُ كُنْهَهَا إِلَّا اللهُ .

فَيَقُولُ الْمَلَكُ : « خُذْ ثَمَرَةً مِنْ هذَا الثَّمَرِ ، فَاكْسِرْهَا ، فَإِنَّ هذَا الشَّجَرَ يُعْرَفُ بِشَجَرِ الْحُورِ »

فَيَأْخُذُ سَفَرْجَلَةً أَوْ رُمَّانَةً أَوْ تُفَّاحَةً ، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الثِّمَارِ ، فَيَكْسِرُهَا ، فَتَخْرُجُ مِنْهَا جَارِيَةٌ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ . تَبْرَقُ[1] لِحُسْنِهَا حُورِيَّاتُ الْجِنَانِ ، فَتَقُولُ :

---

(١) برق – هنا – : دهش وتحيَّر

« مَنْ أَنْتَ يا عَبْدَ اللهِ ؟ » فَيقولُ : « أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ » فَتَقولُ : « إِنِّى أُمَنَّى بِلِقائِكَ ، قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ الدُّنْيا بِأَرْبَعَةِ آلافِ سَنَةٍ » فَعِنْدَ ذلكَ يَسْجُدُ إِعْظاماً للهِ الْقَدِيرِ ، وَيقولُ : « هذَا كَمَا جاءَ فى الْحَديثِ : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الْمُؤْمِنينَ ما لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، بَلْهَ[1] ما اطَّلَعْتُمْ عَلَيْهِ »

*
* *

وَيَخْطُرُ فى نَفْسِهِ ، وَهُوَ ساجِدٌ ، أَنَّ تِلْكَ الْجَارِيَةَ — عَلَى حُسْنِها — ضَاوِيَةٌ[2] ، فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ مِنَ السُّجُودِ ، وَقَدْ صارَ مِنْ وَرَائِها رِدْفٌ يُضَاهِى كُثْبَانَ[3] عَالِجٍ . فَيُهَالُ[4] مِنْ قُدْرَةِ اللهِ ، وَيَقولُ : « يا رَازِقَ الْمُشْرِقَةِ سَناهَا ، وَمُبْلِغَ السَّائِلَةِ مُناهَا ، وَالذى فَعَلَ ما أَعْجَزَ وَهالَ ، وَدَعَا إِلى الْحِلْمِ الْجُهَّالَ ! أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْصُرَ بَوْصَ[5] هذِهِ الْحُورِيَّةِ على مِيلٍ فى مِيلٍ ، فقد جازَ بها قدرُكَ حَدَّ التأْميلِ ! »

فَيُقالُ لَهُ : « أَنْتَ مُخَيَّرٌ فى تَكْوِينِ هذِهِ الْجَارِيَةِ كَمَا تَشَاءُ »

فَيَقْتَصِرُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْإِرَادَةِ .

---

(١) قال أبو العلاء : « و بله : فى معنى دع ، وكيف » (٢) نحيفة (٣) جمع كثيب وهو التل من الرمل ، وعالج : موضع كثير الرمل ، يضرب به المثل فى الكثرة (٤) يفزع ، و يعظم عليه الأمر (٥) ردف

الفصل الرابع

جنـــة العفـاريت

وَيَبْدُو لَهُ(١) أَنْ يَطَّلِعَ إِلى أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْظُرَ إِلى ماهُمْ فيهِ ، لِيَعْظُمَ شُكْرُهُ عَلَى النِّعَمِ ، بِدَليلِ قَوْلِهِ — تَعَالى — : « قالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ يَقُولُ : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ؟ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(٢) ؟ قَالَ : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ؟ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فى سَوَاءِ الْجَحِيمِ ، قَالَ : تَاللهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ »

***

فَيَرْكَبُ بَعْضَ دَوَابِّ الْجَنَّةِ وَيَسِيرُ ، فَإِذا هُوَ بِمَدَائِنَ لَيْسَتْ كَمَدَائِنِ الْجَنَّةِ ، وَلَا عَلَيْها النُّورُ الشَّعْشَعَانِىُّ(٣) ، وَهِىَ ذَاتُ أَدْحَالٍ وَغَمَالِيلَ(٤) . فَيَقُولُ لِبَعْضِ الْمَلَائِكَةِ : « ما هذِهِ يا عَبْدَ اللهِ ؟ » فَيَقُولُ : « هَذِهِ جَنَّةُ الْعَفَارِيتِ الذينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَذُكِرُوا فى الْأَحْقَافِ ، وَفى سُورَةِ الْجِنِّ ، وَهُمْ عَدَدٌ كَثِيرٌ »

فَيَقُولُ : « لَأَعْدِلَنَّ إِلى هَؤُلَاءِ ، فَلَنْ أَخْلُوَ لَدَيْهِمْ مِنْ أُعْجُوبَةٍ » فَيَعُوجُ

---

(١) أى ابن القارح (٢) مجازون (٣) المتألق المنتشر (٤) الأدحال : المصانع تجتمع فيها الماء ، والغماليل : جمع غملول (بضم الغين) وهو الوادى الضيق الكثير الشجر والنبت الملتف ؛ أو الوادى ذو الشجر الطويل القليل العرض الملتف ، أو هو كل مجتمع أظلم وتراكم من الشجر

عَلَيْهِمْ ، فَإِذا هُوَ بِشَيْخٍ جالِسٍ عَلَى بَابِ مَغَارَةٍ ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، فَيُحْسِنُ الرَّدَّ ، وَيَقولُ : « ما جاءَ بكَ يا إِنْسِيُّ ؟ » فَيقولُ : « سَمِعْتُ أَنَّكُمْ جِنٌّ مُؤْمِنُونَ ، فَجِئْتُ أَلْتَمِسُ عِنْدَكُمْ أَخْبَارَ الْجِنَّانِ[1] ، وَما لَعَلَّهُ يُوجَدُ لَدَيْكُمْ مِنْ أَشْعَارِ الْمَرَدَةِ » فَيقولُ ذلكَ الشَّيْخُ : « لَقَدْ أَصَبْتَ الْعَالِمَ بِبَجْدَةِ[2] الْأَمْرِ ، فَسَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ »

فَيَقُولُ : « مَا اسْمُكَ أَيُّها الشَّيْخُ ! » فَيقولُ : « أَنَا الْخَيْتَعُورُ أَحَدُ بَنِي الشَّيْصَبَانِ ، وَلَسْنَا مِنْ وَلَدِ إِبْلِيسَ ، وَلَكِنَّا مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ قَبْلَ وَلَدِ آدَمَ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ »

أشعار الجن

فَيَقُولُ : « أَخْبِرْنِى عَنْ أَشْعَارِ الْجِنِّ ، فَقَدْ جَمَعَ الْمَعْرُوفُ بِالْمَرْزُبَانِيِّ[3] قِطْعَةً صَالِحَةً » فَيقولُ ذلكَ الشَّيْخُ : « إِنَّمَا ذَلِكَ هَذَيَانٌ لا مُعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، وَهَلْ يَعْرِفُ الْبَشَرُ مِنَ النَّظِيمِ إِلَّا كَمَا تَعْرِفُ الْبَقَرُ مِنْ عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَمِسَاحَةِ الْأَرْضِ ! وَإِنَّمَا لَهُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ جِنْسًا مِنَ الْمَوْزُونِ ، قَلَّ ما يَعْدُوها الْقَائِلُونَ ، وَإِنَّ لَنَا لَآلافَ أَوْزَانٍ ما سَمِعَ بِهَا الْإِنْسُ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَخْطُرُ بِهِمْ أُطَيْفَالٌ مِنَّا عَارِفُونَ ، فَتَنْفِثُ إِلَيْهِمْ مِقْدَارَ الضُّوَازَةِ[4] مِنْ أَرَاكِ[5] نُعْمَانَ[6] . وَلَقَدْ

---

(١) الجنَّان : جمع جان ؛ والجان : اسم جمع للجن (٢) أى العالم بدخلة الأمر و باطنه

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عمران ، ولد ببغداد ، وتوفى بها سنة ٣٨٤ هـ وهو من أئمة الأدباء ، وله مؤلفات كثيرة ضاع أكثرها ، ومن أنفع مؤلفاته الموجودة : كتاب الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء . وفى فهرست ابن النديم وصف لمؤلفاته ، انظر الجزء الأول ص١٣٢

(٤) الشظية من السواك (٥) الاراك : شجر يستاك بقضبانه (٦) مكان معروف

نَظَمْتُ الرَّجَزَ وَالْقَصِيدَ قَبْلَ أَنْ يُخْلَقَ آدَمُ بِكُورٍ[1] أَوْ كُورَيْنِ ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ مَعْشَرَ الْإِنْسِ تَلْهَجُونَ بِقَصِيدَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ : (قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ) وَتُحَفِّظُونَهَا الْحَزَاوِرَةَ[2] فِي الْمَكَاتِبِ. وَإِنْ شِئْتَ أَمْلَيْتُكَ أَلْفَ كَلِمَةٍ عَلَى هَذَا الْوَزْنِ، عَلَى مِثْلِ: «مَنْزِلِ وَحَوْمَلِ» وَأَلْفًا عَلَى ذَلِكَ الْفَرِيِّ[3] يَجِيءُ عَلَى: «مَنْزِلُ وَحَوْمَلُ» وَأَلْفًا عَلَى: «مَنْزِلاَ وَحَوْمَلاَ» وَأَلْفًا عَلَى: «مَنْزِلُهُ وَحَوْمَلُهُ» وَأَلْفًا عَلَى «مَنْزِلَهُ وَحَوْمَلَهُ» وَأَلْفًا عَلَى : «مَنْزِلِهِ وَحَوْمَلِهِ» وَكُلُّ ذَلِكَ لِشَاعِرٍ مِنَّا هَلَكَ وَهُوَ كَافِرٌ، وَهُوَ الآنَ يَشْتَعِلُ فِي أَطْبَاقِ الْجَحِيمِ »

*
* *

فَيَقُولُ : « أَيُّهَا الشَّيْخُ : لَقَدْ بَقِيَ عَلَيْكَ حِفْظُكَ ! »

فَيَقُولُ : « لَسْنَا مِثْلَكُمْ يَا بَنِي آدَمَ . يَغْلِبُ عَلَيْنَا النِّسْيَانُ وَالرُّطُوبَةُ . لِأَنَّكُمْ خُلِقْتُمْ مِنْ حَمَإٍ[4] مَسْنُونٍ ، وَخُلِقْنَا مِنْ مَارِجٍ[5] مِنْ نَارٍ »

فَتَحْمِلُهُ الرَّغْبَةُ فِي الْأَدَبِ أَنْ يَقُولَ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : «أَفَتُمِلُّ[6] عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَشْعَارِ ؟ »

فَيَقُولُ : فَإِذَا شِئْتَ أَمْلَلْتُكَ[6] مَا لاَ تَسِقُهُ[7] الرِّكَابُ[8] ، وَلاَ تَسَعُهُ صُحُفُ دُنْيَاكَ ! »

---

(١) مائة وخمسون سنة ، أو مائتان ، أى نحو قرنين (٢) جمع حزور وهو الغلام (٣) فى النسخة المطبوعة : العرى بالعين . ورأينا أنها محرفة عما أثبتناه هنا ، والفرى : المأخذ والمنحى و الطريقة، يقال : هو يَفرِي فَرِيَّهُ، أي ينحو نحوه (٤) طين أسود (٥) شعلة ساطعة ذات لهب شديد ، أو نار بلا دخان (٦) أمليت عليك (٧) ما لا تحمله (٨) الإبل

فَيَهُمُّ بِأَنْ يَكْتَتِبَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَقُولُ : « لَقَدْ شَقِيتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ بِجَمْعِ الْأَدَبِ ، وَلَمْ أَحْظَ مِنْهُ بِطَائِلٍ . وَلَسْتُ بِمُوَفَّقٍ إِنْ تَرَكْتُ لَذَّاتِ الْجَنَّةِ وَأَقْبَلْتُ أَنْتَسِخُ آدَابَ الْجِنِّ ، وَمَعِي مِنَ الْأَدَبِ مَا هُوَ كَافٍ . لَا سِيَّمَا وَقَدْ شَاعَ النِّسْيَانُ فِي أَهْلِ أَدَبِ الْجَنَّةِ . فَصِرْتُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ رِوَايَةً ، وَأَوْسَعِهِمْ حِفْظًا . وَلِلَّهِ الْحَمْدُ »

وَيَقُولُ لِذَلِكَ الشَّيْخِ : « مَا كُنْيَتُكَ لِأُكْرِمَكَ بِالتَّكْنِيَةِ » فَيَقُولُ : « أَبُو هَدْرَشَ ، أَوْلَدْتُ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا شَاءَ اللهُ ، فَهُمْ قَبَائِلُ ، بَعْضُهُمْ فِي النَّارِ الْمُوقَدَةِ ، وَبَعْضُهُمْ فِي الْجِنَانِ »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ : مَالِي أَرَاكَ أَشْيَبَ ! وَأَهْلُ الْجَنَّةِ شَبَابٌ ؟ »

فَيَقُولُ : « إِنَّ الْإِنْسَ أُكْرِمُوا بِذَلِكَ وَحُرِمْنَاهُ ، لِأَنَّا أُعْطِينَا الْحَوْلَةَ[1] فِي الدَّارِ الْمَاضِيَةِ ، فَكَانَ أَحَدُنَا إِنْ شَاءَ صَارَ حَيَّةً رَقْشَاءَ[2] ، وَإِنْ شَاءَ صَارَ عُصْفُوراً ، وَإِنْ شَاءَ صَارَ حَمَامَةً ؛ فَمُنِعْنَا التَّصَوُّرَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، وَتُرِكْنَا عَلَى خَلْقِنَا لَا نَتَغَيَّرُ ، وَعُوِّضَ بَنُو آدَمَ كَوْنَهُمْ فِيمَا حَسُنَ مِنَ الصُّوَرِ ، وَكَانَ قَائِلُ الْإِنْسِ يَقُولُ فِي الدَّارِ الذَّاهِبَةِ : « أُعْطِينَا الْحِيلَةَ ، وَأُعْطِيَ الْجِنُّ الْحَوْلَةَ ! » وَلَقَدْ لَقِيتُ مِنْ بَنِي آدَمَ شَرًّا ، وَلَقُوا مِنِّي كَذَلِكَ . »

---

(١) القدرة على التحول والتقلب (٢) المنقطة بسواد و بياض

صرع فتـــاة

« دَخَلْتُ — مَرَّةً — دَارَ أُنَاسٍ أُرِيدُ أَنْ أَصْرَعَ فَتَاةً لَهُمْ، فَتَصَوَّرْتُ فِي صُورَةِ عَضَلٍ(١)، فَدَعَوْا لِي الضَّيَاوِنَ(٢)، فَلَمَّا أَرْهَقْنَنِي تَحَوَّلْتُ صِلًّا أَرْقَمَ، وَدَخَلْتُ فِي قَطِيلٍ(٣) هُنَاكَ. فَلَمَّا عَلِمُوا ذَلِكَ كَشَفُوهُ عَنِّي، فَلَمَّا خِفْتُ الْقَتْلَ صِرْتُ رِيحًا هَفَّافَةً، فَلَحِقْتُ بِالرَّوَافِدِ(٤)، وَنَفَضُوا تِلْكَ الْخُشُبَ وَالْأَجْذَالَ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَجَعَلُوا يَتَفَكَّنُونَ(٥)، وَيَقُولُونَ: « لَيْسَ هَاهُنَا مَكَانٌ يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَتِرَ فِيهِ، فَبَيْنَمَاهُمْ يَتَذَاكَرُونَ ذَلِكَ عَمَدْتُ لِكَعَابِهِمْ(٦) فِي

---

(١) جرذ (٢) جمع ضيون، وهو السنور الذكر (٣) جذع شجرة مقطوع وملقى هناك

(٤) خشب السقف (٥) التفكّن: التعجب والتفكر والتندم، والمراد أنهم جعلوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر به (٦) الكَعاب: الجارية الناهد، قال أبو العلاء:

كم هلكت غادة كَعاب … وعُمّرت أمها العجوز

أحرزها الوالدان خوفا … والقبر حرز لها حريز

يجوز أن تبطىء المنايا … والخلد فى الدهر لا يجوز

وأول هذه الأبيات قوله:

يموت قوم وراء قوم … ويثبت الأول العزيز

ولا يسعنا التمثل بهذه الأبيات دون الإشارة إلى حكاية الذهبي التى أوردها بمناسبة رواية أبي الفتح، فقد حكى أبو الفتح أنه دخل على أبي العلاء بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة بغير علم منه — وكان يتردد إليه و يقرأ عليه — فسمعه وهو ينشد من قلبه تلك الأبيات السابقة. ثم تأوه مرات، وتلا: « إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة، ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، وما نؤخره إلا لأجل معدود، يوم يأتى لا تكلم نفس إلا بإذنه، فمنهم شقى وسعيد »

الْـكِلَّةِ(١)، فَلَمَّا رَأَتْنِي أَصَابَهَا الصَّرْعُ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَجَمَعُوا لَهَا الرُّقَاةَ، وَجَاءُوا بِالْأَطِبَّةِ، وَبَذَلُوا الْمُنْفِسَاتِ، فَمَا تَرَكَ رَاقٍ رُقْيَةً إِلَّا عَرَضَهَا عَلَيَّ — وَأَنَا لَا أُجِيبُ!

وَغَبَرَتِ الْأُسَاةُ تَسْقِيهَا الْأَشْفِيَةَ، وَأَنَا سَدِكٌ(٢) بِهَا لَا أَزُولُ؛ فَلَمَّا أَصَابَهَا الْحِمَامُ(٣) طَلَبْتُ لِي سِوَاهَا صَاحِبَةً، ثُمَّ كَذَلِكَ، حَتَّى رَزَقَ اللهُ الْإِنَابَةَ، وَأَثَابَ الْجَزِيلَ، فَلَا أَفْتَأُ لَهُ مِنَ الْحَامِدِينَ!

ثم صاح و بكى بكاء شديداً، وطرح وجهه على الأرض زمانا، ثم رفع رأسه، ومسح وجهه، فقال: « سبحان من هذا كلامه! »

قال أبو الفتح: فصبرت ساعة، ثم سلمت عليه فرد، وقال: متى أتيت؟ فقلت: الساعة. ثم قلت: يا سيدى أرى فى وجهك أثر غيظ، فقال: لا يا أبا الفتح، بل أنشدت شيئاً من كلام المخلوق، وتلوت شيئاً من كلام الخالق، فلحقنى ما ترى! ».

قال: « فتحققت صحة دينه وقوة يقينه. » اهـ

ونحن نؤثر ألّا نعلق على هذه الحكاية بشيء من عندنا الآن، فليس هنا موضع البحث فى عقيدة أبى العلاء

(١) الكلة: ستر رقيق، هو ما يسمى « الناموسية » (٢) ملازم لها لا أفارقها

(٣) الهلاك، ولا يدخلن فى روع القارئ أن أبا العلاء يدور فى خلده لحظة واحدة حدوث مثل هذه الحكاية، وانما هو خياله الممتع وتهكمه اللاذع، وسخريته الدقيقة، هى التى أملتها عليه، وحسب القارئ — ليعرف رأى أبى العلاء ومنزعه — أن يحفظ له قوله:

فاخش المليك ولا تقعد على رهَب إن أنت بالجن فى الظلماء خُشِّيتا
فإنما تلك أخبار ملفقة لخدعة الغافل الحوشى، حوشيتا

قصة الجنى

حَمِدْتُ مَنْ حَطَّ أَوْزَارِى وَمَزَّقَهَا عَنِّى ، فَأَصْبَحَ ذَنْبِى الْيَوْمَ مَغْفُورَا
وَكُنْتُ آلَفُ مِنْ أَتْرَابِ قُرْطُبَةٍ خَوْدًا[١] وَبِالصِّينِ أُخْرَى بِنْتَ يَغْبُورَا[٢]
أَزُورُ تِلْكَ وَهَذِى غَيْرَ مُكْتَرِثٍ فِى لَيْلَةٍ ، قَبْلَ أَنْ أَسْتَوْضِحَ النُّورَا
وَلَا أَمُرُّ بِوَحْشِىٍّ وَلَا بَشَرٍ إِلَّا وَغَادَرْتُهُ وَلْهَانَ مَذْعُورَا
وَأَرْكَبُ الْهَيْقَ[٣] فِى الظَّلْمَاءِ مُعْتَسِفًا[٤] أَوْ لَا ، فَذَبَّ رِيَادٍ[٥] بَاتَ مَغْرُورَا
وَأَحْضُرُ الشَّرْبَ[٦] أَغْرُوهُمْ بِآبِدَةٍ يُزْجُونَ عُودًا وَمِزْمَارًا وَطُنْبُورَا[٧]
فَلَا أُفَارِقُهُمْ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ فِعْلٌ يَظَلُّ بِهِ إِبْلِيسُ مَسْرُورَا
وَأَصْرِفُ الْعَدْلَ[٨] خَتْلًا[٩] عَنْ أَمَانَتِهِ حَتَّى يَخُونَ وَحَتَّى يَشْهَدَ الزُّورَا
وَكَمْ صَرَعْتُ عَوَانًا[١٠] فِى لَظَى لَهَبٍ قَامَتْ تُمَارِسُ لِلْأَطْفَالِ مَسْجُورَا[١١]

---

(١) الخود : المرأة الشابة (٢) يغبور اسم لملك الصين ، كما يقال : كسرى لملك فارس ، وقيصر لملك الروم (٣) الظليم ، أى ذكر النعام (٤) سائراً على غير هداية (٥) ثوراً وحشياً وهذا البيت يمثل للقارئ صورة ممتعة يلذ له أن يتخيلها ، وهى براعة نعرفها فى أبى العلاء الذى لم يفته أن يلائم بين سموق الجنى وطول ذكر النعام فى الشطر الأول من البيت ، و بين ضخامته وعظم الثور الوحشى فى الشطر الثانى ، وليس أبدع من أن يتمثل الإنسان ذلك الجنى راكباً تلك النعامة الهوجاء ذات السوق الخفيفة ، أو ممتطياً ذلك الثور الوحشى مع ضخامة جرمه ، وعنف جريه .

(٦) جمع شارب (٧) نوع من آلات الطرب له عنق طويل ، وستة أوتار من النحاس
(٨) العادل الذى ترضى شهادته (٩) مخادعاً اياه (١٠) العوان : المرأة النصف
(١١) المسجور : اللبن الذى ماؤه أكثر من لبنه ، والمعنى : قامت تعالج تنوراً مسجوراً تطبخ عليه شيئاً لأطفالها ، وفى هـذا البيت صورة مفجعة إذ تتمثل فيه تلك

وَذَادَنِى(١) الْمَرْءُ نُوحٌ عَنْ سَفِينَتِهِ ضَرْباً إِلَى أَنْ غَدَا الظُّنْبُوبُ(٢) مَكْسُورَا

وَطِرْتُ فِى زَمَنِ الطُّوفَانِ مُعْتَلِياً فِى الْجَوِّ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَاءَ مَحْسُورَا(٣)

وَقَدْ عَرَضْتُ لِمُوسَى فِى تَفَرُّدِهِ بِالشَّاءِ(٤) يُنْتِجُ(٥) عُمْرُوساً(٦) وَفُرْفُورَا(٧)

لَمْ أُخْلِهِ مِنْ حَدِيثٍ مَّا ، وَوَسْوَسَةٍ إِذْ دَكَّ رَبُّكَ فِى تَكْلِيمِهِ الطُّورَا(٨)

أَضْلَلْتُ رَأْىَ أَبِى سَاسَانَ(٩) عَنْ رَشَدٍ وَسِرْتُ مُسْتَخْفِياً فِى جَيْشِ سَابُورَا(١٠)

الأم الرؤوم تصرع فى وقت يكون فيه أطفالها فى أشد حاجتهم إليها : فالجنى لا يرى أبلغ فى الأذى من انتهاز تلك الساعة الحرجة !

(١) ردنى (٢) عظم ساق من أمام ، أى أن نوحاً ظل يضربنى لأغادر سفينته ، حتى كسر عظم ساقى ، وفى هذا البيت دقة نحب ألا تفوت القارئ فى كلمة المرء نوح ، مع ملاحظة أن المتكلم جنى يتكلم عن الأنس ، و إن كان أبو العلاء لم يتقيد بهذا فى قوله فى لزومياته :

مضى المرء موسى ، وأضحت يهو د : تتلو مع الدهر أسـفارها

(٣) حتى انحسر المـاء عن الأرض ، أى انكشف (٤) جمع شاة (٥) ينتج : يلى نتاجها (٦) العمروس : الخروف (٧) الفرفور: الحمل ، وهو يشير بذلك إلى حكاية رعيه الغنم لشعيب — عليه السلام — وهى معروفة ، وقد ورد ذكرها فى القرآن ، فى قوله تعالى : « قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج » وقد أشار موسى — عليـه السلام — إلى ذلك حينما سأله الله عن عصاه فقال : « وأهش بها على غنمى » (٨) يشير بذلك إلى قوله : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربى أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه ، فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق ؛ قال : سبحانك ، تبت إليك ، وأنا أول المؤمنين » (٩) ساسان : جد دولة الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفة بالساسانية (١٠) سابور هو ابن أردشير حفيد ساسان بن بابك ، ثانى ملوك الدولة الساسانية الفارسية

وَسَادَ بهرامُ جُورٍ(١) ، وَهْوَ لِى تَبَعٌ ... أَيَّامَ يَبْنِى - عَلَى عِلَّاتِهِ - جُورَا(٢)

فَتَارَةً أَنَا صِلٌّ(٣) ، فِى نَكَارَتِهِ ، ... وَرُبَّمَا أَبْصَرَتْنِى الْعَيْنُ عُصْفُورَا

نَلُوحُ لِلْإِنْسِ حُولًا أَوْ ذَوِى عَوَرٍ ... وَلَمْ نَكُنْ قَطُّ لَا حُولاً وَلَا عُورَا(٤)

* * *

ثُمَّ اتَّعَظْتُ ، وَصَارَتْ تَوْبَتِى مَثَلًا ... مِنْ بَعْدِ مَا عِشْتُ بِالْعِصْيَانِ مَشْهُورَا

حَتَّى إِذَا انْقَضَتِ الدُّنْيَا وَنُودِى إِسْـ ... ـرَافِيلُ : «وَيْحَكَ هَلَّا تَنْفُخُ الصُّورَا ؟»

أَمَاتَنِى اللهُ شَيْئًا ، ثُمَّ أَيْقَظَنِى ... لِمَبْعَثِى ، فَرُزِقْتُ الْخُلْدَ مَسْرُورَا

لغة الجن

فَيَقُولُ(٥) : « لِلّهِ دَرُّكَ يَا أَبَا هَدْرَش ، فَكَيْفَ أَلْسِنَتُكُمْ ؟ أَيَكُونُ فِيكُمْ عَرَبٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الرُّومِ ، وَرُومٌ لَا يَفْهَمُونَ عَنِ الْعَرَبِ ، كَمَا نَجِدُ فِى أَجْيَالِ الْإِنْسِ ؟ »

---

(١) بَهْرام جور هو ابن يزدجرد ملك الفرس، وهو الذى بنى مدينة جور وتاريخه مفعم بالبطولة والأعمال الجريئة (٢) جور مدينة بفارس بينها و بين شيراز عشرون فرسخا ، وهى طيبة النزهة يسير فيها الراحل من كل باب نحو فرسخ فى بساتين وقصور ، و إليها ينسب نوع من الورد يعرف بالجورى ، وهو شديد الحمرة و يعد أجود أصنافه ، وشهرة هذه المدينة بالورد كشهرة هجر بالتمر ، ودارين بالمسك ، وقطربل بالخمر (٣) حية دقيقة صفراء لا تنفع منها الرقية (٤) يقول : إننى كنت أبدو مرة فى صورة صل كريه المنظر ، وأخرى فى صورة عصفور يزدهى الناظر حسنه ؛ وكثيراً ما كنا نظهر للأنس فى صورة الحول والعور ، على حين أننا أصحاء البصر ، ولكننا نختار لأنفسنا الصورة التى يحلو لنا أن نبدو فيها (٥) أى ابن القارح

فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ أَيُّها الْمَرْحُومُ ، إِنَّا أَهْلُ ذَكَاءٍ وَفَطَنٍ ، وَلَا بُدَّ لِأَحَدِنَا أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِجَمِيعِ الْأَلْسُنِ الْإِنْسِيَّةِ ، وَلَنَا بَعْدَ ذَلِكَ لِسَانٌ لا يعرفه الأنيس

حديث الرجم

وَأَنَا الَّذِى أَنْذَرْتُ الْجِنَّ بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ ، أَدْلَجْتُ فِي رُفْقَةٍ نُرِيدُ الْيَمَنَ ، فَمَرَرْنَا بِيَثْرِبَ ، فَسَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ، فَآمَنَّا بِهِ ، وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً . وَعُدْتُ إِلَى قَوْمِي ، فَذَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، فَتَسَرَّعَتْ مِنْهُمْ طَوَائِفُ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَحَثَّهُمْ عَلَى مَا فَعَلُوهُ أَنَّهُمْ رُجِمُوا عَنِ اسْتِرَاقِ السَّمْعِ بِكَوَاكِبَ مُحْرِقَاتٍ [١] »

فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هَدْرَشَ ! أَخْبِرْنِي — وَأَنْتَ الْخَبِيرُ — هَلْ كَانَ رَجْم النُّجُومِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَإِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقُولُ : إِنَّهُ حَدَثَ فِي الْإِسْلَامِ ! »

فَيَقُولُ : « هَيْهَاتَ ! أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ الْأَوْدِيِّ :

كَشِهَابِ الْقَذْفِ يَرْمِيكُمْ بِهِ ... فَارِسٌ فِي كَفِّهِ لِلْحَرْبِ نَارُ

وَقَوْلَ ابْنِ حُجْرٍ :

فَانْصَاعَ [٢] كَالدُّرِّيِّ [٣] يَتْبَعُهُ ... نَقْعٌ [٤] يَثُورُ تَخَالُهُ طُنُبَا [٥]

---

(١) يشير الى قوله تعالى فى سورة الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديداً وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »

(٢) انفتل راجعاً مسرعاً ومر (٣) كالكوكب الدرى (٤) غبار (٥) الطنب حبل طويل يشد به سرادق البيت ، والمعنى أنه انفتل بسرعة الشهاب الساقط من السماء ، وقد خلف وراءه غباراً مستطيلا يشبه الحبل الطويل

وَلَـكِنَّ الرَّجْمَ زَادَ فِي أَوَانِ الْمَبْعَثِ(١) ؛ وَإِنَّ التَّخَرُّصَ لَـكَثِيرٌ فِي الإِنْسِ وَالْجِنِّ ، وَإِنَّ الصِّدْقَ لَمُعْوِزٌ قَلِيلٌ ، وَهَنِيئاً فِي الْعَاقِبَةِ لِلصَّادِقِينَ

وَفِي قِصَّةِ الرَّجْمِ أَقُولُ :

مَكَّةُ أَقْوَتْ مِنْ بَنِي الدَّرْدَبِيسْ(٢) فَمَا لِجِنِّيٍّ بِهَا مِنْ حَسِيسْ(٣)

وَقَامَ فِي الصَّفْوَةِ مِنْ هَاشِمٍ(٤) أَزْهَرُ(٥) لاَ يُغْفِلُ حَقَّ الْجَلِيسْ

يَجْلِدُ فِي الْخَمْرِ وَيَشْتَدُّ فِي الْـأَمْرِ وَلاَ يُطْلِقُ شُرْبَ الْكَسِيسْ(٦)

وَيَرْجُمُ الزَّانِيَ ذَا الْعِرْسِ لاَ يَقْبَلُ فِيهِ سُؤْلَةً(٧) مِنْ رَئِيسْ

***

وَكَمْ عَرُوسٍ ، بَاتَ حُرَّاسُهَا كَجُرْهُمٍ(٨) فِي عِزِّهَا أَوْ جَدِيسْ(٩)

---

(١) صرح أبو العلا بهـذا الرأى فى اللزوميات ، فقال :

ولست أقول إن الشهب يوماً لبعث محمـد جعلت رجوما

(٢) حى من أحياء الجن (٣) صوت خفى (٤) قام فى الصفوة من هاشم ، أى قام فى نخبة بنى هاشم ، أى فى خيرهم (٥) مشرق الوجه ، يعنى به النبى صلوات الله عليه

(٦) الكسيس نبيذ التمر ، ومعنى البيت : أنه يحرم كل أنواع الخمر ولا يبيح حتى هذا النوع من النبيذ (٧) شفاعة (٨) جرهم قبيلة كانت فى جهات مكة نزل بينهم إسماعيل

(٩) جديس قبيلة من العرب كانت منازلها باليمامة وكان معهم بنو عمهم طسم ، فطغت طسم على جديس ، حتى كان رئيسها عمليق يدخل بالمرأة من جديس قبل أن يدخل بها زوجها . فلما تزوجت عفيرة وهى من سادات جديس وافتضها عمليق دون بعلها ، خرجت مولولة شاقة جيبها ، كاشفة عن نفسها ، وهى تقول :

لا أحد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ؟

فهاجت جديس على طسم بسبب ذلك ، وانتصرت عليها ، وانفردت بالعز دونها ؛ وظلت كذلك الى أن أبادها ملوك اليمن .

. . . .

---

*
* *

(وقد أشار إلى هذه القصة اكثر مؤرخى العرب ، ولا بأس من اختيار القطعة التالية من كتاب مروج الذهب لجمال أسلوبها الروائى وحسن خيالها المتسق . وليقرأها القارئ على أنها أسطورة لها أصل تاريخى — إذا شاركنا فى الاعتقاد بأن أكثرها من عمل الرواة واختراع المحدثين :)

حكاية طسم وجديس

« كان لطسم ملك يقال له « عملوق » وكان ظلوما غشوما لا ينهاه شيء عن هواه مع إصراره و إقدامه على جديس وتعديه عليهم وقهره إياهم ، فلبثوا فى ذلك دهراً وهم أهل مظالم قد غمطوا النعمة وانتهكوا الحرمة ، و بلادهم « اليمامة » أفضل البلاد وأكثرها خيراً فى صنوف الشجر والأعناب ؛ وهى حدائق ملتفة وقصور مصطفة ، فلم يزل على ذلك حتى أتته امرأة من جديس يقال لها « هزيلة » بنت مازن ، وزوج لها قد فارقها يقال له « ماشق » فأراد قبض ولده منها فأبت عليه ، فارتفعا الى الملك « عملوق » ليحكم بينهما ، فقالت : « أيها الملك ! هذا الذى حملته تسعا ، ووضعته دفعا ، وأرضعته شفعا ، ولم أنل منه نفعاً ، حتى إذا تمت أوصاله ، واستوفى خصاله ، أراد أن يأخذه قسرا ، و يسلبنيه قهرا ، و يتركنى منه صفرا » قال زوجها : « قد أخذت المهر كاملا ، ولم أنل منه نائلاً ، إلا ولداً خاملاً ، فافعل ما كنت فاعلا » فأمر الملك أن يؤخذ الولد منها و يجعل فى غلمانه ، فقالت هزيلة فى ذلك :

أتينا أخا طسم ليحكم بيننا ... فأبرم حكما فى هزيلة ظالما
لعمرى لقد حكمت لا متورعا ... ولا فهما عند الحكومة عالما
ندمت ، فلم أقدر على متزحزح ... وأصبح زوجى حائر الرأى نادما

قالوا : « فبلغ الملك قول هزيلة فغضب ، وأمر ألا تزوج امرأة من جديس فتزف الى زوجها حتى تحمل اليه فيفترعها قبل زوجها ، فلقوا من ذلك ذلا طويلا . ولم تزل تلك حالهم حتى تزوجت عفيرة « وقيل الشموس بنت عمار الطسمى أخت الاسود بن عفار » فلما كانت ليلة هديها الى زوجها ، انطلق بها الى « عملوق » الملك ، ليطأها — على عادته — ومعه الفتيات يغنين و يقلن فى غنائهن :

. . . .

ابدأ بعملوق ، وقومى فاركبى

وبادرى الصبح بأمر معجب

فما لبكر بعدكم من مــذهب

*
* *

فلما دخلت « عفيرة » على « عملوق » افترعها وخلى سبيلها ، فخرجت عفيرة على قومها فى دمائها شاقة جيبها عن دبرها وهى تقول :

« لا أحـــد أذل من جديس أهكذا يفعل بالعروس ! »

وقالت أيضاً فى تحريض جديس على طسم وأبت أن تمضى الى زوجها — :

أيصلح ما يؤتى إلى فتيـاتـكم وأنتم رجال فيكم عدد الرمل

. . . .

فإن أنتم لا تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تفروا من الكحل

ودونكم طيب العروس ، فانما خلقتم لأثواب العروس، وللغسل

قبيحاً وشيكا للذى ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

فلو أننـا كنا رجالا ، وكنتم نساء لكنـا لا نقر على الذل

*
* *

فموتوا كراماً ، واصبروا لعدوكم بحرب تلظى فى القرام من الجزل

ولا تجزعوا للحرب ياقوم، إنما تقوم بأقوام كرام على رجل

فيهلك فيها كل نكس موكل ويسلم فيها ذو النجابة والفضل

وفى ذلك يقول أخوها :

جاءت تمشى طسم فى خميس كالريح فى هشهشـة اليبيس

يا طسم ! ما لقيت من جديس حقا لك الويل ، فهيسى ، هيسى

*
* *

. . . .

فلما سمعت جديس قولها ، اجتمعت عصبا لذلك ، فقــال لهم الأسود بن عفار — وكان فيهم سيدا مطاعا — : « يا جديس ! أطيعونى بما آمركم به وأدعوكم اليه ، ففى ذلك عز الدهر وذهاب الذل »

قالوا : « وما ذلك ؟ » قال : قد علمتم أن هؤلاء — يعنى طسما — ليسوا بأعز منكم ؛ ولكن ملك صاحبكم عليكم وعليهم هو الذى يذعننا اليه بالطاعة ، ولولا ذلك ما كان له علينا من فضل ، ولو امتنعنا منه لكان لنا النصف ! » فقالوا : « قد قبلنا قولك ! ولكن القوم أقراننا وأكثر منا عَددا وعُددا ، فنخاف — إن ظفروا بنا — ألا يقيلونا ! » فقال : « والله يا جديس لتطيعننى فيما آمركم به وأدعوكم اليه ، أو لأتكئن على سيفى فأقتل به نفسى ! » قالوا : « فانا نطيعك فيما قد عزمت عليه » قال : « فانى صانع لعملوق وقومه من طسم طعاما وداعيهم اليه ، فاذا جاءوا إليه منفصلين من الخيل والبغال نهضنا إليهم بأسيافنا فانفردت أنا بالملِك ، وانفرد كل رجل منكم برجل منهم ! » قالوا : « فافعل ما بدا لك ! »

واجتمع رأيهم عليه ، فقالت «عفيرة» لأخيها «الأسود» : «لا تفعل هذا فان الغدر فيه ذلة وعار ، ولكن كابدوا القوم فى ديارهم تظفروا بهم أو تموتوا كراما ! » قال : « لا ، ولكن نمكر بهم فيكون ذلك أمكن لنا من نواحيهم وأبلغ فى الانتقام منهم » وصنع الأسود طعاما كثيراً وأمر قومه فاخترطوا سيوفهم ودفنوها فى الرمل — حيث أعدوا الطعام — ثم قال لهم : « اذا أتاكم القوم يرفلون فى حليهم ، فخذوا أسيافكم ثم تقدموا عليهم قبل أن يأخذوا مجالسهم وابدؤا بالرؤساء ، فانكم — اذا قتلتموهم — لم تبالوا بالسفلة ، ولم يكن بعد ذلك منهم حال تكرهونها » قالوا : « نفعل ما قلت »

ثم دعا الأسود بعملوق الطَّسْمى ومن معه من رؤساء طسم باليمامة ، فأسرعوا بإجابة دعوته ، فلما توافوا إلى المدعاة ، وثبتْ جديس ، فاستثاروا سيوفهم من الرمل ، وشدوا على عملوق وأصحابه ، فقتلوهم حتى أفنوهم عن آخرهم ، ومضوا إلى ديارهم فانتهبوها .

زُفَّتْ إِلَى زَوْجٍ لَهَا ، سَيِّدٍ مَا هُوَ بِالنِّكْسِ (١) وَلَا بِالضَّبِيسْ (٢)
غِرْتُ عَلَيْهَا فَتَخَلَّجْتُهَا (٣) بِوَاشِكِ الصَّرْعَةِ (٤) قَبْلَ الْمَسِيسْ (٥)
وَأَسْلُكُ (٦) الْغَادَةَ مَحْجُوبَةً (٧) فِي الْخِدْرِ ، أَوْ بَيْنَ جَوَارٍ تَمِيسْ (٨)
لَا أَنْتَهِي عَنْ غَرَضِي بِالرُّقَى (٩) إِذَا انْتَهَى الضَّيْغَمُ دُونَ الْفَرِيسْ (١٠)
وَأُدْلِجُ (١١) الظَّلْمَاءَ فِي فِتْيَةٍ مِلْجِنْ (١٢) فَوْقَ الْمَاحِلِ (١٣) الْعَرْبَسِيسْ (١٤)

ولهذه الأسطورة التاريخية الطويلة بداية ونهاية لا يتسع المقام لذكرهما ، ونحب أن يطلع عليهما القارئ في الجزء الأول من كتاب « مروج الذهب » للمسعودي من (ص ٢٤١ — ٢٤٧)

*
* *

وقد ذكر أبو العلاء قبائل « طسم وجديس وجرهم » في شعره مراراً ، فمن ذلك قوله ، وهو التفاتة تاريخية رائعة :

سيسأل ناس : « ما قريش ومكة ؟ » كما قال ناس : « ماجديس وما طسم ؟ »

وقوله في موضع آخر في أثناء كلامه عن الترك :

لهم حيل في حربهم ما اهتدت لها جديس ، ولا ساست بها الملك جرهم

وقوله في ميميته الفذة التي حاور فيها الديك : « ورثتَ هدى التذكار من قبل جرهم »

(١) الرجل الضعيف الدنيء الذي لا خير فيه (٢) الجبان أو الأحمق
(٣) جعلتها تختلج (٤) بعاجل الصرعة (٥) قبل أن يمسها زوجها
(٦) أدخل فيها (٧) وهي مستورة (٨) تتبختر (٩) جمع رقية
(١٠) إذا انتهى الأسد دون ما يفترسه (١١) أسير ليلا (١٢) من الجن ، وهي لهجة لبعض العرب ، يقولون : وقفت ع الماء ، ونحو ذلك . وما تزال هذه اللهجة على ألسن العوام إلى يومنا هذا (١٣) الأرض الجدبة (١٤) الأرض الجافة الغليظة

فِي طَاسِمٍ (١) تَعْزِفُ (٢) جِنَّـانُهُ   أَقْفَرَ إِلَّا مِنْ عَفَارِيتَ لِيسْ (٣)
تَحْمِلُنَا فِي الْجُنْحِ (٤) خَيْلٌ ، لَهَا   أَجْنِحَةٌ ـ لَيْسَتْ كَخَيْلِ الْانِيسْ (٥)
وَأَيْنُقٌ (٦) تَسْـبِقُ أَبْصَارَكُمْ   مَخْلُوقَةٌ بَيْنَ نَعَامٍ وَعِيسْ (٧)

*
* *

لَا نُسْكَ فِي أَيَّامِنَا عِنْـدَنَا   بَلْ نُكِسَ الدينُ ، فَمَا إِنْ نَكِيسْ (٨)
فَالْأَحَدُ الْأَعْظَمُ وَالسَّبْتُ كَالْـ   إِثْنَيْنِ ، وَالْجُمْعَةُ مِثْلُ الْخَمِيسْ (٩)
لَا مُجَّسٌ نَحْنُ ، وَلَا هُـوَّدٌ ،   وَلا نَصَارَى يَبْتَغُونَ الْكَنِيسْ (١٠)

---

(١) المفازة لا أثر فيها (٢) تصوت (٣) شجعان « جمع أليس » (٤) وقت الليل (٥) الإنس (٦) نوق (٧) كرام الابل (٨) نُكِس الدين فى معنى أخذ من غير وجهه ، وأهملت حقائقه ، ولا نكيس : لا نفطن ، والمعنى أننا لا نفقه شيئا فى أمور الدين

(٩) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى مراراً فى لزومياته ، فمن ذلك قوله :

لنا جمعـة ، والسبت يدعى لأمة   أطافت بموسى ، والنصارى لها الأحدْ
فهل لبواقى السبعة الزهـر معشر   يجلونها — ممن تنسك أو جحد ؟

وقوله :

فما هـذه الأيام إلا نظائر   تساوت بها آحادها وسبوتها

(١٠) بديع من أبى العلاء هذا الخيال الصافى الذى يتمثل فيه بعد الجن عن الاهتمام بالاعتبارات الإنسيّة

وقد شغل اختلاف الأديان وتباين الملل والنحل مكانا رحبا من نفس أبى العلاء ، فأورده فى شعره ونثره بأساليب شتى ، ولعل أول ما عرفناه له فى ذلك قوله فى سن مبكرة :

باللاذقيـة فتنـة   ما بين أحمد والمسـيح
هذا بنـاقوس يـد   ق ، وذا بمئذنة يصـيح

إلى أن يقول ساخراً :

كل يعـزّز دينـه   يا ليت شعرى ، ما الصحيح ؟

. . . .

ثم قال – فيما بعد – :

نحل غدت مللاً ، فكل شريعة   تبدى لمضمر غيرها إكفارها

وقال :

إن الشرائع ألقت بيننا إحَنًا   وعلمتنا أفانين العداوات

إلى غير ذلك مما يطول سرده .

***

وبعد أن قلب هذه الفكرة على كل وجه من وجوهها ؛ انتقل من تطبيقها على الإنس إلى تطبيقها على الجن ، ثم إلى تطبيقها على الكواكب ، فمن ذلك قوله :

العالم العالى برأى معاشر   كالعالم الهاوى — يحس ويعلم

زعمت رجال : « أن سياراته   تسق العقول ، وأنها تتكلم »

فهل الكواكب مثلنا فى دينها   لا يتفقن ، فهائد أو مسلم ؟

وفى هذه القصيدة يقول :

ولعل مكة فى السماء كمكة   وبها نَضادُ وَيَذْبُل وَيَلَمْلَم

فأنت ترى أن فكره لم يقف عند حد الإنس والجن بل تعداهما إلى الكواكب أيضاً ، فود لو يهتدى إلى مذاهبها ونحلها ، إن كان لها مذاهب أو نحل !

وهذا خيال لا نستغربه من شاعر فيلسوف ، دقيق الحس ، عميق الفكر ، يرى فى كل ما يحيط به — من حيوان ونبات وجماد — حياة شاملة ، ويصل به التعمق فى ذلك إلى حد أن يقول :

أظن زمانى كونه وفساده   وليداً بترب الأرض يلهو ويعبث

ثم ينظر من الناحية الأخرى من منظار الحقيقة الذى لا يفتأ يطل منه على الكون ، فيقول :

نُمَزِّقُ التَّوْرَاةَ مِنْ هُونِهَا   وَنَحْطِمُ الصُّلْبَانَ حَطْمَ الْيَبِيسْ[١]
نُحَارِبُ اللهَ جُنُودًا لإِبْلِيسَ، أَخِي الرَّأْيِ الْغَبِينِ النَّجِيسْ
نُسَلِّمُ الْحُكْمَ إِلَيْهِ - إِذَا   قَاسَ - فَنَرْضَى بِالضَّلَالِ الْمَقِيسْ[٢]

* * *

نَزِينُ لِلشَّارِخِ[٣] وَالشَّيْخِ أَنْ   يُفْرِغَ كِيسًا - فِي الْخَنَا - بَعْدَ كِيسْ
وَنَقْتَرِي[٤] جِنَّ «سُلَيْمَانَ» كَيْ   نُطْلِقَ مِنْهَا كُلَّ غَاوٍ حَبِيسْ[٥]

هذى الشخوص من التراب كوائن   فالمرء — لولا أن يُحِسّ — جِدَار

فأنت تراه يرى فى الجماد حياة لاينقصها إلا الإحساس ، وفى الأحياء جماداً لا يمتاز بغير ذلك الإحساس .

* * *

ولا بأس من الإشارة هنا — بمناسبة هذا الاستطراد — إلى قوله :

شر أشجار علمت بها   شجرات أثمرت ناسا

وقوله :

وهل أعظم إلا غصون وريقة   وهل ماؤها إلا جنى دماء

وسنفصل ما أجملناه فى هذه النقطة حين نعرض للمقارنة بين أبى العلاء المعرى وعمر بن الخيام ، فلنكتف بهذا القدر اليسير الآن .

(١) اليبيس : ما يبس من العشب ، والبقول التى تتناثر إذا يبست ، أو هو كل نبات يابس ، ومعنى البيت أننا نحقر التوراة فنمزقها ، ونهزأ بالصلبان فنكسرها كما نكسر النبات اليابس (٢) نسلم حكمنا إلى إبليس ، فنرضى بما يراه لنا من الآراء الضالة (٣) للشاب (٤) نتتبع (٥) محبوس

صُـيِّرَ فِي قَارُورَةٍ رُصِّصَتْ(١)   فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْـهُ غَيْرَ النَّسِيسْ(٢)

(١) طليت بالرصاص (٢) بقية الروح ، والنسيس — أيضاً — عرقان فى اللحم يسقيان المخ ، ومعنى البيتين : أننا نجوب أنحاء البلاد باحثين عن إخواننا من عصاة الجن الغاوين الذين سجنهم نبى الله « سليمان » بسبب عصيانهم ، فى قوارير أحكم سدادها بالرصاص حتى لا يجدوا سبيلا إلى الفرار ، فلم يُبق منهم ذلك الحبس الطويل الا الرمق

« أساطير الجن وسليمان النبى »

وقد شاعت أساطير « سليمان » والجن « ارجع الى كتابنا : أساطير ألف يوم » وانتشرت منذ أقدم أزمنة التاريخ فنسبوا إليه القدرة المطلقة على تسخير الجن ومعرفة لغاتهم المختلفة ، وعزوا إلى خاتمه — المشهور بما عليه من النقش — معجزات لا تحصى ، كما عزوا إلى بساطه قدرة خارقة على الطيران — بما يحمله — فى الجو بسرعة لا يكاد يتصورها العقل

وقد كادت تجمع تلك الأساطير على عدة أمور ، أنضجها الخيال ونسقها التواتر ، فمن ذلك أن « سليمان النبى » كان يهيمن على الجن و يتطلب منهم خدمات شتى تتفاوت صعوبة و يسرا ، وقد يَعِنّ له أمر هام لا يستطيع إنفاذه إلا جنى بعينه يكون مشهوراً بقدرته الخارقة ، فيرسل إليه ، فإذا لبى دعوته فذاك ، و إلا نكل به أو ختم جبهته بالنقش الذى على خاتمه فأحرقه توا ، أو سجنه فى قارورة مرصَّصة أو قمقم من النحاس ، وربما سجنه فى عامود طويل من الصخر بعد أن يوثقه بالسلاسل والأغلال وختمه بخاتمه

وقد اشتهر وزيره الحكيم « آصف بن برخيا » بمساعداته القيمة لسليمان ، على إذلال الجن و إخضاعهم لأوامره

وقد ذاع من تلك الأساطير بين العامة والخاصة شيء كثير ، وافتن الناس فى رواياتها بأساليب شتى وطرق متباينة ، ولهذه الأساطير مصادر عدة ، نخص بالذكر منها — عدا أقاصيص رواة العرب — مصدرين رئيسين نعدهما من أخصب المصادر وأغناها ، وهما « أساطير ألف ليلة وليلة » و « أسطورة سيف بن ذى يزن »

وَنُخْرِجُ الْحَسْنَاءَ مَطْرُودَةً مِنْ بَيْتِهَا عَنْ سُوءِ ظَنٍّ حَدِيسْ

ففى « ألف ليلة وليلة » ترى :

حكاية الصياد والجنى

وموضوعها أن صياداً عائلاً طاعناً فى السن كان من عادته أن يرمى شبكته كل يوم أربع مرات فخرج فى صبيحة يوم حسب عادته وطرح شبكته وصبر إلى أن استقرت فى الماء ثم جمع خيطانها فوجدها ثقيلة فجذبها فلم يقدر على ذلك ، فأخذ يعالجها حتى إذا تمكن من إخراجها وجد فيها حماراً ميتاً فحزن ؛ ثم أخرجه ورمى شبكته مرة ثانية ، فلما جذبها وجدها ثقيلة كما وجدها فى المرة الأولى فأخذ يعالجها حتى استطاع اخراجها فوجد فيها زيراً كبيراً مملوءاً بالرمل والطين فزاد حزنه . ثم أخرج ما فيها ولما ألقاها للمرة الثالثة وجذبها وجد بها شقافة وقوارير ، فعجب من سوء بخته ونكد طالعه ، وقبل أن يلقى الشبكة للمرة الرابعة — الأخيرة — توسل إلى الله أن ييسر له ثم سمى باسمه ، وألقى شبكته وصبر إلى أن استقرت فاذا بها أثقل منها فى المرات السابقة فبذل أشد الجهد فى إخراجها حتى تمكن من ذلك بعد عناء شديد . فوجد فيها قمقماً من نحاس أصفر مسدوداً بالرصاص ومطبوعاً بخاتم سليمان النبى فتبدل حزنه سروراً وقال فى نفسه : « سأبيع هذا القمقم فى سوق النحاس لأنه يساوى عشرة دنانير ذهباً ، ولكن لا بد من فتحه لأعلم ما يحتويه »

وأخرج مدية كانت معه ، فعالج بها الرصاص حتى فكه ، ثم أزال غطاء القمقم فتصاعد منه دخان كثيف إلى عنان السماء لم يلبث أن تجمع واكتمل ، ثم رأى الصياد أمامه مارداً هائلاً مروعاً من الجن ، فارتعدت فرائصه ، واضطرب ، ولم يُعد رشده إليه إلا قول الجنى له :

« العفو يا نبى الله سليمان، التوبة ! التوبة ! آمنت بك ، وأطعتك ، ولم أعد أخالف لك قولاً أو أعصى لك أمراً ، فلا تقتلنى فانى تائب نادم على ما فرط منى من العصيان ! »

فعاود الصياد الرمق وقال له : « أين أنت من سليمان النبى أيها الجنى ؟ لقد مات منذ عدة قرون، فما قصتك ؟ وما سبب حبسك فى هذا القمقم ؟ » فلما علم الجنى بموت سليمان النبى التفت إلى

نَقُولُ : « لَا تَقْنَعْ بِتَطْلِيقَةٍ وَاقْبَلْ نَصِيحًا ـ لَمْ يَكُنْ بِالدَّسِيسْ »

الصياد قائلاً : « سأجازيك على جميلك بالقتل ، ولكنى سأترك لك اختيار ميتتك ! » فقال له الصياد : « أهذا جزاء من أحسن إليك وأخرجك من سجنك ! » فقال له الجنى : « لقد كنت من الجن المارقين ، وقد عصيت سليمان بن داود — واسمى صخر الجنى — فأرسل إلى وزيره آصف بن برخيا فأتى بى مكرهاً وقادنى إليه ذليلاً ، فلما وقفت بين يدى سليمان النبى أمرنى بالدخول فى طاعته ، فأبيت ، فحبسنى فى هذا القمقم وختم علىّ بالرصاص وطبعه بخاتمه المنقوش عليه « الاسم الأعظم » وأمر الجن فألقونى فى وسط البحر ، فمكثت مائة عام وقلت فى نفسى : « كل من خلصنى أغنيته إلى الأبد » ولما مرت الأعوام المائة ولم يخلصنى أحد ، قلت : « كل من خلصنى فى خلال هذا القرن الثانى فتحت له كنوز الأرض » فلم يخلصنى أحد ومرت علىّ أربعمائة أخرى فقلت : « كل من خلصنى قضيت له ثلاث حاجات » — فلما مرت تلك المدة الطويلة كلها ولم ينقذنى أحد تملكنى الغضب الشديد فقلت فى نفسى : « كل من خلصنى — بعد هذا — قتلته ، وتركت له اختيار ميتته ، فأى ميتة تختار أن تموتها الآن ؟ »

فارتمى الصياد على أقدامه متوسلاً إليه أن يعفو عنه ، ولكنه وجد منه الإصرار على قتله

فلجأ إلى الحيلة — بعد أن يئس من استعطافه — فقال للجنى : « ولكن لى سؤالاً أرجو أن تجيبنى عليه قبل أن تهلكنى ، وأن تصدقنى فى الإجابة عنه » فقال له الجنى : وما هو ؟ فقال الصياد : « قل لى بحق الاسم الأعظم المنقوش على خاتم « نبى الله سليمان » كيف كنت فى هذا القمقم الضيق — وهو لا يسع يدك ولا رجلك ؟ » فلما سمع الجنى هذا القسم اضطرب ولكنه لم يلبث أن قال له : « ألا تصدق أننى كنت فيه ؟ » فأجابه الصياد : « كلا ، ولن أصدق ذلك أبداً إلا إذا رأيته بعينى » فانتفض العفريت وصار دخاناً فى الجو ، ثم تَجَمَّع وأخذ يدخل فى القمقم حتى أصبح كله فى داخله — فأسرع الصياد بسد فم القمقم بالسدادة التى كانت عليه من قبل ، فلما رأى الجنى مكر الصياد توسل إليه أن يفك أسره .

ودار بينهما حوار طويل ممتع ، يجده القارىء مفصلاً فى الجزء الأول من كتاب ألف ليلة وليلة ، انتهى بأن أقسم له الجنى أن ينفعه إذا أطلقه ، وقد أطلق وبر للصياد بقسمه .

حَتَّى — إِذَا صَارَتْ إِلَى غَيْرِهِ — عَادَ مِنَ الْوَجْدِ بِجَدٍّ تَعِيسْ

أما أسطورة « سيف بن ذى يزن » فنعدها — على عامية أسلوبها ، وفساد خيالها واضطرابه فى عدة مواضع منها — أغنى المصادر التى عنيت بذكر هذه الخرافة وأشباهها من وصف الجان ، و بيان كفاياتهم وأقدارهم ، وهيمنة السحرة عليهم ، وأثر الطلاسم فيهم ، و إظهار الفروق التى بين طوائفهم ونحلهم المختلفة وما إلى ذلك .

وقد أوسعت تلك القصة لهذا النوع من الأساطير أرحب مكان فيها ، فازدحمت بها ازدحاماً أفردها من بين الأساطير العربية ، ولسنا نعرف فى كل ما قرأناه من القصص العامية — وقد قرأنا كل ما طبع منها بلا استثناء — قصة تعدلها فى هذه الخصلة غناء وخصبا .

فليس بد — لمن أراد أن يكوّن فكرة واسعة عن أساطير السحرة والجان والأرصاد والطلاسم — من أن يقرأ تلك القصة الطويلة الجديرة بالعناية

ومن بين أساطير تلك القصة ما ترويه لنا أسطورة « الرهق الأسود » — وقد ذكرت فى موضعين منها — أولهما بمناسبة سفر «سيف بن ذى يزن » الى كنوز « النبى سليمان » وثانيهما بمناسبة حفر « شلالات النيل »

فمثلت لنا ذلك « الرهق الأسود » مارداً عنيداً تخاف الجن كلها سطوته و بأسه ، ولا تكاد تؤثر فيه الأرصاد والطلاسم ، وقد بلغ من عتوه أنه عصى « النبى سليمان » واستخف به و بسلطانه .

ففى ذات يوم كلف « سليمان » — تلبية لرغبة زوجه « بلقيس » — أعوان الجان بعمل شاق لم يستطيعوا القيام به ، فأظهروا له عجزهم عن القيام به ولفتوه إلى قدرة «الرهق الأسود» — دون غيره من الجان — على إتمامه

فكلف وزيره « آصف بن برخيا » باحضاره ، وكان « آصف » يعلم مقدار صلابة هذا الجني وعناده ، فبعث إليه برسالة تركها له أحد الجان عند رأسه — وهو نائم — خوفاً من سطوته ، فلما أفاق قرأ فيها قوله : « إذا لم تحضر إلىّ بعثت إليك الوهم ! »

نُذْكِرُهُ مِنْهَا – وَقَدْ زُوِّجَتْ ثَغْرًا كَدُرٍّ فِي مُدَامٍ غَرِيسْ

فذهب إلى « آصف » وسأله عن الوهم وأين هو ؟ فاغتنم فرصة حضوره فقيده بطلاسمه التى اشتهر بمقدرته الفائقة على الافتنان فيها — ثم أمره بالقيام بذلك العمل الذى أرغمه عليه إرغاماً

و بينما هو قائم بعمله الشاق — مرت « بلقيس » مصادفة فهام بحبهـــا ، ولما رأى « سليمان النبى » طلب إليه أن يزوجه منها ووعده بالإذعان لأوامره كلها إن فعل — فلما علم أنه يعنى زوجه ، أراد أن يطبعه بالنقش الذى على خاتمه ليحرقه ، فاستغاث بالوزير آصف ؛ فاقترح على « سليمان » أن يسجنه فى عامود من الرخام ليشقى بالعذاب طول حياته » فسجنه فى عامود طويل أحكم ســداده بالرصاص وختمه بخاتمه وظل محبوساً حتى أنقذه « سيف بن ذى يزن » . . . . إلى آخر تلك الأسطورة الطويلة التى أوجزناها أشد إيجاز ، وفصلتها قصة «سيف بن ذى يزن» أبرع تفصيل « فى الجزء الثامن ص ٤٥ و ٤٦ وفى الجزء الحادى عشر من ص ٤٤ إلى آخر الجزء ومن أول الجزء الثانى عشر إلى ص ٨ »

ومما هو جدير بالملاحظة فى تلك الأساطير أنها تكاد تنتهى جميعاً باظهار شغف أولئك الجن العصاة بالإساءة إلى من يحسنون إليهم و يهيمون بإطلاقهم ، مما يدل على تأصل روح الشر فى نفوسهم

*
* *

وقد أشار المتنبى إلى ما اشتهر به « سليمان النبى » من معرفة لغات الجن وقدرته على تفهم ألسنتهم المختلفة ، فى نونيته التى مدح بها عضد الدولة وذكر فيها شعب بوان ، فقال :

ملاعب جنـــة ؛ لو سار فيها « سليمان » لسار بترجمان[1]

وأبدع النابغة فى الإشارة إلى ما اشتهر عن « سليمان » من إذلال الجن واخضاعهم لأوامره ، فقال من معلقته الجميلة أثناء مدحه للنعمان :

---

(١) وهذا البيت هو الثالث من قصيدته التى أولها

مغانى الشعب — طيباً فى المغانى — بمنزلة الربيع من الزمان
ولـكن الفتى العربى فيهـا غريب الوجـه واليد واللسان

وَنُسْخِطُ الْمَلْكَ عَلَى الْمُشْفِقِ الْـــمُفْرِطِ فِي النُّصْحِ إِذِ الْمَلْكُ سِيسْ

لَا أَتَّقِي الْـــبَرَّ لِأَهْوَالِهِ وَأَرْكَبُ الْبَحْرَ أَوَانَ الْقَرِيسْ(١)

نَادَمْتُ قَابِيلَ ، وَشِيْثاً ، وَهَا بِيلَ عَلَى الْعَاتِقَةِ الْخَنْدَرِيسْ(٢)

وَرَهْطَ لُقْمَانَ ، وَأَيْسَارَهُ عَاشَرْتُ مِنْ بَعْدِ الشَّبَابِ اللَّبِيسْ(٣)

* * *

ثُمَّتَ آمَنْتُ ، وَمَنْ يُرْزَقِ الْ إِيمَانَ يَظْفَرْ بِالْخَطِـــيرِ النَّفِيسْ

جَاهَدْتُ فِي بَدْرٍ ، وَحَامَيْتُ فِي أُحْدٍ، وَفِي الْخَنْدَقِ رُعْتُ الرَّئِيسْ(٤)

وَرَاءَ جِـــبْرِيلَ وَمِيكَالَ(٥) نَخْ لِي الْهَامَ فِي الْكَبَّةِ(٦) خَلْيَ اللَّسِيسْ(٧)

ولا أرى فاعلاً فى الخير يشبهه ولا أحاشى من الأقوام من أحد

إلا « سليمان » إذ قال الأله له : « قم للبرية فاحددها عن الفند

وخيس الجن ــ انى قد أذنت لهم يبنون « تدمر » بالصفاح والعمد

فمن أطاعك فانفعه بطاعته كما أطاعك ــ وادلله على الرشد

ومن عصاك ، فعاقبه معاقبة تنهى الظلوم، ولا تقعد على ضمد »

ونختم هذا الفصل بقول الأعشى ــ وهو يمثل منحى آخر من اعتقاد العرب فى ذلك — :

ولو كان شيء خالداً ومعمراً لكان سليمان البرى من الدهر

براه إلهى ، فاصطفاه عباده وملكه ما بين ثريا الى مصر

وسخر من جن الملائك تسعة قياماً لديه يعملون بلا أجر

(١) البرد الشديد (٢) الخمر (٣) أى الذى أخلق من كثرة اللبس (٤) بدر وأحد والخندق : ثلاث وقائع مشهورة من غزوات النبى صلى الله عليه وسلم وهو يعنى بالرئيس فى واقعة الخندق : أبا سفيان (٥) ميكائيل (٦) الكبة الصدمة بين الخيلين فى الحرب أو الزحمة (٧) يشير بذلك الى ما ورد فى القرآن من محاربة الملائكة فى جانب

وَطَارَ فِي الْيَرْمُوكِ بِي سَابِحٌ   وَالْقَوْمُ فِي ضَرْبٍ وَطَعْنٍ خَلِيسْ
حَتَّى تَجَلَّتْ عَنِّيَ الْحَرْبُ كَالْـ   ـجَمْرَةِ ، فِي وَقْدَةِ ذَاكَ الْوَطِيسْ
وَالْجَمَلُ[١] الْأَنْكَدُ شَاهَدْتُهُ   بِئْسَ نَتِيجُ النَّاقَةِ الْعَنْتَرِيسْ[٢]
وَزُرْتُ صِفِّينَ[٣] عَلَى شَطْبَةٍ[٤]   جَرْدَاءَ ، مَا سَائِسُهَا بِالْأَرِيسْ[٥]
مُجَدِّلاً[٦] بِالسَّيْفِ أَبْطَالَهَا   وَقَاذِفاً بِالصَّخْرَةِ الْمَرْمَرِيسْ[٧]
وَسِرْتُ قُدَّامَ عَلِيٍّ غَدَا   ةَ النَّهْرِ[٨] حَتَّى فُلَّ غَرْبُ الْخَمِيسْ[٩]
صَادَفَ مِنِّي وَاعِظٌ تَوْبَةً   فَكَانَتِ اللَّقْوَةُ[١٠] عِنْدَ الْقَبِيسْ[١١]

فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنْ ذَلِكَ الْجِنِّيِّ ، وَيَكْرَهُ الْإِطَالَةَ عِنْدَهُ ، فَيُوَدِّعُهُ

المسلمين فى تلك الوقائع كقوله تعالى : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » إلى أن يقول : « إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ؟ بلى : إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى فى سورة الأنفال « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مسومين » وقوله تعالى فى سورة الأحزاب « وجنوداً لم تروها »

(١) يعنى أنه شاهد واقعة الجمل (٢) العنتريس : الناقة الغليظة ، ومعنى البيت : « وقد شاهدت ذلك الجمل المشئوم الذى سميت باسمه الموقعة ، فلا كان يوم ولدته أمه فيه ، فانه شر ما نتجته تلك الناقة العنتريس التى خلفته (٣) موقعة صفين التى كانت بين على ومعاوية (٤) فرس معتدلة القوام (٥) الأريس الاكار أى الحراث ، يعنى أن قائدها ليس بالغمر الذى لم يمارس أهوال الحروب (٦) رامياً بالسيف أبطالها الى الأرض (٧) الملساء أو الشديدة (٨) يعنى واقعة النهر (٩) الجيش ، وسمى كذلك لأنه خمس فرق . (١٠) أى الناقة اللقوة ، وهى كل ناقة سريعة القبول لماء الفحل (١١) القبيس أى الفحل القبيس ، وهو كل فحل سريع الإلقاح ، ومعنى البيت : « إن الوعظ صادف استعداداً منه ، وهوى فى نفسه ، فانتصح به ، وأقلع عما كان فيه من الضلال والغىّ . »

حديث الاسـد

وَيَحُمُّ[١] فَإِذَا هُوَ بِأَسَدٍ يَفْتَرِسُ مِنْ صِيرَانِ[٢] الْجَنَّةِ وَحَسِيلِهَا[٣] فَلاَ تَكْفِيهِ مِائَةٌ وَلاَ مِائَتَانِ ، فَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « لَقَدْ كَانَ الْأَسَدُ يَفْتَرِسُ الشَّاةَ الْعَجْفَاءَ[٤] فَيُقِيمُ عَلَيْهَا الْأَيَّامَ ، لاَ يَطْعَمُ سِوَاهَا شَيْئًا » فَيُلْهِمُ الْأَسَدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ — وَقَدْ عَرَفَ مَا فِي نَفْسِهِ — فَيَقُولُ : « يَا عَبْدَ اللهِ ! أَلَيْسَ أَحَدُكُمْ فِي الْجَنَّةِ تُقَدَّمُ لَهُ الصَّحْفَةُ[٥] فَيَأْكُلُ مِنْهَا مِثْلَ عُمْرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يَلْتَذُّ بِمَا أَصَابَ ، فَلاَ هُوَ مُكْتَفٍ ، وَلاَ هِيَ الْفَانِيَةُ ! وَكَذَلِكَ أَنَا أَفْتَرِسُ مَا شَاءَ اللهُ ، فَلاَ تَأْذَى الْفَرِيسَةُ بِظُفْرٍ وَلاَ نَابٍ ، وَلَكِنْ تَجِدُ مِنَ اللَّذَّةِ كَمَا أَجِدُ[٦] بِلُطْفِ رَبِّهَا الْعَزِيزِ !

أَتَدْرِي مَنْ أَنَا ؟ أَنَا أَسَدُ الْقَاصِرَةِ الَّتِي كَانَتْ فِي طَرِيقِ مِصْرَ ، فَلَمَّا سَافَرَ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي لَهَبٍ يُرِيدُ تِلْكَ الْجِهَةَ ، وَقَالَ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ — :

---

(١) يسير « أى ابن القارح » (٢) قطعان بقر الوحش (٣) أولاد البقر ، مفردها : حسيلة

(٤) الهزيلة (٥) القصعة الكبيرة المنبسطة (٦) انظر الى هذا الاستدراك الجميل ، وتأمل كيف احتاط أبو العلاء بهذه الإشارة الدقيقة ، فهو لم يفته أن ينبه الى سرور الحيوان فى الدار الآخرة ، والتذاذه بما كان يألم له من الذبح والقتل فى الدار الأولى . و بهذه الاشارة لم يتناقض أبو العلاء مع نفسه فى تحريم ذبح الحيوان الذى يرى له مثل ما يرى للإنسان من الحق فى الحياة والتمتع بها ، وقد دارت بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة فى مصر رسائل فى أمر تحريم الحيوان ، فانتصر أبو العلاء لهذه الفكرة ، وأيدها بالحجج والأدلة القوية ، ورد داعى الدعاة عليه « ارجع إلى كتابنا : صور جديدة من الأدب العربى »

« اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِ كَلْباً مِنْ كِلاَبِكَ » أُلْهِمْتُ أَنْ أَتَجَوَّعَ لَهُ أَيَّاماً ، وَجِئْتُ وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ الرُّفْقَةِ ، فَتَخَلَّلْتُ [١] بَيْنَ الْجَمَاعَةِ إِلَيْهِ وَأُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ بِمَا فَعَلْتُ . »

حديث الحطيئة[٢]

. . . . . . فَيَذْهَبُ ، فَإِذَا هُوَ بِبَيْتٍ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، كَأَنَّهُ

---

(١) دخلت بينهم ، أو خلال دارهم

(٢) الحطيئة

توفى سنة ٥٩ هـ

شاعر جاهلى إسلامى ، اسمه « جرول بن أوس » ، وكنيته « أبو مليكة » ولقبه « الحطيئة » لقب بذلك لقصره وقربه من الأرض ، وهو ينسب نفسه الى قبيلة بنى عبس التى ولد فيها . اشتهر بالعناد والنزوع إلى الشر ، وقد وصفه الأصمعى بأنه : « كان سيء الخلق ، دنيء النفس ، فاسد الدين ، سئولا ملحفاً جشعاً ، كثير الشر ، قليل الخير ، بخيلاً دميما قصيراً ، رث الهيئة ، متدافع النسب فى القبائل »

وقد هجا أبا بكر — فيمن هجاه — فقال :

أطعنا رسول الله إذ كان حاضراً   فيا لهفتا ! ما بال دين أبى بكر ؟

أيورثها بكراً — إذا مات بعده —   وتلك — وبيت الله — قاصمة الظهر !

دفعه طبعه الشرير إلى هجاء أقرب الناس إليه ، فهجا عمه وخاله ، بل أمه وأباه ، بل هجا نفسه أيضاً ، فقال فى هجاء أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ، ثم لحاك حقا   أبا ، ولحاك من عم وخال

فنعم الشيخ أنت — لدى المخازى —   وبئس الشيخ أنت — لدى المعالى

جمعت اللؤم — لا حياك ربى —   وأسباب السفاهة والضلال

حِفْشٌ[1] أَمَةٍ رَاعِيَةٍ، وَفِيهِ رَجُلٌ لَيْسَ عَلَيْهِ نُورُ سُكَّانِ الْجَنَّةِ، وَعِنْدَهُ شَجَرَةٌ قَمِيئَةٌ[2]، ثَمَرُهَا لَيْسَ بِزَاكٍ[3]

فَيَقُولُ: «يَا عَبْدَ اللهِ! لَقَدْ رَضِيتَ بِحَقِيرٍ»

فَيَقُولُ: «وَاللهِ مَا وَصَلْتُ إِلَيْهِ إِلاَّ بَعْدَ هِيَاطٍ وَمِيَاطٍ[4] وَعَرَقٍ مِنْ شَقَاءٍ، وَشَفَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وَدِدْتُ أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ!»

وقال فى هجاء أمه :

تنحى ، واقعدى منى بعيداً ... أراح الله منك العالمينا
ألم أظهر لك البغضاء منى ؟ ... ولكن لا إخالك تعقلينا
أغربالاً — اذا استودعت سراً ؟ ... وكانوناً على المتحدثينا
جزاك الله شرا من عجوز ... ولقّاك العقوق من البنينا
حياتك — ما علمت — حياة سوء ... وموتك قد يسر الصالحينا !

وقال فى هجاء نفسه — ولعله أصدق ما قال — :

أبت شفتاى — اليوم — إلا تكلما ... بسوء ، فما أدرى لمن أنا قائله
أرى لى وجهاً قبح الله خلقه ... فقبح من وجهٍ ، وقبح حامله

وقوله — وهو من أروع الشعر وأحسنه — :

يسوسون أحلاماً — بعيداً أناتها ... وإن غضبوا — جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم — لا أبا لأبيكم — ... من اللوم ، أوسدوا المكان الذى سدوا
أولئك قوم — إن بنوا — أحسنوا البنا ، ... وإن عاهدوا — أوفوا ، وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها ، ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين فى الهيجا ، مكاشيف للدجى ، ... بنى لهم آباؤهم ، وبنى الجد
ويعذلنى أبناء سعد عليهم ... وما قلت إلا بالذى علمت سعد

(١) بيت صغير جداً (٢) صغيرة حقيرة (٣) ليس نامياً (٤) هياط ومياط :

فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا الْحُطَيْئَةُ الْعَبْسِيُّ » فَيَقُولُ : « بِمَ وَصَلْتَ إِلَى الشَّفَاعَةِ ؟ » فَيَقُولُ : « بِالصِّدْقِ » فَيَقُولُ : « فِي أَيِّ شَيْءٍ ؟ » فَيَقُولُ : « فِي قَوْلِي :

أَبَتْ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلُّمَا بِهُجْرٍ[1] ، فَلَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهْ ؟
أَرَى لِيَ وَجْهًا قَبَّحَ اللهُ خَلْقَهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ ، وَقُبِّحَ حَامِلُهْ »

فَيَقُولُ : « مَا بَالُ قَوْلِكَ :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ[2] بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

لَمْ يُغْفَرْ لَكَ بِهِ ؟ » فَيَقُولُ : « سَبَقَنِي إِلَى مَعْنَاهُ الصَّالِحُونَ ، وَنَظَمْتُهُ وَلَمْ أَعْمَلْ بِهِ ، فَحُرِمْتُ الْأَجْرَ عَلَيْهِ » فَيَقُولُ : « مَا شَأْنُ الزِّبْرِقَانِ بْنِ بَدْرٍ[3] ؟ »

اضطراب ، ومجيء وذهاب ، ودفع وزجر . وأصل الهياط : أشد السوق فى الوِرْد ، والمياط : أشد السوق فى الصَّدَر

(١) يروى : بسوء ، والهجر : فحش من القول وقبيح من الكلام (٢) العرف : المعروف ، وهذا البيت من قصيدته التى هجا بها الزبرقان بن بدر ، وستمر بك بعد أسطر

(٣) الزبرقان بن بدر

أحد أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وعامل عمر بن الخطاب ، وقد أحسن إلى الحطيئة وأكرم جواره ، فلم يحل ذلك دون هجاء الحطيئة إياه وممالأة خصمه « بغيض بن عامر » عليه ، فمدح بنى أنف الناقة وهجا الزبرقان بن بدر ، فشكاه إلى عمر[1] بن الخطاب فحبسه ، ثم استعطفه بشعره فأطلقه بعد أن حظر عليه الهجاء والخوض فى أعراض الناس .

---

(١) — كان عمر بن الخطاب يسمع شكوى الناس من الشعراء إذا هجوهم ، ويعنى بذلك عنايته بالمهم من الخصومات والقضايا . ويضاف إلى هذا المثال الذى بين أيدينا قصته مع تميم بن أبى والنجاشى (انظر ص ٦٦ من هذا الجزء) .

فَيَقُولُ الْحُطَيْئَةُ : « هُوَ رَئِيسٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، انْتَفَعَ بِهِجَائِى ، وَلَمْ يَنْتَفِعْ غَيْرُه بِمَدِيحِى ! »

ولما لم يكن له مورد رزق من غير هذا الباب ، وقّع له « عمر » بثلاثة آلاف درهم ، فكف عن الهجاء ، حتى مات عمر ، فعاد يهجو من يشاء . ومما قاله فى الزبرقان بن بدر :

والله ما معشر لاموا امرأ جنباً ... فى آل لأى بن شماس ، بأكياس

ما كان ذنب بغيض - لا أبا لكم - ... فى بائس جاء يحدو آخر الناس

وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم ... كيما يكون لكم متحى وأمراسى

لما بدا لىَ منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحى فيكمُ آسى

أزمعت يأسا متينا من نوالكم ... ولن يرى طاردا للحر كالياس

جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيما بين أرماس

ملوا قراه وهرته كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه ... لا يذهب العرف بين الله والناس

الفصل الخامس

الجحيم

حديث الخنساء

.... وَيَمْضِي ، فَإِذَا هُوَ بِامْرَأَةٍ فِي أَقْصَى الْجَنَّةِ ، قَرِيبَةٍ مِنَ الْمُطَّلَعِ إِلَى النَّارِ ، فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتِ ؟ » فَتَقُولُ : « أَنَا الْخَنْسَاءُ السُّلَمِيَّةُ (١) ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْظُرَ

---

(١) الخنساء

توفيت سنة ٢٤ هـ

اسمها تماضر، واسم أبيها عمرو بن الشريد ، ولقبها الغالب عليها هو « الخنساء » والخنساء – الظبية – وهي من بني سليم من مضر ، وقد اشتهرت بما قالته في رثاء أخويها « معاوية وصخر » وفدت في قومها على النبي فأسلمت ، وأنشدته شعرها فأعجب به ، واستزادها . وحكايتها مع النابغة الذبياني حين فضلها على حسان مشهورة لا داعي إلى ذكرها

ومما يحكونه عنها أن دريد بن الصِّمة خطبها إلى أبيها فرحب به ، وسأله أن يتريث ريثما يسأل الخنساء عن رأيها في زواجها ، لأن لها في نفسها ما ليس لغيرها . ثم دخل إليها وقال لها : « يا خنساء ! أتاك فارس هوازن وسيد بني جُشَم — دريد بن الصِّمَّة — يخطبك ، وهو من تعلمين » فقالت (ودريد يسمع قولها) :

« يا أبت ! أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح ، وناكحة شيخ بني جُشَم هامة اليوم أو غد ؟ ! » ثم أنشأت تقول :

أتخطبني — هبلت — على دريد وقد طرّدت سيد آل بدر

معاذ الله ينكحني حَبَرْكَى يقال : « أبوه من جُشَم بن بكر »

ولو أمسيت في جشم هَدِيًّا لقد أمسيت في دنس وفقر

إِلى صَخْرٍ . فَاطَّلَعْتُ ، فَرَأَيْتُهُ كَالْجَبَلِ الشَّامِخِ ، والنَّارُ تَضْطَرِمُ فِي رَأْسِهِ ، فَقَالَ : « لَقَدْ صَحَّ مَزْعَمُكَ فِيَّ » يَعْنِي قَوْلِي :

وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتَمُّ الْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ(١) فِي رَأْسِهِ نَارُ(٢) »

قالوا : فخرج إليه أبوها فقال : « يا أبا قرة ، قد امتنعت — ولعلها أن تجيب فيما بعد » فقال دريد : « قد سمعت قولكما » وانصرف غضبان ، وقال يهجو الخنساء من قصيدة نجتزئ منها بقوله :

« وقاك الله يا ابنة آل عمرو ... من الأزواج أشباهي ونفسي
فلا تلدى ؛ ولا ينكحك مثلي ... إذا ما ليـــلة طرقت بنحس
وتزعم أنني شيخ كبير ، ... وهل خبرتها أنى ابن أمس ؟
تريد شَرَنْبَثَ(١) القدمين شثنا ... يباشر بالعشية كل كرس(٢)
وما قصرت يدى عن عظم أمر ... أهم به ، ولا سهمى بنكس
وما أنا بالمزجى — حين يسمو ... عظيم فى الأمور — ولا بوهس

ومن مختار شعر الخنساء قولها :

إن الزمان — وما يفنى له عجب — ... أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراس
إن الجديدين — فى طول اختلافهما — ... لا يفسدان ، ولكن يفسد الناس

وقولها فى رثاء « صخر » أخيها :

ألا يا صخر ! — إن أبكيتَ عينى ... فقـد أضحكتنى زمناً طويلا
دفعت بك الخطوب — وأنت حى — ... فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
إذا قبح البـكاء على قتيل ... رأيت بكاءك الحسنَ الجميلا

(١) جبل شامخ (٢) انظر إلى ما يحويه هذا التهكم من الدعابة ودقة التصوير ، فقد أراد أبو العلا أن يطلعك على رأيه فى نقد هذا البيت ، فلجأ إلى تمثيل هذه الصورة البديعة لترى منها رأيه مجسما واضحاً .

---

(١) غليظ أصابعهما (٢) يعالج البعر والسرجين ومثل ذلك

فَيَطَّلِعُ ، فَيَرَى إِبْلِيسَ — لَعَنَهُ اللّٰهُ — وَهُوَ يَضْطَرِبُ فِى الْأَغْلالِ وَالسَّلاسِلِ ، وَمَقامِعُ[1] الْحَدِيدِ تَأْخُذُهُ مِنْ أَيْدِى الزَّبانِيَةِ ! فَيقُولُ : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ

وهذا البيت من قصيدة جميلة للخنساء رثت بها أخاها وقد غنى ابن سريج ببعض أبياتها ، والقصيدة من أجمل شعر الخنساء ، وأولها :

قذى بعينك ! أم بالعين عوار — أم ذرفت — إذ خلت من أهلها الدار ؟

وفيها تقول

تبكى «خناس» فما تنفك ـ ما عمرت ـ — لها عليه رنين ، وهى مفتار

تبكى «خناس» على «صخر» وحق لها — إذ رابها الدهر — إن الدهر ضرار

لا بد من ميتة ، فى صرفها عبر ، — والدهر — فى صرفه — حول وأطوار

إلى أن تقول :

لقد نعى « ابن نهيك » لى أخا ثقة — كانت ترجم عنه — قبلُ — أخبار

فبت ساهرة للنجم أرقبه — حتى أتى — دون غور النجم — أستار

ثم تقول :

قد كان خالصتى من كل ذى نسب — فقد أصيب ، فما للعيش أوطار

وتختمها بقولها :

ليبكه مقتر — أفنى حريبته — دهر — وحالفه بؤس و إقتار

ورفقة — حار حاديهم بمهلكة — كأن ظلتها فى الطخية القار

لا يمنع القوم — إن سالوه خلعته — ولا يجاوزه — بالكيل — مرار

(١) مفردها : مقمعة — وهى عمود من الحديد كالمِحْجَن يضرب به رأس الفيل ، أو خشبة يضرب بها الإنسان ليذل . والأول المراد هنا .

الَّذِى أَمْكَنَ مِنْكَ يا عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّ أَوْلِيَائِهِ ، لَقَدْ أَهْلَكْتَ مِنْ بَنِى آدَمَ طَوائِفَ لَا يَعْلَمُ عَدَدَهَا إِلَّا اللهُ ! »

فَيقُولُ : « مَنِ الرَّجُلُ ؟ »

فَيَقُولُ : « أَنَا فُلانُ بْنُ فُلانٍ ، مِنْ أَهْلِ حَلَبَ ، كَانَتْ صِنَاعَتِى الْأَدَبَ ، أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلى الْمُلوكِ »

فَيَقُولُ : « بِئْسَ الصِّنَاعَةُ ! إِنَّهَا تَهَبُ غُفَّةً[1] مِنَ الْعَيْشِ لَا يَتَّسِعُ بِهَا الْعِيَالُ ، وَإِنَّهَا لَمَزَلَّةُ الْقَدَمِ ، وَكَمْ أَهْلَكَتْ مِثْلَكَ ، فَهَنِيئاً لَكَ إِذْ نَجَوْتَ ، وَإِنَّ لِى إِلَيْكَ لَحَاجَةً فَإِنْ قَضَيْتَهَا شَكَرَتْكَ يَدَ الْمَنُونِ[2] »

فَيقُولُ : « إِنِّى لَا أَقْدِرُ لَكَ عَلَى نَفْعٍ ، فَإِنَّ الآيَةَ سَبَقَتْ فِى أَهْلِ النَّارِ ، أَعْنِى قَوْلَهُ تَعَالَى : « ونادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ »

فَيقُولُ : « إِنِّى لَا أَسْأَلُكَ فى شَىْءٍ مِنْ ذَلِك ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ عَنْ خَبَرٍ تُخْبِرُنِيهِ : إِنَّ الْخَمْرَ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ فى الدُّنْيا ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ فى الآخِرَةِ ، فَهلْ يَفْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ بِالْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ فِعْلَ أَهْلِ الْقَرْيَاتِ[3] ؟ »

فَيقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ[4] أَمَا شَغَلَكَ ما أَنْتَ فيهِ ؟ أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَهُ تَعالى : « وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ، وَهُمْ فِيهَا خالِدُونَ » ؟

فَيقُولُ : « وَإِنَّ فى الْجَنَّةِ لَأَشْرِبَةً كَثِيرَةً غَيْرَ الْخَمْرِ ، فَمَا فَعَلَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ ،

---

(١) بُلغة (٢) دائماً أبداً (٣) المراد بأهل القرية قوم لوط ، قال الله تعالى فى سورة الأنبياء : « ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث » وكذلك جاء فى العنكبوت والأعراف والنمل ذكر القرية وأهلها فى الحديث عن قوم لوط (٤) اللعنة



فَإِنَّ لَهُ عِنْدِي يَدًا[1] لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ مِنْ وَلَدِ آدَمَ ، كَانَ يُفَضِّلُنِي دُونَ الشُّعَرَاءِ ، وَهُوَ الْقَائِلُ :

إِبْلِيسُ أَفْضَلُ مِنْ أَبِيكُمْ آدَمٍ   فَتَبَيَّنُوا يَا مَعْشَرَ الْأَشْرَارِ
النَّارُ عُنْصُرُهُ[2] ، وَآدَمُ طِينَةٌ ،   وَالطِّينُ لَا يَسْمُو سُمُوَّ النَّارِ

لَقَدْ قَالَ الْحَقَّ ، وَلَمْ يَزَلْ قَائِلُهُ مِنَ الْمَمْقُوتِينَ ! »

حديثه مع بشار[3]

. . . فَلَا يَسْكُتُ مِنْ كَلَامِهِ ، إِلَّا وَرَجُلٌ فِي أَصْنَافِ الْعَذَابِ ،

---

(١) جميلا ومعروفاً (٢) أصله

(٣) بشار بن برد : توفى سنة ١٦٧ هـ ، وعمره نحو ثمانين سنة

اسمه بشار ، واسم أبيه برد ، وأصله فارسى . نشأ بالبصرة ، وكان ضخم الجثة طويل العنق ، مجدور الوجه ، ولد أكمه ؛ جاحظ الحدقتين ، يغشاهما لحم أحمر

نبغ فى أوائل العصر العباسى الأول ، وقال الشعر فى العاشرة من عمره . قيل أنه نظم نحو ١٢٠٠٠ قصيدة لم يبق منها الآن إلا نتف متفرقة

لقى شعره بالبصرة رواجاً مدهشاً فى أيامه ، فرواه كل غَزِل وغَزِلَة ، وتكسبت به كل نائحة ومغنية ، وكان بشار هَجَّاء مقذعاً فهابه كل ذى شرف يخشى ثلمه .

وكان منحازاً للعلويين وقت قيام الدولة العباسية ، وحرض على الفتك بالمنصور ، فلما انتصر المنصور ، انحاز اليــه بشار وتملقه ، ثم انتقل إلى بغداد ، ومدح العباسيين ، وعاصر المهدى ، ومدح خالدا البرمكى

وكانت عقيدته الدينية مزعزعة ، ويمكن عده من الفلاسفة الحائرين ، وكان يدين بالجبر ، ومن أبدع ما قاله فى ذلك :

طُبعتُ على ما فىّ غيرَ مخيَّر   هواى ، ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أرد   وقصر علمى أن أنال المغيبا

فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر   وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا !

وقد هجا يعقوب بن داود — وزير المهدى — حين أعرض عنه ولم يأبه لمديحه — ببيتيه المشهورين :

بنى أميــة ! هبوا ؛ طال نومكم   إن الخليفة يعقوب بن داود . . .
ضاعت خلافتكم يا قوم ، فالتمسوا   خليفــة الله بين الزق والعود !

فأمر المهدى بقتله ضربا حتى مات ، ولم يخرج فى دفنه أحد خوفاً من غضب الخليفة ، ومن أبدع شعره قوله :

وحارب إذا لم تعط إلا ظلامــة   شبا الحرب خير من قبول المظالم

وقوله فى القصيدة عينها :

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة   فان الخــوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها   وما خير سيف لم يؤيد بقائم ؟

وقوله من قصيدة أخرى :

خليــلىّ ! إن العسر سوف يفيق   وإن يسارا فى غــد لخليق
وما كنت إلا كالزمان — إذا صحا   صحوت ، وإن ماق الزمان أموق[1]
لقد كنت لا أرضى بأدنى معيشة   ولا يشتكى بخــلا علىّ رفيق
خليــلىّ ! إن المـال ليس بنافع   إذا لم ينل منــه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت علىّ محــلة   تيممت أخرى — ما علىّ مضيق
وما خاب — بين الله والناس — عامل   له فى التقى أو فى المحامد ، سوق
ولا ضاق فضل الله عن متعفف   ولكن أخلاق الرجال تضيق

ومن لطيف دعاباته — وقد أخطأ بعض مشايخ الأدب المعاصرين فى حسبان ذلك من سخافاته — قوله :

« خليدة » ربة البيت   تصب الخل فى الزيت

(١) الموق : الحمق والغفلة

بِكَلاَلِيبَ(١) مِنْ نَارٍ ، وَإِذَا هُوَ بِبَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ قَدْ أُعْطِيَ عَيْنَيْنِ لِيَنْظُرَ بِهِمَا بَعْدَ الْكَمَهِ(٢) لِيَنْظُرَ إِلَى مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ النَّكَالِ

فَيَقُولُ لَهُ : « يَا أَبَا مُعَاذٍ(٣) لَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي مَقَالِكَ ، وَأَسَأْتَ فِي مُعْتَقَدِكَ ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ أَذْكُرُ بَعْضَ قَوْلِكَ ، فَأَتَرَحَّمُ عَلَيْكَ ، ظَنًّا أَنَّ التَّوْبَةَ سَتَلْحَقُكَ ، مِثْلَ قَوْلِكَ :

ارْجِعْ إِلَى سَكَنٍ تَعِيشُ بِهِ ... ذَهَبَ الزَّمَانُ وَأَنْتَ مُنْفَرِدُ
تَرْجُو غَداً ، وَغَداً كَحَامِلَةٍ(٤) ... فِي الْحَيِّ ، لاَ يَدْرُونَ مَا تَلِدُ(٥)

وَقَوْلِكَ :

الْحُرُّ يُلْحَى(٦) وَالْعَصَا لِلْعَبْدِ ... وَلَيْسَ لِلْمُلْحِفِ(٧) مِثْلُ الرَّدِّ

وَقلتَ في هذه القصيدة : « السُّبْدِ » في بعض قوافيها ، فإن كنتَ أردتَ جمعَ سُبَد ، وهو طائر ، فإن « فُعَلاً » لا يجمعُ على ذلك ، وَإِنْ كنتَ سَكَّنتَ الباء ، فقد أسأتَ ، لأنَّ تسكينَ الفتحةِ غيرُ معروفٍ » .

فَيَقُولُ بَشَّارٌ : « يَا هَذَا ! دَعْنِي مِنْ أَبَاطِيلِكَ ، فَإِنِّي لَمَشْغُولٌ عَنْكَ ! »

لها عشر دجاجات ... وديك حسن الصوت !

(١) جمع كُلاّب : وهو خشبة فى رأسها عُقّافة من حديد . (٢) الكمه : العَمى . وانظر إلى هذا التهكم اللاذع الذى تحويه هذه الجملة ، ففى الدار الأولى حيث البصر من أكبر النعم وألزمها للإنسان يحرم بشار إياه ، ثم يُعطاه فى الدار الآخرة ليرى عذابه ونكاله ، فيغمض عينيه حتى لا يرى ما هو فيه من الهول !

وقد أشار أبو العلا إلى حرمان بشار نعمة البصر ، فقال فى لزومياته :

والحظ يقسم ، عاش بِشْرٌ ما اشتكى ... بصراً ، وعُمِّرَ أكمهاً بشار

(٣) كنية بشار (٤) كحبلى (٥) أى أن غداً مجهول ، لا يعرف ما يُجنه من الأحداث والتصاريف (٦) يلام (٧) المُلِحّ

حديثه مع امرىء القيس[1]

وَيَسْأَلُ عَنِ امْرِىءِ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ، فَيَقُولُ : « يَا أَبَا هِنْدٍ[2] أَخْبِرْنِي عَنِ التَّسْمِيطِ[3] الْمَنْسُوبِ إِلَيْكَ ، أَصَحِيحٌ هُوَ عَنْكَ ؟ »

وَيُنْشِدُهُ الَّذِي يَرْوِيهِ بَعْضُ النَّاسِ :

---

(١) مرت ترجمته (فى ص ٩٦ من هذا الجزء) ومر حديث عنه (فى صفحتى ٥ و ٦ من هذا الجزء أيضاً) وقد ذكره المعرى فى لزومياته أكثر من مرة ، فمن ذلك قوله :

أين امرؤ القيس والعذارى ... إذ مال من تحته الغبيط

له كميتان — ذات كاس ... تزبد ، والسابح الربيط

يباكر الصيد بالمذاكى ... فيأنس الوحش الهبيط

استنبط العرب فى الموامى ... بعدك ، واستعرب النبيط

وقوله :

مضى « الواقف الكندى » والسقط غابر ... وصاحت ديار الحى : « أين لبيد ؟ »

تولى ابن حجر — لا يعود لشأنه — ... وطالت ليال ، والمعالم بيد

و إنما سماه « بالواقف » لوقفته المشهورة بسقط اللوى — إذ يقول فى أول معلقته الساحرة :

« قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل »

فى هذا البيت — كما يقول علماء الأدب — وقف واستوقف ، وبكى واستبكى .

(٢) كنية امرىء القيس

(٣) التسميط ضرب من الشعر ينظم مسمّطا — مقسما على أجزاء عروضية مقفاة على غير روى القافية — وقد نحلوا امرأ القيس تسميطاً آخر ذكرناه فى كتابنا « نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى » (فى ص ٢٥٠) — وذكرنا أنه بيّن البعد عن الأسلوب الجاهلى، وأوله :

توهمت من هند معالم أطلال ... عفاهن طول الدهر فى الزمن الخالى

يَا قَوْمِ إِنَّ الْهَوَى إِذَا أَصَابَ الْفَتَى
فِي الْقَلْبِ ثُمَّ ارْتَقَى فَهَدَّ بَعْضَ الْقُوَى
فَقَدْ هَوَى الرَّجُلُ

فَيَقُولُ : « واللهِ مَا سَمِعْتُ هَذَا قَطُّ ، وَإِنَّهُ لَقَرِيٌّ لَمْ أَسْلُكْهُ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَأَحْسَبُ هَذَا لِبَعْضِ شُعَرَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَلَقَدْ ظَلَمَنِي وَأَسَاءَ إِلَيَّ ، أَبَعْدَ كَلِمَتِي الَّتِي أَوَّلُهَا :

أَلَا عِمْ صَبَاحًا[1] أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي وَهَلْ يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصُرِ الْخَالِي

وَقَوْلِي :

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ لِأَقْضِيَ حَاجَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّبِ[2]

يُقَالُ لِي مِثْلُ ذَلِكَ ؟ وَالرَّجَزُ مِنْ أَضْعَفِ الشِّعْرِ[3] ، وَهَذَا الْوَزْنُ مِنْ أَضْعَفِ الرَّجَزِ ! » فَيَعْجَبُ لِمَا سَمِعَهُ مِنِ امْرِئِ الْقَيْسِ

مرابع من هند خلت ومصائف يصيح بمغناها صدى وعوازف
وغيرها هوج الرياح العواصف وكل مسف ، ثم آخر رادف
بأسحم من نوء السماكين هطال

(١) ليكن صباحك ناعما (٢) ارجع الى ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٣) هذا هو رأى أبى العلاء فى الرجز ، وسيمر بك فى هذه الرسالة ما يقنعك بتحامله الشديد على الرجاز ، وافتنانه فى احتقارهم وتنقصهم ، وسننبه على ذلك فى موضعه ، ونجتزئ هنا الآن ببعض أبيات من لزومياته تستشف منها رأيه فى الرجز والرجاز ، بصراحة لا تدع مجالا للشك ، وهى قوله :

قصَّرت أن تدرك العلياء فى شرف إن القصائد لم يلحق بها الرجز

حديثه مع عنترة[1]

. . . . وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَنْـتَرَةُ

وقوله :

ولم أرق فى درجات الكريم وهل يبلغ الشاعر الراجز ؟

وقوله :

عجزت عن الكسب الذى يجلب الغنى وما أنت عن كسب الدنايا بعاجز !

ومن لم ينل فى القول رتبة شاعر تَقَنَّعَ فى نظم برتبـة راجز !

(١) عنترة العبسى

توفى سنة ٦١٥ م

أبوه عمرو بن شدّاد العبسى ، وأمه زبيدة الحبشية ، كان « عنترة » يرعى الابل والخيل ، ولكنه لم يلبث أن اشتهر بفروسيته ، وذات مرة أغار بعض العرب على عبس ، واستاقوا إبلهم ، ولحقتهم بنو عبس وفيهم عنترة ، فقال أبوه : « كرّ يا عنترة » فقال : « العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحِلاب والصَّرّ » (أى شد ضرع الناقة) فقال : « كر ، وأنت حر ! » فتفانى فى القتال ، حتى هزم القوم ، ونصر قبيلته

سئل يوما : « أأنت أشجع العرب وأشدها ؟ » فقال : « لا ! » قيل : « فبماذا شاع لك هذا فى الناس ؟ » قال : « كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لى منه مخرجا ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة القوية يطير لها قلب الشجاع فأَثْنِى عليه فأقتله ! » ومن خير أبياته قوله :

بَكَرت تخوفنى الحتوف ؛ كأننى أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل !

فأجبتها : إن المنيـة منهل لا بد أن أسقى بذاك المنهل

فاقْنَىْ حياءك — لا أبالك — واعلمى أنى امرؤ سأموت — إن لم أقتل

إن المنية لو تمثـل مثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل

مُتَلَدِّدٌ[١] فى السَّعيرِ ، فَيقُولُ : « مَالَكَ يا أخا عَبْسٍ ! كأنَّكَ لَمْ تَنْطِقْ بقَوْلِكَ :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَ مَا ... رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ

بِزُجاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فى الشَّمالِ مُفَدَّمِ[٢]

وَإِنِّى إِذَا ذَكَرْتُ قَوْلَكَ : « هَلْ غَادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ[٣] » لَأَقُولُ : « إِنَّما قيلَ ذَلِكَ وَدِيوَانُ الشِّعْرِ قَليلٌ مَحْفُوظٌ ، فَأَمَّا الآنَ فَلَوْ سَمِعْتَ مَا قِيلَ بَعْدَ مَبْعَثِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ — لَعَتَبْتَ نَفْسَكَ عَلَى مَا قُلْتَ ، وَعَلِمْتَ أَنَّ الأَمْرَ كَما قَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ[٤] :

وقوله :

وإذا شربت فإننى مستهلك ... مالى ، وعرضى وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصّر عن ندى ... وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمىْ عرضى ولم أشتمهما ... والناذرينْ — إذا لم ألقهما — دمى

وقوله :

كيف المزار وقد تربع أهلها ... بعنيزتين وأهلنا بالعيلم

(١) متحير أو متبلد ، يتلفت يميناً وشمالاً ، وهو مأخوذ من صفحتى عنقه

(٢) ارجع إلى تفسيرهما فى ص «٥٣» من هذا الجزء (٣) المتردم : الموضع يُستَرْقَع ويُستصلح لما اعتراه من الوهن والوهى ، أى لم يترك الشعراء لى معنى جديداً أقوله بعدهم

(٤) حبيب بن أوس « أبو تمام » (١٨٨ — ٢٣١هـ)

ولد بقرية «جاسم» من أعمال دمشق ، ثم انتقل مع أبيه إلى دمشق ، وكان أبوه يحترف الحياكة ، ولما ترعرع أبو تمام ذهب إلى مصر فكان يسقى الماء بجامع عمرو ، ثم نبغ فى الشعر فغادر مصر متكسباً بشعره ، فأقبل عليه الأدباء ، ووصله ممدوحوه .

فَلَوْ كَانَ يَفْنَى الشِّعْرُ أَفْنَاهُ مَاقَرَتْ[١] حِيَاضُكَ مِنْهُ فِى الْعُصُورِ الذَّوَاهِبِ
وَلَكِنَّهُ صَوْبُ[٢] الْعُقُولِ، إِذَا انْجَلَتْ سَحَائِبُ مِنْهُ أُعْقِبَتْ بِسَحَائِبِ

فَيقولُ : « وَما حَبِيبُكُمْ هَذَا ؟ » فَيقولُ : « شَاعِرٌ ظَهَرَ فِى الْإِسْلَامِ » وَيُنْشِدُهُ شَيْئاً مِنْ نَظْمِهِ ، فَيقُولُ : « أَمَّا الْأَصْلُ فَعَرَبِىٌّ ، وَأَمَّا الْفَرْعُ فَنَطَقَ بِهِ غَبِىٌّ ، وَلَيْسَ هَذَا الْمَذْهَبُ عَلَى ما تَعْرِفُ قَبَائِلُ الْعَرَبِ . » فَيقُولُ — وَهُوَ ضَاحِكٌ مُسْتَبْشِرٌ — : « إِنَّمَا يُنْكِرُ عَلَيْهِ الْمُسْتَعَارُ — وَقَدْ جَاءَتِ الْعَارِيَّةُ فِى أَشْعَارٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ ، إِلَّا أَنَّهَا لَا تَجْتَمِعُ كَاجْتِمَاعِهَا فِيما نَظَمَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ[٣] »

وَلَقَدْ شَقَّ عَلَىَّ دُخُولُ مِثْلِكَ إِلَى الْجَحِيمِ ، وَكَانَ أُذُنِى مُصْغِيَةٌ إِلَى قَيْنَاتِ[٤] الْفُسْطَاطِ وَهِىَ تُغَرِّدُ بِقَوْلِكَ :

أَمِنْ سُمَيَّةَ[٥] دَمْعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفُ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكِ ـ قَبْلَ الْيَوْمِ ـ مَعْرُوفُ[٦]

ولما اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه بشعره أجازه بولاية الموصل ، فوليها عامين ، ثم مات . وسيمر بك طرف من أخباره فى الجزء الثانى من هذا الكتاب .

(١) ما جمعته (٢) مطر (٣) هذا هو رأى أبى العلاء فى شعر أبى تمام ، وقد ذكره فى لزومياته فقال :

وجدت عوارىّ الحياة كثيرة كأن بقاء المرء شعر «حبيب» !

(٤) مغنيات (٥) « سمية » هى امرأة أبيه — وكان يحبها — فحرضت عليه أباه ذات يوم ، وادعت أن عنترة راودها عن نفسها ، فغضب عليه غضباً شديداً ، وأخذ يضربه ضربا مبرحا ، فلما رأت ذلك رق له قلبها ، فارتمت عليه تجلله وتحميه ، و بكت لما أصابه ، ففاضت شاعريته بتلك الأبيات .

(٦) معنى البيت : « أحقاً تذرفين علىّ دموعك ؟ وما عودتنى ذلك من قبل ! »

تَجَلَّتْنِي(١) إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قِبَلِي ... كَأَنَّهَا رَشَأٌ(٢) فِي الْبَيْتِ مَطْرُوفُ(٣)
الْعَبْدُ عَبْدُكُمُ وَالْمَالُ مَالُكُمُ ، ... فَهَلْ عَذَابُكِ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوف ؟

حديثه مع علقمة

وَيَنْظُرُ ، فَإِذَا عَلْقَمَةُ بنُ عَبَدَةَ(٤) فَيَقُولُ : « أَعْزِزْ عَلَيَّ بِمَكَانِكَ ، مَا أَغْنَى عَنْكَ سِمْطَا لُؤْلُئِكَ(٥) ، لَوْ شَفَعَتْ لِأَحَدٍ أَبْيَاتٌ صَادِقَةٌ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ اللهِ — سُبْحَانَهُ — لَشَفَعَتْ لَكَ أَبْيَاتُكَ فِي وَصْفِ النِّسَاءِ ، أَعْنِي قَوْلَكَ(٦) :

---

(١) عَلَتني أو تَكَنَّفَتْني (٢) ولد الظبية (٣) باكى العين

(٤) هو علقمة الفحل ، وقد مرت ترجمته فى ص ٥ و ٦ من هذا الجزء (٥) قال أبو العلاء : يعنى قصيدته التى على الباء : « طحا بك قلب فى الحسان طروب » والتى على الميم : « هل ما علمت وما استودعت مكتوم » (٦) معنى الأبيات واضح ، واستحسان أبى العلاء لها إلى هذا الحد ، يدلك على أنها صادفت هوى من نفسه ، وأنه ممن يدينون بهذا الرأى ، وربما مثلت لك هذه الأبيات بعض ما يعتقده فى النساء ؛ فلنذكر لك بهذه المناسبة موجز :

« رأى أبى العلاء فى المرأة »

فنقول : إن كان لأحد أن يسخط على أبى العلاء ، فهو المرأة ، فقد احتقرها ، وأنكر عليها أكثر مزاياها ، وأمعن فى إساءة الظن بها ، وأسرف فى ذلك إسرافا بلغ به أن رأى السعادة فى خلو العالم وهنأ نفسه على أنه خُلق رجلاً ، ولم يُخلق امرأة فقال :

بدء السعادة أن لم تخلق امرأةً ... فهل تود جمادى أنها رجب ؟

ورأى أنها لا تصلح للحياة العامة مطلقاً ؛ تَمثَّلَها غادرة متهالكه على لذاتها ، منهمكة متفانية فى شهواتها ، لا تعرف الوفاء ، ولا تدرك للحب الصادق معنى ، تتجهم للرجل إذا قل ماله ، وتخونه لأتفه الأسباب ، فالنساء عنده : « فوارس فتنة ، أعلام غى » وهن فى رأيه : « باعثات ركابك فى مهالك مقتمات » و « حبال غى ، بهن يضيّع الشرف التليد »

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي بَصِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

* * *

و بهذه العقيدة المتعنتة ، اندفع يشدد عليها الحجاب ، و ينهاها عن دخول الحمام ، و يحرم عليها أداء فريضة الحج ، و يحظر عليها الصلاة فى المسجد ، و ينصح لها بالعدول عن طلب العلم ، فاذا لم يكن لها بد من طلبه ، فحسبها منه أن تحفظ بضع أبيات يلقنها إياها شيخ أعمى ، نهكه الكبر ، فخانته قواه وارتعشت من الضعف يداه ، وعليها أن تكتفى بهذا القدر اليسير دون أن تحاول الاستزادة ، أو تطمح إلى التعمق فى فهم ما حفظته ، فإن ذهنها الضيق لا يتسع لذلك ، ولا حاجة بها إليه ، أما القراءة والكتابة فإنها مفسدة لها

ولو شئنا سرد كل ما قاله فى ذلك ، لخرجنا عما قصدنا إليه ، ولكن حسبنا أن نجتزئ هنا بقوله :

علموهن النسج والغزل والرد ن وخلوا كتابة وقراءه

فصلاة الفتاة بالحمد والإخلا ص تغنى عن يونس و براءه

فهو يذهب بهذين البيتين فى التشديد على النساء أكثر مما ذهب إليه عمر بن الخطاب حين أوصى بتعليم النساء سورتى : « يونس و براءة » لما تحو يانه من آيات الزجر والترهيب وقوله :

ولا يُدْنَيْن من رجل ضرير يلقنهن آياً محكمات

سوى من كان مرتعشاً يداه ولمته من المتثغمات

وأى غضاضة على الفتاة إذا أخطأت فى اللغة أو لحنت مادامت قد أدت المراد :

فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات

وليس لأبى العلاء من حسنة تذكرها له المرأة إلا سخطه على وأد البنات — إن كان يصح اعتبار هذا الواجب الإنسانى حسنة — فقد قال :

لا تولدوا ، فإذا أبى طبع ، فلا تئدوا ، وأكرم بالتراب مصاهراً

على أن هذا الرأى هو أقل ما ننتظره من رجل لم تقف به الشفقة عند تحريم أكل

الحيوان على نفسه ، إشفاقاً عليـــه ، بل وصلت إلى حد أن أنــكر على الناس قتل البرغوث ، فقال :

تسريح كفيَ برغوثاً ظفرتُ به أبرُّ من درهم تعطيه محتاجا

ولم ير فرقاً بين البرغوث الضئيل والملك المتوج العظيم :

لا فرق بين الأَسَكِّ الجوْنِ أطْلقه وجون كندة أمسى يعقد التاجا

وأخذ يدلل على صحة ذلك ، فقال :

كلاهما يتوقى — والحيـاة له عزيزة — ويروم العيش مُهتاجا

على أنك ، إذا آنست منه حرارة الدفاع عن قتل البرغوث فى هذه الأبيات ، آلمك ما تلمحه من الفتور ، حين يدافع عن وأذ البنات فى قوله : « وأكرم بالتراب مصاهراً » فقد ترى فيه نهياً مشوباً بشىء من التردد والحذر ، بل إن شئت فقل من التماس العذر

*
* *

ولا يذهبن الوهم بالقارئ ، فيحسب أن أبا العلاء كان — مع كل هذا التحامل — يكرهها ؛ أو يقتص منها لِترَةٍ فى نفسه منها ، فقد كان — على العكس من ذلك — شفيقاً رحيما بها ، وإنما دفعه إلى تنقصها وتمنى خلو العالم منها ؛ حدبه العميم على الإنسان . ولما كانت المرأة فى رأيه هى أداة النسل ومجلبته ، وهو لا يرى فى غير انقراض النسل حاسما لشقاء العالم ، فلا جرم خصها بأكبر قسط من سخطه ، ونقم منها وجودها

وأى جرم عند أبى العلاء أفظع هولا من النسل الذى تجلبه النساء :

صحبنك ، فاستفدت بِهِنَّ وُلْداً أصابك من أذاتك بالسمات

ومن رزق البنين ، فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات

فمن ثكل يهاب ، ومن عقوق وأرزاء يجــئن مصممات

وإن تعط الإناث فأى بؤس تبين فى وجوهٍ مقسمات

يُردن بعولة ، ويردن حَلْياً ويلقَيْن الخطوب ملوّمات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا فى غارة متغشمات
وقد يفقدن أزواجا كراما فيا للنسوة المتأيمات
يلدن أعاديا ويكنّ عارا إذا أمسين فى المتهضمات

* * *

فأبو العلاء يكره الزواج لما يعقبه من النسل ، فإذا عقمت المرأة فلا بأس من الزواج منها :

إذا شئت يوما وصلة بقرينة فخير نساء العالمين عقيمها

على أنه إن نقم من المرأة أنها أداة النسل ، فقد برم بالعيش والناس ، ونقم من نسلها حياته أيضاً دون أن يخص الذكر منه أو الأنثى ، فود لو مات المولود ساعة ولادته ليستريح من عناء الحياة ، فقال :

فأف لعصريْهم : نهار وحندس وجنسىْ رجالٍ منهم ونساء
وليت وليداً مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
يقول لها من قبل نطق لسانه : « تفيدين بى أن تُنْكَبى وتسائى »

ولا غرو فهو القائل :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحدْ

وهو القائل أيضاً :

على الوُلْد يجنى والد ولَو أنَّهم ولاة على أمصارهم خطباء

وقد ساعده على سوء ظنه بالمرأة واحتقاره مواهبها ، ما كانت عليه فى عصره من الانحطاط الخلقى والضعف النفسى ، وما اكتظت به الآداب العربية التى درسها من تنقص المرأة والافتنان فى ذكر مثالبها (ارجع إلى ديوان ابن الرومى ج ١ ص ٢١)

* * *

ولا مندوحة هنا من التنبيه على أن رأى شوبنهور الفيلسوف الألمانى لا يختلف كثيراً عن

. . . .

رأى أبى العلاء فى المرأة ، ولا يغيبن عن القارئ اتفاقهما فى المزاج السوداوى الذى كان علة تشاؤمهما معاً

*
* *

ونختم هذا الفصل بنخبة موجزة من شعر أبى العلاء فى المرأة والنسل ، تثبت ما ذهبنا اليه ، وتكون مرجعاً عند الحاجة ، و إلى القارئ بعض أشعاره فى المرأة :

أعوذ بالله من ورهاء قائلة للزوج : « إنى إلى الحمام أحتاج »
وهمها فى أمور — لو يتابعها كسرى عليها — لِشِينَ الملك والتاج

*
* *

شر على المرأة من حمامها
إرسالك الفاضل من زمامها
ومشيها تضرب فى أكامها
يفوح ريا الطيب من أمامها
زائرة المسجد فى إلمامها
تأثم ، والخيبة فى ائتمامها
بأحدل — ما عف عن كامها —
أغاذها الخالق من إمامها
وريقها المشروب فى صيامها
سام أفعى بان من سمامها
إن نزلت عصماء من شمامها
فلا سقاها الطل من غمامها
إذا احتوى الريم على رمامها

. . . .

لزومها البيت مع اهتمامها
حتى يجيها الوفد من حمامها
وحملها المغزل فى إتمامها
أوفى بما تعقد من زمامها

***

إذا بلغ الوليد لديك عشرا　　فلا يدخل على الحرم الوليد
فإن خالفتنى وأضعت نصحى　　فأنت ـ وَإن رُزقت حجى ـ بليد
ألا إن النساء حبال غى　　بهن يُضَيّع الشرف التليد

***

أقل الذى تجنى الغوانى تبرج　　يرى العين منها حليها وخضابها
فإن أنت عاشرت الكعاب، فصادها　　وحاول رضاها واحذرن غضابها
فكم بكرت تسقى الأمرّ حليلها　　من الغار، إذ تسقى الحليل رضابها

***

قد أهملت للخياط إبرتها　　فصادفت إبرةً لعقربها
فهى تُسَقّى الحليب ليلتها　　ولم يكن من لذيذ مشربها
وإنما الخَوْد ـ فى مساربها ـ　　كربة السم فى تسربها
فلا تكونى مثل التى لدغت　　تبدأ فى شرّها بأقربها

***

وإلى القارئ نخبة مختارة من شعر أبى العلاء فى النسل، يتبين منها مقدار سخطه ونقمته :

تواصل حبل النسل ما بين آدم　　وبينى، ولم يوصل بلامى باء

. . . .

إذا شئت ـ يوما ـ وصلة بقرينة   فخير نساء العالمين عقيمها
لنا طرق فى كل شرق ومغرب   إلى الموت أعيى راكباً مستقيمها
هى الدار يأتيها من الناس قادم   يحث على أن يستقل مقيمها[1]

*
* *

على الوُلْد يجنى والد ، ولوَ انهم   ولاة على أمصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك ، وزادهم   عليك حقودا ، أنهم نجباء
يرون أباً ألقاهم فى مؤرّب   من العقد ـ أعيا حله الأرباء

*
* *

وإذا أردتم بالبنين كرامة   فالحزم أجمع تركهم فى الأظهر

*
* *

كونى الثريا ، أو حضار[2] أو الجوزاء ، أو كالشمس لا تلد
فلتلك أشرف من مؤنثة   نجلت ، فضاق بنسلها البلد

*
* *

أتتك بحَبْلٍ فتاة غدت   مسائلة عن دواء الحبَل
وقد حسبت من بنات السهول   فجاءت بإحدى بنات الجبل[3]

*
* *

أرى حَبَلاً حادثاً فى النسا   ء حَبْلَ أذاة بهن اتصل
أتى ولد بسِجلِّ العناء   فيا ليت وارده ما وصل

---

(١) يرى القارىء من هذه الأبيات أن علة كره أبى العلاء للزواج هى خوفه من النسل وإشفاقه مما يلاقيه الابناء من مكاره العيش وشقائه وما يتجرعون من غصص وآلام لا تنتهى الا بموتهم ، ومتى ضمن الانسان انقطاع النسل فلا بأس له من الزواج ، وإذن فخير النساء العقيم .

(٢) نجم يطلع قبل سهيل فيظن انه سهيل   (٣) فجاءت بحية .

. . . .

وإن أنظــرته خطوب الزما ... ن عُضّ بناب شديد العصَــل
وريع من الغِيَر الطارقا ... تِ بالرمح صر ، وبالسيف صل
وقال له : « صلّ » داعى الهدى ، ... وقال له ملحد : « لا تصــل »
وشب ، وشاب ، وأفنى الشباب ، ... وسقيا له من خضاب نصــل
ومن بعــد ذاك يجىء الحما ... م فانظر ، على أى شىء حصل !
فيا راحة النفس عنــد الممات ... إن كان هــذا الحساب انفصــل

* * *

ألا تفكرت قبل النســل فى زمن ... به حللت ، فتدرى أين تلقيــه
ترجو له من نعيم الدهر ممتنعا ... وما علمت بأن العيش يشــقيه
شكا الأذى ، فسهرت الليل، وابتكرت ... به الفتــاة إلى شمطاء ترقيــه
وأمــه تسأل العراف قاضــية ... عنه النذور ، لعــل الله يبقيــه
وأنت أرشــد منها – حين تحمله ... إلى الطبيب يداويه ويســقيه

* * *

ضل الذى جعــل ابناً للردى غرضاً ... إن عق ، فهو على جرم يكافيــه

* * *

ما يأخذ الموت من نفس لمنفــرد ... نفساً سواها إذا ما جال واحتشــدا

* * *

نادى حشا الأم بالطفل الذى اشتملت ... عليه : « ويحك لا تظهر ومت كمدا »
فإن خرجت إلى الدنيا لقيت أذى ... من الحوادث ، بله القيظَ والجَمَــدَا
وما تخلص يوماً من مكارهها ... وأنت لا بد فيهــا بالغ أمــــدا
ورب مثــلك وافاها على صــغر ... حتى أسن ، فلم يحمد ولا حمــــدا
لا تأمن الكف من أيامهــا شللا ... ولا النواظر كفًّا عنًّ ، أو رمــــدا

. . . .

فإن أبيت قبول النصح معتديًا ، فاصنع جميلاً ، وراع الواحد الصمدا
فسوف تلقى بها الآمال واسعة – إذا أجزت مدى منها – رأيت مدى
وتركب اللج تبغى أن تفيد غنى وتقطع الأرض لا تلقى بها ثمدا
– وإن سعدت – فما تنفك فى تعب وإن شقيت – فمن للجسم لو همدا ؟
ثم المنايا ، فإما أن يقال : « مضى ذميمَ فعل » وإما : «كوكب خمدا »
والمرء نصل حسام ، والحياة له سَلٌّ ، وأصون للهندى أن غمدا
فلو تكلم ذاك الطفل ، قال له : « إليك عنى ، فما أنشئت معتمدا »
فكيف أحمل عتباً – إن جرى قدر علىّ – أدرك ذا جد ، ومن سمدا

*
* *

وليس أجمع لمختلف آرائه الكثيرة فى المرأة والزواج والنسل من تائيته المطولة التى نعدها تشريعه الخاص بالمرأة ، وقد أتى فيها بخلاصة مذهبه فى النساء ، ونحن نجتزئ منها بالأبيات التالية :

ولا ترجع بإيماء سلاما على بيض أشرن مسلمات
ألات الظَّلْمِ جئن بشر ظُلم وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة ؛ أعلام غىّ لقينك بالأساور مُعْلِمَات

. . . .

ولكن الأوانس باعثات ركابَك فى مهالك مُقْتِمات

وهنا يعلل لك سبب سخطه عليهن ، وهو تلك الجريمة الشنعاء التى يقترفنها ، وأى جريمة فى رأيه أفظع من جريمة النسل ، وأى هول أكبر من ذلك الهول :

صحبنك ، فاستفدت بهنّ وُلدا أصابك من أذاتك بالسمات
ومن رزق البنين – فغير ناء بذلك عن نوائب مسقمات

(٢٠)

. . . .

فمن ثكل يهاب ومن عقوق   وأرزاء يجئن مصممات
وإن تعط الإناث ، فأى بؤس   تبين فى وجـــوه مقسّمات
يردن بعولة ، ويردن حَلْيا   ويلقين الخطـوب ملوّمات
ولسن بدافعات ـ يوم حرب   ولا فى غارة متغشمات
ودفن ـ والحوادث فاجعات ـ   لإحداهن إحدى المكرُمات[1]

(١) وقد استنتج أحد كبار أساتذة الأدب فى مصر من هذا البيت أن أبا العلاء يرى وأد البنات ويحبذه ، وليس يحتمل البيت هذا التأويل ، فليس أبو العلاء من غلظ القلب وعتوه بحيث يبيح ذلك ، بل ليس أبو العلاء خصما حقيقيا للمرأة فتبيح له الخصومة أن يأمر بوأدها ، وإنما هو مشفق ناصح — برغم ما يبديه لها من النقد العنيف الذى مصدره الحنو والعطف . لا الخصومة واللدد

ولا نحسبنا فى حاجة الى التدليل على ذلك . فان أبا العلاء برم بالعالم كله ، ساخط على كل من فيه من نساء ورجال :

فأف لعصريهم نهار وحندس   وجنسى رجال منهم ونساء

وقد كرر هذا السخط فى كل مناسبة عنت له . فهل دفعه ذلك إلى أن يوصى بابادتهم وإهلاك هذا الناس ؟ كلا بل تمنى لهم الخير الشامل والرفاهية العميمة ، ورثى لما يلاقون من ظلم وأعنات ، ولكنه أوصى بالكف عن إيجاد مخلوقين جدد يعانون ما يعانى آباؤهم من الشقاء والألم ، فأظهر رأيه صريحا فى وجوب الكف عن الزواج ، وقال أكثر من مرة : إن الناس لو رأوا مثل رأيه :

لعطلوا هـذه الدنيـا فما ولدوا   ولا اقتنوا واستراحوا من رزاياها

ولكنه موقن أن للغرائز حكمها وأن صيحته متلاشية فى أجواز الفضاء ، ومن ثم تراه يهمس فى أذنك متلطفا يدعوك الى تزويج ابنتك ، والكف عن تزويج ابنك !

ولكن أبا العلاء لا ينسى الأمر الواقع ولا يستطيع أن يتغافله . فهو يظل يخيفك من الزواج ويهول لك مصاعبه . فاذا أصررت وأبيت الا عنادا ، لانت لك قناته قليلا فأباح لك الزواج — بشرط أن تتخير العقيم من النساء . فاذا اختل هذا الشرط وأولدت ، فيا لهول الخطب والمصاب . ولكن لا بأس من التجمل بعد أن نفذ السهم الذى ليس لاحد حيلة فى رده — وثم يوصيك بتثقيف ابنك وتعليمه بقدر ما يحذرك من تعليم ابنتك ، وقد يتمنى لو أدرك كلا من البنت والولد حمامهما فيقول :

وليت وليدا مات ساعة وضعه   ولم يرتضع من أمه النفساء

ولكنه لا يرى ارتكاب جريمة الوأد الشنعاء ، بل يقول لك : « لا تولد ، فاذا أولدت فلا تئد » ارجع الى ص (١٤٦) وفرق كبير بين تمنى الموت الطبيعى للمولود وبين اقتراف جريمة وأده أو قتله .

. . . .

وقد يفقدن أزواجاً كراما   فيــا للنسوة المتأيمــات
يلدن أعاديا ، ويكنّ عارا   إذا أمسين فى المتهضمات
. . . .
توهمن الظنون فكن نارا   لمــا أُشعرنه متوهمات
. . . .
وليس عكوفهن على المصلى   أمانا من غوارر مجرمات
ولا تحمد حسانك ـ إن توافت   بأيد للسطور مقومات
فحمل مغازل النسوان أولى   بهن من اليراع مقلمات
سهام ـ إن عرفن كتاب لِسْنٍ   رجعن بما يسوء مسمّات
ويتركن الرشيد بغير لب   أتين لهديه متعلمات
وإن جئن المنجم سائلات   فلسن عن الضلال بمنْجِمات

* * *

ليأخذن التلاوة عن عجوز   من اللائى فغرن مهتّمات
يسبحن المليك بكل جنح   ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن   إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير   يلقنهن آيا محكمات
سوى من كان مرتعشاً يداه   ولمته من المتثغمات
وإن طاوعن أمرك ؛ فانه غيدا   يزرن عرائسا متيمات
أخذن ـ كريش طاووس ـ لباساً ،   ومسكا بالضحى متلغمات
وأبعدهن من ربات مكر   سواحر يعتدين معزّمات
يقلن نهيّج الغياب ، حتى   يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان ـ كيما   يزول عن السجايا المسئمات
وجمع طوائف العمار سهل   علينا بالجوالب موذمات
زعمن بأن فى مغنى فقير   كنوزاً للملوك مصتمات

حديثه مع عمرو بن كلثوم

فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ ؟

فلا يدخلن دارك باختيار فقد ألفيتهن مذممات
وإن خالسن غِرتك ارتقاباً فحق أن يرحن مشتمات

* * *

وساو لديك أتراب النصارى وعينا من يهود ومسلمات
ومن جاورت من حُنُف وسرب صوابئ ، فليبنّ مكرمات
فإن الناس كلهم سواء وإن ذكت الحروب مضرمات

* * *

ولا يتأهلنْ شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فإن الفقر عيب ، إن أضيفت إليه السن — جاء بمعظمات
ولكن عِرس ذلك بنت دهر تجنبت الوجوه محممات
من اللائى — إذا لم يُجْدِ عام تفوقن الحوادث معدمات
من الشمط اغتزلن بكل عود وأفنين السنين مجرّمات
ويغتفر الغني وخطا برأس إذا كانت قواك مسلمات
وواحدة كفتك ، فلا تجاوز إلى أُخرى تجىء بمؤلمات[1]
وإن أرغمت واحدة بضر فأجدر أن تروع بعرمات[2]
زجاج — إن رفقت به — وإلا رأيت ضروبه متقصمات
وما حفظ الخريدة مثل بعل تكون به من المتحرمات
يحوط ذمارها من كل خطب ويمنعها مصاعب مقرمات
إذا «الغاران[3]» غرتهما بحل فدينك بالتورع والصمات
فهذا قول مختبر شفيق ونصح للحياة وللممات

---

(١) هنا يوصيك أبو العلاء — بعد أن تزوجت — أن تكتفى بواحدة . ويحذرك من التطلع لأخرى .
(٢) المعرمات : الشدائد (٣) البطن والفرج .

فَيُقَالُ : « هَا هُوَ ذَا مِنْ تَحْتِكَ ، إِنْ شِئْتَ أَنْ تُحَاوِرَهُ فَحَاوِرْهُ[1] »

---

(١) عمرو بن كلثـــوم
(توفى سنة ٦٠٠ م)

اسمه عمرو وكنيته أبو الأسود ، اسم أبيه كلثوم بن مالك بن عتـاب ، واسم أمه ليلى بنت المهلهل أخى كليب ، وكانت عزيزة النفس ، كما كان ابنها سيد قومه . واسم قبيلته تغلب .

كان ابن كلثوم من أعز العرب نفساً ، وأشدهم إباء ، وحكايته مع عمرو بن هند مشهورة ، وخلاصتها أن ابن هند قال يوماً لندمائه : « هل تعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمى » ، فأجابوه : « نعم ! أم عمرو بن كلثوم » قال : « ولم ؟ » قالوا : « لأن أباها مهلهل ابن ربيعة ، و بعلها كلثوم بن مالك أفرس العرب ، وابنها عمرو وهو سيد قومه »

فأرسل ابن هنـد صاحب الحيرة لعمرو بن كلثوم يستزيره وأشراف قومه ، وجلس ابن كلثوم مع ابن هند ، وجلست ليلى مع هنـد (أم ابن كلثوم مع أم ابن هند) وكان ابن هند قد أوصى أمه أن تنحى الخدم إذا دعا بالطرف ، وتستخدم ليلى ؛ ودعا ابن هند بمائدة ، ثم دعا بالطرف ، فقالت هند : « ناولينى يا ليلى ذلك الطبق » فأجابتها : « لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها » فأعادت عليها وألحت ، فصاحت ليلى : « واذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها ابن كلثوم ، فثار الدم فى وجهه ، ونظر إليه ابن هند فعرف الشر فى عينيه ، ووثب ابن كلثوم الى سيف معلق لابن هند فى الرواق فضرب به رأسه ، ونادى فى بني تغلب ، فانتهبوا ما فى الرواق ، وساقوا نجائبه إلى الجزيرة .

ومن أجمل شعره قوله فى معلقته يصف نساء قبيلته :

يقتن جيادنا ، ويقلن : « لستم بعولتنـــا — إذا لم تمنعونا »
إذا لم نحمهن فلا بقينـــا لخير بعدهن ولا حيينـــا

وقوله يصف المعركة :

متى ننقــل إلى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحينا
يكون ثفالها شرقى نجـــد ولهوتها قضـــاعة أجمعينـا

فَيَقُولُ : « كَيْفَ أَنْتَ أَيُّهَا الْمُصْطَبِحُ[١] بِصَحْنِ الْغَانِيَةِ ، وَالْمُغْتَبِقُ[٢] مِنَ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ ! لَوَدِدْتُ أَنَّكَ لَمْ تُسَانِدْ[٣] فِي قَوْلِكَ :

كَأَنَّ مُتُونَهُنَّ مُتُونُ غُــدْرٍ[٤]   تُصَفِّقُهَا[٥] الرِّيَاحُ إِذَا جَرِينَا[٦]

وقوله :

ألا لا يعلم الأقوام أنا   تضعضعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقوله :

فإن قناتنا يا عمرو أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا

ومن مختار شعره قوله أيضاً :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا   على هالك ، أو أن تضج من القتل
قراع السيوف بالسيوف أحلنا   بأرض براح[١] ذى أراك وذى أثل
فما أبقت الأيام م المال عندنا   سوى جذم أذواد محذفة النسل[٢]
ثلاثة أثلاث ، فأثمان خيلنا   وأقواتنا ، وما نسوق من القتل[٣]

(١) المصطبح هو الذى يشرب الصبوح أى خمر الغداة ، وهو يشير بذلك إلى قوله فى أول ملعقته :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا   ولا تبقى خمــــور الأندرينا

أى انهضى بقدحك أيتها الساقية ، واسقينا خمر الصباح ، ولا تدخرى شيئاً مما عندك من تلك الخمر التى أحضرت من قرى الأندرين .

(٢) المغتبق هو الذى يشرب الغبوق ، أى خمر العشى (٣) أى لم تأت بالسناد فى شعرك (والسناد فى الشعر هو كل عيب فى القافية قبل الروى) (٤) مخفف غدُر ؛ بضم الدال ، جمع غدير (٥) تضربها (٦) معنى البيت أن متون تلك الدروع

---

(١) أحلنا بأرض واسعة مقفرة لا نبات فيها (٢) لم تبق لنا الأيام الا بقية من الابل مقطوعة النسل (وانما انقطع نسلها بسبب حلولهم فى تلك الأرض المقفرة) (٣) ثلث نشترى به خيولنا وثلث نشترى به أقواتنا ، وثلث نخسره فى قتالنا .

فَيَقُولُ عَمْرٌو: «إِنَّكَ لَقَرِيرُ الْعَيْنِ، لَا تَشْعُرُ بِمَا نَحْنُ فِيهِ، فَاشْغَلْ نَفْسَكَ بِتَمْجِيدِ اللهِ، وَاتْرُكْ مَا ذَهَبَ فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ، وَأَمَّا ذِكْرُكَ سِنَادِي فَإِنَّ الْإِخْوَةَ لَيَكُونُونَ ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً، وَيَكُونُ فِيهِمُ الْأَعْرَجُ وَالْأَبْخَقُ[1] فَلَا يُعَابُونَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ إِذَا بَلَغُوا الْمِائَةَ فِي الْعَدَدِ؟»

*
* *

فَيَقُولُ: «أَعْزِزْ عَلَيَّ بِأَنَّكَ قُصِرْتَ عَلَى شُرْبِ حَمِيمٍ، وَأُخِذْتَ بِعَمَلِكَ الذَّمِيمِ، مِنْ بَعْدِ مَا كَانَتْ تُسْبَأُ[2] لَكَ الْقَهْوَةُ[3] تُقَابِلُكَ بِلَوْنِ الْحُصِّ[4].

وَقَالُوا فِي قَوْلِكَ «سَخِينَا» قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ فَعِلْنَا مِنَ السَّخَاءِ، وَالنُّونُ نُونُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ مِنَ الْمَاءِ السَّخِينِ، لِأَنَّ «الْأَنْدَرِينَ» «وَقَاصِرِينَ» كَانَتَا فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ لِلرُّومِ، وَمِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَشْرَبُوا الْخَمْرَ بِالْمَاءِ السَّخِينِ فِي صَيْفٍ وَشِتَاءٍ»

تشبه متون الغدر اذا صفقتها الرياح أثناء جريها

(١) البَخَق: أقبح العور، وأكثره غمصا (٢) تُشْرَى لك لتشربها (٣) الخمر

(٤) الحُصّ هو الورس، نبت له نوار أحمر يشبه الزعفران، وقد أشار بذلك إلى قوله في معلقته يصف الخمر:

مشعشعة كأن الحُصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا

والمشعشعة: الخمر الممزوجة بالماء.

حديثه مع الحارث اليشكرى(١)

وَيَنْظُرُ، فَإِذَا الْحَارِثُ الْيَشْكَرِىُّ، فَيَقُولُ: «بعض الناس يُنشِدُ قَوْلَكَ:

فَعِشَنْ بخـــيرٍ لَا يَضِرْ ... كَ النَّوكُ مَا أُعْطِيتَ جَدَّا

فيجمع بين تحريك الشين وحذف الياء من عاش يعيش، وذلك قليل ردىء.

وَلَقَدْ أَحْسَنْتَ فِي قَوْلِكَ:

لَا تَكْسَعِ(٢) الشَّوْلَ(٣) بِأَغْبَارِهَا(٤) ... إِنَّكَ لَا تَدْرِى مَنِ النَّاتِجُ(٥)

---

(١) الحارث بن حلّـزة اليشكرى
توفى سنة ٥٨٠ م

قبيلته بكر وائل، اشتهر بين العراق، كان أبرص، وقد اشتهر بمعلقته الرائعة، ومن أجمل أبياتها قوله:

وأتانا من الحوادث والأنـــباء خطب نعنى به ونساء
أن إخواننا الأراقم يغـــلون علينا فى قيلهم احفاء
يخلطون البرىء منا بذى الذنـــب ولا تنفع الخلىّ الخلاء
أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصـــهال خيل — خلال ذاك رغاء

(٢) كَسَعَ الناقة بغُبْرها: ترك فى خلفها بقية من اللبن ليغزر (٣) الشول: الناقة التى شال لبنها أى ارتفع فلم يبق فى ضرعها إلا صبابة منه (٤) الأَغْبَارُ: جمع غبر، وهو بقية اللبن فى الضرع (٥) هو الذى ينتج الناقة أى يلى نتاجها، ومعنى البيت: «لا يكن همك تغزير إبلك لتقوية نسلها، فإنك لا تدرى ما تضمره الأيام فربما اختص بنتاجها غيرك» ويلى هذا البيت قوله:

واحلب لأضيافك ألبانها ... فإن شر اللبن الوالج

أى شر اللبن هو المكسوع الذى يلج فى ظهور النوق، فاحلبها لأضيافك، ولا تكن بخيلا

حديثه مع طَرَفة

وَيَعْمِدُ لِسُؤَالِ طَرَفَةَ بنِ الْعَبْدِ ، فَيَقُولُ :

« يَا ابْنَ أَخِي يَا طَرَفَةُ[١] — خَفَّفَ اللهُ عَنْكَ — أَتَذْكُرُ قَوْلَكَ :

كَرِيمٌ يُرَوِّى نَفْسَهُ فِى حَيَاتِهِ   سَتَعْلَمُ — إِنْ مِتْنَا غَداً — أَيُّنَا الصَّدِى[٢]

وقال أبو العلاء : (وقد كانوا فى الجاهلية يكسعون[١] ناقة الميت على قبره ، و يزعمون أنه إذا نهض لحشره وجدها قد بعثت له ليركبها ، وهيهات ، بل حشروا عراة حفاةً !)

(١) انظر الى ما تحو يه هذه الجملة من الحدب والرفق بطرفة بن العبد الذى مات صغيراً

(٢) يصف نفسه بأنه كريم يروى نفسه بالخمر ، و يفخر بأنه سيموت ر يان ، وأن عاذليه فى شربها سيظمأون عند موتهم

طرفة بن العبد
(توفى سنة ٥٥٠ م)

اسمه عمرو ، وطرفة : لقب غلب عليه ، قبيلته بكر بن وائل ، وهو من بنى قيس . كان لاهيا سكيراً فى صباه ، هجا ملك الحيرة فأسخطه وأمر عامله بالبحرين أن يقتله ، وسمى ابن العشرين لوفاته صغيراً ، فقد مات فى السادسة والعشرين من عمره

ومن أروع شعره قوله :

أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى   بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد !

وقوله :

لعمرك إن الموت - ما أخطأ الفتى -   لكالطِّوَل المُرْخَى[٢] ، وثنياه باليد

متى ما يشأ يوماً يقـده لحتفه   ومن يك فى حبل المنية ينقد

---

(١) كسع الناقة — هنا — ضربها بقوائم السيف من أسفل

(٢) الطوَل : الحبل تشد به قوائم الدابة ، والمرخى : الممدود المطول

وَقَوْلُكَ :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ[١] بَخِيــلٍ بِمَالِهِ كَقَبْرِ غَوِيٍّ فِي البَطَالَةِ مُفْسِدِ[٢]

مَتَى تَأْتِنِي أُصْبِحْكَ كَأْسًا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا غَانِيًا . فَاغْنَ وَازْدَدِ

فَكَيْفَ صَبُوحُكَ الْآنَ وَغَبُوقُكَ[٣] ؟ إِنِّى لَأَحْسَبُهُمَا حَمِيمًا !

وقوله :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتا ، ولم تضرب له وقت موعد

وقوله :

وأعلم علماً — ليس بالظن — أنه إذا ذل مولى المرء فهو ذليــل

وأن لسان المرء — ما لم تكن له حصاة — على عوراته لدليــل

وأن امرأ لم يعف يوماً — فكاهة — لمن لم يرد سوءاً به لجهول

وقوله :

ولا أغــير على الأشعار أسرقها غنيت عنها ، وشر الناس من سرقا

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال — إذا أنشدته — صدقا

وقوله :

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظــل له الدماء تصبب

والظلم فرّق بين حيى وائل : بكر تساقيهــا المنايا تغلب

والصدق يألفــه الكريم المرتجى والكذب يألفــه الدنئ الأخيب

والإثم داء ليس يرجى برؤه والبر برء ليس فيــه معطب

أدوا الحقوق تَفِرْ لكم أعراضكم إن الكريم ، إذا يحرب ، يغضب

(١) بخيل ، حريص على جمع المال وادخاره (٢) معنى البيت : لا أرى أى فرق بين قبر البخيل الذى عنى نفسه بجمع المال وادخاره ، وقبر المفسد المتلاف لماله ، فما قيمة المال إذاً ؟ ولماذا أبقى عليه ولا أمتع نفسى به ؟ (٣) الصبوح : شراب الصباح، والغبوق : شراب المساء

وَلَقَدْ كَثُرَتْ فِي أَمْرِكَ أَقَاوِيلُ النَّاسِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّكَ فِي مُلْكِ النُّعْمَانِ اعْتُقِلْتَ ؛ وَقَالَ قَوْمٌ : بَلِ الَّذِي فَعَلَ بِكَ مَا فَعَلَ عَمْرُو بْنُ هِنْدٍ(١) وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ أَثَرٌ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ إِلاَّ قَصِيدَتُكَ الَّتِي عَلَى الدَّالِ(٢) لَكُنْتَ

---

(١) يشير بذلك الى الروايتين الشائعتين عن سبب قتله ، والرواية الثانية فحواها أن طرفة كان قد هجا عمرو بن هند ، فأحفظه ذلك عليه ، وأسرها له فى نفسه ، ثم أرسله مع المتلمس إلى عامله بالبحرين ، بعد أن تلطف بهما ، وأعطى كلا منهما كتاباً ، أوهمهما أن فيه أمراً بصلتهما ، و إنما فيه أمر بقتلهما ، وارتاب المتلمس فى نية ابن هند ، فذهب إلى غلام يقرأ له كتابه ، فلما وجد فيه الأمر بقتله فر ، ونصح لطرفة فلم ينتصح ؛ بل ذهب لطيته حيث لقى حتفه .

(٢) يعنى معلقته الرائعة التى وفق فيها كل التوفيق إلى تمثيل صورة واضحة دقيقة من نفسه المتوثبة إلى غايات الشباب النبيل ، الشديدة الحس بما يحيط بها من الجمال والحسن ، الفياضة بالشاعرية العالية ، التى تلمحها فى أغلب أبياتها — إن لم نقل فى كلها — وهل ترى أنصع من تلك الصورة الجميلة التى يمثل فيها نفسه ، حين يقول :

ألا أيهذا الزاجرى ، أحضرَ الوغى وان أشهد اللذّات ، هل أنت مخلدى ؟
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدِّك ، لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة كُمَيْتٍ ، منى ما تُعْلَ بالماء تُزبد
وكَرّى - إذا نادى المضاف - مجنباً ، كَسِيدِ الغضا — نبهته — المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بَبهكنَةٍ ، تحت الخباء المعمد

فانظر إليه كيف يدفع ، باستحالة الخلود ، حجة من يعذله فى اقتحامه الهيجاء وتمتعه بلذاته ومن ثم يوجب اقتناص الفرص ، والتمتع بمسرات الحياة ، قبل أن تغتاله يد الموت ، وانظر إلى رغباته الثلاث التى لا يرى للحياة معنى بدونها ، وهى سبقه العاذلات بشربة من

قدْ أبقَيْتَ أثَراً حَسَناً »

الخمر الكميت ، واندفاعه فى ساحة الحرب بفرسه التى تشبه الذئب فى سرعة العدو ، لإغاثة اللائذ به ، وتقصيره يوم الغيم ، بالتمتع بامرأة جميلة يغازلها ، فى سرادق مرفوع

وأنظر إلى قوله بعد تلك الأبيات :

كريم يروّى نفسه فى حياته ستعلم — إن متناغدا — أينا الصدى
أرى قبر نحّام يخيل بما له كقبر غوىّ فى البطالة مفسد
ترى جُثْوتين من تراب عليهما صفائح صم من صفيح منضد
أرى الموت يعتام الكرام ، و يصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العمر كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تَنْقُصِ الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت — ما أخطأ الفتى — لكالطِّوَلِ المُرْخَى ، وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ومن يك فى حبل المنية ينقد
فمالى أرانى وابن عمى مالكا متى أدن منه ينأ عنى و يبعد
يلوم ، وما أدرى علام يلومنى ؟ كما لامنى فى الحى قُرْط بن أَعْبَدِ
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني منيعاً إذا بلت بقائمه يدى
فإن مت فانعينى بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعَلنّى كامرىء ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى
فلو كنت وَغْلاً فى الرجال لضرنى عداوة ذى الأصحاب والمتوحد
ولكن نفى عنى الرجال جراءتى عليهم ، و إقدامى ، وصدقى ، ومحتدى
لعمرك ما أمرى على بغُمّة نهارى ولا ليلى علىّ بسرمد
أرى الموت أعداد النفوس ، ولا أرى بعيداً غدا ، ما أقرب اليوم من غد

فَيَقُولُ طَرَفَةُ : « وَدِدْتُ أَنِّى لَمْ أَنْطِقْ مِصْرَاعًا ، وَدَخَلْتُ الْجَنَّةَ مَعَ الْهَمَجِ وَالطَّغَامِ ؛ وَكَيْفَ لِى بِهَذِهِ وَسُكُونٍ ، وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ[١] فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا »

حديثه مع أوس بن حجر[٢]

وَيَلْفِتُ عُنُقَهُ يَتَأَمَّلُ ، فَإِذَا هُوَ بِأَوْسِ بْنِ حَجَرٍ ، فَيَقُولُ : « يَا أَوْسُ إِنَّ

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له ... بتاتاً ، ولم تضرب له وقت موعد

وما أبدع وأروع قوله فى هذه المعلقة :

إذا القوم قالوا : «من فتى؟» خلت أننى ... عنيت ، فلم أكسل ، ولم أتبلد
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى ... وإن تلتمسنى فى الحوانيت تصطد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الشريف المصمد
وما زال تشرابى الخمور ، ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبّد
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد

(١) الجائرون أو الحائدون عن الحق

(٢) أوس بن حجر

أوس بن حَجَر بن عتاب ، قالوا : « كان فحل مضر ، حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه » اشتهر بالحض على مكارم الأخلاق ، كما اشتهر بوصف الخمر والسلاح ، ولا سيما القوس ، ومن مختار شعره قوله :

تركت الخبيثَ ــ لم أشارك ولم أذق ــ ... ولكن أعفّ الله مالى ومطعمى
فقومى وأعدائى يظنون أننى ... متى يحدثوا أمثالها أتكلم

وقوله :

ورثنا المجد عن آباء صدق ... أسأنا فى ديارهم الصنيعا

أَصْحَابَكَ لَا يُجِيبُونَ السَّائِلَ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَوَابٍ ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ :

« وَقَارَفَتْ[١] ، وَهْيَ لَمْ تَجْرَبْ ، وَبَاعَ لَهَا
مِنَ الْفَصَافِصِ[٢] بِالنُّمِّيِّ[٣] سِفْسِيرُ[٤] »

إذا الحسب الرفيـع تواكلته بناة السوء ، أوشك أن يضيعا

وقوله ـ من مرثية جليلة عالية الأسلوب — :

أيتها النفس ! أجملي جزعا إن الذى تكرهين قد وقعا
إن الذى جمع السماحة والنجـ ـدة والحـزم والقوى جُمَعا
أودى ، وهل تنفع الإشامة من شيء لمن قـد يحاول النزعا
الألمعيّ الذى يظن بك الظـ ـنّ كأن قد رأى وقد سمعـا
المخلف المتلف المـرزأ لم يُـ ـمتع بضعف ، ولم يمت طبعا

إلى أن يقول :

ليبكك الشَّرْب والنـدامة والفتـ ـيان — طرا — وطامع طمعا
وذات هِـدْم عار نواشرُها[١] تُصْمِتُ[٢] بالمـاء تولبا[٣] جدعا[٤]

وقوله :

وليس أخوك الدائم العهد بالذى يذمك ـ إن ولى ـ ويرضيك مقبلا
ولـكنه النائى — إذا كنت آمنا وصاحبك الأدنى ـ إذا الأمر أعضلا

(١) خالطت الجَرْبى فلم تجرب لقوتها (٢) جمع فِصفصة ، وهى نبات تعلفه الدواب (٣) الفلوس (٤) سائس حاذق ؛ ومعنى البيت : « أن فرسه خالطت الدواب الجربى فلم يصبها جرب ، لأنها من الأفراس القوية التى يشرى لها علفها بالمال سائس حاذق يعنى بأمرها

---

(١) ولتبكك فقيرة ذات كساء خلق عارية الساعدين (٢) تسكت (٣) صغيراً (٤) صبياً سيء الغذاء ، والمعنى أنها تسكت بالماء صغيرها الجائع

فَإِنَّهُ فِي قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

« هَلْ عَاجِلٌ مِنْ مَتَاعِ الْحَيِّ مَنْظُورُ »

وَيُرْوَى فِي قَصِيدَةِ النَّابِغَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

« وَدِّعْ أُمَامَةَ ، وَالتَّوْدِيعُ تَعْذِيرُ »

وَكِلاَ كُمَا مَعْدُودٌ فِي الْفُحُولِ ، فَعَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْمَلُ ذَلِكَ ؟ » فَيَقُولُ أَوْسٌ : « قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ نَابِغَةَ بَنِي ذُبْيَانَ فِي الْجَنَّةِ فَاسْأَلْهُ عَمَّا بَدَا لَكَ ، فَلَعَلَّهُ يُخْبِرُكَ ، فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ يَعِيَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ، فَأَمَّا أَنَا ، فَقَدْ ذَهَلْتُ ، نَارٌ تُوقَدُ ، وَبَنَانٌ يُعْقَدُ[١] ، إِذَا غَلَبَ عَلَيَّ الظَّمَأُ رُفِعَ إِلَيَّ شَيْءٌ كَالنَّهْرِ ، فَإِذَا اغْتَرَفْتُ مِنْهُ لِأَشْرَبَ وَجَدْتُهُ سَعِيرًا مُضْطَرِمًا ، وَلَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنِّي ، وَلَكِنَّ الْمَغْفِرَةَ أَرْزَاقٌ ، كَأَنَّهَا النَّشَبُ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ ! »

فَيَقُولُ : « إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ آخُذَ عَنْكَ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ فَأُتْحِفَ بِهَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَأَقُولَ : قَالَ لِي أَوْسٌ ، وَأَخْبَرَنِي أَبُو شُرَيْحٍ ! » .

حديثه مع أبي كبير الهذلي

وَيَرَى رَجُلًا فِي النَّارِ لَا يُمَيِّزُهُ مِنْ غَيْرِهِ ، فَيَقُولُ : « مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّقِيُّ ؟ » فَيَقُولُ : « أَنَا أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ عَامِرُ بْنُ الْحُلَيْسِ » فَيَقُولُ : « إِنَّكَ لَمِنْ أَعْلَامِ هُذَيْلٍ ، وَلَكِنِّي لَمْ أُوثِرْ قَوْلَكَ :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْدِلِ[٢] ... أَمْ لَا سَبِيلَ إِلَى الشَّبَابِ الْأَوَّلِ[٣]

---

(١) عقد البنان : شدّها ، أى عضّها ، كناية عن الندم والتحسر (٢) مصرف

(٣) هذا البيت من قصيدة له عدتها ثمانية وأربعون بيتا ، قالها فى تأبط شرا ، ابن زوجه أميمة ، وكان السبب فى ذلك أنه رأى منه ما يكره ، فشكاه إلى أمه ،

وَقُلْتَ فِي الْأُخْرَى :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفِ   أَمْ لَا خُلُودَ لِعَاجِزٍ مُتَكَلِّفِ

وَقُلْتَ فِي الثَّالِثَةِ :

أَزُهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَعْكَمِ (١)

فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى ضِيقِ عَطَنِكَ (٢) بِالْقَرِيضِ ، فَهَلاَّ ابْتَدَأْتَ كُلَّ قَصِيدَةٍ بِفَنٍّ ؟ وَالْأَصْمَعِيُّ لَمْ يَرْوِ لَكَ إِلاَّ هَـذِهِ الْقَصَائِدَ الثَّلاَثَ » فَيَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ الْهُذَلِيُّ : « إِنَّمَا كَلاَمُ أَهْلِ سَقَرَ وَيْلٌ وَعَوِيلٌ ، فَاذْهَبْ لِطِيَّتِكَ ! »

فطلبت إليه أن يحتال لقتله ، فخرج به إلى قوم لهم ترة عنده ، حتى إذا تنور نارهم شكا إليه الجوع ، فذهب فوجد عليها لصين معهما إبل ، فقتلهما وعاد بالإبل ، فهاله أمره ، ثم انطلقا ، فلما أقبل الليل ، أناخا الإبل ، وتناوبا حرسها ، فلما نام تأبط شرا ، وظن أبو كبير أن قد غلبه النوم ، نبذ له حصاة ، فهب من نومه ، وقال : « ما هذا ؟ » فقال : « سمعت حسا فى الإبل ؟ » فطاف ، فلم ير شيئا . ثم نام فنبذ له حصاة ، فاستوى وقد تناوم أبو كبير ، وقال : « والله لئن أنبهنى شىء لأقتلنك » فلبث أبو كبير يكاؤه مخافة أن ينبهه شىء فيقتله . وفى ذلك يقول هذه القصيدة الطويلة ، فليرجع إليها من شاء فى الجزء الأول من كتاب أسرار الحماسة ومما نختاره منها قوله :

ولقد سريت على الظلام بمغشم   جلد من الفتيان غير مثقل

إلى أن يقول :

وإذا رميت به الفجاج رأيته   يهوى مخارمها هُوِىَّ الأجدل

وإذا قذفت له الحصاة رأيته   ينزو لوقعتها نُزُوَّ الأخيل

(١) محبس   (٢) ضيق باعك

حديثه مع الأخطل

وَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَتَضَوَّرُ(١) فَيَقُولُ : « مَنْ هَذَا ؟ » فَيُقَالُ : « الْأَخْطَلُ التَّغْلَبِيُّ(٢) » فَيَقُولُ لَهُ : « مَا زَالَتْ صِفَتُكَ لِلْخَمْرِ ، حَتَّى غَادَرَتْكَ أُكْلاً لِلْجَمْرِ ، فَكَمْ طَرِبَتِ السَّادَاتُ عَلَى قَوْلِكَ :

أَنَاخُوا ، فَجَرُّوا شَاصِيَاتٍ(٣) كَأَنَّهَا رِجَالٌ مِنَ السُّودَانِ لَمْ يَتَسَرْبَلُوا
فَقُلْتُ : اصْبَحُونِي(٤) لَا أَبَا لِأَبِيكُمُ وَمَا وَضَعُوا الْأَثْقَالَ إِلاَّ لِيَفْعَلُوا

---

(١) يتأوه من وجع الضرب أو من ألم الجوع

(٢) الأخطل

اسمه غياث بن غيث بن الصلت ، كنيته أبو مالك ، موطنه الحيرة ، قبيلته تغلب ، دينه النصرانية

كان سكيراً مدمناً ، وهجّاء عفيف اللفظ فى هجائه ، تقرب إلى معاوية بعد أن هجى الأنصار — حين أمره معاوية بذلك — فلما أفضت الخلافة إلى عبد الملك زاد تقربه منه ، وبلغ من افتتانه بشعره أن سماه « شاعر بنى أمية » وكان كثير الطرب إلى سماعه

قال له عبد الملك مرة : « ألا تُسلم ، فنفرض لك فى الفيء ، ونعطيك عشرة آلاف ؟ » فقال : « وكيف الخمر ؟ » قال : « وما تصنع بها وإن أولها لمر ، وإن آخرها لسكر ؟ » فقال : « أما إذ قلت ذلك ، فإن فيما بين هاتين المنزلتين لمنزلة ، ما ملكك فيها إلا كلعقة من ماء الفرات بالإصبع ! . »

فضحك ، وتركه على نصرانيته ، وسهل له الدخول عليه ، حتى كان يدخل بغير إذن .

ومما يروونه عن حماد أنه قال حين سئل عن شعر الأخطل : « وما تسألوننى عن رجل حبب شعره إلىّ النصرانية » وهى جملة مملوءة بالملق والرياء !

(٣) زقاقا مملوءة شائلة القوائم ، أو قِرَبا ملئت فارتفعت قوائمها (٤) اسقونى خمر الصباح

فَصَبُّوا عُقَارًا(١) فِي الإِنَاءِ كَأَنَّهَا ... -إِذَا لَمَحُوهَا- جُذْوَةٌ(٢) تَتَأَكَّلُ(٣)
وَجَاءُوا بِبَيْسَانِيَّةٍ — هِيَ بَعْدَ مَا ... يُعَلُّ(٤) بِهَا السَّاقِي — أَلَذُّ وَأَسْهَلُ
تَمُرُّ بِهَا الأَيْدِي سَنِيحًا(٥) وَبَارِحًا(٦) ... وَتُوضَعُ بِاللَّهُمَّ حَيِّ(٧) وَتُحْمَلُ
فَتُوقَفُ — أَحْيَانًا — فَيَفْصِلُ بَيْنَنَا ... غِنَاءُ مُغَنٍّ أَوْ شِوَاءٌ مُرَعْبَلُ(٨)
فَلَذَّتْ لِمُرْتَاحٍ وَطَابَتْ لِشَارِبٍ ... وَرَاجَعَنِي مِنْهَا مِرَاحٌ(٩) وَأَخْيَلُ(١٠)
فَمَا أَلْبَثَتْنَا(١١) نَشْوَةٌ(١٢) لَحِقَتْ بِنَا ... تَوَابِعُهَا ، مِمَّا نُعَلُّ وَنُنْهَلُ
تَدِبُّ دَبِيبًا فِي الْعِظَامِ كَأَنَّهُ ... دَبِيبُ نِمَالٍ فِي نَقًا(١٣) يَتَهَيَّلُ(١٤)

فَقَالَ التَّغْلَبِيُّ : « إِنِّي جَرَرْتُ الذَّارِعَ ، وَلَقِيتُ الدَّارِعَ ، وَهَجَرْتُ الآبِدَةَ ، وَرَجَوْتُ انْ تُدْعَى النَّفْسُ الْعَابِدَةَ ، وَلَكِنْ أَبَتِ الأَقْضِيَةُ » فَيَقُولُ : « أَخْطَأْتَ فِي أَمْرَيْنِ : جَاءَ الإِسْلَامُ ، فَعَجَزْتَ أَنْ تَدْخُلَ فِيهِ ، وَلَزِمْتَ أَخْلَاقَ سَفِيهٍ ، وَعَاشَرْتَ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ ، وَأَطَعْتَ نَفْسَكَ الْغَاوِيَةَ ، وَآثَرْتَ مَا فَنِيَ عَلَى بَاقٍ ، فَكَيْفَ لَكَ بِالإِبَاقِ(١٥) ؟ »

---

(١) العقار : الخمر ، سميت كذلك لمعاقرتها ، أى لملازمتها الدن (٢) جمرة ملتهبة (٣) تحترق وتتوهج
(٤) بَيْسان : بلدة بالشام ، والمراد بالبيسانية الخمر المنسوبة إليها ، و يُعَلّ : يسقى بها ثانية
(٥) من الجانب الأيمن (٦) من الجانب الأيسر (٧) أى أنهم حين يضعونها يهللون فرحين بها (٨) مُقَطّع ، لتصل إليه النار فتنضجه (٩) اشتداد الفرح ، حتى يجاوز الإنسان حده فيتبختر و يختال (١٠) كِبْر (١١) لم تمهلنا (١٢) سكرة
(١٣) كثيب ، أو قطعة من الرمل تنقاد محدودبة (١٤) ينهال (١٥) الهرب والفرار ، والمراد بها هنا النجاة

فَيَزْفِرُ(١) الْأَخْطَلُ زَفْرَةً تَعْجَبُ لَهَا الزَّبانِيَةُ، وَيقولُ: «آهِ عَلَى أَيَّامِ يَزِيدَ أَسُوفُ(٢) عِنْدَهُ عَنْبرًا، وَأَمْزَجُ مَعَهُ مَزْجَ خَلِيلٍ. وَكَأَنِّى بِالْقِيانِ الصَّادِحَةِ(٣) بَيْنَ يَدَيْهِ تُغَنِّيهِ:

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا ... أَكَلَ النَّمْلُ الَّذِى جَمَعَا
خِلْفَةٌ حَتَّى إِذَا ظَهَرَتْ ... سَكَنَتْ مِنْ جِلَّقٍ بِيَعَا
فى قِبَابٍ حَوْلَ دَسْكَرَةٍ(٤) ... حَوْلَهَا الزَّيْتُونُ قَدْ يَنَعَا
وَقَفَتْ لِلْبَدْرِ تَرْقُبُهُ ... فَإِذَا بِالْبَدْرِ قَدْ طَلَعَا

وَلَقَدْ فَاكَهْتُهُ فى بَعْضِ الْأَيَّامِ وَأَنَا سَكْرَانُ مُلْتَخٌّ(٥) فَقُلْتُ:

أَلَا اسْلَمْ — سَلِمْتَ — أَبَا خَالِدٍ ... وَحَيَّاكَ رَبُّكَ بِالْعَنْقَزِ(٦)
أَكَلْتَ الدَّجَاجَ وَأَفْنَيْتَهَا ... فَهَلْ فى الْخَنَانِيصِ(٧) مِنْ مَغْمَزِ(٨)

فَمَا زَادَ فِيَّ عَنِ ابْتِسَامٍ، وَاهْتَزَّ لِلصِّلَةِ».

فَيَقُولُ الشَّيْخُ: «مِنْ ثَمَّ أُتِيتَ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ عانِدٌ، فَعَلامَ اطَّلَعْتَ مِنْ مَذْهَبِهِ، أَكَانَ مُوَحِّداً، أَمْ وَجَدْتَهُ فى النُّسْكِ مُلْحِدًا؟»

فَيَقُولُ الْأَخْطَلُ: «كَانَتْ تُعْجِبُهُ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ:

---

(١) يخرج نفسه بعد مده إياه (٢) أشم (٣) اللائى يرفعن أصواتهن بالغناء
(٤) قرية عظيمة، أو بناء كالقصر حوله بيوت (٥) مختلط من شدة السكر
(٦) نوع من النبت، قيل: هو الياسمين (٧) جمع خِنَّوْص، وهو ولد الخنزير
(٨) مطعن، ومعنى البيت: أنك أفنيت الدجاج أكلا، فما عليك لو عطفت على الخنازير فأكلتها، أترى فيها مطعنا؟

أَخَالِدَ ! هَاتِي خَبِّرِينِي وَأَعْلِنِي[١] حَدِيثَكِ ، إِنِّي لَا أُسِرُّ[٢] التَّنَاجِيَا
حَدِيثَ أَبِي سُفْيَانَ ، لَمَّا سَمَا بِهَا إِلَى أُحُدٍ[٣] ، حَتَّى أَقَامَ الْبَوَاكِيَا
وَكَيْفَ بَغَى أَمْرًا[٤] عَلِيٌّ فَفَاتَهُ وَأَوْرَثَهُ الْجَدُّ[٥] السَّعِيدُ مُعَاوِيَا
وَقُومِي فَعَلِّينِي[٦] عَلَى ذَاكَ[٧] قَهْوَةً[٨] تَحَلَّبَهَا الْعِيسِيُّ كَرْمًا[٩] شَآمِيَا[١٠]

---

(١) جاهرى به (٢) لا أكتم (٣) يعنى جبل أحد ، وهو يشير بذلك الى انتصار المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم فى واقعة أحد سنة (٦٢٥ م) وكان قائدَ المشركين فيها أبو سفيان ، وكان النصر محققاً للمسلمين فى بدئها ، فلما خالفوا أمر النبى وانتقلوا من مواضعهم، كر عليهم المشركون وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، فيهم حمزة عم النبى، واستطاع العدو أن يخلص الى النبى فيرميه بالحجارة ، ووقع لشقه ، فأصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، وسقط فى إحدى الحفر التى حفرها المشركون ليقع فيها المسلمون ، فأخذه « علىّ » بيده ، ورفعه طلحة بن عبيد الله ، وأحاط به جماعة من الأنصار والمهاجرين ، استبسلوا فى الدفاع عنه ، وفى هذه الموقعة أظهرت أم نسيبة بنت كعب ، شجاعة مدهشة وإقداماً يستفز الإعجاب والروعة ؛ فقد كانت تسقى الماء فى أول النهار ، فلما رأت هزيمة المسلمين انحازت الى النبى وتفانت فى الذود عنه ، ضاربة بسيفها مرة ، ورامية عن قوسها أخرى ، حتى أثخنتها الجروح .

وفى نهاية المعركة صعد أبو سفيان رَبْوة ، ونادى المسلمين بأعلى صوته : « أنعمت فعال ، إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، أُعْلُ هُبَلُ ! »

(٤) يشير بذلك إلى أمر الخلافة التى تنازعها معاوية وعلى ، فقتل على دونها ونالها معاوية

(٥) الحظ (٦) اسقينى (٧) نخب ذلك (٨) خمرة (٩) عنباً

(١٠) المعنى : تعالى فحدثينى وأعلنى أحاديثك الجميلة، فلست أرضى كتمانها، حدثينى عن هزيمة المسلمين فى أحد ، وانتصار أبى سفيان عليهم ، وولولة باكياتهم على قتلاهم ، وحدثينى عن فشل « على » فى الحصول على الخلافة ، وانتصار معاوية عليه ، وإحرازها دونه ، ثم اسقينى نخب هذه الذكريات المحبوبة خمرة لذيذة ؛ اعتصرها العيسىُّ من عنب شآمى .

إِذَا مَا نَظَرْنَا فِى أُمُورٍ قَدِيمَةٍ وَجَـدْنَا حَلاَلاً شُرْبَهَا الْمُتَوَالِيَا
فَلاَ خُلْفَ بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا تَبَوَّأَ رَمْسًا فِى الْمَدِينَةِ ثَاوِيَا[١]

فَيَقُولُ : « عَلَيْكَ الْبَهْلَةُ ! قَدْ ذَهَلَتِ الشُّعَرَاءُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، عَنِ الْمَدْحِ وَالنَّسِيبِ[٢] ، وَمَا شُدِهْتَ[٣] عَنْ كُفْرِكَ وَلاَ إِسَاءَتِكَ ! »

***

وَإِبْلِيسُ يَسْمَعُ ذَلِكَ الْخِطَابَ كُلَّهُ ، فَيَقُولُ لِلزَّبَانِيَةِ : « مَا رَأَيْتُ أَعْجَزَ مِنْكُمْ إِخْوَانَ مَالِكٍ ! أَلاَ تَسْمَعُونَ هَذَا الْمُتَكَلِّمَ بِمَا لاَ يَعْنِيهِ ؟ فَلَوْ أَنَّ فِيكُمْ صَاحِبَ نَحِيزَةٍ[٤] قَوِيَّةٍ ، لَوَثَبَ وَثْبَةً حَتَّى يَلْحَقَ بِهِ فَيَجْذِبَهُ إِلَى سَقَرَ ! »

فَيَقُولُونَ : « لَيْسَ لَنَا عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ سَبِيلٌ ! »

فَإِذَا سَمِعَ مَا يَقُولُهُ إِبْلِيسُ ، أَخَذَ فِى شَتْمِهِ وَلَعْنِهِ ، وَإِظْهَارِ الشَّمَاتَةِ بِهِ ، فَيَقُولُ — عَلَيْهِ اللَّعْنَةُ — : « أَلَمْ تُنْهَوْا عَنِ الشَّمَاتِ يَا بَنِى آدَمَ ؟ وَلَكِنَّكُمْ — بِحَمْدِ اللهِ — مَا زُجِرْتُمْ عَنْ شَىْءٍ إِلاَّ وَرَكِبْتُمُوهُ[٥] » فَيَقُولُ : « أَنْتَ الَّذِى بَدَأْتَ آدَمَ بِالشَّمَاتَةِ ، وَالْبَادِئُ أَظْلَمُ ! »

ثُمَّ يَعُودُ إِلَى كَلاَمِ الْأَخْطَلِ فَيَقُولُ : « أَأَنْتَ الْقَائِلُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ :

وَلَسْتُ بِصَائِمٍ رَمَضَانَ طَوْعاً وَلَسْتُ بِآكِلٍ لَحْمَ الْأَضَاحِى

---

(١) يقول : إذا تأملنا أقوال القدماء ، لم نجد أحداً منهم يحرم الخمر ، فإذا كان محمد قد تفرد بتحريمها وحده ؛ فها هو ذا محمد قد مات ، فزال بموته الخلف فى شأنها

(٢) التشبيب (٣) لم تدهش ولم تتحير وتشتغل بما أنت فيه (٤) طبيعة

(٥) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أَلَظوا بالقبيح وتابعوه ولو أُمروا به لتجنبوه

وَلَسْتُ بِقَائِمٍ كَالْعَيْرِ(١) أَدْعُو قُبَيْـلَ الصُّبْحِ : « حَيَّ عَلَى الفَلاَحِ »
وَلَـكِنِّى سَأَشْرَبُهَا شَمُـــولاً(٢) وَأَسْجُدُ عِنْدَ مُنْبَلِجِ(٣) الصَّبَاحِ »

فَيقُولُ : « اجَلْ ، وَإِنِّى لَنَـادِمٌ سَادِمٌ ، وَهَلْ أَغْنَتِ النَّدَامَةُ عَنْ أَخِى كُسَعٍ(٤) ؟ »

* * *

وَيَمَلُّ مِنْ خِطَابِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَنْصَرِفُ إِلَى قَصْرِهِ الْمَشِيدِ، فَإِذا صارَ عَلَى مِيل أَوْ مِيلَيْنِ ، ذَكَرَ أَنَّهُ ما سَأَلَ عَنْ مُهَلْهِلٍ التَّغْلَبِيِّ ، وَلَا عَنِ الشَّنْفَرَى وَتَأَبَّطَ شَرًّا ، فَيَرْجِعُ عَلَى أَدْرَاجِهِ ، فَيَقِفُ بِذَلِكَ الْمَوْقِفِ يُنَادِي : « أَيْنَ عَدِيُّ ابْنُ رَبِيعَةَ ؟ » فَيُقالُ : « زِدْ فى الْبَيانِ » فَيقولُ : « الَّذِي يَسْتَشْهِدُ النَّحَوِيُّونَ بِقَوْلِهِ :

---

(١) الحمار (٢) خمرا باردة (٣) عند إشراق الصباح

(٤) نادم سادم : إتباع ، أو الثانية بمعنى الأولى للتأكيد ، وكُسَع : حى من قيس عيلان ، ومنه غامد بن الحرث الكسَعِىّ ، وقد اتخذ قوساً وخمسة أسهم ، وكمن فى مخبأ ليصطاد ، فمر قطيع ، فرمى عَيْراً ، فنفذ السهم فيه ، ثم انطلق فصدم الجبل ، فأورى ناراً ؛ فظن الكُسَعِىّ أنه قد أخطأ ، فرمى ثانية وثالثة إلى آخر الأسهم ، وهو يظن أنه لم يصب ، فجزع ، وعمد إلى قوسه فكسرها ، ثم بات ، فلمـا أصبح نظر فإذا الحمُرُ مُطَرَّحة مُصَرَّعة ، وأسهمه بالدم مضرجة ، فندم ، فقطع إبهامه ، وأنشد :

ندمت ندامة لو أن نفسى تطاوعنى إذاً لقطعت خَمْسِى
تبيّن لى سَفَـــاهُ الرأى منى – لعمر أبيك – حين كسرتُ قوسى

ويضرب المثل بندامة الكُسَعِىّ ، فيقول الفرزدق :

« ندمت ندامة الكسعى لمـا غدت منى مطلقـةً نوارُ »

والأدب العربى حافل بضرب الكسعى مثلاً لكل نادم .

ضَرَبَتْ صَدْرَها إِلَيَّ وقالَتْ : «يا عَدِيًّا! لَقَدْ وَقَتْكَ[١] الأَوَاقِي[٢]!»

وَقَدِ اسْتَشْهَدُوا لهُ بِأَشْياءَ كَقَوْلِهِ :

وَلَقَدْ خَبَطْنَ[٣] بُيوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً أَخْوالنا ، وَهُمُ بَنُو الأَعْمامِ

وَقَوْلِهِ :

مَا أُرَجِّي بِالْعَيْشِ بَعْدَ نَدَامَى كلُّهُمُ قَدْ سُقُوا بِكَأْسِ حَلَاقِ[٤]

فَيُقالُ : « إِنَّكَ لَتَعْرِفُ صاحِبَكَ بِأَمْرٍ لَا مَعْرِفَةَ عِنْدَنَا مِنْهُ ، ما النَّحْوِيُّونَ ؟ وَما الاسْتِشْهادُ ؟ وَما هذَا الْهَذَيانُ ؟ نَحْنُ خَزَنَةُ النَّارِ ، فَبَيِّنْ غَرَضَكَ تُجَبْ إِلَيْهِ »

---

(١) حفظتك وصانتك عن الأذى (٢) جمع واقية وهى الشيء يتقى به ، ومعنى البيت أنها دقت صدرها داعية أن لا يصيبنى مكروه (٣) ضربهم ضرباً شديداً

(٤) الحَلَاق : المنية ، ومعنى البيت : « أى خير فى الحياة بعد أن أفنى الردى كل نداماى »

وهذا البيت من قصيدة المهلهل المشهورة التى يقول فيها :

طفلة مّا ، ابنة المجلل بيضا ء ، لعوب ، لذيذة فى العناق

فاذهبى ما إليك غير بعيد لا يؤاتى العناق من فى الوثاق

ضربت نحرها إلى ، وقالت : « يا عديا ! لقد وقتك الأواقى ! »

ما أرجى بالعيش بعد نداما ى ، أراهم سقوا بكأس حلاق !

وهكذا يروى البيت الأخير فى كتب الأدب ، مخالفاً لرواية أبى العلاء

حديثه مع مهلهل(١)

فَيَقُولُ : « أُرِيدُ الْمَعْرُوفَ بِمُهَلْهِلٍ التَّغْلَبِيِّ ، أَخِي كُلَيْبِ وَائِلٍ الَّذِي كَانَ يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ » فَيُقَالُ : « هَا هُوَ ذَا يَسْمَعُ حِوَارَكَ ، فَقُلْ مَا تَشَاءُ »

---

(١) مهلهل

اسمه « عدى » واسم أبيه « ربيعة التغلبي » وهو أخو كليب وخال امرىء القيس . موطنه نجد .

يعزو اليه المؤرخون أنه أول من طول القصائد ، وأنه أحد من غنى من العرب فى شعره ، وكان لاهياً حتى لقبه أخوه كليب « زِير النساء » فلما قتل كليب كان المهلهل يعاقر الخمر فاهتاج ، واستحث قومه على أخذ الثار ؛ وجز شَعره وقصر ثوبه ؛ وهجر النساء والقمار والشراب ، وتفرغ للحرب ، ودامت تلك الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ، وكانت سجالاً بينهما ، ثم اصطلحوا بعد ذلك .

ومن مختار شعره : رائيته الفذة ، وهى أشهر من أن نذكرها ، ومن أجمل ما فيها قوله :

كأنى — إذْ نعى الناعى كليباً — تطاير بين جَنْبَيَّ الشرار
سألت الحى : « أين دفنتموه ؟ » فقالوا لى : « بأقصى الحى دار »
فسرت وقد غشى بصرى عليه كما دارت بشاربها العقار

وقوله من قصيدة أخرى :

يا لبكر ! أنشروا لى كليباً يا لبكر ! أين أين الفرار ؟
يا لبكر ! فاظعنوا أو فحلوا صرح الشر وبان السّرار

وقوله من قصيدة ثالثة :

أليلتنا بذى حُسَمٍ ! أنيرى إذا أنت انقضيت فلا تحورى
فإن يك بالذنائب طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير
وأنقذنى بياض الصبح منها لقد أنقذت من شر كبير

فَيَقُولُ: «يَا عَدِيُّ بْنَ رَبِيعَةَ ! أَعْزِزْ عَلَيَّ بِوُلُوجِكَ هَذَا الْمَوْلِجَ ! لَوْ لَمْ آسَفْ عَلَيْكَ إِلاَّ لِأَجْلِ قَصِيدَتِكَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

أَلَيْلَتَنَا بِذِي حُسَمٍ[1] أَنِيرِي ... إِذَا أَنْتِ انْقَضَيْتِ[2] فَلاَ تَحُورِي[3]

لَكَانَتْ جَدِيرَةً أَنْ تُطِيلَ الْأَسَفَ عَلَيْكَ ، وَقَدْ كُنْتُ إِذَا أُنْشِدْتُ أَبْيَاتَكَ فِي ابْنَتِكَ الْمُزَوَّجَةِ فِي «جَنْبٍ[4]» ، تَغْرَوْرِقُ مِنَ الْحُزْنِ عَيْنَايَ ،

الى أن يقول و يبدع :

كواكب ليلة طالت وغمت ... فهذا الصبح راغمة فغورى

و بعد أن غُلب فى الحرب ، وأخذ أسيراً ، ثم عاد إلى أهله — جَعَل النساء يستخبرونه ، تسأل المرأة عن زوجها وأبيها وأخيها ، و يسأل الغلام عن أبيه وأخيه ، فقال :

ليس مثلى يخبر الناس عن آ ... بائهم قتلوا ، وينسى القتالا

لم أرم عرصة الكتيبة حتى انـ ... تعل الورد من دماء نعالا

عرفته رماح بكر ، فما يأ ... خذن إلا لباته والقذالا

غلبونا — ولا محالة يوما ... يقلب الدهر ذاك حالا فحالا

(١) اسم مكان (٢) انتهيت (٣) لا ترجعى (٤) يشير بذلك إلى ذهاب مهلهل إلى اليمن بعد أن دامت الحرب المشهورة أربعين عاما ، واصطلح الحيان جميعا ، وأبى مهلهل أن يقيم بينهم حتى لا يرى قاتل كليب ، فسار إلى اليمن ونزل فى «جنب» من بنى مَذْحِج ، فخطب إليه أحدهم ابنته ، فأبى أن يفعل فأجبروه على تزويجها ، وساقوا إليه صداقها جلودا من أدَم ، فقال فى ذلك :

أعزز على تغلب بما لقيت ... أخت بنى الأكرمين من جُشَم

أنكحها فقدها الأراقم فى جنـ ... ـب ، وكان الحباء من أدَم !

لو بأبانين جاء يخطبها ... ضرج ما أنف خاطب بدم

ليسوا بأكفائنا الكرام ، ولا ... يغنون من عيلة ولا عدم

أصبحت لا منفساً أصبت ، ولا ... أبتُ كريماً حرا من الندم

فَأَخْبِرْنِى : لِمَ سُمِّيتَ مُهَلْهِلاً ؟ فَقَدْ قِيلَ : إِنَّكَ سُمِّيتَ بِذَلِكَ ، لِأَنَّكَ أَوَّلُ مَنْ هَلْهَلَ الشِّعْرَ » أَىْ رَقَّقَهُ ، فيَقُولُ : « إِنَّ الْكَذِبَ لَكَثِيرٌ ، وَإِنَّمَا كَانَ لِى أَخٌ يُقَالُ لَهُ امْرُؤُ الْقَيْسِ ، فَأَغَارَ عَلَيْنَا زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ الْكَلْبِيُّ ، فَتَبِعَهُ أَخِى فِى زَرَافَةٍ[١] مِنْ قَوْمِهِ ، فَقَالَ فِى ذَلِكَ :

لَمَّا تَوَقَّلَ[٢] فِى الْكُرَاعِ[٣] هَجِينُهُمْ[٤] ... هَلْهَلْتُ[٥] أَثْأَرُ مَالِكاً أَوْ صِنْبِلاَ

فَسُمِّىَ مُهَلْهِلاً ، فَلَمَّا هَلَكَ شُبِّهْتُ بِهِ ، فَقِيلَ لِى مُهَلْهِلٌ »

فيَقُولُ : « الْآنَ شَفَيْتَ صَدْرِى بِحَقِيقَةِ الْيَقِينِ ! »

حديثه مع الشنفرى[٦]

. . . . . . وَسَأَلَ عَنِ الشَّنْفَرَى الْأَزْدِيِّ فَأَلْفَاهُ قَلِيلَ

---

(١) جماعة (٢) صعّد أو توغّل أو رقى (٣) الكراع : أنف يتقدم الحرة ممتد ، أى جزء خارج ، والحَرَّةُ كل أرض ذات حجارة نخرة سود كأنها أحرقت بالنار

(٤) قال أبو العلاء : يعنى بالهجين زهير بن جناب (٥) قال أبو العلاء : « قاربت ، ويقال : توقفت »

(٦) الشنفرى

(قالوا : توفى سنة ٥٤٠ م)

اسمه ثابت بن أوس الأزدى ، موطنه اليمن ، وهو شاعر الأزد ، ومن أشهر عدائى العرب . ومعنى الشنفرى : « العظيم الشفتين » ومن أروع شعره قوله لما أسره « بنو سلامان » وأرادوا قتله ، وقالوا له : « أين نقبرك ؟ » — فقد قال :

لا تقبرونى ، إن قبرى محرّم ... عليكم ، ولكن أبشرى أمّ عامر

إذا احتُمِلَت رأسى - وفى الرأس أكثرى ... وغودر عند الملتقى — ثمّ — سائرى

هنالك لا أرجو حياة تسرنى ... سجيسَ الليالى مبسلاً بالجرائر

التَّشَكِّي[1] وَالتَّأَلُّمِ لِمَا هُوَ فِيهِ ، فَيَقُولُ : « إِنِّي لاَ أَرَاكَ قَلِقاً مِثْلَ قَلَقِ أَصْحَابِكَ ! » فَيَقُولُ : « أَجَلْ ! إِنِّي قُلْتُ بَيْتاً فِي الدَّارِ الْخَادِعَةِ ، فَأَنَا أَتَأَدَّبُ بِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلِي :

غَوَى فَغَوَتْ ، ثُمَّ ارْعَوَى[2] بَعْدُ وَارْعَوَتْ
وَلَلْقَبْرُ — إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ — أَجْمَلُ[3] »

---

(١) قليل التشكى أى قليل التوجع والتأوه ، و بذلك وصفه قرينه تأبط شرا فى قصيدة جميلة منها :

قليـــــل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

أى قليل التوجع لما يحزنه ، كثير السفر والتحول من مكان إلى آخر ، وستمر بك القصيدة فى ترجمة « تأبط شراً » فى الصحيفة التالية

(٢) كف ورجع عن الجهل

(٣) هذا البيت من لامية « الشنفرى » المشهورة التى نختار منها قوله :

أديم مطال الجـــــوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

واستف ترب الأرض كى لا يرى له علىّ من الطـــــول امرؤ متطول

ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعـــــاش به إلا لدىّ ومأكل

ولكن نفساً حـــــرة لا تقيم بى على الضيم إلا ريثما أتحـــــول

حديثه مع تأبط شرا[١]

وَإِذَا هُوَ قَرِينٌ مَعَ « تَأَبَّطَ شَرًّا » كَمَا كَانَ فِي الدَّارِ الْغَرَّارَةِ ، فَيَقُولُ لِتَأَبَّطَ

---

(١) تأبط شرا (توفى سنة ٥٩٠ م)

كان من أشهر عدّائى العرب وأبصرهم وأشدهم كَيْداً ، وكان ينظر إلى الظباء فيعدو وراء أسمنها فلا تفوته ، قالوا : أشهر عدائى العرب الذين لا تلحقهم الخيل : تأبط شراً ، والشنفرى ، وسُلَيْك بن السُّلَكة ، وعمرو بن براق ، وأسير بن جابر »

قالوا : « وكان تأبط شرا أعدى ذى رجلين وذى ساقين وذى عينين ، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة ، فكان ينظر إلى الظباء فينتقى — على نظره — أسمنها ثم يجرى خلفه ، فلا يفوته حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ثم يشويه فيأكله . » وقد وصف « تأبط شرا » الغيلان فى شعره كما سيمر بك فى الصحيفة التالية . ومن أجمل ما نختاره من شعره قوله يصف صديقه « الشنفرى » من قصيدة له :

قليل التشكى للمهم[١] يصيبه	كثير الهوى ، شتى النوى[٢] والمسالك
يظل بموماة[٣] ، ويمسى بغيرها	جحيشاً[٤] ، ويَعْرَوْرِى[٥] ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح ، من حيث ينتحى[٦]	بمنخرق[٧] من شده[٨] المتدارك[٩]
إذا حاص[١٠] عينيه كرى النوم ، لم يزل	له كالئ[١١] من قلب شيحان[١٢] فاتك
ويجعل عينيه ربيئةَ[١٣] قلبه	إلى سله من حد أخلقَ[١٤] صائك[١٥]
إذا هَزَّه فى عظم قرن تهللت	نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس الأنيس ، ويهتدى	بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك[١٦]

---

(١) المحزن (٢) السفر أو التحول من مكان الى آخر (٣) مفازة واسعة (٤) منفردا (٥) يركب (٦) يميل فى كل وجه (٧) حيث تهب الريح (٨) إسراعه (٩) المتلاحق بعضه ببعض (١٠) حاص : خاط ، والمعنى هنا : « اذا اشتبكت أهداب جفونه وأخذ الكرى بمعاقدها » (١١) حافظ (١٢) حذر . أو شهم غيور على الحرم . والمعنى أن قلبه اليقظ يحرسه حين ينام (١٣) رائدا ، واصل الربيئة الرجل ينتظر العدو على جبل أو مكان عال لئلا يدهم قومه (١٤) أملس مصمت (١٥) لاصق ، والمعنى هنا : أن سيفه مضرج بالدم (١٦) المجرة . وانما سميت كذلك لاجتماع النجوم فيها واشتباك بعضها ببعض . والمعنى أنه يهتدى بالنجوم فى الليل

شَرًّا : « أَحَقٌّ مَا رُوِيَ عَنْكَ مِنْ نِكَاحِ الْغِيلَانِ[1] ؟ » فَيَقُولُ : « لَقَدْ كُنَّا

ومما يروونه عنه أنه لقى — ذات يوم — رجلا من « ثقيف » يقال له : « أبو وهب » كان جبانا أهوج وعليه حلة جيدة ؛ فقال « أبو وهب » لتأبط شرا : « بم تغلب الرجال يا ثابت ، وأنت كما أرى دميم ضئيل ؟ » قال : « باسمى ، إنما أقول ساعة ما ألقى الرجل : أنا تأبط شرا ، فينخلع قلبه ، حتى أنال منه ما أردت ! »

فقال له الثقفى : « أقطُّ ؟ » قال : « قط ! »

قال : « فهل لك أن تبيعنى اسمك ؟ » قال : « نعم ، فبم تبتاعه ؟ » قال : « بهذه الحلة وبكنيتى » قال له : « افعل » ففعل ، وقال له تأبط شرا : « لك اسمى ولى كنيتك » وأخذ حلته وأعطاه طمريه ثم انصرف ؛ وقال فى ذلك يخاطب زوجة الثقفى :

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها تأبط شرا واكتنيت « أبا وهب » ؟
فهبه تسمى اسمى وسميت باسمه ، فأين له صبرى على معظم الخطب ؟
وأين له بأس كبأسى وسورتى وأين له فى كل فادحة قلبى !

(١) ذاع عن « تأبط شراً » لقاء الغيلان ونكاحهم والحرب معهم ، وقد رووا عنه أشعاراً مختلفة فى ذلك وأخباراً هى أقرب إلى الأساطير والخيال منها إلى الحقيقة ، فمن شعره فى الغيلان قوله من قصيدة :

وانى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فقلت لها : «كلانا نضو أينٍ أخو سفر ، فخلّى لى مكانى »
فشدت شدة نحوى ، فأهوى لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش فخرت صريعا لليدين وللجران
فقالت : «عد» : فقلت لها : «رويداً مكانكِ ! إننى ثبت الجنان »
فلم أنفك متكئاً عليها لأنظر مصبحا ، ماذا أتانى
إذا عينان فى رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساقا مُخْدَع ، وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان

فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَتَقَوَّلُ وَنَتَخَرَّصُ(١)، فَمَا جَاءكَ مِمَّا يُنْكِرُهُ الْمَعْقُولُ(٢)، فَإِنَّهُ مِنَ الْأَكَاذِيبِ. وَالزَّمَنُ كُلُّهُ عَلَى سَجِيَّةٍ وَاحِدَةٍ(٣)، فَالَّذِي شَاهَدَهُ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانَ كَالَّذِي شَاهَدَهُ نُضَاضَةُ(٤) وَلَدِ آدَمَ »

فَيَقُولُ الشَّيْخُ : « نُقِلَتْ إِلَيْنَا أَبْيَاتٌ تُنْسَبُ إِلَيْكَ :

أَنَا الَّذِي نَكَحَ الْغِيلَانَ فِي بَلَدٍ ... مَا طَلَّ(٥) فِيهَا سِمَاكِيٌّ وَلَا جَادَا

فِي حَيْثُ لَا يَعْمِتُ الْغَادِي عَمَايَتَهُ ... وَلَا الظَّلِيمُ بِهِ يَبْغِي تَهَبَّادَا(٦)

وَقَدْ لَهَوْتُ بِمَصْقُولٍ عَوَارِضُهَا ... بِكْرٍ تُنَازِعُنِي كَأْسًا وَعِنْقَادَا(٧)

ثُمَّ انْقَضَى عَصْرُهَا عَنِّي وَأَعْقَبَهُ ... عَصْرُ الْمَشِيبِ، فَقُلْ فِي صَالِحٍ بَادَا »

فَاسْتَدْلَلْتُ عَلَى أَنَّهَا لَكَ لَمَّا قُلْتَ : « تَهَبَّادًا »

فَقُلْتُ هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ فِي الْقَافِيَةِ :

« طَيْفُ ابْنَةِ الْحُرِّ — إِذْ كُنَّا نُوَاصِلُهَا —

ثُمَّ اجْتَنَنْتُ بِهَا بَعْدَ التِّفِرَّاقِ(٨) »

فَلَا يُحِيبُهُ تَأَبَّطَ شَرًّا بِطَائِلٍ

---

(١) نكذب (٢) المعقول : العقل ، كالمجهود بمعنى الجهد ، والمعسور بمعنى العسر ، وما إلى ذلك من المصادر التى جاءت على زنة مفعول . (٣) فى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى سقط الزند :

ألا إنما الأيام أبناء واحد ... وهذى الليالى كلها أخوات

فلا تطلبن من عند يوم وليلة ... خلاف الذى مرت به السنوات

(٤) قال أبو العلاء : « النُّضَاضَةُ : آخر ولد الرجل » (٥) لم يصبها الطل — وهو المطر الضعيف (٦) المعنى : لا يظفر فيها فرخ النعام بالهبيد « الحنظل » ليأكله (٧) عنقودا (٨) التفرق

الفصل السادس

عودة إلى الفردوس

حديثه مع آدم

فَإِذَا رَأَى[١] قِلَّةَ الْفَوَائِدِ لَدَيْهِمْ، تَرَكَهُمْ فِي الشَّقَاءِ السَّرْمَدِ، وَعَمَدَ لِمَحَلِّهِ فِي الْجِنَانِ، فَيَلْقَى آدَمَ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي الطَّرِيقِ، فَيَقُولُ: «يَا أَبَانَا، صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ، قَدْ رُوِيَ لَنَا عَنْكَ شِعْرٌ مِنْهُ قَوْلُكَ:

نَحْنُ بَنُو الْأَرْضِ وَسُكَّانُهَا ... مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودْ

وَالسَّعْدُ لَا يَبْقَى لِأَصْحَابِهِ ... وَالنَّحْسُ تَمْحُوهُ لَيَالِي السُّعُودْ»

فَيَقُولُ: «إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ حَقٌّ، وَمَا نَطَقَهُ إِلَّا بَعْضُ الْحُكَمَاءِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِهِ حَتَّى السَّاعَةَ» فَيَقُولُ: «فَلَعَلَّكَ يَا أَبَانَا قُلْتَهُ ثُمَّ نَسِيتَ، فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ النِّسْيَانَ مُتَسَرِّعٌ إِلَيْكَ، وَحَسْبُكَ شَهِيدًا عَلَى ذَلِكَ الْآيَةُ الْمَتْلُوَّةُ فِي قُرْآنِ مُحَمَّدٍ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ —: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ، فَنَسِيَ[٢] وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا» وَقَدْ زَعَمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّكَ سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِنِسْيَانِكَ، وَاحْتَجَّ[٣] عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ فِي التَّصْغِيرِ «أُنَيْسِيَانٌ» وَفِي الْجَمْعِ أَنَاسِيٌّ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النِّسْيَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، وَقَالَ الطَّائِيُّ:

---

(١) أي ابن القارح (٢) وفى ذلك يقول أبو العلاء:

احتج فى الغى بالنسيان والدهم ... وقد غووا ـ بادكار ـ لا أقول: نسوا

(٣) أنى بالحجة

« لاَ تَنْسَيَنْ تِلْكَ الْعُهُودَ ، وَإِنَّمَا سُمِّيتَ إِنْسَانًا لِأَنَّكَ نَاسِى »

فَيَقُولُ آدَمُ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « أَبَيْتُمْ إِلاَّ عُقُوقًا وَأَذِيَّةً ، إِنَّمَا كُنْتُ أَتَكَلَّمُ الْعَرَبِيَّةَ ، وَأَنَا فِى الْجَنَّةِ ، فَلَمَّا هَبَطْتُ الْأَرْضَ نُقِلَ لِسَانِى إِلَى السُّرْيَانِيَّةِ فَلَمْ أَنْطِقْ بِغَيْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكْتُ ، فَلَمَّا رَدَّنِى اللهُ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — إِلَى الْجَنَّةِ عَادَتْ عَلَىَّ الْعَرَبِيَّةُ ، فَأَىَّ حِينٍ نَظَمْتُ هَذَا الشِّعْرَ ، فِى الْعَاجِلَةِ أَمِ الْآجِلَةِ ؟ وَالَّذِى قَالَ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ وَهُوَ فِى الدَّارِ الْمَاكِرَةِ ، أَلاَ تَرَى قَوْلَهُ : « مِنْهَا خُلِقْنَا وَإِلَيْهَا نَعُودُ » ؟ فَكَيْفَ أَقُولُ هَذَا الْمَقَالَ وَلِسَانِى سُرْيَانِىٌّ ؟ وَأَمَّا الْجَنَّةُ قَبْلَ أَنْ أَخْرُجَ مِنْهَا فَلَمْ أَكُنْ أَدْرِى بِالْمَوْتِ فِيهَا ، وَأَنَّهُ مِمَّا حُكِّمَ عَلَى الْعِبَادِ ، وَأَمَّا بَعْدَ رُجُوعِى إِلَيْهَا فَلاَ مَعْنَى لِقَوْلِى : « وَإِلَيْهَا نَعُودُ » لِأَنَّهُ كَذِبٌ لَا مَحَالَةَ ، وَنَحْنُ مَعَاشِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَالِدُونَ مُخَلَّدُونَ ! »

فَيَقُولُ : « إِنَّ بَعْضَ أَهْلِ السِّيَرِ يَزْعُمُ أَنَّ هَذَا الشِّعْرَ وَجَدَهُ يَعْرُبُ فِى مُتَقَدِّمِ الصُّحُفِ السُّرْيَانِيَّةِ ، فَنَقَلَهُ إِلَى لِسَانِهِ ، وَهَذَا لاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ ، وَكَذَلِكَ يَرْوُونَ لَكَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْكَ — لَمَّا قَتَلَ قَابِيلُ هَابِيلَ :

تَغَيَّرَتِ الْبِلاَدُ وَمَنْ عَلَيْهَا ... فَوَجْهُ الْأَرْضِ مُغْبَرٌّ قَبِيحُ

وَأَوْدَى رُبْعُ أَهْلِيهَا فَبَانُوا ... وَغُودِرَ فِى الثَّرَى الْوَجْهُ الْمَلِيحُ

فَيَقُولُ آدَمُ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : « أَعْزِزْ عَلَىَّ بِكُمْ مَعْشَرَ أُبَيْنِىَّ ! إِنَّكُمْ فِى الضَّلاَلَةِ مُتَهَوِّكُونَ[1] ! آلَيْتُ[2] مَا نَطَقْتُ هَذَا النَّظِيمَ وَلاَ

(١) متهوكون أو متحيرون ، أى أنكم واقعون فى الضلالة بغير مبالاة ولا روية ، خابطون فيها على غير هدى (٢) أقسمت

نُطِقَ فى عَصْرِى ، وَإِنَّما نَظَمَهُ بَعْضُ الْفارِغِينَ ، فَلَا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ! كَذَبْتُمْ عَلَى خالِقِكُمْ وَرَبِّكُمْ ، ثُمَّ عَلَى آدَمَ أَبِيكُمْ ، ثُمَّ عَلَى حَوّاءَ أُمِّكُمْ ، وَكَذَبَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ! »

حديثه مع ذات الصفا

ثُمَّ يَضْرِبُ[١] سائِرًا فى الْفِرْدَوْسِ ، فَإِذا هُوَ بِرَوْضَةٍ مُؤْنِقَةٍ ، وَإِذا هُوَ بِحَيَّاتٍ يَلْعَبْنَ ، فَيَقُولُ : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ! وَمَا تَصْنَعُ حَيَّةٌ فى الْجَنَّةِ ؟ » فَيُنْطِقُها اللهُ — جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — بَعْدَ ما أَلْهَمَها الْمَعْرِفَةَ بِهاجِسِ الْخُلْدِ، فَتَقُولُ : « أَمَا سَمِعْتَ فِى عُمُرِكَ بِذاتِ الصَّفا ، الْوافِيَةِ لِصاحِبٍ ما وَفَى ، كانَتْ تَنْزِلُ بِوادٍ خَصِيبٍ ، وَكانَتْ تَصْنَعُ إِلَيْهِ الْجَمِيلَ فِى وِرْدِ الظّاهِرَةِ[٢] وَالْغِبِّ ، فَلَمّا ثَمَّرَ بِوِدِّها ما لَهُ ، ذَكَرَ عِنْدَها ثارَهُ ، وَوَقَفَ عَلَى صَخْرَةٍ ، وَهَمَّ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْها بِأَخِرَةٍ[٣] ، وَكانَ أَخُوهُ مِمَّنْ قَتَلَتْهُ — فَضَرَبَها ، فَلَمّا وُقِيَتْ ضَرْبَةَ فَاسِهِ — وَالْحِقْدُ يُمْسِكُ بِأَنْفاسِهِ — نَدِمَ عَلَى ما صَنَعَ أَشَدَّ النَّدَمِ ، وَقالَ لِلْحَيَّةِ مُخادِعًا : «هَلْ لَكِ أَنْ نَكُونَ خَلِيلَيْنِ ؟ » وَدَعَاها بِالسَّفَهِ إِلَى حِلْفٍ ، فَقالَتْ : « لَا أَفْعَلُ ، إِنِّى أَجِدُكَ فاجِرًا مَسْحُورًا[٤] تَأْبَى لِى صَكَّةٌ[٥] فَوْقَ الرَّأْسِ ، وَيَمْنَعُكَ مِنْ أَرَبِكَ قَبْرٌ مَحْفُورٌ[٦] .

---

(١) أى ابن القارح (٢) الظاهرة الإبل الواردة كل يوم نصف النهار (٣) آخر كل شىء (٤) مفسداً مخادعاً (٥) ضربة شديدة (٦) يرجع من يريد التوسع فى هذه القصة إلى ص ٦٨ ج ٣ من كتاب الحيوان للجاحظ وص ٧٧ ج ٢ من مجمع الأمثال وص ٤٨ من ديوان النابغة

وَقَدْ وَصَفَ ذلِكَ نابِغَةُ بَنِى ذُبْيانَ ، فقَالَ :

وَإِنِّى لَأَلْقَى مِنْ ذَوِى الضِّغْنِ مِنْهُمُ ... وَمَا أَصْبَحَتْ تَشْكُو مِنَ الْبَثِّ سَاهِرَهْ

كَما لَقِيَتْ ذَاتُ الصَّفَا مِنْ حَلِيفِهَا ... وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِبًّا وَظاهِرهْ

فَلَمَّا رَأَى أَنْ ثَمَّرَ اللهُ مَالَهُ[١] ... فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا ، وَسَدَّ مَفاقِرَهْ[٢]

أَكَبَّ[٣] عَلَى فَأْسٍ يُحِدُّ غُرَابَها[٤] ... مُذَكَّرَةٍ مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهْ

وَقامَ عَلَى جُحْرٍ لَهَا فَوْقَ صَخْرَةٍ ... لِيَقْتُلَها أَوْ تُخْطِئَ الْكَفُّ بَادِرَهْ

فَلَمَّا وَقاهَا اللهُ ضَرْبَةَ فَأْسِهِ ... وَلِلْبِرِّ عَيْنٌ لا تُغَمِّضُ نَاظِرَهْ

فَقَالَ : « تَعالَىْ ، نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنا ... عَلَى مَا لَنَا ، أَوْ تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ[٥] »

فَقالَتْ : « مَعاذَ اللهِ أَفْعَلُ[٦] ، إِنَّنِى ... رَأَيْتُكَ مَسْحُورًا ، يَمِينُكَ فاجِرَهْ

أَبَى لِىَ قَبْرٌ لا يَزَالُ مُقابِلِى ... وَضَرْبَةُ فَأْسٍ فَوْقَ رَأْسِىَ فاقِرَهْ[٧] »

* * *

وَتَقولُ حَيَّةٌ أُخْرَى : « إِنِّى كُنْتُ أَسْكُنُ فى دَارِ الْحَسَنِ الْبَصْرِىِّ ، فَيَتْلُو الْقُرْآنَ لَيْلًا ، فَتَلَقَّيْتُ الْكِتَابَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ .

وَيَهْكُرُ[٨] أزلفه الله مَعَ الْأَبْرارِ الْمُتَّقِينَ لِمَا سَمِعَ مِنْ تِلْكَ الْحَيَّةِ ، فَتقُولُ هِىَ : « أَلاَ تُقيمُ عِنْدَنَا بُرْهَةً مِنَ الدَّهْرِ ! فَإِنِّى إِذا شِئْتُ انْتَفَضْتُ مِنْ إِهابِى[٩] ، فَصِرْتُ مِثْلَ أَحْسَنِ غَوَانِى الْجَنَّةِ ، لَوْ تَرَشَّفْتَ رُضابِى[١٠] لَعَلِمْتَ أَنِّى أَفْضَلُ

---

(١) نماه وكثره (٢) سد مفاقره أى اغتنى وسد وجوه فقره (٣) أقبل ولزمه (٤) حدها (٥) نشهد الله على تحالفنا (٦) أى أقسمت لا أفعل (٧) الفاقرة : الداهية التى تكسر الفقار وهو ما تنضد من عظام الصلب من لدن الكاهل الى العجز أى خرزات الظهر ، ومعناها هنا شديدة محطمة (٨) يشتد عجبه (٩) جلدى (١٠) ريق المرشوف

مِنَ الدِّرْياقَةِ[١] الَّتِي ذَكَرَها ابْنُ مُقْبِلٍ[٢] في قَوْلِهِ :

سَقَتْنِي بِصَهْبَاءَ دِرْيَاقَةٍ مَتَى مَا تُلَيِّنْ[٣] عِظَامِي تَلِنْ[٤]

فَيُذْعَرُ مِنْهَا وَيَذْهَبُ مُهَرْوِلًا فِي الْجَنَّةِ ، وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ : « كَيْفَ يُرْكَنُ إِلَى حَيَّةٍ ؟ » فَتُنَادِيهِ : « هَلُمَّ إِنْ شِئْتَ اللَّذَّةَ ، لَوْ أَقَمْتَ عِنْدَنَا إِلَى أَنْ تَخْبُرَ وُدَّنَا وَإِنْصَافَنَا ، لَنَدِمْتَ إِنْ كُنْتَ فِي الدَّارِ الْعَاجِلَةِ قَتَلْتَ حَيَّةً أَوْ عُثْمَانًا[٥] » فَيَقُولُ : « لَقَدْ ضَيَّقَ اللهُ عَلَيَّ مَرَاشِفَ الْحُورِ الْحِسَانِ إِنْ رَضِيتُ بِتَرَشُّفِ هَذِهِ الْحَيَّةِ » !

عود إلى حوريته

فَإِذَا ضَرَبَ فِي غِيطَانِ الْجَنَّةِ لَقِيَتْهُ الْجَارِيَةُ[٦] الَّتِي خَرَجَتْ مِنْ تِلْكَ الثَّمَرَةِ ، فَتَقُولُ : « إِنِّي لَأَنْتَظِرُكَ مُنْذُ حِينٍ ، فَمَا الَّذِي شَجَنَكَ[٧] عَنِ الْمَزَارِ ؟ مَا طَالَتِ الْإِقَامَةُ مَعَكَ ، فَأُمِلَّ بِالْمُحَاوَرَةِ مَسْمَعَكَ ! » فَيَقُولُ : « كَانَتْ فِي نَفْسِي مَآرِبُ مِنْ مُخَاطَبَةِ أَهْلِ النَّارِ ، فَلَمَّا قَضَيْتُ مِنْ ذَلِكَ وَطَرًا عُدْتُ إِلَيْكِ ، فَاتْبَعِينِي بَيْنَ كُثُبِ الْعَنْبَرِ وَأَنْقَاءِ[٨] الْمِسْكِ » فَيَتَخَلَّلُ بِهَا أَهَاضِيبَ الْفِرْدَوْسِ ، وَرِيَاضَ الْجِنَانِ ، فَتَقُولُ : « أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمَرْحُومُ ، أَظُنُّكَ تَحْتَذِي بِي فِعَالَ الْكِنْدِيِّ[٩] فِي قَوْلِهِ :

---

(١) الدرياقة هنا : الخمر ، وأصل معناها : دواء السم (٢) تقدمت ترجمة ابن مقبل في ص ٦٦ من هذا الجزء ، وهو تميم بن أبيّ بن مقبل ، فراجع إن شئت .
(٣) تجعل عظامي لينة (٤) يقال : لينته ، فلانَ لي (٥) العثمان : فرخ الثعبان
(٦) ارجع إلى عنوان « حدائق الحور » في ص ١٠١ من هذا الجزء (٧) حبسك أو منعك (٨) جمع نقا ، وهي القطعة من الرمل تنقاد محدودبة (٩) امرىء القيس

فَقُمْتُ بِهَا أَمْشِى ، تَجُرُّ وَرَاءنَا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ[١] مُرَحَّلِ[٢]

فَلَمَّا أَجَزْنَا[٣] سَاحَةَ الْحَىِّ[٤] وانْتَحَى بِنَا بَطْنُ[٥] خَبْتٍ[٦] ذِى حِقَافٍ[٧] عَقَنْقَلِ[٨]

هَصَرْتُ[٩] بِفَوْدَىْ رَأْسِهَا[١٠] فَتَمَايَلَتْ عَلَىَّ هَضِيمَ الْكَشْحِ[١١] رَيَّا الْمُخَلْخَلِ[١٢]

فَيَقُولُ : « الْعَجَبُ لِقُدْرَةِ اللهِ ! لَقَدْ أَصَبْتَ مَا خَطَر فِى السُّوَيْدَاءِ[١٣] فَمِنْ أَيْنَ لَكَ عِلْمٌ بِالْكِنْدِىِّ ، وَإِنَّمَا نَشَأْتَ فِى تَمْرَةٍ تُبْعِدُكَ مِنْ جِنٍّ وَأَنِيسٍ ؟ »

فَتَقُولُ : « إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ! »

* * *

وَيَعْرِضُ لَهُ حَدِيثُ امْرِئِ الْقَيْسِ فِى دَارَةِ جُلْجُلٍ[١٤] ، فَيُنْشِئُ اللهُ

---

(١) المرط : كساء من خز أو صوف ، وقد تسمى الملاءة مرطاً (٢) منقش بنقوش تشبه رحال الابل ، ومعنى البيت أنها حين صحبتنى أخذت تجر مرطها على آثار أقدامنا لتعفيها به فى أثناء سيرنا (٣) قطعنا (٤) فناء الحى أو رحبته (٥) البطن : مكان مطمئن حوله أمكنة مرتفعة (٦) الخبت : الأرض المطمئنة (٧) جمع حقف ، وهو رمل مشرف معوج (٨) العقنقل : المنعقد المتلبد من الرمل . ومعنى البيت : لما جاوزنا فناء الحى وصرنا الى أرض مطمئنة تحيط بها مرتفعات وتلال من الرمل الخ (٩) جذبت (١٠) جانبى رأسها (١١) ضامرة الكشح ، وهو منقطع الأضلاع (١٢) المخلخل: موضع الخَلْخَال من الساق ، وريا المخلخل : معناها هنا : كثيرة لحم الساقين ممتلئتهما ، ومعنى البيت : « أنه جذب اليه ذؤابتيها فمالت اليه » ثم أخذ فى وصفها فقال : « إنها ضامرة الكشح ، ممتلئة الساقين »

(١٣) حبة القلب ، أى أصبت ما فى نفسى (١٤) يشير الى قصته مع حبيبته (ابنة عمه عنيزة) والنساء فى دارة جلجل ، وقد ذكر تلك القصة فى معلقته فقال :

ألا ربَّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل الخ

وقد امتلأت بها كتب الأدب ، فلا حاجة الى ذكرها هنا ، وارجع الى ص ٥ و ٦ و ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ و ١٤٠ و ١٤١ من هذا الجزء ليكمل لك حديث امرىء القيس

— جَلَّتْ عَظَمَتُهُ — حُورًا يَتَمَا قَلْنَ(١) فِي نَهْرٍ مِنْ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ ، وَفِيهِنَّ مَنْ تَفْضُلُهُنَّ ، كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ ، فَيَتَرَامَيْنَ بِالتَّرْمَدِ — وَإِنَّمَا هُوَ كَأَجَلِّ طِيبِ الْجَنَّةِ — وَيَعْقِرُ لَهُنَّ الرَّاحِلَةَ(٢) فَيَأْكُلُ وَيَأْكُلْنَ مِنْ بَضِيعِهَا(٣) مَا لَيْسَ تَقَعُ الصِّفَةُ عَلَيْهِ مِنْ إِمْتَاعٍ وَلَذَاذَةٍ .

جنة الرُّجَّز

وَيَمُرُّ بِأَبْيَاتٍ لَيْسَ لَهَا سُمُوقُ(٤) أَبْيَاتِ الْجَنَّةِ ، فَيَسْأَلُ عَنْهَا ، فَيُقَالُ: «هَذِهِ جَنَّةُ الرُّجَّزِ(٥) » فَيَقُولُ : « تَبَارَكَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ ، لَقَدْ صَدَقَ الْحَدِيثُ الْمَرْوِيُّ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا » وَإِنَّ الرَّجَزَ لِمَنْ سَفْسَافِ الْقَرِيضِ(٦) قَصَّرْتُمْ أَيُّهَا النَّفَرُ فَقُصِّرَ بِكُمْ ! »

وَيَعْرِضُ لَهُ رُؤْبَةُ فَيَقُولُ : «يَا أَبَا الْجَحَّافِ ! مَا كَانَ أَكْلَفَكَ(٧) بِقَوَافٍ لَيْسَتْ بِالْمُعْجِبَةِ، تَصْنَعُ رَجَزًا عَلَى الْغَيْنِ ، وَرَجَزًا عَلَى الطَّاءِ ، وَعَلَى الظَّاءِ ، وَعَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْحُرُوفِ النَّافِرَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ صَاحِبَ مَثَلٍ مَذْكُورٍ ، وَلَا لَفْظٍ يُسْتَحْسَنُ ! » فَيَغْضَبُ رُؤْبَةُ(٨) وَيَقُولُ : « أَلِي تَقُولُ هَذَا ؟ وَعَنِّي أَخَذَ الْخَلِيلُ

وقد أشار أبو العلاء الى هذه الحادثة فى لزومياته ، فى قوله :

أين امرؤ القيس والعـذارى   إذ مال من تحتـه الغبيط ؟

(١) يسبحن ويغطسن (٢) الراحلة : النجيب الصالح لأن يرحل من الإبل ، والقوى على الأسفار ، وهو يشير بذلك إلى قول امرئ القيس : « ويوم عقرت للعذارى مطيتى »

(٣) لحمها (٤) ارتفاع (٥) الرُّجَّز : جمع راجز (٦) ارجع إلى (ص١٤١و١٤٢) من هذا الجزء ليتضح لك رأى أبى العلاء فى الرجز (٧) أى ما كان أشد حبك وولعك

(٨) رؤبة بن العجاج (توفى سنة ١٤٥ هـ)

هو رؤبة بن عبد الله البصرى التميمى . كنيته أبو محمد ، (وأصل الرؤبة القطعة من

وَكَذَلِكَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ ، وَقَدْ غَبَرْتَ[١] فِي الدَّارِ السَّالِفَةِ تَفْتَخِرُ بِاللَّفْظَةِ تَقَعُ إِلَيْكَ ، مِمَّا نَقَلَهُ أُولَئِكَ عَنِّي وَعَنْ أَشْبَاهِي ؟ » فَإِذَا رَأَى مَا فِي رُؤْبَةَ مِنَ الانْتِخَاءِ[٢] قَالَ : « لَوْ شِبْك رَجَزُكَ وَرَجَزُ أَبِيكَ لَمْ تَخْرُجْ مِنْهُ قَصِيدَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ ، وَلَقَدْ كُنْتَ تَأْخُذُ جَوَائِزَ الْمُلُوكِ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَإِنَّ غَيْرَكَ أَوْلَى بِالْأَعْطِيَةِ وَالصِّلَاتِ » فَيَقُولُ رُؤْبَةُ : « أَلَيْسَ رَئِيسُكُمْ فِي الْقَدِيمِ ، وَالَّذِي ضَهَلَتْ[٣] إِلَيْهِ الْمَقَايِيسُ ، كَانَ يَسْتَشْهِدُ بِقَوْلِي وَيَجْعَلُنِي لَهُ كَالْإِمَامِ[٤] ؟ »

فَيَقُولُ : « لَا فَخْرَ لَكَ أَنِ اسْتُشْهِدَ بِكَلَامِكَ ، فَقَدْ وَجَدْنَاهُمْ يَسْتَشْهِدُونَ بِكَلَامِ أَمَةٍ وَكْعَاءَ[٥] ، وَكَمْ رَوَى النُّحَاةُ عَنْ طِفْلٍ مَا لَهُ فِي الْأَدَبِ » فَيَقُولُ رُؤْبَةُ : « اجْتَرْتَ لِخِصَامِنَا فِي هَـذَا الْمَنْزِلِ ؟ فَامْضِ لِطِيَّتِكَ[٦] فَقَدْ أَخَذْتَ بِكَلَامِنَا مَا شَاءَ اللهُ ! » فَيَقُولُ : « أَقْسَمْتُ مَا يَصْلُحُ كَلَامُكُمْ لِلثَّنَاءِ ، تَصِكُّونَ مَسَامِعَ الْمُمْتَدَحِ بِالْجَنْدَلِ ، وَمَتَى خَرَجْتُمْ عَنْ صِفَةِ جَمَلٍ تَرْثُونَ لَهُ مِنْ طُولِ الْعَمَلِ ، إِلَى صِفَةِ فَرَسٍ أَوْ كَلْبٍ ، فَإِنَّكُمْ غَيْرُ الرَّاشِدِينَ ! » — فَيَقُولُ رُؤْبَةُ : « إِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى — قَالَ « يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ[٧] فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ[٨] » وَإِنَّ كَلَامَكَ لَمِنَ اللَّغْوِ ! »

الخشب يشعب بها الإناء) واسم أبيه العجاج ، اشتهر كما اشتهر أبوه من قبله بالرجز ، وستمر بك ترجمة أبيه فى ص ١٩١

(١) مكثت أو ظللت (٢) التكبر والتعاظم (٣) ضهل إليه : رجع (٤) لعل المراد : الخليل بن أحمد ، فقد وضع مقاييس الشعر (٥) حمقاء ، وقيل الوكعاء هى التى تسقط وجعا (٦) أى امض لنيتك التى انتويتها ، أو اذهب إلى الناحية التى كنت تقصدها وامض الى سبيلك (٧) اللغو : ما لا يعتد به من الكلام ، أو القول الباطل الذى يصدر لا عن روية وفكر (٨) فعل ما لا يحل

فَإِذَا طَالَتِ الْمُخَاطَبَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رُؤْبَةَ ، سَمِعَ الْعَجَّاجُ[١]، فَجَاءَ يَسْأَلُ الْمُحَاجَزَةَ[٢]

متاع الخلد

وَيذْكُرُ الشَّيْخُ مَا كَانَ يَلْحَقُ أَخَا النِّدَامِ ، مِنْ فُتُورٍ فِي الْجَسَدِ مِنَ الْمُدَامِ ، فَيَخْتَارُ أَنْ يَعْرِض لَهُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْزَفَ[٣] لَهُ لُبٌّ

فَإِذَا هُوَ يَخَالُ فِي الْعِظَامِ النَّاعِمَةِ دَبِيبَ نَمْلٍ ، أَسْرَى فِي الْمُقْمِرَةِ عَلَى رَمْلٍ، فَيَتَرَنَّمُ بِقَوْلِ إِيَاسِ بْنِ الْأَرَتِّ :

أَعَاذِلَ : لَوْ شَرِبْتِ الْخَمْـرَ حَتَّى ... يَظَلَّ لِكُلِّ أَنْمُلَةٍ دَبِيبُ

إِذاً لَعَذَرْتِنِي وَعَلِمْتِ أَنِّي ... — لِمَا أَتْلَفْتُ مِنْ مَالِي — مُصِيبُ

وَيَتَّكِئُ عَلَى مَفرَشٍ مِنَ السُّنْدُسِ ، وَيَأْمُرُ بِالْحُورِ الْعِينِ أَنْ يَحْمِلْنَ ذَلِكَ الْمَفْرَشَ فَيَضَعْنَهُ عَلَى سَرِيرٍ مِنْ سُرُرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ زَبَرْجَدٌ أَوْ عَسْجَدٌ فَيُكَوِّنُ الْبَارِئُ فِيهِ حَلَقاً مِنَ الذَّهَبِ تُطِيفُ[٤] بِهِ مِنْ كُلِّ الْأَشْرَاءِ[٥] ، حَتَّى يَأْخُذَ كلٌّ وَاحِدٍ مِنَ الْغِلْمَانِ ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجَوَارِي الْمُشْتَبِهَةِ بِالْجُمَانِ[٦] ، وَاحِدَةً مِنْ تِلْكَ الْحَلَقِ . فَيُحْمَلُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ إِلَى مَحَلِّهِ الْمُشَيَّدِ بِدَارِ الْخُلُودِ فَكُلَّمَا مَرَّ بِشَجَرَةٍ نَضَخَتْهُ[٧] أَغْصَانُهَا بِمَاءِ الْوَرْدِ قَدْ خُلِطَ بِمَاءِ الْكَافُورِ

---

(١) العجـاج (توفى سنة ٩٠ هـ)

هو عبد الله بن رؤبة . كنيته أبو الشعثاء . وهو أبو رؤبة الرجاز المشهور وقد مرت ترجمته في ص ١٨٩ ، وكلاهما نال درجة رفيعة وشهرة واسعة في الرجز ، وقد ترك كل منهما ديواناً ليس فيه إلا أراجيز (٢) المسالمة (٣) من غير أن يذهب له عقل (٤) تحيط به (٥) الأنحاء ، مفردها شرى (٦) اللؤلؤ (٧) رشته ، كنضحته

وَبِمِسْكٍ مَا جُنِيَ مِنْ دِمَاءِ الْفُورِ[١] ، بَلْ هُوَ بِتَقْدِيرِ اللهِ الْكَرِيمِ .

*
* *

وَتُنَادِيهِ الثَّمَرَاتُ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَى الظَّهْرِ : « هَلْ لَكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ هَلْ لَكَ ؟ » فَإِذَا أَرَادَ عُنْقُوداً مِنَ الْعِنَبِ أَوْ غَيْرِهِ ، انْقَضَبَ[٢] مِنَ الشَّجَرَةِ بِمَشِيئَةِ اللهِ ، وَحَمَلَتْهُ الْقُدْرَةُ إِلَى فِيهِ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَلْقَوْنَهُ بِأَصْنَافِ التَّحِيَّةِ . وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ !

﴿ تمت رواية الغفران ﴾

وانتهى الجزء الثانى

---

(١) الفور : الظباء (جمع فائر) ومن دمائها يخرج المسك ، قال المتنبى :

فإن تفق الأنام — وأنت منهم — فإن المسك بعض دم الغزال

(٢) انقطع

الجزء الثالث

القسم الثانى من الرسالة

الرد على رسالة ابن القارح

القسم الثاني

الرد على رسالة ابن القارح[1]

قال أبو العلاء :

« وقد أطلت في هذا الفصل[2] ، ونعود الآن إلى الإجابة على الرسالة »

وفاء ابن القارح

فَهِمْتُ قَوْلَهُ : « جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَهُ » لاَ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى النِّفَاقِ[3] — وَبَعُدَ ابْنُ آدَمَ مِنَ الْوِفَاقِ — وَهَذِهِ غَرِيزَةٌ خُصَّ بِهَا الشَّيْخُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَتَعَايَشَ الْعَالَمُ بِخِدَاعٍ ، وَأَضْحَوْا مِنَ الْكَذِبِ فِي إِبْدَاعٍ[4] .

شيرين وكسرى

لَوْ قَالَتْ شِيرِينُ الْمَلِكَةُ لِكِسْرَى : «جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ» لَخَالَبَتْهُ فِي ذَلِكَ وَنَافَقَتْهُ ، وَإِنْ رَاقَتْهُ وَوَافَقَتْهُ ، عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنْ حَالٍ دَنِيَّةٍ ، فَجَعَلَهَا فِي النُّعْمَى السَّنِيَّةِ ، وَعَتَبَهُ فِي ذَلِكَ الْأَحِبَّاءُ ، وَجَرَتْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ قِصَصٌ وَأَنْبَاءٌ ، وَقِيلَ لَهُ — فِيمَا ذُكِرَ — : «كَيْفَ تَطِيبُ نَفْسُ الْمَلِكِ لِهَذِهِ الْمُومِسِ ؟ »

---

(١) هي رسالة ابن القارح المنشورة بالجزء الأول من هذا الكتاب (٢) أي القسم الذي وصف فيه الجنة والنار ، وهو الجزء الثاني من هذا الكتاب (٣) يعني أن ابن القارح قال هذا الكلام مخلصاً فيه غير منافق (٤) أي في افتنان ، وقد امتلأ شعر أبي العلاء ونثره بهذا المعنى وأشباهه ، ومن أدق ما قاله في ذلك قوله في لزومياته :

مين يردد ، لم يرضوا بباطـله   حتى أبانوا – الى تصديقه – طرقا .

فَضَرَبَ لَهُمُ الْمَثَلَ بِالْقَدَحِ : جَعَلَ فِي الْإِنَاءِ الشَّعَرَ وَالدَّمَ ، وَقَالَ لِلْحَاضِرِ : « تُجِيبُ نَفْسُكَ لِشُرْبِ مَا فِيهِ ؟ » فَقَالَ : « إِنَّهَا لَا تَطِيبُ ، وَهِيَ بِالْأَنْجَاسِ قَطِيبٌ[١] » . فَأَرَاقَ ذَلِكَ الشَّيْءَ وَغَسَلَهُ ، وَهَذَّبَ وِعَاءَهُ ، وَجَعَلَ فِيهِ — مِنْ بَعْدُ — مُدَاماً ، وَعَرَضَهَا عَلَى النَّدَامَى ، فَكُلُّهُمْ بَهَشَ[٢] أَنْ يَشْرَبَ . فَقَالَ : « هَذَا مَثَلُ شِيرِينَ »

غريزة النفـــاق

كَمْ مِنْ شِبْلٍ نَافَقَ أَسَداً ، وَأَضْمَرَ لَهُ غِلاًّ وَحَسَداً ، وَضَيْغَمٍ نَقَمَ عَلَى فُرْهُودٍ ، وَوَدَّ لَوْ دَفَنَهُ بِالْوُهُودِ .

(وَالْفُرْهُودُ وَلَدُ الْأَسَدِ ، وَهُوَ — آنَسَ اللهُ الْإِقْلِيمَ بِقُرْبِهِ — أَجَلُّ مِنْ أَنْ يُشْرَحَ لَهُ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا أَفْرَقُ مِنْ وُقُوعِ هَذِهِ الرِّسَالَةِ فِي يَدِ غُلَامٍ مُتَرَعْرِعٍ[٣] ، لَيْسَ إِلَى الْفَهْمِ بِمُتَسَرِّعٍ ، فَتَسْتَعْجِمَ عَلَيْهِ اللَّفْظَةُ ، فَيَظَلَّ مَعَهَا فِي مِثْلِ الْقَيْدِ) .

وَكَمْ خَالَبَتِ الذِّئَابُ السُّلَقَ[٤] ، وَفِي الضَّمَائِرِ تُكَنُّ الْفِلَقُ[٥] !

يَقُولُ الْقَائِلُ : « بِأَبِي أَنْتَ ، جَادَ عَمَلُكَ وَأَتْقَنْتَ ! » وَلَوْ قَدَرَ لَبَتَّ الْوَدَجَ[٦] ، وَإِنَّمَا جَامَلَ أَوْ سَدَجَ[٧] !

---

(١) ممزوجة (٢) ارتاح له وخف اليه (٣) ناشيء (٤) الإناث من الذئاب (جمع سِلْقة) (٥) الدواهي (٦) عرق الأخدع الذي يقطعه الذابح فلا يبقى معه حياة (٧) كذب وتقوّل الأباطيل ، ونحو من هذا المعنى قول أبي العلاء في لزومياته :

إذا جولس الأقوام بالحق ، أصبحوا عـداة ، فكل الأصفياء على خب

وَلَعَلَّ بَعْضَ الْعَتَارِفِ[١] يَلْفِظُ إِلَى الْبَائِضَةِ حَبَّةَ الْبُرِّ ، وَيَأْنَسُ بِهَا ، وَفى فُؤَادِهِ مِنَ الضِّغْنِ أَعَاجِيبُ !

***

وَكَيْفَ يَقُولُ الْخَلِيلُ الْمُخْلِصُ : إِنَّ حَنِينَهُ حَنِينُ وَالِهٍ مِنَ النُّوقِ . وَهِىَ الذَّاهِلَةُ إِنْ حُمِلَ عَلَيْهَا بَعْضُ الْوُسُوقِ ، وَإِنَّمَا تَسْجَعُ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا ، ثُمَّ يَكُونُ سُلُوُّهَا مُتْبَعًا . فَأَمَّا الْحَمَامَةُ الْهَاتِفَةُ ، فَقَدْ رَزَقَهَا الْبَارِئُ صِيتًا شَائِعًا ، فَظَلَّ وَصْفُهَا بِالْأَسَفِ ذَائِعًا ، تَنْهَضُ إِلَى الْتِقَاطِ حَبٍّ ، وَتَعُودُ إِلَى جَوْزَلِهَا[٢] ذَاتَ أَبٍّ[٣]، فَإِنْ هِىَ صَادَفَتْهُ أُكِيلَ بَازٍ ، فَمَا هِىَ إِلَّا مِثْلُ الْحَيَوَانِ ، تَمَلُّ حَالَهَا فِى أَقْصَرِ أَوَانٍ[٤] وَقَدْ زَعَمَ زَاعِمٌ — لَا يُصَدَّقُ — أَنَّ الْحَمَائِمَ فِى هَذَا الْعَصْرِ يَبْكِينَ مُفْقَدًا هَلَكَ فِى عَهْدِ نُوحٍ ، وَإِنَّ دَوَامَهَا عَلَى ذَلِكَ لَدَلِيلُ الْوَفَاءِ[٥] ،

وقوله : يلقاك بالمـاء النمير الفتى ... وفى ضمير النفس نار تقـد !

(١) جمع عتروف أو عتريف ، وهو الخبيث الفاجر الجرىء . والبائضة : الدجاجة

(٢) فرخها (٣) كلأ (٤) كرر أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى لزومياته . فمن ذلك قوله عن الظبى :

عجبت للظبى ، بانت عنه صاحبة ... لاقت جنـود منايا لا تناخيها
فارتاع يوما ، ويوما ، ثم ثالثـة ... ومال بعـد إلى أخرى يواخيها
ما شد صرف زمان عقدة لأذى ... إلا ومر لياليـه يراخيها

(٥) أشار أبو العلاء الى هذا المعنى فى كتابه سقط الزند بقوله :

أبنات الهديل أسعدن أو عد ... ن قليـل العزاء بالإسعاد
إيه لله دركن فأنتن ... اللواتى تحسن حفظ الوداد
ما نسيتن هالـكا فى الأوان الـ ... خالِ أودى من قبل هلك إياد

وَمَا الْعِوَضُ عَنْ خَلِيلِ الصَّفَاءِ ؟ لاَ عِوَضَ وَلاَ نَائِبَ إِلاَّ فِيهِ ، وَكَيْفَ يُعْتَبُ الزَّمنُ عَلَى تَجَافِيهِ ، وَإِنَّمَا خُشِيَ بِشَرٍّ وَغَدْرٍ . وَمَا أَقَلَّ صِدْقَ الْأُلاَّفِ ، ولوْ بِيعُوا مِنَ الذَّهَبِ بِآلافٍ !

المعرى يتبرأ من العلم

وَأَمَّا ما ذَكَرَهُ مِنْ حَالِي ، فَطَالَمَا أُعْطِيَ الْوَثَنُ سُعودًا[١]، وَأَحْلِفُ كَيَمِينِ امْرِئِ الْقَيْسِ :

« فَقُلْتُ : يَمِينَ اللهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصالِي »

إِنِّي لَمَكْذُوبٌ عَلَيْهِ ، كَمَا كَذَبَتِ الْعَرَبُ عَلَى الْغُولِ . وَكَمَا تَقَوَّلَتِ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ عَلَى الضَّبِّ ، وَكَمَا تَكَلَّمَتْ على لِسَانِ الضَّبُعِ وَهِيَ خَرْسَاءُ . يُظَنُّ أَنِّي مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ[٢] وما أَنَا لهُ بِالصَّاحِبِ ، وَتِلْكَ لَعَمْرِي بَلِيَّةٌ ،

---

(١) الوثن : الصنم ، ومما نختاره من لزومياته ، فى هذا المعنى ، قوله :

وبالجد زار اللات أهــل ضلالة وعظمت العزى ، وأكرم باجَر

وهى أسماء أصنام ثلاثة أولها لثقيف وكان بالطائف ، وثانيها لقريش وكنانة ، وثالثها لقضاعة ومن والاهم

(٢) تبرأ أبو العلا فى مواضع كثيرة من لزومياته ، من مظنــة العلم ، ومن أحسن ما نختاره له فى هذا المعنى قوله :

أقررت بالجهــل ، وادعى فهمـــى قوم ، فأمرى وأمرهم عجب
والحق ، أنى وأنهم هـــدر لست نجيباً ، ولا هم نجب

وقوله :

الله يشهد أنى جاهل ورَع فليحضر الناس إقرارى و إشهادى

« ورَع : جبان »

وَالْعُلُومُ تَفْتَقِرُ إِلى مِرَاسٍ[١] ! وَيُقالُ : إِنَّنى مِنْ أَهْلِ الدِّينِ ، وَلَوْ ظَهَرَ ما وَرَاءَ السَّدِينِ ، ما اقْتَنَعَ لِىَ الْوَاصِفُ بِسَبٍّ .

وَكَيْفَ يُدَّعى لِلْعِلْجِ الْوَحْشِىِّ ، أَنَّ تَغْرِيدَهُ فى السَّحَرِ أَشْعَارٌ مَوْزُونَةٌ ؟ وَهَلْ يُصَوَّرُ لِعَاقِلٍ أَنَّ الْغُرَابَ النَّاعِبَ صَدَحَ بِتَشْبِيبٍ ؟ فَبَعِدَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْحَجَرَ مُتَكَلِّمٌ ، وَأَنَّهُ عِنْدَ الضَّرْبِ مُتَأَلِّمٌ !

وَلَوْ أَنِّى لَا أَشْعُرُ بِمَا يُقَالُ فِىَّ ، لَأَرَحْتُ مِنْ إِنْكارى وَتَلَافِىَّ ، وَكُنْتُ كَالْوَثَنِ سَوَاءٌ عَلَيْهِ أَنْ وُقِّرَ[٢] وَأَنْ أُوقِرَ[٣] ، وَكَالْأَرْضِ السَّبِخَةِ ما تَحْفِلُ أَنْ قِيلَ : « هِىَ مَرِيعَةٌ » ، أَوْ قِيلَ : « بِئْسَتِ الزَّرِيعَةُ[٤] » .

---

(١) ممارسة وشدة (٢) من الوقار (٣) صُدع (٤) من أحسن ما نختاره لأبى العلاء فى هذا المعنى قوله :

ما يحس التراب ثقلا — إذا دِيـ ـس — ولا المـــاء يتعب الجريانُ

وقوله :

أما الجمـــاد ، فانى بت أغبطـــه إذ ليس يعـــلم إما زاد أو محقا
لا يشعر العود بالنـار التى أخذت فيه ، ولا الأصهب الدارى إذا سحقا

وقوله :

عز الذى أعنى الجمـــاد فما ترى حجراً يغص بمأكل أو يشرق
متعرياً فى صيفه وشتـــائه ما ريـــع قط للبس يتخرق
لا حس يؤلمـه ، فيظهر مجزعاً إن راح يضرب ملطس أو مطرق

إلى أن يقول :

والصخر يلبث لا يقارف مرة ذنبا ، ولا هو من حياء مطرق

ولعل هذه الميزة التى ذكرها للجماد فى هذا البيت الأخير ، هى التى جعلته يقول :

أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب

وَكَيْفَ أَغْتَبِطُ إذا تُخُرِّصَ عَلَيَّ ، وَعُزِيَتِ الْمَعْرِفَةُ إِلَيَّ ، وَلَسْتُ آمِنًا فِى الْعَاقِبَةِ فَضِيحَةً ، وَمَثَلِى — إِنْ جَذِلْتُ بِذَلِكَ — مَثَلُ مَنِ اتُّهِمَ بِمَالٍ ، فَسَرَّهُ قَوْلُ الْجَهَلَةِ إِنَّهُ لَخَلْفُ الْيَسَارِ ، فَطَلَبَ مِنْهُ بَعْضُ السَّلَاطِينِ أَنْ يَحْمِلَ إِلَيهِ جُمْلَةً وَافِرَةً ، فَصَادَفَ أُكْذُوبَةً زَافِرَةً[1] ، وَضَرَبَهُ كَىْ يُقِرَّ ، وَقُتِلَ فِى الْعُقُوبَةِ !

وَقَدْ شَهِدَ اللهُ أَنِّى أَجْذَلُ بِمَنْ عَابَنِى ، لِأَنَّهُ صَدَقَ فِيمَا رَابَنِى ، وَأَهْتَمُّ لِثَنَاءِ مَكْذُوبٍ[2] ، فَغَفَرَ اللهُ لِمَنْ ظَنَّ حَسَنًا بِالْمُسِىءِ . وَلَوْلَا كَرَاهَتِى حُضُورًا بَيْنَ النَّاسِ ، وَإِيثَارِى أَنْ أَمُوتَ مِيتَةَ عَلْهَبٍ[3] فِى كِنَاسٍ[4] ، فَاجْتَمَعَ مَعِى أُولَئِكَ

---

(١) كبيرة (٢) يهتم له : يحزن ، ومما نختاره لأبى العلاء فى هذا المعنى قوله فى لزومياته :

وأزهد فى مدح الفتى عند صدقه ... فكيف قبولى كاذبات المدائح ؟

وقوله :

إذا كان التقارض من محال ... فأحسن من مدائحنا التهاجى

(٣) العلهب : الظبى (٤) الكناس : بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه

العـــزلة

وإيثار أبى العلاء العزلة معروف بل هو من ألزم صفاته ، وحسبك دليلا على ذلك ، ما لقب به نفسه من أنه « رهن المحبسين » والإفاضة فى الاستشهاد بما قاله فى الترغيب فى العزلة والحث عليها ، إطالة لا فائدة منها ، فلنكتف من ذلك بنخبة قليلة من شعره فى بيان فضلها عنده ، كقوله :

بعدى عن الناس خير من لقائهم ... وقربهم للحجى والدين أدواء

كالبيت أفرد ، لا إبطاء يدخله ... ولا سناد ، ولا فى اللفظ إقواء

وقوله متضجراً من التكاليف الثقيلة التى يحتمها عليه الاختلاط بالناس :

لقـاء الناس ألجأنى برغمى ... إلى حسن التجمل والنفاق

الْجَائِلُونَ ، لَصَحَّ أَنَّهُمْ عَنِ الرُّشْدِ حَائِلُونَ .

ونحب ألّا يفوت القارئ جمال هذا البيت الرائع وهو قوله :

متى ما يأتنى أجلى بأرضى ... فحى على الجنازة للغريب

وقوله معللا ميله الى العزلة وأخذه بها :

ولى مذهب ـ فى هجرى الأنس ـ نافع ... إذا القوم خاضوا فى اختيار المذاهب
أرانا على الساعات فرسان غارة ... وهن بنا يجرين جرى السلاهب
ومما يزيد العيش إخلاق ملبس ... تأسّف نفس لم تطق رد ذاهب

وقوله :

اجتنب الناس ، وعش واحداً ... لا تظلم الناس ولا تظلم

وقوله :

تمنيت أنى بين روض ومنهل ... مع الوحش، لا مصراً أحل ولا كفرا

وقوله :

يُقل الأذى والعيب فى ساحة الفتى ... ـ وإن هو أكدى ـ قلة الجلساء

وقوله :

بوحدانيــــة العـــلام دِنّا ... فدعنى أقطع الأيام وحدى !

وقوله يؤثر العزلة ـ حتى بعد الموت ـ :

إذا حان يومى فلأوسد بموضـــع ... من الأرض لم يحفر به أحد قبرا
هم الناس ـ إن جازاهم الله بالذى ... توخوه ـ لم يرحم جهولا ، ولا حبرا
يرى عنتاً فى قرب حى وميت ... من الإنس من جلّى سرائرهم خبرا
فيا ليتنى لا أشهد الحشر فيهم ... إذا بعثوا شعثاً رءوسهم غبرا
إذا تم فيا تؤنس العين مضجعى ... فزدنى ـ هداك الله ـ من سعة شبرا

وقوله :

وددت وفاتىَ فى مهمـــه ... به لامع ليس بالمعـــلم

وَأَمَّا وُرُودُهُ «حَلَبَ» — حَرَسَهَا اللهُ — فَلَوْ كَانَتْ تعقل، لَفَرِحَتْ بِهِ فَرَحَ الشَّمْطَاءِ، شَحَطَ سَلِيلُهَا الْوَاحِدُ — وَمَا هُوَ لِحَقِّهَا جَاحِدٌ — وَقَدِمَ بَعْدَ أَعْوَامٍ، فَنَقَعَتْ بِهِ فَرْطَ أُوَامٍ، فَالْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي أَعَادَ الْبَارِقَ إِلَى الْغَمَامِ الْوَسْمِيِّ.

الانتحـار

وَإِنِّي لَأَعْجَبُ مِنْ تَمَالُؤِ جَمَاعَةٍ، عَلَى أَمْرٍ لَيْسَ بِالْحَسَنِ وَلاَ الطَّاعَةِ. قد كدت ألحق بِرَهْطِ الْعَدَمِ، مِنْ غَيْرِ الْأَسَفِ وَلاَ النَّدَمِ، وَلَكِنَّمَا أَرْهَبُ قُدُومِي عَلَى الْجَبَّارِ، وَلَمْ أُصْلِحْ نَخْلِي بِإِبَارٍ، وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: «إِنَّ فُلاَنًا تَلَطَّفَ حَتَّى قَتَلَ نَفْسَهُ، وَكَرِهَ أَنْ يُمَارِسَ بَدَائِعَ الشُّرُورِ، وَأَحَبَّ النُّقْلَةَ إِلَى مَنَازِلِ السُّرُورِ» فَقَالَ الْحَكِيمُ قَوْلاً مَعْنَاهُ: «أَخْطَأَ ذَلِكَ الشَّابُّ الْمُقْتَبَلُ، هَلاَّ صَبَرَ عَلَى صُرُوفِ الزَّمَانِ، فَإِنَّهُ لاَ يَشْعُرُ عَلاَمَ يَقْدَمُ»

وَلَوْلاَ حِكْمَةُ اللهِ — جَلَّتْ قُدْرَتُهُ — وَأَنَّهُ حَجَزَ الرَّجُلَ عَنِ الْمَوْتِ، بِالْخَوْفِ مِنَ الْعَلَزِ[1] وَالْفَوْتِ[2] لَرَغِبَ كُلٌّ مَنِ احْتَدَمَ غَضَبُهُ، وَكَلَّ عَنْ ضَرِيبَةٍ مِقْضَبُهُ، أَنْ تُتْرَعَ[3] لَهُ مِنَ الْمَوْتِ كُؤُوسٌ[4]

أموت به واحـدا مفردا ‌ ‌ ‌ وأدفن في الأرض لم تُظْلَم[1]
وأبعد عن قائل: «لا سلمت» ‌ ‌ ‌ وآخر قال: «ألا يا اسلم!»
أحاذر أن تجعلوا مضجعي ‌ ‌ ‌ إلى كافر ــ خان ــ أو مسلم
إذا قال: «ضايقتني في المحل» ‌ ‌ ‌ قلت: «أساؤا ولم أعلم»

(١) الاضطراب والهلع (٢) الضياع (٣) تملأ (٤) أبدع أبو العلاء فى صوغ هذا المعنى فى قوله:

---

(١) تحفر

أبو القطران الأسدى

وَأَمَّا أَبُو الْقَطِرَانِ الْأَسَدِيُّ — وَأَيُّ الْبَشَرِ مِنَ الْخُطُوبِ مَفْدِيٌّ — فَصَاحِبُ غَزَلٍ وَتَبَطُّلٍ ، وَتَوَفُّرٍ عَلَى الْخُرَّدِ وَتَعَطُّلٍ[1] ، وَهُوَ ذَلِكَ الْمُتَهَيِّمُ إِلَى «وَحْشِيَّةَ» ، وَإِنَّمَا وُدُّ الْغَانِيَةِ خِلَابٌ وَخِدَاعٌ ، وَلِلْكَمَدِ فِي هَوَاهُ ابْتِدَاعٌ ، وَلَوْ هَلَكَتْ تِلْكَ الْمَرْأَةُ وَالْمَرَّارُ[2] يَمِيشُ — لَعَدَّ أَنَّهُ بِتَلَفِهَا نَعِيشٌ ، لَا سِيَّمَا بَعْدَ السِّنِّ الْعَالِيَةِ ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ الْآلِيَةِ[3]

وَلَعَلَّ « أَبَا الْقَطِرَانِ » لَوْ مُتِّعَ بِهَذِهِ الْمَذْكُورَةِ مَا يَكُونُ قَدْرُهُ مِائَةَ حِقْبَةٍ[4] ، عَلَى غَيْرِ الْجَزَعِ وَالرِّقْبَةِ ، لَجَازَ أَنْ يَغْرَضَ مِنَ الْوِصَالِ — إِذَا عَلِمَ أَنَّ حَبْلَهُ فِي اتِّصَالٍ ؛ وَلَوْ نَزَلَ بِهَا شَيْءٌ تَتَغَيَّرُ بِهِ عَنِ الْعَهْدِ ، لَتَمَنَّى أَنْ تُقْذَفَ إِلَى غَيْرِ الْمَهْدِ[5] ، لِأَنَّ ابْنَ آدَمَ بَخِيلٌ مَلُولٌ ، وَلَوْ أَصَابَهَا الْعَوَرُ ، بَعْدَ أَنْ سَكَنَ عَيْنَيْهَا الْحَوَرُ ، لَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ نَبَأٌ لَا يُغْفَرُ وَلَا يُكَفَّرُ !

وَمِنْ أَيْنَ لِذَلِكَ الشَّخْصِ الْأَسَدِيِّ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ لِلشَّيْخِ مِنْ وَفَاءٍ ، وَإِنَّمَا عَاشَرَ « أَبُو الْقَطِرَانِ » أَعْبُدًا فِي الْإِبِلِ وَآمِيًا ، وَلَعَلَّهُ لَوْ صَادَفَ غَانِيَةً تَزِيدُ عَلَى « وَحْشِيَّةَ » بِشِقِّ الْأَبْلَمَةِ[6] ، لَسَلَاهَا غَيْرَ الْمُؤْلِمَةِ[7] ، وَإِنَّمَا دَيْدَنُ ذَلِكَ

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة   مخشية ، لاعتراها القوم أفواجا
وكان من ألقت الدنيا إليه أذى   يؤمها تاركا للعيش أمواجا

(١) التبطل والتعطل بمعنى واحد وهو البقاء بغير عمل ، وقد قيل : « شر الفتيان المتبطل المتعطل » (٢) هو أبو القطران ، والتعيس : المحمول على النعش (٣) غير المستطيعة (٤) سنة (٥) إلى غير الراحة ، أى لتمنى أن تضيق بها الحال (٦) الأبلمة بقلة ، وشق الأبلمة أى نصفها (٧) من غير أن تؤلمه

الرَّجُل وَنُظَرَائِهِ صِفَةُ نَاقَةٍ أَوْ رَبْعٍ ، وَمَا شَجَرُهُ الْمُغْتَرَسُ بِالنَّبْعِ[(١)] ، إِذَا جَنَى الْكَمْأَةَ بَجَحَ ، وَخَالَ أَنَّهُ قَدْ نَجَحَ ! وَلَوْ حَضَرَ أُخْوِنَةً حَضَرَهَا « الشَّيْخُ » لَعَادَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَلَوْ كُنْتَ عُذْرِيَّ الْعَلاَقَةِ ، لَمْ تَبِتْ ... بَطِيناً، وَأَنْسَاكَ الْهَوَى كَثْرَةَ الْأَكْلِ !

وَهُوَ — قَدَّرَ اللهُ لَهُ مَا أَحَبَّ — قَدْ جَالَسَ مُلُوكَ مِصْرَ الَّتِي قَالَ فِيهَا فِرْعَوْنُ : « أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ؟ » وَقَدْ أَقَامَ بِالْعِرَاقِ زَمَناً طَوِيلاً ، وَبِالْعِرَاقِ مَمْلَكَةُ فَارِسَ ، وَهُمْ أَهْلُ الشَّرَفِ وَالظَّرْفِ ، وَلاَ رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ جَالَسَ بَقَايَاهُمْ ، وَاخْتَبَرَ فِي الْمُعَاشَرَةِ سَجَايَاهُمْ ، وَعَاطَوْهُ الْأَكْؤُسَ الاَتِ التَّصَاوِيرِ ، عَلَى عَادِ[(٢)] الْمَرَازِبَةِ وَالْأَسَاوِرِ ، كَمَا قَالَ الْحَكَمِيُّ[(٣)] :

تَدُورُ عَلَيْنَا الْكَأْسُ فِي عَسْجَدِيَّةٍ ... حَبَتْهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ

قَرَارَتُهَا كِسْرَى ، وَفِي جَنَبَاتِهَا ... مَهًى تَدَّرِيهَا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ[(٤)]

---

(١) النبع شجر تعمل منه القسى ، وفى ذلك يقول أبو العلاء فى سقط الزند :

وقال « الوليد » : النبع ليس بمثمر ... وأخطأ ، سرب الوحش من ثمر النبع !

يعنى بالوليد البحترى ، و يرد على قوله :

وعيرتنى خـــلال العدم آونة ... والنبع عريان ، ما فى عوده ثمر !

(٢) عادات (٣) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى الجزء الثانى (ص ١٠)

(٤) هذان البيتان من قصيدة أبى نواس السينية الرائعة المشهورة وهى :

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا ، ... بها أثر منهم — جديد ودارس

مساحب من جر الزقاق على الثرى ... وأضغاث ريحان جنىّ ويابس

حبست بها صحبى ، فجددت عهدهم ... و إنى — على أمثال تلك — لحابس

التقبيل

وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ — أَمْتَعَ اللهُ الآدَابَ بِبَقَائِهِ — لَوْ رُزِقَ مُحَاوَرَةَ أَبِي الأَسْوَدِ — عَلَى عَرَجِهِ وَبُخْلِهِ — لَكَانَتْ مِقَتُهُ لَهُ أَبْلَغَ مِنْ مِقَةِ مَهْدِيٍّ لِيْلَاهُ. وَلَوْ كَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ أَذْفَرَ الْفَمِ، لَمَا أَمِنْتُ مَعَ كَلَفِهِ[١] بِالأَخْبَارِ، أَنْ يُقَبِّلَهُ شَقَّ الْبَلَسَةِ[٢]، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ عَائِشَةَ — رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهَا: — «كَانَ رَسُولُ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — يُقَبِّلُنِي شَقَّ التِّينَةِ» وَرَوَى بَعْضُهُمْ: «شَقَّ التَّمْرَةِ» وَذَلِكَ أَنْ يَأْخُذَ الشَّفَةَ الْعُلْيَا بِيَدِهِ، وَالسُّفْلَى بِيَدِهِ الأُخْرَى، وَيُقَبِّلَ مَا بَيْنَ الشَّفَتَيْنِ!

فضل الموت

وَأَمَّا مَنْ فَقَدَهُ مِنَ الأَصْدِقَاءِ لَمَّا دَخَلَ حَلَبَ — حَرَسَهَا اللهُ — فَتِلْكَ عَادَةُ الزَّمَنِ، يُبَدِّلُ مِنَ الأَبْيَاتِ الْمَسْكُونَةِ قُبُورًا، وَإِنَّ رَمْسَ الْهَالِكِ لَبَيْتُ الْحَقِّ، عَلَى أَنَّهُ يُغْنِي الثَّاوِيَ بِهِ بَعْدَ عَدَمٍ، وَيَكْفِيهِ الْمَؤُونَةَ[٣]. قَالَ الضَّبِّيُّ:

ولم أدر منهم غير ما شهدت به   بشرقى «ساباط» الديار البسابس
أقمنا بها يوما، ويومين بعده،   ويوما — له يوم الترحل خامس
تدور علينا الكأس فى عسجدية   حبتها — بأنواع التصاوير — فارس
قرارتها كسرى، وفى جنباتها   مهى تدّريها بالقسىّ الفوارس
فللخمر ما زرت عليه جيوبها   وللماء ما دارت عليه القلانس

(١) شدة حبه (٢) التينة (٣) يحسن أن نلمع هنا إلى رأى أبى العلاء فى الموت، فنقول:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ قَصْرِى حُفْرَةٌ ما بَعْدَها خَوْفٌ عَلَىَّ وَلا نَدَمْ

هذه هى أكبر ميزة للموت ، عند أبى العلاء ، وهى التى حببته فيه ، وربما كان أول ما يسترعى انتباهك فى شعره ، تشاؤمه ، ونظرته إلى العالم بمنظار شديد السواد ، ثم سخطه على الدنيا ، وتبرمه بالحياة التى دفعته إليها المقادير برغمه ، فلاقى فيها من صنوف الأذى والعذاب ، ما كان يكفى بعضه ، لتبغيضه فيها ، ونقمته عليها ، حتى أصبح لا يرى فيها إلا سلسلة آلام طويلة متصلة الحلقات ، لا تبدأ ، بولادة الطفل ، كما زعم ابن الرومى فى قوله:[1]

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها ، وإنها لأوسع مما كان فيه وأرغد

بل منذ كان جنينا فى بطن أمه :

وما برح الانسان فى البؤس – مذ جرت به الروح – لا مذ زال عن رأسه الغِرس[2]

ثم لا تنتهى تلك الآلام إلا بموته – وفى هذه الخاتمة شك كبير عند أبى العلاء كما سنبينه ، فلا غرو إذا خص الدنيا ، بأوفر قسط من الذم ، وافتن فى تقبيحها ، حتى لقبها بأم دفر –أى أم نتن– فى أكثر ندائه إياها – وقد جعله مزاجه السوداوى يرى الحياة مأساة مفجعة كل موضع فيها صالح للحسرة والبكاء ، وليس فيها موضع واحد ، يصلح للسرور

وله فى ذلك أشعار كثيرة ، نجتزئ منها بقوله :

أعن باكيا لجّ فى حزنه وسل ضاحك القوم : « مم ابتهج ؟ »

وقوله :

يسمِّى « سرورا » جاهل متخرص بفيه البرى – هل فى الزمان سرور ؟

*
* *

(١) ارجع إلى ص «٣٩٣» ج «٣» من ديوان ابن الرومى

(٢) الغرس : الجلدة الرقيقة التى تخرج على رأس الولد أو الفصيل ساعة يخرج من بطن أمه ، فان تركت قتلته

فَأَزُورُ بَيْتَ الْحَقِّ زَوْرَةَ ماكِثٍ　　فَعَلَامَ أَحْفِلُ ما تَقَوَّضَ وَانْهَدَمْ

وقد أكثر أبو العلاء من التفكير فى مسألة الموت ، فلا تكاد تخلو من ذكره صفحة من لزومياته ، حتى أصبح من أوليات المسائل التى يدور عليها محور فلسفته ، ولا نعرف له شبيها فى هذه الخلة ، سوى أبى العتاهية الذى نعده — على إكثاره — مقصراً عن شأو أبى العلاء تقصيراً بيناً ، والفرق بين الرجلين فى نظرنا هو فرق ما بين الفيلسوف الصادق الزهد ، والواعظ الذى اتخذ الوعظ ديدنا له .

*
* *

ويمكن الإلمام بآراء أبى العــلاء فى الموت — رغم تناقضها — مع الإشارة إلى سبب ذلك فيما يلى :

(١) تارة كان يصل جزعه من الموت إلى أقصاه ، ويرتاع منه ، فتنبعث من نفسه صيحة مفزعة يكاد ينخلع لها قلبه ، فيقول :

يهال التراب على من ثوى　　فآه من النبأ الهائل !

ثم يصرخ من أعماق نفسه ، وقد تولاه الذهول :

أنبأنا اللب بلقيا الردى　　فالغوث من صحة ذاك النبأ

أو يقــول :

فويهاً وواهاً لسـيل المنو　　ن كم جر عيرا بأحمالهـا

أو تنبهه فكرة طارئة ، تنتابه فجأة ، فيهب مذعوراً خائفاً فيقول :

يكر الحول بعد الحول عنى　　وتلك مصارع الأقوام حولى
كأنى بالألى حفروا لجارى　　وقد أخذوا المعاول وانتحوا لى

وفى البيت الثانى صورة مفزعة تمثل ما ألم به من الهلع والرعب !

(٢) وحيناً يذكر الموت فيتمناه ، ولكنه يخشى ألا تكون فيه الراحة والطمأنينة اللتان أخطأهما فى الحياة ، فيتردد فى تمنيه ويقول :

إن كان نقلى عن الدنيا يكون إلى　　خير ، وأرحب ، فانقلنى على عجل
وإن علمت مآلى عنــد آخرتى　　شراً وأضيق، فانسأ – رب – فى الأجل

وتزداد به الحيرة والارتباك فيقول :

فإن خرجت إلى بؤس فواحربى … وإن نقلت إلى نعمى ، فطوبى لى

وربما خشى أن يسلبه حسه الذى يعتز به ، ويتضاءل بالقياس إليه كل اعتبار آخر ، حتى إنه حرم على نفسه الخمر ضنا أن تذهب به سورتها — كما سنبينه فى حينه — فيقول :

ولو كان يبقى الحس فى فم ميت … لآليت أن الموت فى الفم أعذب

*
* *

وفى هذه الحالة ترى حنينه إلى الموت مقروناً بشىء من الجزع والرهبة منه ! على أنها نوبات فجائية ، تعرض له ، فتنطقه بما استشهدنا به من كلامه .

فأما يقينه الذى لا يفتأ يردده ، ويتغنى به فى أكثر أحايينه ، فهو النزوع إلى تفضيل الموت ، لأنه يرى فيه المنقذ الوحيد من آلام الحياة وأوصابها .

وإليك نخبة مختارة من كلامه تزيدك اقتناعاً بإيمانه الثابت ، وبما ذكره فى رسالته هنا عن الرمس ، من أنه « يغنى الثاوى به بعد عدم ، ويكفيه المؤونة » :

ما أعدل الموت من آت وأستره … فهيجينى ، فانى غير مهتاج

العيش أفقر منا كل ذات غنى … والموت أغنى — بحق — كل محتاج

إذا حياة علينا للأذى فتحت … بابا من الشر ، لاقاه بإرتاج

يغنى الفتى بالمنايا عن مآربه … وتنفخ الروح فى طفل فيفتقر

كأس المنية أولى بى ، وأروح لى … من أن أكابد إثراء وإحواجا

لكون خلك فى رمس أعز له … من أن يكون مليكا عاقد التاج

الملك يحتاج آلافا تناصره … والميت ليس إلى خلق بمحتاج

أصبح فى لحدى على وحدتى … لست إلى الدنيا بمحتاج

كشفى رأسى وافتقارى بها … خير من التمليك والتاج

إن يرحل الناس ولم أرتحل … فعن قضاء لم يفوض إلىّ

قال الرّاجزُ :

متى ألق من بعد المنية أسرتى أخبرهم أنى خلصت من الأسر

ومن اليمن للفتى أن يجىء الـموت يسعى إليه سعياً سريحاً

لم يمارس من السقام طويلا ومضى لم يكابد التبريحا

رقدة الموت ضجعة يستريح الجسم فيها والعيش مثل السهاد

تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد

تدعو بطول العمر أفواهنا لمن تناهى القلب فى وده

يسرّ أن مد بقاء له وكل ما يكره فى مده

دعا لى بالحياة ، أخو وداد رويدك إنما تدعو عليّا

وما كان البقاء لى اختيارا لو ان الأمر مردود إليّا

آليت لاينفك جسمى فى أذى حتى يعود إلى قديم العنصر

عل البلى سيفيد المرء فائدة فالمسك يزداد من طيب إذا سحقا

طال وقوفى وراء جسر وإنما ينظر العبور

عشنا – وجسر الموت قدامنا – فشمر الآن لكى نعبره

أقمت برغمى ، وما طائرى براض إذا ألفته الوكون

لعل الموت خير للبرايا وإن خافوا الردى وتهيبوه

تعود إلى الأرض أجسامنا وتلحق بالعنصر الطاهر

ويقضى بنا فرضه ناسك يمر اليدين على الظاهر

لعل موتا يريح الجسم من نصب إن العناء بهذا العيش مقترن

متى غدوت ببطن الأرض مضطجعاً فثمّ أفقد أوصابى وأمراضى

الْيَوْمَ يُبْنَى لِدُوَيْدٍ بَيْتُـهُ   يَا رُبَّ بَيْتٍ حَسَنٍ بَنَيْتُـهُ

فمالى أخاف طريق الردى   وذلك خير طريق سلك
يريحك من عيشة مرة   ومال أضيع ، ومال ملك

هنيئاً لطفل أزمع السير عنهم   فودع من قبل التعارف ظاعنا

ومسكن الروح فى الجثمان أسقمه   وبينها عنه من سقم يعافيه
وما يحس إذا ما عاد متصلا   بالترب تسفيه فى الهابى سوافيه
وحبذا الأرض قفراً لا يحل بها   ضد تعاديه أو خل تصافيه
« الهابى : تراب القبر »

روح إذا اتصلت بجسم لم يزل   – هو وهْى – فى مرض العناء المكمد
إن كنت من ريح ، فيا ريح اسكنى   أو كنت من نار ، فيا نار اخمدى

بطن البسيطة أعفى من ظواهرها   فوسّعا لى ، أهرب من سعاليها

أعفى المنازل قبر يستراح به   وأفضل اللبس – فيما أعلم – الكفن

والموت ينسى كمىّ الحرب صارمه   ودرعه ، وفتاة الحى مجولها

كم من مصائب فى الأيام فادحة   – لولا الحمام – لعدت كلها هدرا

نمضى ونتّرك البلاد عريضة   والصبح أزهر ، والنجوم زواهرا

وكيف أُقضّى ساعة بمسرة   وأعلم أن الموت من غرمائى

وانظر الى قوله فى صباه من مرثية أبيه :

وخوف الردى آوى إلى الكهف أهله   وكلف نوحا وابنه عمل السفن
وما استعذبته روح موسى وآدم   وقد وعدا من بعده جنتى عدن

ثم انظر إلى قوله فيها :

هنيئاً لك البيت الجديد موسداً   يمينك فيه بالسعادة واليمن
مجاور سكن فى ديار بعيدة   من الحى ، سقيا للديار وللسكن

وَمِعْصَمٍ ذِى بُرَةٍ[1] لَوَيْتُهُ لَوْ كَانَ لِلدَّهْرِ بِلًى أَبْلَيْتُهُ
أَوْ كَانَ قِرْنِى وَاحِدًا كَفَيْتُهُ

مادح أبى العلاء

وَأَمَّا الْفَصْلُ الَّذِى ذَكَرَ فيهِ الْخَلِيلَ ، فَقَدْ سَقَطَ[2] مِنْهُ اسْمُ الَّذِى غَلَا فِيَّ[3] وَقَرَنَ بِالنُّجُومِ الصَّلَافِيَّ[4] . وَمَنْ كَانَ ، فَغَفَرَ اللهُ جَرَائِمَهُ ، وَحَفِظَ لَهُ فِى الْأَبَدِ كَرَائِمَهُ ، فَقَدْ أَخْطَأَ عَلَى نَفْسِهِ — فِيمَا زَعَمَ — وَعَلَىَّ ، وَنَسَبَ — ما لَا أَسْتَوْجِبُ — إِلَىَّ . وَكَمْ أَعْتَذِرُ وَأَتَنَصَّلُ ، مِنْ ذَنْبٍ لَيْسَ يَتَحَصَّلُ !

وَإِنِّى لَأَكْرَهُ — بِشَهَادَةِ اللهِ — تِلْكَ الدَّعْوَى الْمُبْطِلَةَ ، كَرَاهَةَ الْمَسِيحِ مَنْ جَعَلَهُ رَبَّ الْعِزَّةِ ، فَمَا تَرَكَ لِلْفَتَى مِنْ مَهَزَّةٍ[5] . بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ : أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ

وانظر إلى قوله ، وهو يمثل ناحية أخرى من رأيه فى الموت :

يا مرحبا بالموت من مُتَنظَّرٍ إن كان ثم تعارف وتلاق !

ونختم هذا المختار بتلك المشاجرة الجميلة بينه و بين الدنيا ، وقد أحسن تمثيلها فى البيتين التاليين :

أف لدنياى ، فإنى بها لم أخل من إثم ومن حوب
قلت لها : « امضى غير مصحوبة » فقالت : « اذهب غير مصحوب »

(١) البرة : الخلخال (٢) ذكر ابن القارح فى رسالته أن شيخاً مدح أبا العلاء ، ولكنه سها عن ذكر اسمه فى رسالته (٣) غلا فى مدحى (٤) المتمدح بما ليس عنده (٥) حركة

مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قال : سُبْحَانَكَ ! ما يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي ، وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ[1] »

رسالة أبي الفرج الزَّهْرَجي[2]

وَأَمَّا أَبُو الْفَرَجِ الزَّهْرَجِيُّ ، فَمَعْرِفَتُهُ بِالشَّيْخِ تُقْسِمُ أَنَّهُ لِلْأَدَبِ حَلِيفٌ ، وَلِلطَّبْعِ الْخَيِّرِ أَلِيفٌ ، وَدِدْتُ أَنَّ الرِّسَالَةَ وَصَلَتْ إِلَيَّ ، وَلَكِنْ مَا عَدَلَ

---

(١) أشار أبو العلاء إلى ذلك فى موضعين من لزومياته ، أولهما قوله :

وقد شهد النصارى أن عيسى توخته اليهود ليصلبوه
وما أبهوا ، وقد جعلوه ربا لئلا ينقصوه ويجدبوه

والثانى قوله :

عجباً للمسيح بين أناس وإلى الله والد نسبوه
أسلمته إلى اليهود النصارى وأقروا بأنهم صلبوه
يشفق الحازم اللبيب على الطفـــل — إذا ما لداته ضربوه
وإذا كان ما يقولون فى عيســـى صحيحاً ، فأين كان أبوه ؟
كيف خلى وليده للأعادى ؟ أم يظنون أنهم غلبوه ؟

(٢) هو كاتب نصر الدولة ، وقد كتب رسالة إلى أبى العلاء ، وسأل ابن القارح إيصالها إليه ، فوضعها فى رحل له ، فسرقه جاره المسافر معه ، فكتب ابن القارح رسالته المنشورة بالجزء الأول يعتذر إلى أبى العلاء من ضياع الرسالة ، ويشكو إليه أموره وما لقى فى سفره ، وتطرق من ذلك إلى مناسبات أخرى ، فرد عليه المعرى برسالة الغفران — جزى الله السارق عنا خيراً !

ذَلِكَ الْعَدِيلُ[١] ! هَلَّا اقْتَنَعَ بِنَفَقَةٍ أَوْ ثَوْبٍ ، وَتَرَكَ الصُّحُفَ عَنْ نَوْبٍ[٢] فَأَرِبَ مِنْ يَدَيْهِ ، وَلَا اهْتَدَى فِي اللَّيْلَةِ بِفَرْقَدَيْهِ[٣]

لَوْ أَنَّهُ أَحَدُ لُصُوصِ الْعَرَبِ الَّذِينَ رُوِيَتْ عَنْهُمُ الْأَمْثَالُ السَّائِرَةُ ، وَتَحَدَّثَتْ بِهِمُ الْمُنْجِدَةُ وَالْغَابِرَةُ ، لَمَا اغْتَفَرْتُ مَا صَنَعَ بِمَا نَظَمَ ، لِأَنَّهُ أَفْرَطَ وَأَعْظَمَ[٤] ، وَقَدْ وُفِّقَ « أَبُو الْفَرَجِ » وَوَلَدُهُ ، لَمَّا دَرَسَ عَلَيْهِ الْكُتُبَ وَحَفِظَ عَنْهُ

أمثال العرب

وَأَمَّا حَلَبُ — حَمَاهَا اللهُ — فَإِنَّهَا الْأُمُّ الْبَرَّةُ ، تُعْقَدُ بِهَا الْمَسَرَّةُ ، وَمَا أَحْسَبُهَا — إِنْ شَاءَ اللهُ — تُظَاهِرُ بِذَمِيمِ الْعُقُوقِ ، وَلَا تُغْفِلُ الْمُفْتَرَضَ مِنَ الْحُقُوقِ . وَ « وَحْشِيَّةٌ[٥] » يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْخُ جَعَلَهَا نَائِبَةً عَمَّنْ فَقَدَهُ مِنَ الْإِخْوَانِ ، الَّذِينَ عُدِمَ نَظِيرُهُمْ فِي الْأَوَانِ . وَكَذَلِكَ تَجْرِي أَمْثَالُ الْعَرَبِ ، يَكْنُونَ فِيهَا بِالإِسْمِ عَنْ جَمِيعِ الْأَسْمَاءِ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُ :

فَلَا تَشْلَلْ يَدٌ فَتَكَتْ بِعَمْرٍو ... فَإِنَّكَ لَنْ تُذَلَّ وَلَنْ تُضَامَا

يَجُوزُ أَنْ يَرَى الرَّجُلُ رَجُلًا قَدْ فَتَكَ بِمَنْ اسْمُهُ « حَسَّانٌ » أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ فَيَتَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ . فَيَكُونُ « عَمْرٌو » فِيهِ وَاقِعاً عَلَى جَمِيعِ مَنْ يَتَمَثَّلُ لَهُ بِهِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ الرَّاجِزِ : « أَوْرَدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمِلْ[٦] »

---

(١) هو الذى جاور ابن القارح فى المحمل ، وسرق منه الرحل الذى كانت فيه الرسالة

(٢) يعنى : هلا ترك الصحف مكتفياً بما سرقه من المتاع (٣) يدعو على اللص بأن تسقط آرابه من يديه ، وأن يضل فلا يهتدى بنور الفرقدين « وهما النجمان المعروفان »

(٤) أتى عظيمة (٥) هى التى تمثل بها ابن القارح فى الأبيات التى ذكرها فى رسالته وأولها :

إذا تركت «وحشية» النجد ؛ لم يكن ... لعينيك — مما تبكيان — طبيب

(٦) بعده : « ما هكذا يا سعد تورد الابل ! »

صَارَ ذَلِكَ مَثَلًا لِكُلِّ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَمْ يُحْكِمْهُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ لِمَنِ اسْمُهُ « خَالِدٌ » أَوْ « بَكْرٌ » أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنَ الْأَسْمَاءِ ، وَيَضَعُونَ فِي هَذَا الْبَابِ الْمُؤَنَّثَ مَوْضِعَ الْمُذَكَّرِ ، وَالْمُذَكَّرَ مَوْضِعَ الْمُؤَنَّثِ ، فَيَقُولُونَ لِلرَّجُلِ : « الصَّيْفَ ضَيَّعتِ اللَّبَنَ » وَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يُخْبِرُوا بِأَنَّ الْمَرْأَةَ كَانَتْ تَفعَلُ الْخَيْرَ ثُمَّ هَلَكَتْ ، فَانْقَطَعَ مَا كَانَتْ تَفْعَلُهُ ، جَازَ أَنْ يَقُولُوا : « ذَهَبَ الْخَيْرُ مَعَ عَمْرِو بْنِ حُمَمَةَ » وَهَذَا كَثِيرٌ .

شَكَاةُ الأدباء

وَأَمَّا شَكْوَاهُ إِلَيَّ ، فَإِنِّي وَإِيَّاهُ لَكَمَا قِيلَ فِي الْمَثَلِ : « الثَّكْلَى تُعِينُ الثَّكْلَى » وَعَلَى ذَلِكَ حَمَلَ الْأَصْمَعِيُّ قَوْلَ أَبِي دُؤَادٍ :

وَيُصِيخُ أَحْيَانًا كَمَا اسْـ ... تَمَعَ الْمُضِلُّ دُعَاءَ نَاشِدْ[1]

كِلَانَا بِحَمْدِ اللهِ مُضِلٌّ ، فَعَلَى مَنْ نَحْمِلُ وَعَلَى مَنْ نُدِلُّ ؟ أَمَّا الْمَطِيَّةُ فَآلِيَةٌ[2] ، وَأَمَّا الْمَزَادَةُ فَخَالِيَةٌ !

يَشْكُو إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى ... صَبْرٌ جَمِيلٌ ، فَكِلَانَا مُبْتَلَى

وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّهُ يَحْفَظُ قَوْلَ الْفَزَارِيِّ[3] :

---

(١) الناشد : الطالب ، وهو هنا الباحث عمن ضلّ (٢) مقصّرة بطيئة

(٣) مالك بن اسماء الفزارى

كان آباؤه سادة غطفان ، وحكاية البيتين أن أخاه « عيينة بن أسماء » هوى جارية لأخته « هند بنت أسماء » فاستعان بأخيه « مالك » على أخته ، فقال مالك هذين البيتين . ومن مختار شعره قوله من قصيدة مشهورة :

أَعُيَيْنَ هَلاَّ — إِذْ بُليتَ بحبها كُنْتَ اسْتَعَنْتَ بِفَارِغِ الْعَقْلِ
أَقْبَلْتَ تَبْغِي الْغَوْثَ مِنْ رَجُلٍ وَالْمُسْتَغَاثُ إِلَيْـهِ فِي شُغْلِ ؟

وَلَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْأَدَبِ يَشْكُونَ الْغِيَرَ فِي كُلِّ جِيلٍ ، وَهُوَ يَعْرِفُ الْحِكَايَةَ أَنَّ مَسْلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَوْصَى لِأَهْلِ الْأَدَبِ بِجُزْءٍ مِنْ مَالِهِ ، وَقَالَ: « إِنَّهُمْ أَهْلُ صِنَاعَةٍ مَجْفُوَّةٍ » وَأَحْسَبُ أَنَّهُمْ وَالْحِرْفَةَ خُلِقَا تَوْءَمَيْنِ ، وَإِنَّمَا يَنْجَحُ بَعْضُهُمْ ، ثُمَّ لاَ يَلْبَثُ أَنْ تَزِلَّ قَدَمُهُ . وَإِذَا كَانَ الْأَدَبُ عَلَى عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةَ يُقْصَدُ أَهْلُهُ بِالْجَفْوَةِ ، فَكَيْفَ يَسْلَمُونَ مِنْ بَاسٍ ، عِنْدَ مَمْلَكَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ ؟ وَإِذَا أَصَابَتْهُمُ الْمِحَنُ فِي أَيَّامِ الرَّشِيدِ ، فَكَيْفَ يُطْمَعُ لَهُمْ بِالْحَظِّ الْمَشِيدِ ؟ وَمَنْ بَغَى التَّكَسُّبَ بِهَذَا الْفَنِّ ، فَقَدْ أَوْدَعَ شَرَابَهُ فِي شَنٍّ[1] ، غَيْرِ ثِقَةٍ عَلَى الْوَدِيعَةِ ، بَلْ هِيَ مِنْهُ فِي صَاحِبِ خَدِيعَةٍ ! . . .

*
* *

وَأَمَّا الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ مِنَ الْمُصَحِّفِينَ ، فَغَيْرُ الْبَرَرَةِ وَلاَ الْمُنْصِفِينَ ، وَمَا زَالَ التَّتْفُلُ[2] يَعْرِضُ لِأَذَاةِ الْأَسَدِ ، وَمَا أَحْسَبُهُ يَشْعُرُ بِمَكَانِ الْحَسَدِ .

مَا يَضُرُّ الْبَحْرَ أَمْسَى زَاخِراً أَنْ رَمَى فِيـهِ غُلاَمٌ بِحَجَرْ

وحديث ألذه ، هو مما يشتهى السامعون ، يوزن وزنا
منطق عاقل ، وتلحن أحيا نا ، وأحلى الحديث ما كان لحنا

. . . .

حبذا يومنا « بتل بؤد » إذ نُسَقَّى شرابنا ونغنَّى
أينما دارت الزجاجة درنا يحسب الجاهلون أنا جننا
ومررنا بنسوة عاطرات وسماع . وقرقف ، فنزلنا

(١) الشن : القربة الخلق الصغيرة (٢) الثعلب

أَوَ كُلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ أَرُوعُهُ ؟ إِنَّ الذُّبَابَ — إِذَنْ — عَلَيَّ كَرِيمُ!

وَإِنَّ حُسَّادَ البَارِعِ لَكَمَا قَالَ الفَرَزْدَقُ :

فَإِنْ تَهْجُ آلَ الزِّبْرِقَانِ ، فَإِنَّمَا هَجَوْتَ الطِّوَالَ الشُّمَّ مِنْ آلِ يَذْبُلِ
وَقَدْ نَبَحَ الْكَلْبُ النُّجُومَ ، وَدُونَهَا فَرَاسِخُ تُقْصِي نَاظِرَ الْمُتَأَمِّلِ

أبو الطيب المتنبي[1]

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ : « أُذُمٌّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ » فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مُولَعاً بِالتَّصْغِيرِ ، لاَ يَقْنَعُ مِنْهُ بِخُلْسَةِ الْمُغِيرِ ، كَقَوْلِهِ :

مَنْ لِي بِفَهْمِ أُهَيْلِ عَصْرٍ يَدَّعِي أَنْ يَحْسُبَ الْهِنْدِيَّ فِيهِمْ بَاقِلُ

وَقَوْلِهِ : « مَقَالِي لِلأُحَيْمِقِ يَا حَلِيمُ »

وَقَوْلِهِ : « وَنَامَ الْخُوَيْدِمُ عَنْ لَيْلِنَا »

وَقَوْلِهِ : « أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ »

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَوْجُودٌ فِي دِيوَانِهِ ، وَلاَ مَلاَمَةَ عَلَيْهِ ، إِنَّمَا هِيَ عَادَةٌ صَارَتْ كَالطَّبْعِ ، تُغْتَفَرُ مَعَ الْمَحَاسِنِ وَهَذَا الْبَيْتُ الَّذِي أَوَّلُهُ : « أُذُمٌّ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ » إِنَّمَا قَالَهُ فِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ سَيَّارٍ بِإِنْطَاكِيَةَ قَبْلَ أَنْ يَمْدَحَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ . وَالشُّعَرَاءُ مُطْلَقٌ لَهُمْ ذَلِكَ ، لِأَنَّ الآيَةَ شَهِدَتْ عَلَيْهِمْ بِالتَّخَرُّصِ وَقَوْلِ الأَبَاطِيلِ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ؟ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ[2] ؟ »

---

(١) ارجع الى (جـ ٢ ص ١٣) (٢) أثار هذا الفصل بعد أن ظهرت الطبعتان الأولى والثانية من هذه الرسالة كثيراً من بحوث النقاد والأدباء ، وحفز جمهوراً منهم إلى الإفاضة فى درس المتنبي دراسات واسعة ألقي بعضها فى مهرجانه الألفي ، وأودع الكثير منها نخبة صالحة من الكتب التى ظهرت حديثاً .

حكاية القطربلى وابن أبى الأزهر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ حِكَايَةِ القُطْرُبُلِّيِّ وَابْنِ أَبِي الأَزْهَرِ ، فَقَدْ يَجُوزُ مِثْلُهُ ، وَمَا وَضَحَ أَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ حُبِسَ بِالعِرَاقِ ، فَأَمَّا بِالشَّامِ فَحَبْسُهُ مَشْهورٌ ، وَحُدِّثْتُ أَنَّهُ كَانَ — إِذَا سُئِلَ عَنَ حَقِيقَةِ هَـذَا اللَّقَبِ — قَالَ : « هُوَ مِنَ النَّبْوَةِ » أي الْمُرْتَفِعِ مِنَ الأَرْضِ ، وَكَانَ قَدْ طَمِعَ فِي شَيْءٍ قَدْ طَمِعَ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَقَادِيرُ ، يَظْفَرُ بِهَا مَنْ وُفِّقَ ، وَلَا يُرَاعُ بِالْمُجْتَهِدِ أَنْ يُخْفِقَ ، وَقَدْ دَلَّتْ أَشْيَاءُ فِي دِيوَانِهِ أَنَّهُ كَانَ مُتَأَلِّهًا . فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

« وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْماً »

وَقَوْلُهُ :

«مَا أَقْدَرَ اللهَ أَنْ يُخْزِي بَرِيَّتَـهُ وَلَا يُصَدِّقَ قَوْماً فِي الَّذِي زَعَمُوا»

***

وَإِذَا رُجِعَ إِلَى الْحَقَائِقِ ، فَنُطْقُ اللِّسَانِ ، لَا يُنْبِئُ عَنِ اعْتِقَادِ الإِنْسَانِ ، لِأَنَّ الْعَالَمَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكَذِبِ وَالنِّفَاقِ[1] ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُظْهِرَ الرَّجُلُ بِالْقَوْلِ تَدَيُّنًا ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُ ذَلِكَ تَزَيُّنًا ، يُرِيدُ أَنْ يَصِلَ بِهِ إِلَى ثَنَاءٍ ، أَوْ غَرَضٍ مِنْ أَغْرَاضِ أُمِّ الفَنَاءِ[2] ، وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ هُمْ فِي الظَّاهِرِ مُتَعَبِّدُونَ ، وَفِيمَا بَطَنَ مُلْحِدُونَ

---

(١) وفى ذلك يقول أبو العلاء فى لزومياته :

أمسى النفاق دروعاً يستجن بها من الأذى ، ويقوى سردها الحلف

(٢) شنع أبو العلاء فى كثير من أبيات لزومياته على هذه الفئة التى تتخذ الدين دائماً وسيلة لنيل أغراض الدنيا ، ونجتزئ من ذلك بقوله :

إذا كشفتَ عن الرهبان حالهمُ فكلهم يتوخى التبر والورِقا

دعبل بن علي[1]

وَمَا يَلْحَقُنِي الشَّكُّ فِي أَنَّ دِعْبِلَ بْنَ عَلِيٍّ لَمْ يَكُنْ لَه دِينٌ ، وَكَانَ يَتَظَاهَرُ بِالتَّشَيُّعِ ، وَإِنَّمَا غَرَضُهُ التَّكَسُّبُ ، وَلَا أَرْتَابُ فِي أَنَّ « دِعْبِلًا » كَانَ عَلَى رَأْيِ الْحَكَمِيِّ[2] وَطَبَقَتِهِ ، وَالزَّنْدَقَةُ فِيهِمْ فَاشِيَةٌ ، وَمِنْ دِيَارِهِمْ نَاشِيَةٌ

أبو نواس

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي أَبِي نُوَاسٍ ، ادُّعِيَ لَهُ التَّأَلُّهُ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقْضِي صَلَوَاتِ نَهَارِهِ فِي لَيْلِهِ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ .

مذاهب جعلوها من معائشهم ، من يعمل الفكر فيها تعطه الأرقا

وقوله :

وإنما حمل التوراة قارئها كسب الفوائد ، لاحب التلاوات

وقوله :

كذب لا يزال يطعم خبزا نص عن آدم وعن قابيل

يمتريه جذلانُ مهتبل الغـرّة يبدى حزنا على هابيل

وقوله :

وليس حبر يبدع فى صحابته إن رام نفعاً بأقوال تقولها

وإنما رام نسوانا تزوجها — بما افتراه — وأموالاً تمولها

(١) هو « دعبل » الشاعر المشهور بالهجاء ، وهو الذى يقول فيه أبو العلاء فى لزومياته :

لو نطق الدهر هجا أهله كأنه « الرومى » أو « دعبل »

(٢) هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى (جـ ٢ ص ١٠)

سذاجة العرب

وَذَلِكَ أَنَّ الْعَرَبَ جَاءَهَا النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَهِيَ تَرْغَبُ إِلَى الْقَصِيدِ، وَتَقْصُرُ هِمَمُهَا عَنِ الْقَصِيدِ، فَاتَّبَعَهُ مِنْهَا مُتَّبِعُونَ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ. فَلَمَّا ضَرَبَ الْإِسْلَامُ بِجِرَانِهِ، وَاتَّسَقَ مُلْكُهُ، مَازَجَ الْعَرَبُ غَيْرَهُمْ مِنَ الطَّوَائِفِ، وَسَمِعُوا كَلَامَ الْأَطِبَّاءِ وَأَصْحَابِ الْهَيْئَةِ وَأَهْلِ الْمَنْطِقِ، فَمَالَتْ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ.

رسالة آدم

وَلَمْ يَزَلِ الْإِلْحَادُ فِي بَنِي آدَمَ عَلَى مَمَرِّ الدُّهُورِ، حَتَّى إِنَّ أَصْحَابَ السِّيَرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ آدَمَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بُعِثَ إِلَى أَوْلَادِهِ، فَأَنْذَرَهُمْ بِالْآخِرَةِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ، فَكَذَّبُوهُ، وَرَدُّوا قَوْلَهُ، ثُمَّ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْهَاجِ إِلَى الْيَوْمِ.

زندقة قريش

وَبَعْضُ الْعُلَمَاءِ يَقُولُ: «إِنَّ سَادَاتِ قُرَيْشٍ كَانُوا زَنَادِقَةً» وَمَا أَجْدَرَهُمْ بِذَلِكَ. وَقَالَ شَاعِرُهُمْ يَرْثِي قَتْلَى بَدْرٍ — وَتُرْوَى لِشَدَّادِ بْنِ الْأَسْوَدِ اللَّيْثِيِّ: —

أَلَمَّتْ بِالتَّحِيَّةِ أُمُّ بَكْرٍ … فَحَيُّوا أُمَّ بَكْرٍ بِالسَّلَامِ

وَكَائِنْ بِالطَّوِيِّ طَوِيِّ بَدْرٍ … مِنَ الْأَحْسَابِ وَالْقَوْمِ الْكِرَامِ

أَلَا يَا أُمَّ بَكْرٍ لَا تُكَرِّي … عَلَيَّ الْكَاسَ — بَعْدَ أَخِي هِشَامِ

وَبَعْدَ أَخِي أَبِيهِ — وَكَانَ قَرْمًا[1] مِنَ الْاقْرَامِ شُرَّابِ الْمُدَامِ

أَلَا مَنْ مُبْلِغُ الرَّحْمَٰنِ عَنِّي بِأَنِّي تَارِكٌ شَهْرَ الصِّيَامِ

إِذَا مَا الرَّأْسُ زَايَلَ مَنْكِبَيْهِ فَقَدْ شَبِعَ الْأَنِيسُ مِنَ الطَّعَامِ

أَيُوعِدُنَا «ابْنُ كَبْشَةَ[2]» أَنْ سَنَحْيَا، وَكَيْفَ حَيَاةُ أَصْدَاءٍ[3] وَهَامِ ؟

أَتَتْرُكُ أَنْ تَرُدَّ الْمَوْتَ عَنِّي وَتُحْيِينِي إِذَا بَلِيَتْ عِظَامِي ؟

وَلَا يَدَّعِي مِثْلَ هَذِهِ الدَّعَاوَى إِلَّا مَنْ يَسْتَبْسِلُ وَرَاءَهَا لِلْحِمَامِ ، وَلَا يَأْسَفُ لَهُ عِنْدَ إِلْمَامٍ .

عودة إلى أبي الطيب المتنبي

وَحُدِّثْتُ أَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ ، لَمَّا حَصَلَ فِي بَنِي عَدِيٍّ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَخْرُجَ فِيهِمْ ، قَالُوا لَهُ — وَقَدْ تَبَيَّنُوا دَعْوَاهُ — : «هَا هُنَا نَاقَةٌ صَعْبَةٌ، فَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى رُكُوبِهَا أَقْرَرْنَا أَنَّكَ مُرْسَلٌ » وَأَنَّهُ مَضَى إِلَى تِلْكَ النَّاقَةِ وَهِيَ رَائِحَةٌ فِي الْإِبِلِ ، فَتَحَيَّلَ حَتَّى وَثَبَ عَلَى ظَهْرِهَا ، فَنَفَرَتْ سَاعَةً ، وَتَنَكَّرَتْ بُرْهَةً ، ثُمَّ سَكَنَ نِفَارُهَا ، وَمَشَتْ مَشْيَ الْمُسْمِحَةِ[4] ، وَأَنَّهُ وَرَدَ بِهَا الْحِلَّةَ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَيْهَا ، فَعَجِبُوا لَهُ كُلَّ الْعَجَبِ ، وَصَارَ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِهِ عِنْدَهُمْ .

---

(١) سيداً عظيماً (٢) يعنى به النبى صلى الله عليه وسلم و « أبو كبشة » جاهلى كان يعبد الشعرى اليمانية ، وترك دين آبائه ، وهجر عبادة الأصنام ، فاستعادت الجاهلية هذا اللقب للنبى لمخالفته لهم وعزوفه عن عبادة أصنامهم ، ودعوته إياهم إلى الإسلام .

(٣) جثث هامدة (٤) التى تلين بعد استصعاب

وَحُدِّثْتُ أَيْضًا أَنَّهُ كَانَ فِي دِيوَانِ اللَّاذِقِيَّةِ ، وَأَنَّ بَعْضَ الْكُتَّابِ انْقَلَبَتْ عَلَى يَدِهِ سِكِّينُ الْأَقْلَامِ ، فَجَرَحَتْهُ جُرْحًا مُفْرِطًا ، وَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ تَفَلَ عَلَيْهَا مِنْ رِيقِهِ ، وَشَدَّ عَلَيْهَا غَيْرَ مُنْتَظِرٍ لِوَقْتِهِ ، وَقَالَ لِلْمَجْرُوحِ : « لَا تَحُلَّهَا فِي يَوْمِكَ » — وَعَدَّ لَهُ أَيَّامًا وَلَيَالِيَ — وَأَنَّ ذَلِكَ الْكَاتِبَ قَبِلَ مِنْهُ ، فَبَرِئَ الْجُرْحُ ، فَصَارُوا يَعْتَقِدُونَ فِي أَبِي الطَّيِّبِ أَعْظَمَ اعْتِقَادٍ ، وَيَقُولُونَ : « هُوَ كَمُحْيِي الْأَمْوَاتِ ! »

وَحَدَّثَ رَجُلٌ كَانَ أَبُو الطَّيِّبِ قَدِ اسْتَخْفَى عِنْدَهُ فِي اللَّاذِقِيَّةِ — أَوْ فِي غَيْرِهَا مِنَ السَّوَاحِلِ — : أَنَّهُ أَرَادَ الِانْتِقَالَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ ، فَخَرَجَ بِاللَّيْلِ وَمَعَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، وَلَقِيَهُمَا كَلْبٌ أَلَحَّ عَلَيْهِمَا فِي النُّبَاحِ ، ثُمَّ انْصَرَفَ ؛ فَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ لِذَلِكَ الرَّجُلِ وَهُوَ عَائِدٌ: « إِنَّكَ سَتَجِدُ ذَلِكَ الْكَلْبَ قَدْ مَاتَ » فَلَمَّا عَادَ الرَّجُلُ ، أَلْفَى الْأَمْرَ عَلَى مَا ذَكَرَ

وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ أَعَدَّ لَهُ شَيْئًا مِنَ الْمَطَاعِمِ مَسْمُومًا ، وَأَلْقَاهُ لَهُ ، وَهُوَ يُخْفِي عَنْ صَاحِبِهِ مَا فَعَلَ .

اختلاف الخواطر

وَأَمَّا الْقُطْرُبُلِّيُّ وَابْنُ أَبِي الْأَزْهَرِ ، فَمِنَ الزَّوْلِ[١] اجْتِمَاعُهُمَا عَلَى تَأْلِيفِ كِتَابٍ ، وَقَلَّمَا يُعْرَفُ مِثْلُ ذَلِكَ .

وَنَحْوٌ مِنْهُ قِصَّةُ « الْخَالِدِيَّيْنِ » اللَّذَيْنِ كَانَا فِي الْمَوْصِلِ ، وَهُمَا شَاعِرَانِ ، وَقَدْ كَانَا عِنْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَانْصَرَفَا عَلَى حَدِّ مُغَاضَبَةٍ ، وَلَهُمَا دِيوَانٌ

---

(١) العجب

يُنْسَبُ إِلَيْهِمَا ، لاَ يَنْفَرِدُ فِيهِ أَحَدُهُمَا بِشَيْءٍ دُونَ الآخَرِ إِلاَّ فِي أَشْيَاءَ قَلِيلَةٍ ، وَهَذَا مُتَعَذِّرٌ فِي وَلَدِ آدَمَ ، إِذْ كَانَتِ الْجِبِلَّةُ عَلَى الْخِلاَفِ وَقِلَّةِ الْمُوَافَقَةِ ، فَأَمَّا أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ شَيْئاً مِنْ كِتَابٍ ثُمَّ يُتِمَّهُ الآخَرُ ؛ فَهُوَ أَسْوَغُ فِي الْمَعْقُولِ مِنْ أَنْ يَجْتَمِعَ عَلَيْهِ الرَّجُلاَنِ

*
* *

وَالَّذِينَ رَوَوْا دِيوَانَ أَبِي الطَّيِّبِ ، يَحْكُونَ أَنَّهُ وُلِدَ سَنَةَ ثَلاَثِمِائَةٍ وَثَلاَثٍ ، وَكَانَ طُلُوعُهُ إِلَى الشَّامِ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ[١] ، فَأَقَامَ فِيهِ بُرْهَةً ثُمَّ عَادَ إِلَى الْعِرَاقِ ، وَلَمْ تَطُلْ مُدَّتُهُ هُنَاكَ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ أَنَّ مَدَائِحَهُ فِي صِبَاهُ إِنَّمَا هِيَ فِي أَهْلِ الشَّامِ ، إِلاَّ قَوْلَهُ :

« كُفِّي ، أَرَانِي — وَيْكِ — لَوْمَكِ أَلْوَمَا[٢] »

الدهـــر[٣]

وَأَمَّا شَكِيَّتُهُ أَهْلَ الزَّمَانِ إِلَيْهِ ، فَإِنَّهُ سَلَكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَاجَ الْمُتَقَدِّمِينَ

---

(١) المراد أنه طلع إلى الشام حين كانت سنه إحدى وعشرين (٢) تتمة البيت قوله : « هم أقام على فؤاد فأنجما » . ومن أجمل ما فى هذه القصيدة قوله :

وخفوق قلب — لو رأيت لهيبه يا جنتى ! لظننت فيه جهنما
و إذا سحابة صد حب أبرقت تركت حلاوة كل حب علقما
يا وجه داهية الذى لولاك ما أكل الضنى جسمى ورض الأعظما
إن كان أغناها السلو ، فاننى أمسيت من كبدى ومنها معدما

(٣) الدهر

أشعار أبى العلاء فى الدهر كثيرة تملأ عدة صفحات من لزومياته ، فلنجتزئ هنا

وَقَدْ كَثُرَ الْمَقَالُ فِي ذَمِّ الدَّهْرِ حَتَّى جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: « لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللّٰهَ

بالقليل منها عن الكثير، لإظهار مناحى رأيه المتعددة فى الدهر، وإنما نسردها بلا تعليق رغبة فى الايجاز، وهى قوله:

إن رابنا الدهر بأفعاله فكلنا بالدهر مرتاب

وقوله:

إذا قيل: « غال الدهر شيئاً » فانما يراد « الهٓ الدهر » والدهر خادم

وقوله:

ولا عقل للدهر — فيما أرى — فكيف يعاتب إن أذنبا ؟

وقوله:

فلو تكلم دهر كان شاكيهم كما تراهم على الإحسان يشكونه

وقوله:

صحبنا دهرنا دهراً، وقدما رأى الفضلاء ألا يصحبوه

وغِيظ بنوه منه، وغيظ منهم فعذب ساكنيه وعذبوه

ومن عاداته فى كل جيل غذاه أن يقل مهذبوه

أساء بجهله أدبا عليهم فهل من حيلة فيؤدبوه

وما يخشى الوعيد فيوعدوه ولا يرعى العتاب فيعتبوه

وقوله:

إن خرف الدهر فهو شيخ يحق بالهتر والزمانه

أضحى سليما بغير داء لم تبد فى شخصه ضمانه

أعجم قد بين الرزايا أو جعل الشر ترجمانه

وقوله:

ويا دهر لحاك اللـــه ما هنأت فرحانك!

وقوله:

حلف الدهر جاهدا وهو بر — إذا حلف

ليبتن كل عقد إذا نظمه ائتلف

هُوَ الدَّهْرُ ، وَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى هَذَا الْكَلاَمِ ، وَأَنَّ بَاطِنَهُ لَيْسَ كَظَاهِرِهِ ، إِذْ كَانَ الْأَنْبِيَاءِ — عَلَيْهِمُ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ — لَمْ يَذْهَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى أَنَّ الدَّهْرَ هُوَ الْخَالِقُ وَلاَ الْمَعْبُودُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ »

*
* *

وَقَوْلُ بَعْضِ النَّاسِ : « الزَّمَانُ حَرَكَةُ الْفَلَكِ » لَفْظٌ لاَ حَقِيقَةَ لَهُ ، وَفِي كِتَابِ « سِيبَوَيْهِ » مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الزَّمَانَ عِنْدَهُ مُضِيُّ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ . وَقَدْ حَدَدْتُهُ حَدًّا — مَا أَجْدَرَهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ سُبِقَ إِلَيْهِ — إِلاَّ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ — وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : « الزَّمَانُ شَيْءٌ أَقَلُّ جُزْءٍ مِنْهُ يَشْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْمُدْرَكَاتِ » وَهُوَ فِي ذَلِكَ ضِدُّ الْمَكَانِ ، لِأَنَّ أَقَلَّ جُزْءٍ مِنْهُ لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَى شَيْءٍ ، كَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الظُّرُوفُ ، فَأَمَّا الْكَوْنُ فَلاَ بُدَّ مِنْ تَشَبُّثِهِ بِمَا قَلَّ وَكَثُرَ (١)

---

(١) الزمان

هذا التعريف — هو فى اعتقادنا أدق تعريف فلسفى صحيح عرفناه للزمن ، وقد ذكره أبو العلاء فى لزومياته فقال : « وأيسر كون تحته كل عالم »

ومضى فى فكرته فى عجز هذا البيت فبيّن سرعة الزمان ، فقال : « ولا تدرك الأكوان جرد صلادم » ثم قسم الأزمان فى البيتين التاليين من هـذه القصيدة إلى ماض اندثر فاستحالت عودته ؛ ومستقبل آت سيندثر بعد حين ، فقال :

إذا هى مرت لم تعد ، ووراءها نظائر ، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها ـ بعد ما غاب ـ غائب ولا يعدم الحين المجـدد عادم

وقد ذكر شطر هذا الرأى فى « سقط الزند » فقال :

أمس الذى مر ـ على قربه ـ يعجز أهل الأرض عن رده

وَالَّذِينَ قَالُوا : « وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ » وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَالِ ، مِثْلَ الْبَيْتِ الْمَنْسُوبِ إِلَى الأَخْطَلِ — وَذَكَرَهُ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ لِشَمْعَلَةَ التَّغْلَبِيِّ) وهُوَ :

فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَفِعْلَهُ   لَكَالدَّهْرِ — لَا عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهْرُ

وَقَوْلِ الآخَرِ :

الدَّهْرُ لَاءَمَ بَيْنَ أُلْفَتِنَا   وَكَذَاكَ فَرَّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ

وَقَوْلِ أَبِي صَخْرٍ :

وذكر العجز منه فى بيته الآخر وهو قوله :

أرى الوقت يفنى أنفسا بفنائه   ويمحو، فما يبقى الحديث ولا الرسم

وهذا الرأى ، لا يناقض قوله فى الدليل على قدم الزمن :

أرى زمنا تقادم غير فان   فسبحان المهيمن ذى الكمال

***

و بين أن القادم من الزمان « المستقبل » مجهول لا يعرف إلا بعد مرور الزمن الذى يكشف الغطاء عن أسراره ، فقال :

الساع آنية الحوادث ، ما حوت   لم يبد إلا بعد كشف غطائها

وقد ذكر هذا المعنى « پوب » الشاعر الانجليزى ، بصيغة أخرى ، وترجمه الاستاذ العقاد ، وهو :

إنما الغيب كتاب صانه   عن عيون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى   صفحة الحاضر — حينا بعد حين

***

وكثيراً ما شبه أبو العلاء الزمان بالطائر . فمن ذلك قوله :

وما الوقت إلا طائر يقطع المدى   فبادره — إذ كل النهى فى بداره

وقوله :

يبغى التشبث بالأوقات جائزها   هيهات ! ما الوقت إلا طائر طارا

عَجِبْتُ لِسَعْيِ الدَّهْرِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا فَلَمَّا انْقَضَى مَا بَيْنَنَا سَكَنَ الدَّهْرُ

لَمْ يَدَّعِ أَنَّ أَحَداً مِنْهُمْ كَانَ يُقَرِّبُ لِلْأَفْلَاكِ الْقَرَابِينَ ، وَلَا يَزْعُمُ أَنَّهَا تَعْقِلُ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ شَيْءٌ يَتَوَارَثُهُ الْأُمَمُ فِي زَمَانٍ بَعْدَ زَمَانٍ .

شاتم الدهر

وَكَانَ فِي عَبْدِ الْقَيْسِ شَاعِرٌ يُقَالُ لَهُ « شَاتِمُ الدَّهْرِ » وَهُوَ الْقَائِلُ :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الدَّهْرَ وَعْراً سَبِيلُهُ وَأَبْدَى لَنَا وَجْهاً أَزَبَّ مُجَدَّعَا

وَجَبْهَةَ قِرْدٍ – كَالشِّرَاكِ – ضَئِيلَةً وَأَنْفاً ، وَلَوَّى بِالْعَثَانِينِ أَخْدَعَا

ذَكَرْتُ الْكِرَامَ الذَّاهِبِينَ أُولِي النَّدَى وَقُلْتُ لِعَمْرٍو وَالْحُسَامِ : « أَلَا دَعَا ! »

الزندقة والزنادقة

وَأَمَّا غَيْظُهُ عَلَى الزَّنَادِقَةِ وَالْمُلْحِدِينَ ، فَأَجَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، كَمَا أَجَرَهُ عَلَى الظَّمَإِ فِي طَرِيقِ مَكَّةَ ، واصْطِلَاءِ الشَّمْسِ بِعَرَفَةَ ، وَمَبِيتِهِ بِالْمُزْدَلِفَةِ .

وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ ابْتَهَلَ إِلَى اللهِ – سُبْحَانَهُ – فِي الْأَيَّامِ الْمَعْدُودَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ ، أَنْ يُثَبِّتَ هِضَابَ الْإِسْلَامِ .

وَلَكِنَّ الزَّنْدَقَةَ دَاءٌ قَدِيمٌ ، وَقَدْ رَأَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا ظَهَرَتْ زَنْدَقَتُهُ ، ثُمَّ تَابَ فَزَعًا مِنَ الْقَتْلِ ، لَمْ تُقْبَلْ تَوْبَتُهُ . وَلَيْسَ كَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ؛ لِأَنَّ الْمُرْتَدَّ إِذَا رَجَعَ ، قُبِلَ مِنْهُ الرُّجُوعُ ، وَلَا مِلَّةَ إِلَّا وَلَهَا قَوْمٌ مُلْحِدُونَ !

وَقَدْ كَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ تَقْتُلُ عَلَى الزَّنْدَقَةِ ، وَالزَّنَادِقَةُ هُمُ الَّذِينَ يُسَمَّوْنَ « الدَّهْرِيَّةَ » وَلَا يَقُولُونَ بِنُبُوَّةٍ وَلَا كِتَابٍ .

بشار بن برد[1]

وَ « بَشَّارٌ » إِنَّمَا أَخَذَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِهِ ، وَقَدْ رُوِى : إِنَّهُ وُجِدَ فِى كُتُبِهِ رُقْعَةٌ مَكْتُوبٌ فِيهَا : « إِنِّى أَرَدْتُ أَنْ أَهْجُوَ « فَلَانَ بْنَ فُلَانٍ الْهَاشِمِىَّ » فَصَفَحْتُ عَنْهُ لِقَرَابَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . »

وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يُشَارُّ « سِيبَوَيْهِ » وَأَنَّهُ حَضَرَ يَوْماً حَلْقَةَ يُونُسَ بْنَ حَبِيبٍ ، فَقَالَ : « هَلْ هُنَا مَنْ يَرْفَعُ خَبَراً ؟ » فَقَالُوا : « لَا » فَأَنْشَدَهُمْ :

« بَنِى أُمَيَّةَ هُبُّوا مِنْ رُقَادِكُمُ ... إِنَّ الْخَلِيفَةَ يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدِ
لَيْسَ الْخَلِيفَةُ بِالْمَوْجُودِ ، فَالْتَمِسُوا ... خَلِيفَةَ اللهِ بَيْنَ النَّاىِ وَالْعُودِ[2] »

وَكَانَ فِى الْحَلْقَةِ سِيبَوَيْهِ[3] فَيَدَّعِى بَعْضُ النَّاسِ أَنَّهُ وَشَى بِهِ ، وَسِيبَوَيْهِ — فِيمَا أَحْسَبُ — كَانَ أَجَلَّ مَوْضِعاً مِنْ أَنْ يَدْخُلَ فِى هَذِهِ الدَّنِيَّاتِ ، بَلْ يَعْمِدُ لِأُمُورٍ سَنِيَّاتٍ .

* * *

وَحُكِىَ عَنْهُ أَنَّهُ عَابَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ :

« عَلَى « الْغَزَلَى » مِنِّى السَّلَامُ ، فَطَالَمَا ... لَهَوْتُ بِهَا فِى ظِلِّ مُخْضَرَّةٍ زُهْرِ »

فَقَالَ « سِيبَوَيْهِ » : (لَمْ تَسْتَعْمِلِ الْعَرَبُ « الْغَزَلَى ! »)

فَقَالَ بَشَّارٌ : « هَذَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ « الْبَشَكَى » وَ « الْجَمَزَى » وَنَحْوِ ذَلِكَ »

وَجَاءَ « بَشَّارٌ » فِى شِعْرِهِ بِالنِّينَانِ[4] ، فَيُقَالُ إِنَّهُ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ ، وَهَذِهِ

---

(١) ارجع الى ترجمته فى (ج ٢ . ص ١٣٨) من هــذا الكتاب (٢) يروى : « ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا . . . » (٣) ارجع الى ترجمته فى (ج ٢ . ص ٢٠) (٤) جمع نون ، وهو « الحوت » .

أَخْبَارٌ لاَ تَثْبُتُ . وَفِيمَا رُوِىَ فِى كِتَابِ « سِيبَوَيْهِ » أَنَّ « النُّونَ » تُجْمَعُ عَلَى « نِينَانٍ[١] » فَهَذَا نَقْضٌ لِلْخَبَرِ .

*
* *

وَذَكَرَ مَنْ نَقَلَ أَخْبَارَ « بَشَّارٍ » أَنَّهُ تَوَعَّدَ « سِيبَوَيْهِ » بِالْهِجَاءِ، وَأَنَّهُ تَلاَفَاهُ وَاسْتَشْهَدَ بِشِعْرِهِ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ اسْتِشْهَادُهُ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا يَذْكُرُهُ الْمُتَذَاكِرُونَ فِى الْمَجَالِسِ وَمَجَامِعِ الْقَوْمِ . وَأَصْحَابُ « بَشَّارٍ » يَرْوُونَ لَهُ هَذَا الْبَيْتَ .

« وَمَا كُلُّ ذِى لُبٍّ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ   وَمَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ »

وَفِى كِتَابِ (سِيبَوَيْهِ) نِصْفُ هَذَا الْبَيْتِ الآخِرِ ، وَهُوَ فِى بَابِ الْإِدْغَامِ لَمْ يُسَمَّ قَائِلُهُ ، وَزَعَمَ غَيْرُهُ أَنَّهُ لِأَبِى الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِىِّ !

*
* *

وَيُقَالُ إِنَّ « يَعْقُوبَ بْنَ دَاوُدَ » وَزِيرَ الْمَهْدِىِّ ، تَحَامَلَ عَلَى بَشَّارٍ حَتَّى قُتِلَ . وَاخْتُلِفَ فِى سِنِّهِ ، فَقِيلَ كَانَ — يَوْمَئِذٍ — ابْنَ ثَمَانِينَ سَنَةً ، وَقِيلَ أَكْثَرَ ، وَاللهُ الْعَالِمُ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ .

وَلاَ أَحْكُمُ عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ مَا ذَكَرْتُ فِيمَا تَقَدَّمَ[٢] ، لِأَنِّى عَقَدْتُهُ بِمَشِيئَةِ اللهِ ، وَإِنَّ اللهَ لَحَلِيمٌ وَهَّابٌ !

*
* *

وَذَكَرَ صَاحِبُ كِتَابِ « الْوَرَقَةِ » جَمَاعَةً مِنَ الشُّعَرَاءِ فِى طَبَقَةِ أَبِى نُوَاسٍ وَمَنْ قَبْلَهُ ، وَوَصَفَهُمْ بِالزَّنْدَقَةِ . وَسَرَائِرُ النَّاسِ مُغَيَّبَةٌ ، وَإِنَّمَا يَعْلَمُ بِهَا عَلاَّمُ الْغُيُوبِ . وَكَانَتْ تِلْكَ الْحَالُ تُكْتَمُ فِى ذَلِكَ الزَّمَانِ خَوْفاً مِنَ السَّيْفِ ،

---

(١) وتجمع أيضاً على « أنوان »   (٢) تخيل أبو العلاء فى الجزء الثانى أن التوبة لم تلحق ببشار ، وأنه فى أصناف العذاب ، ارجع الى (ج ٢ ص ١٤٠)

فَالآنَ ظَهَرَ نَجِيثُ[١] الْقَوْمِ وَانْقَاضَتِ التَّرِيكَةُ[٢] عَنْ أَخْبَثِ رَأْلٍ[٣]

نادرة من نوادر الزنادقة

وَكَانَ فِى ذَلِكَ الْعَصْرِ رَجُلٌ لَهُ أَصْدِقَاءُ مِنَ الشِّيعَةِ، وَصَدِيقٌ زِنْدِيقٌ، فَدَعَا الْمُتَشَيِّعَةَ فِى بَعْضِ الأَيَّامِ، فَجَاءَ الزِّنْدِيقُ، فَقَرَعَ حَلْقَةَ الْبَابِ، وَقَالَ:

« أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلَابِلِ[٤] الصَّدْرِ   مُتَقَسَّمَ الأَشْجَانِ وَالْفِكْرِ »

فَقَالَ صَاحِبُ المنزل: (وَيْحَكَ! مِمَّ ذَا؟) فَتَرَكَهُ الزِّنْدِيقُ وَمَضَى.

فَلَقِيَهُ صَاحِبُ الْمَأْدُبَةِ، فَقَالَ لَهُ: « يَا هَذا! أَرَدْتَ أَنْ تُوقِعَنِى فِيمَا أَكْرَهُ! » خَوْفًا مِنْ أَنْ يَظُنَّ أَصْدِقَاؤُهُ أَنهُ زِنْدِيقٌ، فَقَالَ: « أَدْعُهُمْ ثَانِيَةً، وَأَعْلِمْنِى بِمَكَانِهِمْ » فَلَمَّا حَصَلُوا عِنْدَهُ، جَاءَ الزِّنْدِيقُ فَقَالَ:

« أَصْبَحْتُ جَمَّ بَلَابِلِ[٤] الصَّدْرِ   مُتَقَسَّمَ الأَشْجَانِ وَالْفِكْرِ »

فَقَالُوا: « وَيْحَكَ مِمَّ ذَا؟ » فقالَ: « مِمَّا جَنَاهُ عَلَى « أَبِى الْحَسَنِ[٥] »: « عُمَرُ » وَصاحِبُهُ « أَبو بَكْر » ! » فَفَرِحَ الشِّيعَةُ بِذَلِكَ. وَلَقِيَهُ صاحِبُ الْمَنْزِلِ، فقالَ: « جُزِيتَ عَنِّى خَيْرًا، فَقَدْ خَلَعْتَنِى مِنَ الشُّبْهَةِ! ».

نادرة أخرى

وَكَانَ يَجْلِسُ فِى مَجْلِسِ الْبَصْرَةِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ زِنْدِيقٌ، لَهُ سَيْفَانِ قَدْ سَمَّى أَحَدَهُمَا « الْخَيْرَ » وَالآخَرَ « الْفَلَحَ[٦] »

---

(١) أى بدا سرهم الذى كانوا يخفونه، ومن أمثالهم: بدا نجيث القوم، أى افتضح سرهم
(٢) انقاضت: انكسرت وانفضّت. والتريكة: بيضة النعام (٣) ولد النعام
(٤) وساوس (٥) يعنى على بن أبى طالب (٦) الفلح: الفوز بما يغتبط به

فإذا سَلَّمَ عَلَيهِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، قالَ : « صَبَّحَكَ الْخَيْرُ ، وَمَسَّاكَ الْفَلَحُ » ثُمَّ يَلتَفِتُ لِأَصْحَابِهِ الذينَ قَدْ عَرَفُوا مَكانَ السَّيْفَيْنِ ، فيقُولُ :

« سَيْفَانِ كَالْبَرْقِ إِذا الْبَرْقُ لَمَحْ ! » .

عودة إلى أبي نواس[1]

أَمَّا قَوْلُ الْحَكَمِيِّ[2] : « تِيهُ مُغَنٍّ وَظَرْفُ زِنْدِيق » فَقَدْ عِيبَ عَلَيهِ هَذا الْمَعْنَى ، وقيلَ إِنَّهُ أَرادَ رَجُلًا مِنْ بَنِي الْحَارِثِ كَانَ مَعْرُوفًا بِالزَّنْدَقَةِ وَالظَّرْفِ ، وكَانَ لهُ مَوْضِعٌ مِنَ السُّلْطَانِ .

صالح بن عبد القدوس

وَأَمَّا صالحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، فَقَدْ شُهِرَ بِالزَّنْدَقَةِ ، وَلَمْ يُقْتَلْ — ولله العلمُ — حَتَّى ظَهرَتْ عَنهُ مَقالَاتٌ توجِبُ ذَلكَ . وَيُرْوَى لِأَبِيهِ عَبْدِ الْقُدُّوسِ :

« كَمْ أَهْلَكَتْ مَكَّةُ مِنْ زَائِرٍ خَرَّبَهَا اللهُ وَأَبْيَاتَهَا
لَا رَزَقَ الرَّحْمٰنُ أَحْيَاءَهَا وَأَشْوَتِ[3] الرَّحْمَةُ أَمْوَاتَهَا »

وَلَقَدْ كَانَ لِصَالِحٍ وَلَدٌ ، حُبِسَ عَلَى الزَّنْدَقَةِ حَبْسًا طَوِيلًا ، وَهُوَ الَّذِى يُرْوَى لهُ :

خَرَجْنَا مِنَ الدُّنْيا ـ وَنَحْنُ مِنَ أَهْلِهَا ـ فَمَا نَحْنُ بِالْأَمْوَاتِ فيها وَلا الْأَحْيَا
إِذا مَا أَتَانَا زَائِرٌ مُتَفَقِّدٌ فَرِحْنَا، وَقُلْنَا : «جَاءَ هَذَا مِنَ الدُّنْيَا ! »

وَأَمَّا رُجُوعُهُ عَنِ الزَّنْدَقَةِ لَمَّا أَحَسَّ بِالْقَتْلِ ، فَإِنَّمَا ذَلكَ عَلَى سَبِيلِ الْخَتْلِ .

---

(١) ارجع الى (ج٢ص١٠، وكذلك ص٢١٩ من هذا الجزء) (٢) هو أبونواس (٣) أخطأت

فَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ، فَقَدْ رُوِىَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ مَعَ السَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ فِى السَّيْفِ ، وَالْخَيْرُ بِالسَّيْفِ ! » وَفِى حَدِيثٍ آخَرَ :

« لاَ تَزَالُ أُمَّتِى بِخَيْرٍ مَا حَمَلَتِ السَّيْفَ »

وَالسَّيْفُ حَمَلَ صَالِحًا[1] عَلَى التَّصْدِيقِ ، وَرَدَّهُ عَنْ رَأْيِ الزِّنْدِيقِ[2] ! . . . .

الصناديقى

وَأَمَّا الْمَنْسُوبُ إِلَى الصَّنَادِيقِ ، فَإِنَّمَا يُحْسَبُ مِنَ الزَّنَادِيقِ ، وَأَحْسَبُهُ الَّذِى كَانَ يُعْرَفُ بِالْمَنْصُورِ . ظَهَرَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَمِائَتَيْنِ ، وَأَقَامَ بُرْهَةً بِالْيَمَنِ ، وَفِى زَمَانِهِ كَانَتِ الْقِيَانُ تَلْعَبُ بِالدُّفِّ ، وَتَقُولُ :

« خُذِى الدُّفَّ يَا هَذِهِ وَالْعَبِى ... وَبُثِّى فَضَائِلَ هَــذَا النَّبِى
تَوَلَّى نَبِىُّ بَنِى هَاشِــمٍ ... وَقَامَ نَبِىُّ بَنِى يَعْــرُبِ
فَمَا نَبْتَغِى السَّعْىَ عِنْدَ الصَّفَا ... وَلاَ زَوْرَةَ الْقَبْرِ فِى « يَثْرِبِ »

---

(١) هو صالح بن عبد القدوس الذى مر ذكره (٢) كرر أبو العلاء هـذا المعنى فى لزومياته بطرق شتى ، فمن ذلك قوله :

إذا ما ألحدت أمم بجهل ... فقابِلْها بتوحيد السيوف

وقوله :

تمادَوا فى الضــلال ولم يتوبوا ... ولو سمعوا صليل السيف — تابوا

وقوله :

أبدى « العتاهىّ » نسكا ... وتاب من ذكر عُتبــهْ
والخــوف ألزم « سفيا ... ن » أن يغرق كتبه

وأمعن فى التهكم والسخرية فى قوله :

تلوْا باطــلا ؛ وجــلَوا صارما ... وقالوا : « صدقنا ؟ » فقلنا : « نعم ! »

إِذَا الْقَوْمُ صَلَّوْا ، فَلاَ تَنْهَضِي وَإِنْ صُوِّمُوا ، فَكُلِي وَاشْرَبِي

*
* *

وَلاَ تَحْرِمِي نَفْسَكِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَقْرَبِينَ وَمِنْ أَجْنَبِي (١)

---

(١) المزدكية

هذا الرأى هو رأى جماعة « المزدكيـــة » وهم أتباع « المذهب المزدكى » المنسوب الى « مزدك » وهو رجل ادعى النبوة على عهد خسرو قباذ ، والد أنوشروان ، وزعم أن الله بعثه ليأمر « بشيوع النساء والأموال بين الناس كافة ، كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ ، لأنهم كلهم إخوة ، أولاد أب واحد » وكان يتوهم أن ذلك يحسم أسباب المنازعات بينهم ، لأنها إنما تحدث بسبب النساء والمال ، فانقاد قباذ إلى مذهبه ، وأباح له أن يخلو بالملكة زوجه ؛ فترامى ابنه أنو شروان على قدمى قباذ ، باكياً متوسلا إليه ، ليعدل عن ذلك ، وما زال به حتى رجع عن فكرته ، فلما ولى الملك بدأ بقتل مزدك ، انتقاماً منه على ما هم به ، ولم يقبل توسلاته اليه ، وقال له : « لن أنسى نتن قدميك — حين قبلتهما » ثم استأصل أصحابه وشيعته

وفى كتاب الملل والنحـــل للشهرستانى نبذة مفيدة فى بيان هذا المذهب ، فليرجع إليها من شاء

والمنصور الصناديقى هذا ، هو أحد من اعتنقوا ذلك المذهب ودعوا إليه ، وقد جاء ذكره فى رسالة ابن القارح ، وأنه كان يجمع فى دار خاصة ، نساء البلد ورجالها ليلا ؛ و يأمرهم بالاختلاط « حتى لا يتميز مال من مال ، ولا ولد من ولد ! »

*
* *

أما رأى أبى العلاء فى المزدكية ، فيدلك على سخطه الشديد عليها قوله :

أقـــروا بالإله وأثبتـــوه وقالوا : « لا نبى ولا كتاب . . .
ووطء بناتنا حـــل مباح » رويدكم ! فقد بطل العتاب
تمادوا فى الضلال — ولم يتوبوا — ولو سمعوا صليل السيف ، تابوا

فَكَيْفَ حَلَلْتِ لِذَاكَ الْغَرِيبِ وَصِرْتِ مُحَرَّمَةً لِلْأَبِ ؟
أَلَيْسَ الْفِرَاسُ لِمَنْ رَبَّهُ وَرَوَّاهُ فِي عَامِهِ الْمُجْدِبِ ؟
وَمَا الْخَمْرُ إِلاَّ كَمَاءِ السَّحَا بِ طِلْقٌ، فَقُدِّسْتَ مِنْ مَذْهَبِ!»

فَعَلَى مُعْتَقِدِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ بَهْلَةُ الْمُبْتَهِلِينَ ! وَهَذِهِ الطَّبَقَةُ — لَعَنَهَا اللهُ — تَسْتَعْبِدُ الطَّغَامَ بِأَصْنَافٍ مُخْتَلِفَةٍ !

دعوى الربوبيـــة

وَقَدْ كَانَ بِالْيَمَنِ رَجُلٌ يَحْتَجِبُ فِي حِصْنٍ لَهُ، وَيَكُونُ الْوَاسِطَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ خَادِماً لَهُ أَسْوَدَ، قَدْ سَمَّاه «جِبْرِيلَ» فَقَتَلَهُ الْخَادِمُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ وَانْصَرَفَ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُجَّانِ :

«تَبَارَكَ اللهُ فِي عُلَاهُ فَرَّ مِنَ الْفِسْقِ جَبْرَئِيلُ
وَضَلَّ مَنْ تَزْعُمُونَ رَبًّا وَهْوَ عَلَى عَرْشِهِ قَتِيلُ»

وَيُقَالُ : إِنَّهُ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ مَا كَانَ يُكَلِّفُهُ مِنَ الْفِسْقِ.

وَإِذَا طَمِعَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْنَعُ بِالْإِمَامَةِ، وَلَا النُّبُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ يَرْتَفِعُ صُعُدًا فِي الْكَذِبِ !

*
* *

وَلَمْ تَكُنِ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تُقْدِمُ عَلَى هَذِهِ الْعَظَائِمِ، بَلْ كَانَتْ

وقوله :

شر النساء مشاعات — يكنّ لنا كالأرض — يحملن أبناء مشاعينا

عُقُولُهمْ تَجْنَحُ إِلَى رَأْىِ الْحُكَمَاءِ ، وَمَا سَلَفَ مِنْ كُتُبِ الْقُدَمَاءِ — إِذْ كَانَ أَكْثَرُ الْفَلَاسِفَةِ لَا يَقُولُونَ بِنَبِيٍّ ، وَيَنْظُرُونَ إِلَى ذَلِكَ بِعَيْنِ الْغَبِيِّ .

ربيعة بن أمية بن خلف الجمحى

وَكَانَ رَبِيعَةُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ جَرَى لَهُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ — رَحِمَهُ اللهُ — خَطْبٌ ، فَلَحِقَ بِالرُّومِ ، وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ :

« لَحِقْتُ بِأَرْضِ الرُّومِ — غَيْرَ مُفَكِّرٍ ... بِتَرْكِ صَلَاةٍ مِنْ عِشَاءٍ وَلَا ظُهْرِ
فَلَا تَتْرُكُونِى مِنْ صَبُوحٍ مُدَامَةٍ ... فَمَا حَرَّمَ اللهُ السُّلَافَ[1] مِنَ الْخَمْرِ
إِذَا أُمِّرَتْ[2] « تَيْمُ بْنُ مُرَّةَ » فِيكُمُ ... فَلَا خَيْرَ فِى أَرْضِ الْحِجَازِ وَلَا مِصْرِ
فَإِنْ يَكُ إِسْلَامِى هُوَ الْحَقُّ وَالْهُدَى ... فَإِنِّى قَدْ خَلَّيْتُهُ لِأَبِى بَكْرٍ ! »

***

وَافْتَنَّ النَّاسُ فِى الضَّلَالَةِ ، حَتَّى اسْتَجَازُوا دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ ، فَكَانَ ذَلِكَ تَنَطُّساً[3] فِى الْكُفْرِ ، وَجَمْعاً لِلْمَعْصِيَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَدْفَعُونَ النُّبُوَّةَ ، وَلَا يُجَاوِزُونَ ذَلِكَ إِلَى سِوَاهُ .

سُمَيْر بن أدكن

وَلَمَّا أَجْلَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ — رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ — أَهْلَ الذِّمَّةِ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْجَالِينَ . فَيُقَالُ إِنَّ رَجُلًا مِنْ يَهُودِ بَنِى خَيْبَرَ ، يُعْرَفُ بِسُمَيْرِ بْنِ أَدْكَنَ ، قَالَ فِى ذَلِكَ :

---

(١) ما تحلّب وسال قبل العصر ، وهو أفضل الخمر (٢) صارت أميرة (٣) تأنّقاً

« يَصُولُ أَبُو حَفْصٍ عَلَيْنَا بِدِرَّةٍ[١] رُوَيْدَكَ ، إِنَّ الْمَرْءَ يَطْفُو وَيَرْسُبُ
كَأَنَّكَ لَمْ تَتْبَعْ حُمُولَةَ مَأْقِطٍ لِتَشْبَعَ ، إِنَّ الزَّادَ شَيْءٌ مُحَبَّبُ
فَلَوْ كَانَ « مُوسَى » صَادِقاً مَا ظَهَرْتُمُ عَلَيْنَا ، وَلَكِنْ دَوْلَةٌ ثُمَّ تَذْهَبُ
وَنَحْنُ سَبَقْنَاكُمْ إِلَى الْمَيْنِ ، فَاعْرِفُوا لَنَا رُتْبَةَ الْبَادِي الَّذِي هُوَ أَكْذَبُ
مَشَيْتُمْ عَلَى آثَارِنَا فِي طَرِيقِنَا وَبُغْيَتُكُمْ فِي أَنْ تَسُودُوا وَتُرْهَبُوا »

*
* *

وَمَا زَالَ الْيَمَنُ — مُنْذُ كَانَ — مَعْدِناً لِلْمُتَكَسِّبِينَ بِالتَّدَيُّنِ ، وَالْمُحْتَالِينَ عَلَى السُّحْتِ بِالتَّزَيُّنِ . وَحَدَّثَنِي مَنْ سَافَرَ إِلَى تِلْكَ النَّاحِيَةِ : أَنَّ بِهِ الْيَوْمَ جَمَاعَةً ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ الْقَائِمُ الْمُنْتَظَرُ ، فَلاَ يَعْدَمُ جِبَايَةً مِنْ مَالٍ ، يَصِلُ بِهَا إِلَى خَسِيسِ الآمَالِ .

القرامطة

وَحُكِيَ لِي أَنَّ لِلْقَرَامِطَةِ بِالْأَحْسَاءِ بَيْتاً يَزْعُمُونَ أَنَّ إِمَامَهُمْ يَخْرُجُ مِنْهُ ، وَيُقِيمُونَ عَلَى بَابِ ذَلِكَ الْبَيْتِ فَرَساً بِسَرْجٍ وَلِجَامٍ ، وَيَقُولُونَ لِلْهَمَجِ وَالطَّغَامِ : « هَذَا الْفَرَسُ لِرِكَابِ الْمَهْدِيِّ ، يَرْكَبُهُ مَتَى ظَهَرَ[٢] » ، وَإِنَّمَا

---

(١) سوط يضرب به (٢) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

يرقب الناس أن يقوم إمام ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقـ ـل مشيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والإرساء
إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذى قام يجمع « الزّنج » بالبصـ ـرة « والقرمطىّ » بالأحساء
فانفرد ما استطعت ، فالقائل الصا دق يضحى ثقلا على الجلساء

غَرَضُهُمْ بِذَلِكَ خَدْعٌ وَتَعْلِيلٌ، وَتَوَصُّلٌ إِلَى المَمْلَكَةِ وَتَضْلِيلٌ.

وَمِنْ أَعْجَبِ مَا سَمِعْتُ أَنَّ بَعْضَ رُؤَسَاءِ القَرَامِطَةِ فِي الدَّهْرِ الْقَدِيمِ، لَمَّا حَضَرَتْهُ المَنِيَّةُ، جَمَعَ أَصْحَابَهُ، وَجَعَلَ يَقُولُ لَهُمْ — لَمَّا أَحَسَّ بِالمَوْتِ —: «إِنِّى قَدْ عَزَمْتُ عَلَى النُّقْلَةِ، وَقَدْ كُنْتُ بَعَثْتُ مُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّداً، وَلاَ بُدَّ لِى أَنْ أَبْعَثَ غَيْرَ هَؤُلاَءِ» فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ، لَقَدْ كَفَرَ أَعْظَمَ الْكُفْرِ فِى السَّاعَةِ الَّتِى يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَؤُوبَ إِلَى آخِرَتِهِ الْمُسَافِرُ!

الوليد بن يزيد

وَأَمَّا الْوَلِيدُ بْنُ يَزِيدَ، فَكَانَ عَقْلُهُ عَقْلَ وَلِيدٍ، وَقَدْ بَلَغَ سِنَّ الْكَهْلِ الْجَلِيدِ، وَقَدْ رُوِيَتْ لَهُ أَشْعَارٌ، يَلْحَقُ بِهِ مِنْهَا الْعَارُ، كَقَوْلِهِ:

«أَدْنِيَا مِنِّى خَلِيلِى «عَبْدَلاً» دُونَ الإِزَارِ
فَلَقَدْ أَيْقَنْتُ أَنِّى غَيْرُ مَبْعُوثٍ لِنَارِ
وَاتْرُكَا مَنْ يَطْلُبُ الْجَنَّةَ يَسْعَى فِى خَسَارِ
سَأَرُوضُ النَّاسَ، حَتَّى يَرْكَبُوا دِينَ الْحِمَارِ»

فَالْعَجَبُ لِزَمَانٍ صَيَّرَ مِثْلَهُ إِمَاماً. وَلَعَلَّ غَيْرَهُ — مِمَّنْ مَلَكَ — يَعْتَقِدُ مِثْلَهُ أَوْ قَرِيباً، وَلَكِنْ يُسَايِرُ وَيَخَافُ تَثْرِيباً. وَمِمَّا يُرْوَى لَهُ:

«أَنَا الإِمَامُ الْوَلِيدُ مُفْتَخِرًا أَجُرُّ بُرْدِى، وَأَسْمَعُ الْغَزَلَا
مَا الْعَيْشُ إِلَّا سَمَاعُ مُحْسِنَةٍ وَقَهْوَةٌ تَتْرُكُ الْفَتَى ثَمِلَا
أَسْحَبُ ذَيْلِى إِلَى مَنَازِلِهَا وَلَا أُبَالِى مَنْ لَامَ أَوْ عَذَلَا
لا أَرْتَجِى الْحُورَ فِى الْخُلُودِ، وَهَلْ يَأْمُلُ حُورَ الْجِنَانِ مَنْ عَقَلَا؟

إِذَا حَبَتْكَ الْوِصَالَ غَانِيــــةٌ فَجَازِهَا بَذْلَهَـا ، كَمَنْ وَصَلَا »

وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمَّا احِيطَ بِهِ ، دَخَلَ الْقَصْرَ وَأَغْلَقَ بَابَهُ ، وَقَالَ :

دَعُوا لِيَ هِنْـــداً وَالرَّبَابَ وَفِرْتَنَى وَمُسْمِعَةً ، حَسْبِي بِذَلِكَ مَالاَ

خُذُوا مُلْكَكُمْ ،لاَ ثَبَّتَ اللهُ مُلْكَكُمْ فَلَيْسَ يُسَاوِي بَعْـدَ ذَاكَ عِقَالاَ

وَخَلُّوا سَبِيلِي قَبْلَ عَيْرٍ وَمَا جَرَى[1] وَلاَ تَحْسُدُونِي أَنْ أَمُوتَ هُزَالاَ

فَأُلِبَ عَنْ تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ أَيَّ أَلْبٍ ، وَرُؤِيَ رَأْسُهُ فِي فَمِ كَلْبٍ ! كَانَ حَقُّ الْخِلاَفَةِ أَنْ تُفْضِيَ إِلَى مَنْ هُوَ بِنُسْكٍ مَعْرُوفٌ ، لاَ تَصْرِفُهُ عَنِ الرُّشْدِ صُرُوفٌ . وَلَـكِنَّ الْبَلِيَّةَ خُلِقَتْ مَعَ الشَّمْسِ ، فَهَلْ يَخْلُصُ مَنْ سَكَنَ فِي رَمْسٍ ؟

أبو عيسى بن الرشيد

وَأَمَّا « أَبُو عِيسَى بْنُ الرَّشِيدِ » فَإِنْ صَحَّ مَا رُوِيَ عَنْهُ ، فَقَدْ بَايَنَ بِذَلِكَ أَسْلاَفَهُ ، وَمَا يَحْفِلُ رَبُّهُ بِالْعَبِيدِ ، صَائِمِينَ لِلْخِيفَةِ وَلاَ مُفْطِرِينَ[2] وَرُبَّمَا كَانَ الْجَاهِلُ أَوِ الْمُتَجَاهِلُ ، يَنْطِقُ بِالْكَلِمَةِ وَخَلَدُهُ بِضِدِّهَا آهِلٌ !

وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ، رَاجِياً أَنَّ أَبَا عِيسَى وَنُظَرَاءَهُ ، لَمْ يَتْبَعُوا فِي الْغَيِّ أُمَرَاءَهُ ، وَأَنَّهُمْ عَلَى سِوَى مَا عَلَنَ يَبِيتُونَ ، لَقَدْ وَعَظَهُمُ الْمَيِّتُونَ . . .

وَكَانَ « أَبُو عِيسَى » الْمَذْكُورُ يُسْتَحْسَنُ شِعْرُهُ فِي الْبَيْتَيْنِ وَالثَّلاَثَةِ ، وَأَنْشَدَ لَهُ الصُّولِيُّ فِي نَوَادِرِهِ :

---

(١) قبل عير وما جرى : أي في الحال (٢) ذكر أبو العلاء هذا المعنى في لزومياته أكثر من مرة . فمن ذلك قوله :

تورعوا يا بني حواء عن كذب فما لكم عند ربٍّ صاغكم خطرُ

لم تجدبوا لقبيح من فعالكم ولم يجئكم – لحسن التوبة – المطر

« لِسَانِي كَتُومٌ لِأَسْرَارِهِ   وَدَمْعِي نَمُومٌ بِسِرِّي مُذِيعُ
وَلَوْلَا دُمُوعِي كَتَمْتُ الْهَوَى   وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ يَكُنْ لِي دُمُوعُ »

فَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ ، فَلَعَلَّهُ يَقَعُ فِي تَعْذِيبِ الدَّهْرِ !

الجنَّـــابى(1)

وَأَمَّا الْجَنَّابِيُّ ، فَلَوْ عُوقِبَ بَلَدٌ بِمَنْ يَسْكُنُهُ ، لَجَازَ أَنْ تُؤْخَذَ بِهِ « جَنَّابَةٌ » ، وَلَا يُقْبَلُ لَهَا إِنَابَةٌ ، وَلَكِنَّ حُكْمَ الْكِتَابِ الْمُنْزَلِ أَجْدَرُ وَأَحْرَى ، أَنْ لَا تَزِرَ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »

فَعَلَيْهِ اللَّعْنَةُ !

---

(1) الجنّـــابى

٢٨٦ — ٣٣١ هـ

اسمه سليمان بن أبى سعيد الحسن بن بهرام القرمطى ، بلده « جنّابة » من أعمال فارس متصلة بالبحرين ، وكنيته أبو طاهر ، وقد امتلأت كتب التاريخ بخروج « القرامطة » على الخلفاء والملوك وحروبهم معهم ، فلا حاجة الى الافاضة فى ذلك ، وحسبنا أن نلم بتاريخه موجزين :

ظهر فى سنة ٢٨٦هـ بالبحرين ، وانضم اليه عدد من الأعراب والقرامطة ، ثم ارتفع شأنه ، وقويت شوكته ، فقتل من حوله من أهالى تلك القرى ، ولما قرب من نواحى البصرة ، جهز اليه المعتضد بالله جيشاً فهزمه الجنابى ، وقتل الأسرى وأحرقهم ، واستبقى قائده ، ثم أطلقه بعد أيام وقال له : « امض الى صاحبك ، وعرفه ما رأيت » ودخل بغداد فى رمضان تلك السنة ، وحضر بين يدى المعتضد ، فخلع عليه . ودخل القرامطة الشام سنة ٢٨٩هـ وجرت وقائع بين الفريقين ، ثم قتله خادمه سنة ٣٣١ هـ فى الحمام .

وقد مر فى رسالة ابن القارح المنشورة فى الجزء الأول من هذا الكتاب إشارة اليه

العلوى البصرى

وَأَمَّا الْعَلَوِىُّ الْبَصْرِىُّ ، فَذَكَرَ بَعْضُ النَّاسِ أَنهُ كَانَ قَبلَ خُرُوجِهِ يَذْكُرُ أَنهُ : مِنْ « عَبْدِ الْقَيْسِ » ثُمَّ مِنْ « أَنْمارٍ » وكَانَ اسْمُهُ « أَحْمَدَ » فَلمَّا خرَجَ تَسَمَّى « عَلِيًّا » .

وَالْكَذِبُ كَثِيرٌ جَمٌّ ، كَأَنهُ فِى النَّظَرِ طَوْدٌ أَشَمُّ ، وَالصِّدْقُ لَدَيْهِ كَالْحَصَاةِ ، تُوطَأُ بِأَقْدَامِ عُصَاةٍ . وَتِلْكَ الْأَبْيَاتُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَيهِ مَشْهُورَةٌ ، وَهِىَ :

أَيَا حِرْفَةَ الزَّمْنَى ا ـ أَلَمَّ بِكِ الرَّدَى ـ أَمالِى خَلَاصٌ مِنْكِ ـ وَالشَّمْلُ جَامِعُ ؟
لَئِنْ قَنِعَتْ نَفْسِى بِتَعْلِيمِ صِبْيَةٍ — يَدَ الدَّهْرِ — إِنِّى بِالْمَذَلَّةِ قَانِعُ
وَهَلْ يَرْضَيَنْ حُرٌّ بِتَعْلِيمِ صِبْيَةٍ وَقَدْ ظَنَّ أَنَّ الرِّزْقَ فِى الْأَرْضِ وَاسِعُ ؟

وَمَا أَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ حَمَلَهُ حُبُّ الْحُطَامِ ، عَلَى أَنْ غَرِقَ فِى بَحْرٍ طَامٍ !

*
* *

وَقَدْ رُوِيَتْ لَهُ أَبْيَاتٌ تَدُلُّ عَلَى تَأَلُّهٍ ، وَمَا أَدْفَعُ أَنْ تَكُونَ قِيلَتْ عَلَى لِسَانِهِ ، لِأَنَّ مَنْ خَبَرَ هَذَا الْعَالَمَ حَكَمَ عَلَيْهِ بِفُجُورٍ وَمَيْنٍ . وَالْأَبْيَاتُ :

« قَتَلْتُ النَّاسَ إِشْفَاقًا عَلَى نَفْسِىَ كَىْ تَبْقَى
وَحُزْتُ الْمَالَ بِالسَّيْفِ لِكَىْ أَنْعَمَ ، لاَ أَشْقَى
فَمَنْ أَبْصَرَ مَثْوَاىَ فَلاَ يَظْلِمْ إِذاً خَلْقًا !
فَوَاوَيْلِى إِذَا مَا مِتُّ — عِنْدَ اللهِ : مَا أَلْقَى ؟
أَخُلْدًا فِى جِوَارِ اللَّهِ ؟ أَمْ فِى نَارِهِ أُلْقَى ؟ »

*
* *

وَأَنْشَدَنِى بَعْضُهُمْ أَبْيَاتًا قَافِيَةً طَوِيلَةَ الْوَزْنِ ، وَقَافِيَتِهَا مِثْلُ هَذِهِ الْقَافِيَةِ ، قَدْ نُسِبَتْ إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ . وَقِيلَ إِنَّهُ أَفَاقَ فِى بَعْضِ الْأَيَّامِ ، فَكَتَبَهَا عَلَى جِدَارِ الْمَوْضِعِ الَّذِى كَانَ فِيهِ . وَقَدْ نُحِىَ بِهَا نَحْوُ أَبْيَاتِ الْبَصْرِىِّ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّهَا مُتَكَلَّفَةٌ ، صَنَعَهَا رَقِيعٌ مِنَ الْقَوْمِ ، وَأَنَّ عَضُدَ الدَّوْلَةِ مَا سَمِعَ بِهَا قَطُّ .

*
* *

وَأَمَّا الْحِكَايَةُ عَنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَنَّهُمْ صَحَّفُوا رَخَمَةَ ، فَقَالُوا رَحْمَة ، فَلَا أُصَدِّقُ بِمَا يَجْرِى مَجْرَاهَا ، وَالْكَذِبُ غَالِبٌ ظَاهِرٌ ، وَالصِّدْقُ خَفِىٌّ مُتَضَائِلٌ(١) !

وَكَذَلِكَ ادِّعَاءُ مَنْ يَدَّعِى أَنَّ عَلِيًّا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — قَالَ : « تَهْلِكُ الْبَصْرَةُ بِالزَّنْجِ » فَصَحَّفَهَا أَهْلُ الْحَدِيثِ بِالرِّيحِ ، لَا أُومِنُ بِشَىْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلِىٌّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — مِمَّنْ يُكْشَفُ لَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ . وَفِى الْكِتَابِ الْعَزِيزِ : « لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ » وَفِى الْحَدِيثِ الْمَأْثُورِ : « لَا يَعْلَمُ مَا فِى غَدٍ إِلَّا اللهُ » .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُخْبِرَ مُخْبِرٌ مُنْذُ مِائَةِ سَنَةٍ أَنَّ أَمِيرَ حَلَبَ — حَرَسَهَا اللهُ — فِى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَأَرْبَعِمَائَةٍ(٢) اسْمُهُ فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ، وَصِفَتُهُ كَذَا ، فَإِنِ ادَّعَى ذَلِكَ مُدَّعٍ ، فَإِنَّمَا هُوَ مُتَخَرِّصٌ كَاذِبٌ !

---

(١) يقول أبو العلاء فى هذا المعنى :

والحق يُهمس بينهم   و يقام للسوآت منبر

و يقول: إذا قلت المحال : رفعت صوتى   و إن قلت اليقين : أطلت همسى !

(٢) من هذا نستنتج أن رسالة الغفران كتبت فى تلك السنة، وقد أشرنا إلى ذلك فى مقدماتنا للرسالة

النجـــوم

وَأَمَّا النُّجُومُ فَإِنَّما لَهَا تَلْوِيحٌ لَا تَصْرِيحٌ . وَحُكِيَ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ سَهْلٍ كَانَ يَتَمَثَّلُ كَثِيرًا بِقَوْلِ الرَّاجِزِ :

« لَئِنْ نَجَوْتُ وَنَجَتْ رَكَائِبِي مِنْ غالِبٍ وَمِنْ لَفِيفِ غالِبِ
إِنِّى لَنَجَّاءٌ مِنَ الْكَرَائِبِ »

وَأَنَّ غالِبًا كَانَ فِى مَنْ قَتَلَهُ ، فَهٰذَا يَتَّفِقُ مِثْلُهُ . وَأَجْدِرْ بِهٰذِهِ الْحِكَايَةِ أَنْ تَكُونَ مَصْنُوعَةً .

فَأَمَّا ما تَمَثَّلَهُ بِالشِّعْرِ فَغَيْرُ مُسْتَنْكَرٍ ، وَرُبَّمَا اتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ فِى الْوَقْتِ جَمَاعَةٌ يُسَمَّوْنَ بِهٰذا ، فَيُمْكِنُ أَنْ يَقْتَرِنَ مَعْنًى بِلَفْظٍ . عَلَى أَنَّ فِى الْأَيَّامِ عَجائِبَ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

الألمعى

وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ « إِيَاسَ بْنَ مُعاوِيَةَ » الْقَاضِيَ كَانَ يَظُنُّ الْأَشْيَاءَ ، فَتَكُونُ كَمَا ظَنَّ ، وَلِهٰذِهِ الْعِلَّةِ قالُوا : « رَجُلٌ نِقَابٌ[1] ، وَأَلْمَعِيٌّ » قالَ أَوْسٌ[2] :

الْأَلْمَعِيُّ الَّذِى يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَأَنْ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا[3]

---

(١) النِّقاب : المتفرس ، الذى يحدث بالغائب (٢) هو أوس بن حجر التميمى ، أحد شعراء الجاهلية ، ارجع الى ترجمته فى ج ٢ ص « ١٦٥ »

(٣) ومما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم :

« علـــيم بأخبار الخطوب بظنـــه كأن له فى اليوم عيناً على غد »

الحـــلاج(1)

وَكَمِ افْتُرِىَ لِلْحَلَّاجِ — وَالْكَذِبُ كَثِيرٌ — وَجَمِيعُ ما يُنْسَبُ إِلَيْهِ بِمَا لَمْ تَجْرِ

وقول آخر :

بصـير بأعقاب الأمور ، كأنما تخاطبه من كل أمر عواقبـه

وقول ثالث :

بصـير بأعقاب الأمور ، كأنما يرى بصواب الظن ما هو واقع

وقول البحترى فى سليمان بن وهب :

كأن آراءه — والحزم يتبعها — تريه كل خفى وهو إعلان

ما غاب عن عينه ، فالقلب يكلؤه ، وإن تنم عينـــه ، فالقلب يقظان

(1) الحـــلاج

اسمه الحسين بن منصور ، وكنيته أبو مغيث ، وجده مجوسى ، و بلده « البيضاء » أحد بلاد فارس ، وكانت وفاته سنة ٣٠٩ هـ

نشأ بواسط بالعراق ، واشتهر بصحبته لأبى القاسم الجنيد ، ومن فى طبقته ، كما اشتهر بكفره — وإن بالغ فى تعظيمه بعض الناس — ومن شعره قوله :

لا كنت إن كنت أدرى : « كيف كنت » ولا
لا كنت إن كنت أدرى : « كيف لم أكن »

وقوله المشهور :

ألقاه فى اليم مكتوفاً ، وقال له : « إياك إياك أن تبتـــل بالمـاء »

وكان يكثر من قوله : « ما فى الجبة إلا الله » فسمى « الجبائى » لذلك . وكان يقول « معبودكم تحت قدمى هذا ! » وقد تصدى الإمام الغزالى للدفاع عنه فى فصل طويل عقده فى كتاب (مشكاة الأنوار) اعتذر فيه عن الألفاظ الشديدة التى صدرت منـه ، وعزاها إلى إفراطه فى محبة الله ، واستشهد بقول القائل :

أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا نحن روحان ، حللنـــا بدنا

فإذا أبصرتنى أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنـــا !

الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، فَإِنهُ الْمَيْنُ لا أُصَدِّقُ بِهِ . وَمِمَّا يُفْتَعَلُ عَلَيهِ أَنهُ قالَ لِلَّذِين قَتَلُوهُ : « أَتَظُنُّونَ أَنَّكُمْ إِيَّايَ تَقْتُلُونَ ؟ إِنَّما تَقْتُلونَ بَغْلَةَ الْمَادِرَانِيِّ » وَأَنَّ الْبَغْلَةَ وُجِدَتْ فِي إِصْطَبْلِها مَقْتُولَةً .

وَفِي الصُّوفِيَّةِ — إِلَى الْيَوْمِ — مَنْ يَرْفَعُ شَأْنَهُ ، وَبَلَغَنِي أَنَّ بِبَغْدادَ قَوْماً يَنْتَظِرُونَ خُرُوجَهُ ، وَأَنَّهُمْ يَقِفُونَ بِحَيْثُ صُلِبَ عَلَى « دِجْلَةَ » يَتَوَقَّعُونَ ظُهُورَهُ[١] .

وَلَيْسَ ذَلكَ بِبِدْعٍ مِنْ جَهْلِ النَّاسِ ، وَلَوْ عَبَدَ عابِدٌ ظَبْيَ كِنَاسٍ[٢] !

إجلال القرد

قرد زبيدة وقرد يزيد

فَقَدْ نَزَلَ حَظٌّ عَلَى قِرْدٍ ، فَظَفِرَ بِأَكْرَمِ الْوِرْدِ ، وَقالَتِ الْعَامَّةُ : « اسْجُدْ لِلْقِرْدِ فِي زَمانِهِ ! »

وفى رسالة ابن القارح طرف من أخباره

(١) كان السبب فى صلبه ، كلام جرى منه فى مجلس « حامد بن العباس » وزير المقتدر بحضرة القاضى أبى عمر، فأفتى بحل دمه ، وكتب بخطه ذلك ، وكتب معه من حضر المجلس من الفقهاء ، فقال لهم الحلاج : « ظهرى حمىّ ، ودمى حرام ، وما يحل لكم أن تتقولوا على ، وأنا اعتقادى الاسلام ، ومذهبى السنة ، وتفضيل الأئمة الأربعة ، الخلفاء الراشدين ، ولى كتب فى السنة ، فالله الله فى دمى ! » ولم يزل يردد هذا القول — وهم يكتبون — حتى أتموا ما هم فيه ، ونهضوا من المجلس وحملوا الحلاج إلى السجن ، ثم جُلد أمام العامة حتى قُتل ، ثم صلب ، ثم قطعت أطرافه ، وجز رأسه ، وأحرقت جثته ، ثم ألقيت فى « دجلة » واتفق أن فاضت مياهها فى تلك السنة فيضاناً كثيراً ، فادعى أصحابه أن سبب ذلك هو سخط الحلاج .

(٢) الكناس : بيت الظبى فى الشجر يستتر فيه

وَأَنَا أَتَحَوَّبُ[١] مِنْ ذِكْرِ الْقِرْدِ الَّذِى يُقَالُ إِنَّ الْقُوَّادَ — فى زَمَن « زُبَيْدَةَ » — كَانُوا يَدْخُلونَ لِلسَّلَامِ عَلَيهِ ، وَأَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مِزْيَدٍ الشَّيْبَانِيَّ » دَخَلَ فِى جُمْلَةِ الْمُسْلِمِينَ فَقَتَلَهُ .

وَقَدْ رُوِىَ أَنَّ « يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ » كَانَ لَهُ قِرْدٌ يَحْمِلُهُ عَلَى أَتَانٍ وَحْشِيَّةٍ ، وَيُرْسِلُهَا مَعَ الْخَيْلِ فِى الْحَلْبَةِ[٢] .

رجعة إلى الحلاج

وأَمَّا الْأَبْيَاتُ الَّتى عَلَى الْيَاء :

« يَا سِرَّ سِرٍّ يَدِقُّ حَتَّى ... يَجِلَّ عَنْ وَصْفِ كُلِّ حَىْ
وَظاهِرًا بَاطِنًا تَبَدَّى ... مِنْ كُلِّ شَىْءٍ لِكُلِّ شَىْ
يَا جُمْلَةَ الْكُلِّ لَسْتَ غَيْرِى ... فَمَا اعْتِذَارِى إِذَنْ إِلَىْ ؟ »

فَلا بَأْسَ بِنَظْمِهَا فِى الْقُوَّةِ ، وَلَكِنْ قَوْلُهُ « إِلَىَّ » عَاهَةٌ فى الْأَبْيَاتِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ « الْكُلّ » فَإِنَّ إِدْخَالَهُ الْأَلِفَ وَاللَّامَ مَكْرُوهٌ .

وَكَانَ « أَبو عَلِىٍّ » يُجِيزُهُ ، وَيَدَّعِى إِجازَتَهُ عَلَى « سِيبَوَيْهِ » .

فَأَمَّا الْكَلَامُ الْقَدِيمُ ، فَيُفْتَقَدُ فيهِ[٣] (الْكُلُّ) وَ (الْبَعْضُ) .

وَقَدْ أَنْشَدُوا بَيْتاً لِسُحَيْمٍ :

---

(١) أجتنب الحوب ، أى الإثم ، أو أتحرج منه ، وهى أيضاً بمعنى أتوجع باكياً فى جزع وصياح (٢) الخيل تجمع للسباق (٣) قال فى اللسان : « وفى حديث عائشة رضى الله عنها « افتقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم » أى لم أجده ، هو افتعلت ، من فقدت الشىء أفقده إذا غاب عنك »

« رَأَيْتُ الْغَنِيَّ وَالْفَقِيرَ كِلَيْهِمَا إِلَى الْمَوْتِ، يَأْتِي الموتُ لِلْكُلِّ مُعْمِدَا! »

مذهب الحلول[1]

وَيُنْشَدُ لِفَتًى كَانَ فِي زَمَنِ الْحَلَّاجِ :

إِنْ يَكُنْ مَذْهَبُ الْحُلولِ صَحِيحاً فَإِلٰهِي فِي حُرْمَةِ الزَّجَّاجِ
عَرَضَتْ فِي غِلَالَةٍ بِطِرَازٍ بَيْنَ دَارِ الْعَطَّارِ وَالثَّلَّاجِ
زَعَمُوا لِي أَمْراً — وَمَا صَحَّ — لَكِنْ هُوَ مِنْ إِفْكِ شَيْخِنَا الْحَلَّاجِ

---

(١) مذهب الحلولية — أو مذهب الحلول — هو الادعاء بحلول الله — سبحانه — فى الأشخاص، لأصحاب هذا المذهب ادعاءات لا يحصيها العد ، فقد ادعى بعضهم أن روح الله حلت فى الأنبياء ، واحداً بعد واحد ، حتى حلت فى أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية ، وادعى غيرهم أنها حلت فى أبى مسلم ؛ وادعى آخرون حلول الله فى الصور الحسان ، فكان « الحلمانية » إذا رأوا صورة حسنة ، سجدوا لها ، واهمين أن الله حل فيها ؛ واستدل بعض هؤلاء على جواز حلول الله فى الأجساد ، بقوله تعالى للملائكة فى آدم : « فاذا سويته ، ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين » وزعموا أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم ، لأنه خلقه فى أحسن تقويم ، بدليل قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »

وزعم الحلاج أن من هذب نفسه بالطاعة ، وصبر على اللذات والشهوات ، ارتقى الى مقام المقربين ؛ ولا يزال يصفو و يرتقى فى درجات المصافاة حتى يصفو عن البشرية ، فاذا لم يبق فيه منها حظ ، حل فيه روح الله ، الذى حل فى عيسى بن مريم ، ولم يرد حينئذ شيئاً إلا كان كما أراد ؛ وكان جميع فعله فعل الله تعالى

ولنجتزىء بهذا القدر ، فان فيما أورده أبو العلاء فى هذا الفصل ، وما أورده ابن القارح فى رسالته ، غناء وكفاية

وَهَذِهِ الْمَذَاهِبُ قَدِيمَةٌ ، تَنْتَقِلُ فِي عَصْرٍ بَعْدَ عَصْرٍ . وَيُقَال : إِنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ عَلَى مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ ، فَلِذَلِكَ ادَّعَى انَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ !

***

وَحُكِي عَنْ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي تَسْبِيحِهِ : « سُبْحَانَكَ سُبْحَانِي ، غُفْرَانَكَ غُفْرَانِي ! » وَهَذَا هُوَ الْجُنُونُ الْغَالِبُ ، إِنَّمَا مَنْ يَقُولُ هَـذَا الْقَوْلَ مَعْدُودٌ فِي الْأَنْعَامِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

« أَنَا أَنْتَ — بِلاَ شَكٍّ — فَسُبْحَانَكَ سُبْحَانِي
وَإِسْخَاطُكَ إِسْخَاطِي وَغُفْرَانُكَ غُفْرَانِي
وَلِمْ أُجْلَدُ يَا رَبِّ إِذَا قِيلَ هُوَ الزَّانِي ؟ »

وَبَنُو آدَمَ بِلاَ عُقُولٍ ، وَهَذَا أَمْرٌ يُلَقَّنُهُ صَغِيرٌ عَنْ كَبِيرٍ « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالْأَنْعَامِ ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً »

وَيُرْوَى لِبَعْضِ أَهْلِ هَذِهِ النِّحْلَةِ :

رَأَيْتُ رَبِّي يَمْشِي بِلا لَكَةٍ[1] فِي سُوقِ يَحْيَى ، فَكِدْتُ أَنْفَطِرُ
فَقُلْتُ : « هَلْ فِي اتِّصَالِنَا طَمَعٌ ؟ » فَقَالَ « هَيْهَاتَ ، يَمْنَعُ الْحَذَرُ »
وَلَوْ قَضَى اللهُ أُلْفَةً بِهَوًى لَمْ يَكُ إِلاَّ السُّجُودُ وَالنَّظَرُ

---

(١) هكذا وجدناها فى جميع النسخ التى ظفرنا بها ، ولعل صوابها : « يمشى بمألكة » أى برسالة .

التنـــاسخ[1]

وَتُؤَدِّى هَـذِهِ النِّحْلَةُ إِلَى التَّنَاسُخِ ، وَهُوَ مَذْهَبٌ عَتِيقٌ ، يَقُولُ بِهِ أَهْلُ الْهِنْدِ ، وَقَدْ كَثُرَ فِى جَمَاعَةٍ مِنَ الشِّيعَةِ ، نَسْأَلُ اللهَ التَّوْفِيقَ وَالْـكِفَايَةَ .

---

(١) التنـــاسخ

هو مذهب القائلين بانتقال الأرواح بعد مغادرة أجسادها ، الى أجساد أخرى ، ويرى بعضهم أن ذلك يحدث ولو لم تكن تلك الأجساد من نوع الأجساد التى فارقتها الروح ، وبهذا الزعم يدين الكثيرون ، منهم القرامطة ، وأحمد بن حائط ، وتلميذه أحمد بن نانوس ، وأبو مسلم الخراسانى ، ومحمد بن زكريا الرازى الطبيب . ومما ذكره الرازى فى بعض كتبه قوله : « لولا أنه لا سبيل إلى تخليص الأرواح عن الأجساد المتصورة بالصورة البهيمية ، إلى الأجسام المتصورة بصور الانسان ، إلا بالقتل والذبح ، لما جاز ذبح شىء من الحيوان البتة »

ويزعمون أن التناسخ هو نوع من العقاب والثواب ؛ فالفاسق السيئ العمل ، يعاقب على ذلك بأن تنتقل روحه إلى أجساد البهائم الخبيثة المرتطمة فى الأقذار، والمسخرة المتهنة بالذبح !

*
* *

وزعم بعضهم أن الله — سبحانه — أبدع خلقه أصحاء سالمين عقلاء بالغين ، فى دار سوى هذه الدار الدنيا ، وخلق فيهم معرفته ، والعلم به ، وأسبغ عليهم نعمـــه ، فابتدأهم بتكليف شكره ، فأطاعه بعضهم فى جميع ما أمرهم به ، وعصاه بعضهم فى جميع ذلك ، وأطاعه بعضهم فى بعض دون بعض ، فمن أطاعه فى الكل ، أقره دار النعيم التى ابتدأهم فيها ، ومن عصاه فى الكل أخرجه من تلك الدار إلى دار العذاب ، وهى النار . ومن أطاعه فى بعض ، وعصاه فى البعض آخر ، أخرجه إلى دار الدنيا ، فألبسه هذه الأجساد الكثيفة ، وابتلاه بالبأساء والضراء ، والشدة والرخاء ، والآلام واللذات ، على صور مختلفة من صور الناس . وسائر الحيوانات على قدر ذنوبهم ، فمن كانت معاصيه أقل ، وطاعاته أكثر ، كانت صورته أحسن

وَيُنْشَدُ لِرَجُلٍ مِنَ النُّصَيْرِيَّةِ :

وآلامه أقل ، ثم لا يزال يكون فى الدنيا كرة بعد كرة ، وصورة بعد أخرى ، ما دامت معه ذنوبه وطاعاته

*
* *

واستدل من يعتقد بالتناسخ من المسلمين ، على صحة زعمهم بقوله تعالى : « يا أيها الانسان ! ما غرك بربك الكريم ؟ الذى خلقك ، فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك » و بالآية الأخرى : « جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً ، يذرؤكم فيه »

واستدل غير المسلمين منهم على صحة مذهبهم ، بأن النفس لا تتناهى ، والعالم لا يتناهى لأمد ، فالنفس منتقلة أبداً ، وليس انتقالها إلى نوعها بأولى من انتقالها الى غير نوعها

*
* *

وأنكرت طائفة أخرى، انتقال الأرواح إلى غير أنواع أجسادها التى فارقتها، بعد أن أقرت انتقالها إلى أنواع أجسادها ، فقالت : « بما أنه لا تناهى للعالم ؛ فوجب أن تتردد النفس فى الأجساد أبداً ، ولكن لا يجوز أن تنتقل إلى غير النوع الذى أوجب لها طبعها الإشراف عليه ، وتعلقها به »

وفى كتابى الملل والنحل لابن حزم والشهرستانى ، فصلان نافعان ، وقد عنى ابن حزم بتفنيد كثير من هذه الآراء و إدحاضها .

*
* *

وقد شاع فى الهند هذا المذهب كما شاع فيها غيره ، منذ أقدم أزمنة التاريخ ، ثم عرفه العرب فى أواخر القرن الأول ، ودان به الشيعة ، كما دانوا بمذهب الحلول والرجعة وغير ذلك من المذاهب القريبة منهما . ولم يأت القرن الرابع حتى انتشرت تلك المذاهب ، وذاع أمرها ، وساعد على انتشارها فتح محمود بن سبكتكين بلاد الهند ، وقد كان ذلك الفتح سبباً فى توثق العلاقات بين المسلمين والهنود ، فكثر تبادل الآراء بينهم ، وانتشرت تجارة الهند بالعراق ، ووفد بعض الهنود إلى مدينة السلام .

« رأى أبى العلاء فى التناسخ »

فاذا شئت أن تعرف رأى أبى العلاء فى التناسخ ، أمكنك أن تلمحه فيما تقرؤه له فى هذا الفصل ، من السخرية والتبرم .

ولا ريب أن أبا العلاء ، درس هذا المذهب دراسة حقة ، فلم يرض عنه ، وأبدى ارتيابه فيه ، ثم شفع هذا الارتياب بالرفض الصريح فى أغلب أشعاره

فقد ذكر التناسخ فى صباه ، على سبيل اللهو والتندّر ، وان لم يفته أن يظهر ارتيابه فيه ، فى بيت من قصيدة له ، فى « سقط الزند » ، كتبها إلى إبراهيم بن إسحق مدحاً فيه ، وجواباً على قصيدة بعث بها اليه ، والبيت :

فلو صح التناسخ ، كنت « موسى » وكان أبوك « إسحق الذبيحا » !

ثم أنكره أكثر من مرة إنكاراً صريحاً فى لزومياته ، فقال :

يقولون : « إن الجسم ينقل روحه إلى غيره ، حتى يهذبه النقل »
فلا تقبلن ما يخبرونك ، ضلة ، إذا لم يؤيد ما أتوك به العقلُ

وتهكم بجماعة القائلين بهذا المذهب ، وأمعن فى السخرية منهم ، فقال :

يا آكل التفاح ! لا تبعدن ولا يُقم يومُ ردى ثا كلَك
قال النصيرىّ — وما قلته — فاسمع ، وشجع فى الوغى نا كلَكْ
قد كنت فى دهرك تفاحة وكان تفاحك ذا آكلَكْ
وحرفَ هاج لحت فيما مضى وطالما تشكلُه شا كلَكْ

والبيت الأخير سخرية من مذهب القائلين — ومنهم ابن سعيد العجلى ، وهو أحد من ادعى أنه المهدى المنتظر — « إن الأعضاء على صور حروف الهجاء ، وأن الألف منها مثال القدم ، والعين على صورة العين الخ »

وقد سخر من التناسخ وممن يدينون به ، فى موضع آخر ، فقال :

فما بال هذا العصر ، ما فيه آية من المسخ ، إن كانت « يهود » رأت مسخا

. . . . جُعِلَتْ أُخْتُنَا « سُكَيْنَةُ » فَارَهْ

وقال بأحكام التناسخ معشر غلوا ، فأجازوا الفسخ فى ذاك والرسخا

فقد قسموا التناسخ الى أربعة أقسام . نسخ ومسخ وفسخ ورسخ ، وقالوا عن الأول : إنه انتقال الروح من جسم إنسانى إلى آخر ، أو إلى جسم إنسانى أرفع منه . وعن الثانى إنه : انتقال الروح إلى البهائم ، وعن الثالث : إنه انتقالها إلى الحشرات . وعن الرابع : إنه انتقالها الى النبات أو الجماد ...

*
* *

و إنما تحفَّظ أبو العلاء فى ارتيابه فى التناسخ أحياناً ، فاحتاط فى بعض أشعاره ، ووقف على الحياد فى بعض آخر ، لارتباط هذه المسألة العويصة بالروح ومآلها . وقد جهل أبو العلاء كنه الروح ومآلها ، فرجم عنها بالظنون والفروض ، على أنه جزم بمآل الجسم ، وعرف غايته وتطوراته ، فقال :

أما الجسوم ، فللتراب مآلها وعييت بالأرواح ، أنى تذهب ؟

و إذ أيقن أن مآل الجسم الى التراب ، فقد افتن فى صيرورته ومآله حين أرسل خياله الى هذه الناحية ، فأبدع فى ذلك ما شاء له الخيال الصافى ، والعقل الراجح الحصيف . قال :

و إذا رجعت إليه صارت أعظمى تربا تهافت فى طوال الأعصر

وقال : خفف الوطء ، ما أظن أديم الـ أرض إلا من هذه الأجساد

وقال : ولرب أجساد جديرات البَرى بالصون صارت فى طلاء جدار

وقال : لعل مفاصل البنَّاء تضحى طلاء للسقيفة والجدار

وقال : و إن جعلت — بحمد الله — فى خزف يقضى الطهور ، فانى شاكر راضى

جواهر ألفتها قدرة عجب وزايلتها ، فصارت مثل أعراض

وقال : فلا يُمْسِ فخَّاراً — من الفخر — عائدٌ إلى عنصر الفخَّار للنفع يضرب

لعل إناء منه يصنع مرة فيأكل فيه — من أراد — و يشرب

و ينقل من أرض لأخرى — وما درى — فواهًا له ! بعد البلى — يتغرَّب !

فَازْجُرِى هَذِهِ السَّنَانِيرَ[1] عَنْهَا   وَاتْرُكِيهَا — وَمَا تَضُمُّ الْغِرَارَهْ[2]

وَقَالَ آخَرُ مِنْهُمْ :

تَبَارَكَ اللّٰهُ كَاشِفُ الْمِحَنِ   فَقَدْ أَرَانَا عَجَائِبَ الزَّمَنِ

حِمَارُ شَيْبَانَ ، شَيْخِ بَلْدَتِنَا ،   صَيَّرَهُ جَارُنَا أَبُو السَّكَنِ

بُدِّلَ مِنْ مِشْيَةٍ بِحُلَّتِهِ   مِشْيَتَهُ فِي الْحِزَامِ وَالرَّسَنِ[3]

إلى آخر تلك الأبيات التى لا يتسع المقام لذكرها . وقد اتجه فكر « عمر الخيام » إلى هذه الناحية ، فأبدع فيها وأحسن فى رباعياته ، وتمثل أكواباً تألفت من جسوم آدمية ؛ تتحادث وتُناقش، كما تمثل كوباً فى يد الخزاف يقص عليه تاريخ حياته ، ووردة عَطِرَة كانت غادة فاتنة، ماتت فاستحال جمالها إلى عطر شذى. وقد امتلأت «رباعياته» بهذه الفكرة ممثلة فى صور شتى ، وحسب القارىء أن نحيله إليها ليرى بنفسه ذلك . فقد كادت هذه الفكرة تصبح محور فلسفة الخيام فى الرباعيات .

*
* *

على أن أبا العلاء لم يرفض التناسخ جملة واحدة ، ولم يجزم ببطلانه جزم المتيقن الواثق فى كل مرة ، بل تردد فيه أحياناً فكاد يقبله ، فاذا رأيته يقول :

تقادم شخص مضى   فأحدث منه البدل

وما صح إلا امرؤ   تصرف ، ثم انجدل

رأيته يقول فى مكان آخر :

وتقدم الأرض نفوس أتت   مخلوقة من أنفس ثاوية

أو يقول : والجسم كالثوب — على روحه   ينزع — إذ يخلق ، أو يَنْسخ

(١) القطط   (٢) الجوالق ، ومعنى البيت : « فأبعدى عنها القطط حتى لا تؤذيها ، ودعيها تأكل من الغرارة ما تشاء »   (٣) يقول : « إن روح جارنا حلت فى حمار شيخ بلدتنا ، فأصبح ذلك الجار يمشى فى الحزام والرسن — بعد أن كان يختال فى حلته ! »

وَيُصَوِّرُ لَهُمُ الرَّأْيُ الْفَاسِدُ أَبَاجِيرَ[(١)] وَمُشَبَّهَاتٍ ، فَيَسْلُكُونَ فِي التُّرَّهَاتِ

مذهب التناسخ فى الهند

وَحُكِيَ لِي عَنْ بَعْضِ مُلُوكِ الْهِنْدِ ، وَكَانَ شَابًّا حَسَنًا ، أَنَّهُ جُدِرَ ، فَنَظَرَ إِلَى وَجْهِهِ فِي الْمِرْآةِ وَقَدْ تَغَيَّرَ ، فَأَحْرَقَ نَفْسَهُ ، وَقَالَ : « أُرِيدُ أَنْ يَنْقُلَنِي اللهُ إِلَى صُورَةٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ ! »

*
* *

وَحَدَّثَنِي قَوْمٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، مَا هُمْ فِي الْحِكَايَةِ بِكَاذِبِينَ ، وَلاَ فِي أَسْبَابِ النِّحَلِ جَاذِبِينَ : أَنَّهُمْ كَانُوا فِي بِلاَدِ مَحْمُودٍ ، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْهِنْدِ ، قَدْ وَثِقَ بِصَفَائِهِمْ ، يُفِيضُ عَلَيْهِمُ الْأَعْطِيَةَ لِوَفَائِهِمْ ، وَيَكُونُونَ أَقْرَبَ الْجُنْدِ إِلَيْهِ إِذَا حَلَّ أَوِ ارْتَحَلَ ، وَأَنَّ رَجُلاً مِنْهُمْ سَافَرَ فِي جَيْشٍ جَهَّزَهُ ، فَجَاءَ خَبَرُهُ أَنَّهُ قَدْ هَلَكَ ، فَجَمَعَتِ امْرَأَتُهُ لَهَا حَطَباً كَثِيراً ، وَأَوْقَدَتْ نَاراً عَظِيمَةً ، وَاقْتَحَمَتْهَا ، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ . وَكَانَ ذَلِكَ الْخَبَرُ بَاطِلاً ، فَلَمَّا قَدِمَ الزَّوْجُ ، أَوْقَدَ لَهُ نَاراً عَظِيمَةً لِيُحْرِقَ نَفْسَهُ ، حَتَّى يَلْحَقَ بِصَاحِبَتِهِ ، فَاجْتَمَعَ خَلْقٌ كَثِيرٌ لِلنَّظَرِ إِلَيْهِ . وَأَنَّ أَصْحَابَهُ مِنَ الْهِنْدِ كَانُوا يَجِيئُونَ إِلَيْهِ فَيُوصُونَهُ بِأَشْيَاءَ إِلَى أَمْوَاتِهِمْ[(٢)] . هَذَا إِلَى أَبِيهِ ، وَهَذَا إِلَى أَخِيهِ . وَجَاءَهُ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ بِوَرْدَةٍ ، وَقَالَ : « أَعْطِ هَذِهِ فُلاَناً » يَعْنِي مَيِّتاً لَهُ . وَقَذَفَ نَفْسَهُ فِي تِلْكَ النَّارِ .

---

(١) أموراً عظيمة، وأعاجيب (واحدها : بجر ، وجمعها : أباجر، وجمج : أباجير ») قال الشاعر:

فقلت لها : « بجرا » فقالت مجيبتى : « أتعجب من هذا — ولى زوج آخر »

(٢) أشار أبو العلاء إلى ذلك فى لزومياته فقال

تقول الهند : « آدم كان قنا لنا ، فسرى إليـه مُخَبَّبُوه »
أولئك يحرقون الميت نسكا ويشعره لبانا ملهبـوه

وَحدَّثَ مَنْ شَاهَدَ إِحْرَاقَهُمْ نُفُوسَهُمْ ، أَنَّهُمْ إِذَا لَدَغَتْهُمُ النَّارُ ، أَرَادُوا الْخُرُوجَ ، فَيَدْفَعُهُمْ مَنْ حَضَرَ إِلَيْهَا بِالْعِصِيِّ وَالْخُشُبِ . فَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ! ...

ونذكر بهذه المناسبة ، قوله فى تحبيذ ما يفعله الهند من إحراق موتاهم :

فاعجب لتحريق أهل الهند ميتهم وذاك أروح من طول التباريح
إن حرقوه ، فما يخشون من ضبع تسرى إليه ولا خَفْيٍ وتطريح
والنار أطيب من كافور ميتنا غباً ، وأذهب للنكراء والريح

« والخفى : نبش الميت » وقوله :

حرق الهند من يموت ، فما زا روه فى روحة ولا تبكير
واستراحو من ضغطة القبر ميتاً وسؤال لمنكر ونكير !

وقوله :

إذا حرق الهندىّ بالنار نفسه فلم يبق لحض للتراب ولا عظم
فهل هو خاش من نكير ومنكر وضغطة قبر — لا يقوم لها نظم ؟

بل لقد وصل إكباره و إعجابه بذلك ، إلى حد أن فضله على الجهاد ، فقال :

يحرّق نفسه الهندىّ خوفاً و يقصر — دون ما صَنَع — الجهاد
وما فعلته عبّاد النصارى ولا شرعية صبأوا وهادوا
يقرب نفسه للنار عمداً وذلك منه دين واجتهاد

وهنا يحن أبو العلاء إلى الموت حنيناً — كما هى عادته الغالبة عليه — فيقول :

وموت المرء نوم طال جدًّا عليه ، وكل عيشته سهاد

وهو أسلوب آخر من فكرته التى أودعها داليته الخالدة فى قوله :

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها ، والعيش مثل السهاد

وارجع الى ص ٢٠٥ و ٢٠٦ من هذا الجزء ، لتعرف رأى أبى العلاء فى الموت

ابن هانىء الأندلسى

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِالْمَذْهَبِ وَلاَ يَعْتَقِدُهُ ، يَتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ[1] ، وَهِىَ أَغْدَرُ مِنَ الْوَرْهَاءِ الزَّانِيَةِ . وَكَانَ لَهُمْ فِى الْمَغْرِبِ رَجُلٌ

---

(١) ردد أبو العلاء هذا المعنى بصور شتى فى كثير من أشعاره ، وأنحى على تلك الطائفة التى اتخذت الدين وسيلة للكسب والنفع . وقد أتينا ببضع أمثلة من ذلك فى ص « ٢١٧ » من هذا الجزء ، و إليك نخبة من أبدع ما نختاره له فى ذلك :

بخيفــة الله تعبدتنــا ... وأنت عين الظالم اللاهى
تأمرنا بالزهد فى هذه الد ... نيا ، وما همك إلا هى !

تلاوتكم ليست لرشد ولا هدى ... ولكن لكم فيها التكاثر والكبر

وليس حــبر بيــدع فى صحابتــه ... إن سام نفعاً بأخبــار تقوّلها
و إنمــا رام نسواناً تزوجهــا ... — بما افتراه — وأموالا تموّلها
لا يخــدعنك داع قام فى ملأ ... بخطبــة زانــ معناها وطوّلها
فما العظات — و إن راعت — سوى حيل ... من ذى مقال على ناس تحوّلها

رو يدك قد غررت — وأنت حر — ... بصاحب حيــلة يعظ النساء
يحــرم فيكــم الصهباء صبحا ... و يشربها — على عمــد — مساء
يقول لكم : « غدوت بلا كساء » ... وفى لذاتها رهن الكساء !

طلب الحسائس وارتقى فى منــبر ... يصف الحساب لأمــة ليهولها
و يكون غــير مصدق بقيامة ... أمسى يمثــل فى النفوس ذهولها

وكم من فقيــه خابط فى ضلالة ... وحجته فيها الكتاب المنزّل
وقارئكم يرجو بتطريبــه الغــنى ... فآض كما غنى — ليكسب — زلزل

« وزلزل » هذا مُغَنٍّ يضرب به المثل فى اتقان الضرب بالعود

يُعْرَفُ بِابْنِ هَانِئٍ، وَكَانَ مِنْ شُعَرَائِهِم الْمُجِيدِينَ، فَكَانَ يَغْلُو فِي مَدْحِ «الْمُعِزِّ» غُلُوًّا عَظِيمًا، حَتَّى قَالَ فِيهِ — وَقَدْ نَزَلَ بِمَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «رَقَّادَة» — :

«حَلَّ بِرَقَّادَةَ الْمَسِيحُ   حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللهُ ذُو الْمَعَالِي   وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيحُ»

عودة الى الحلاج

وأدلُّ رُتَبِ الْحَلَّاجِ أَنْ يَكُونَ شَعْوَذِيًّا، لَا ثَاقِبَ الْفَهْمِ وَلَا أَحْوَذِيًّا[١]، عَلَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ تُعَظِّمُهُ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ، مَا هِيَ لِأَمْرِهِ شَائِفَةٌ

ابن أبى عون

وَأَمَّا ابْنُ أَبِي عَوْنٍ، فَإِنَّهُ أَخَذَ فِي لَوْنٍ بَعْدَ لَوْنٍ، وَقَدْ تَجِدُ الرَّجُلَ حَاذِقًا فِي الصِّنَاعَةِ، بَلِيغًا فِي النَّظَرِ وَالْحُجَّةِ، فَإِذَا رَجَعَ إِلَى الدِّيَانَةِ أُلْفِيَ كَأَنَّهُ غَيْرُ مُقْتَادٍ، وَإِنَّمَا يَتْبَعُ مَا يَعْتَادُ. وَالتَّأَلُّهُ مَوْجُودٌ فِي الْغَرَائِزِ، وَيُلَقَّنُ الطِّفْلُ النَّاشِئُ مَا سَمِعَهُ مِنَ الْأَكَابِرِ، فَيَلْبَثُ مَعَهُ. وَالَّذِينَ يَسْكُنُونَ فِي الصَّوَامِعِ، وَالْمُتَعَبِّدُونَ فِي الْجَوَامِعِ، يَأْخُذُونَ مَاهُمْ عَلَيْهِ، كَنَقْلِ الْخَبَرِ عَنِ الْمُخَبِّرِ، لَا يُمَيِّزُونَ الصِّدْقَ مِنَ الْكَذِبِ. فَلَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ أُلْفِيَ أُسْرَةً مِنَ الْمَجُوسِ لَخَرَجَ مَجُوسِيًّا[٢]. وَإِذَا الْمَعْقُولُ جُعِلَ هَادِيًا، نَقَعَ بِرِيِّهِ صَادِيًا. وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ

---

(١) يسوق الأمور أحسن مساق لعلمه بها، والأحوذى أيضاً: الحاذق المشمر للأمور القاهر لها، لا يشذ عليه شيء (٢) من أبدع ما نختاره لأبى العلاء، فى هذا المعنى، قوله فى لزومياته:

وينشأ ناشىء الفتيان منا   على ما كان عوده أبوه
وما دان الفتى بحجا، ولكن   يعلمه التدين أقربوه
وطفل الفارسى، له ولاة   بأفعال التمجس دربوه

يَصْبِرُ عَلَى أَحْكَامِ الْعَقْلِ[1] ؟ هيْهَاتَ ! عُدِمَ ذَلِكَ فى مَنْ تَطْلُعُ عَلَيْه الشَّمْسُ ،

(١) لو شئنا الاستشهاد بكل ما كتبه أبو العلاء فى النعى على التقليد ؛ والحث على تمجيد العقل ، والاعتزاز به ، والدعوة إلى تحكيمه فى كل شىء ؛ لملأنا صحفاً كثيرة ، لا يسمح لنا بها هذا المقام . فلنجتزىء من ذلك بالقليل عن الكثير ، و إليك ما نختاره له :

اللب قطب ، والأمور له رحى ... فيــه تدبر كلها وتدار

العقـــل يوضح للنسـ ... ـك منهجاً ، فاحذ حذوه
وليس يظـــلم قلب ... وفيــه للب جذوه

كذب الناس ، لا إمام سوى العقـ ... ـل مشــيراً فى صبحه والمساء
فإذا ما أطعتــه جلب الرحـ ... ـمة عنــد المسـير والإرساء

صدقت ياعقل ، فليبعد أخو سفه ... صاغ الأحاديث إفـكا أو تأولها

فلا تقبلن ما يخبرونك ضلة ... إذا لم يؤيد ما أتوك به العقل

نكذب العقل فى تصديق كاذبهم ... والعقل أولى بإكرام وتصديق

و ينفر عقلى مغضباً إن تركتـه ... سدى ، واتبعت الشافعى ومالـكا

والعقل يعجب ، والشرائع كلهــا ... خبر يقـــلد ، لم يقسه قائس

. . . .

و إذا الرياسة لم تعن بسياسة ... عقلية ، خطىء الصواب السائس

قالوا ، فمانوا ، فلما أن حدوتهمُ ... إلى القياس ، أبانوا العجز واعترفوا

و إذا ما سألت أصحــاب دين ... غـيروا بالقيــاس ما رتبـوه
لا يدينون بالعقـــول ، ولكن ... بأباطيـل زخرف كذبوه

وجاءتنـــا شرائع كل قـــوم ... على آثار شىء رتبـــوه

وغير بعضهـــم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبـــوه

فاحذر، ولا تدع الأمور مضاعة وانظر بقلب مفكر متبصـــر

تفكر، فقد حار هذا الدليـــل وما يكشف النهج غير الفكر

الفكر حبل متى يمسك على طرف منه، ينط بالثريا ذلك الطـــرف

فكروا فى الأمور يكشف لكم بعـــض الذى تجهلون بالتفكير

فكرى أنت، ربما هدى الإنـــسان للمشكلات بالتفكير

إذا كان التقى بلَهْـــا وَعِيًّا فأعيار المـــذلة أتقيـــاء

وما تريك مرائى العين صادقـــة فاجعل لنفسك مرآة من الفكر

وجدتَ أباك مفترياً حـــديثاً فأنت على مقص الشيخ تفـــرى

عاشوا كما عاش آباء لهم سلفوا وأورثوا الدين تقليداً كما وجـدوا

فما يراعون ما قالوا وما سمعوا ولا يبالون — من غى — لمن سجدوا

فى كل أمرك تقليـــد رضيت به حتى مقالك: «ربى واحد أحد»

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأناً، ولكن فيهـــا ضعف إسناد

فشاور العقل، واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمه النادى

إذا رجع الحصيف إلى حجاه تهـــاون بالمذاهب وازدراها

فخـذ منها بمـــا أداه لب ولا يغمسك جهـل فى صراها

وهت أديانهم من كل وجه فهل عقل يشد بهـــا عراها؟

هل صح قول من الحاكى فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار؟

أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس، له بالصدق إثمار

رُبَّما لقينا مَنْ نظَرَ فى كُتُبِ الْحُكماء، وَتَبِعَ بعْضَ آثارِ القُدَماء، فألْفيْناهُ يَسْتَحْسِنُ قبيحَ الأُمور، إنْ قَدَرَ على فَظيعٍ رَكِبَهُ، وَإنْ عَرَفَ وَاجباً نَكَبَهُ، كأنَّ العالَمَ سَعَوْا لهُ فى إفْقادٍ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ شَرَّ اعْتِقادٍ؛ وَإنْ أُودِعَ وَديعَةً خانَ، وَإنْ سُئِلَ عَنْ شَهادَةٍ مانَ[1]، وَإنْ وَصَفَ لِعَليلٍ صِفَةً، فَما يَحْفِلُ: أقَتَلَهُ بِما قالَ، أمْ ضاعَفَ عَلَيْهِ الأثْقالَ؟ بَلْ غَرَضُهُ فِيما يَكْتَسِبُ، وَهُوَ إلى الحِكْمَةِ مُنْتَسِبٌ. وَرُبَّ زارٍ بِالْجَهالَةِ عَلى أَهْلِ مِلَّةٍ، وَعِلَّتُهُ الباطِنَةُ أَدْهى عِلَّةٍ!

وَإنَّ الْبَشَرَ لَكَما جاءَ فى الْكِتابِ الْعَزيزِ: «كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[2]» وَيَحْضُرَ الْمَجالِسَ أُناسٌ طاغُونَ، كأنَّهُمْ لِلرُّشْدِ باغُونَ، وَأُولَئِكَ — عَلِمَ اللهُ — أَصْحابُ الْبِدَعِ وَالْمُنْكَرِ.

كَمْ مُتَظاهِرٍ بِاعْتِزالٍ، يَزْعُمُ أَنَّ رَبَّهُ — عَلى الذَّرَّةِ — يُخَلِّدُ فى النّارِ[3]، بَلْهَ الدِّرْهَمَ وَبَلْهَ الدِّينارَ، وَما يَنْفَكُّ يَحْتَقِبُ[4] مِنَ الْمآثِمِ عَظائِمَ، وَيَنْهَمِكُ عَلى الْعِهارِ وَالْفِسْقِ. قَدْ صَيَّرَ الْجَدَلَ مَصيدَةً، يَنْظِمُ بِهِ مِنَ الْغَيِّ قَصيدَةً[5].

* * *

وَحُدِّثْتُ عَنْ إمامٍ لَهُمْ، يُوَقَّرُ وَيُتَّبَعُ، أَنَّهُ كانَ إذا جَلَسَ فى الشَّرْبِ[6]،

---

(١) مان: كذب (٢) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء:

وفرقتهم على — علاتها — ملل وعند كل فريق أنهم ثقفوا

(٣) ذكر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته، فقال:

جنوا كبائر آثام، وقد زعموا أن الصغائر تجنى الخلد فى النار

وقال: لقد أفلحوا إن كان لم يجر عندهم من الوزر إلا تركهم للمآزر!

(٤) احتقب الشيء: وضعه فى حقيبة، والمراد: يقترف ويكتسب (٥) ارجع الى ص « ٢٥٤ » من هذا الجزء لتستوفى هذا المعنى (٦) الشَّرْب: مجلس الشراب

وَدَارَتْ عَلَيْهِمُ الْمُسْكِرَةُ ، وَجَاءَهُ الْقَدَحُ ، شَرِبَهُ ، فَاسْتَوْفَاهُ ، وَأَشْهَدَ مَنْ حَضَرَهُ عَلَى التَّوْبَةِ ! ......

عبد الله بن ميمون القداح

وَالشِّيعَةُ يَزْعُمُونَ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحَ — وَهُوَ مِنْ «بَاهِلَةَ» — كَانَ مِنْ عِلْيَةِ أَصْحَابِ «جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ» وَرَوَى عَنْهُ شَيْئًا كَثِيراً ، ثُمَّ ارْتَدَّ بَعْدَ ذَلِكَ . فَحَدَّثَنِي بَعْضُ شُيُوخِهِمْ أَنَّهُمْ يَرْوُونَ عَنْهُ ، وَيَقُولُونَ : «حَدَّثَنَا عَبْدُ اللهِ ابْنُ مَيْمُونٍ الْقَدَّاحُ ، كَأَحْسَنِ مَا كَانَ ! » أَىْ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ . وَيَرْوُونَ لَهُ :

هَاتِ اسْقِنِى الْخَمْرَةَ يَا سَنْبَرُ   فَلَيْسَ عِنْدِى أَنَّنِى أُنْشَرُ
أَمَا تَرَى الشِّيعَةَ فِى فِتْنَةٍ   يَغُرُّهَا مِنْ دِينِهَا «جَعْفَرُ» ؟
قَدْ كُنْتُ مَغْرُورًا بِهِ بُرْهَةً   ثُمَّ بَدَا لِى خَبَرٌ يُسْتَرُ

وَمِمَّا يُنْسَبُ إِلَيْهِ :

مَشَيْتُ إِلَى جَعْفَرٍ حِقْبَةً   فَأَلْفَيْتُهُ خَادِعًا يَخْلُبُ
يَجُرُّ الْعَلَاءَ إِلَى نَفْسِهِ   وَكُلٌّ إِلَى حَبْلِهِ يَجْذِبُ
فَلَوْ كَانَ أَمْرُكُمُ صَادِقًا   لَمَا ظَلَّ مَقْتُولُكُمْ يُسْحَبُ
وَلَا غُضَّ مِنْكُمْ قَتِيلٌ ، وَلَا   سَمَا «عُمَرٌ» فَوْقَكُمْ يَخْطُبُ

وَالْحُلُولِيَّةُ قَرِيبَةٌ مِنْ مَذْهَبِ التَّنَاسُخِ ، وَحُدِّثْتُ عَنْ رَجُلٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمُنَجِّمِينَ[1] مِنْ أَهْلِ «حَرَّانَ» ، أَقَامَ فِى بَلَدِنَا زَمَانًا ، فَخَرَجَ مَرَّةً مَعَ قَوْمٍ

---

(١) رأى أبى العلاء فى المنجمين

لأبى العلاء فى المنجمين والعرافين أسوأ رأى ، فهو يحتقرهم و يتنقصهم فى كل مناسبة تعن له ، وقد بلغ من سخطه عليهم أن تمنى لو كان له من الأَيْدِ والسلطان ما يمكنه من استئصال

يَتَنَزَّهُونَ ، فَمَرَّ وَالثَّوْرُ يَكْرُبُ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : « لَاشَكَّ فِى أَنَّ هَذَا الثَّوْرَ

شأفتهم ، فقال :

لو كان لى أمر يطاوع لم يشن ظهر الطريق — يدَ الحياة[1] — منجم
يغدو بزخرفه يحاول مكسبا فيدير أسْطرْلَابَهُ ويرجِّم
وقفت به الورهاء — وهى كأنها عند الوقوف — على عرين تهجم
سألته عن زوج لها متغير ، فاهتاج يكتب بالرقان[2] ويعجم
ويقول : « ما اسمك واسم أمك ؟ إننى بالظن عما فى الغيوب مترجم »
يولى بأن الجن تطرق بيته وله يدين فصيحها والأعجم

إلى آخر تلك القصيدة الجميلة . و إنى أحيل القارىء إليها فى اللزوميات ، وأحب ألاّ تفوته .

وللمعرى فى المنجمين والعرافين أشعار كثيرة ، نختار منها النخبة التالية :

سألتْ مُنجِّمها عن الطفل الذى فى المهد : « كم هو عائش من دهره ؟ »
فأجابها : « مائة » ليأخذ درهما وأتى الحمام وليدها فى شهره !

كأن منجم الأقوام أعمى لديه الصحْف يقرؤها بلمس

قطع الطريق بمهمه ونظيره فى المصر ، فعل منجم ومعزم

شكا الأذى ، فسهرت الليل ، وابتكرت به الفتاة إلى شمطاء ترقيه
وأمه تسأل العراف قاضية عنه النذور ، لعل الله يبقيه
وأنت أرشد منها حين تحمله إلى الطبيب يداويه ويسقيه

لقد بكرت فى خفها وإزارها لتسأل بالأمر الضرير المنجما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحجا فيرجما
يقول : « غداً أو بعده وقع ديمة يكون غياثاً أن تجود وتسجما »

---

(١) يد الحياة : طولها ، أى أبد الدهر (٢) الزعفران

رَجُلٌ كَانَ يعرَفُ بِخَلَفَ « بِحَرَّانَ » وَجَعَلَ يَصِيحُ بِهِ : « يَا خَلَفُ! » فَيَتَّفِقُ أَنْ يَخُورَ ذَلِكَ الثَّوْرُ ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ : « أَلاَ تَرَوْنَ صِحَّةَ مَا خَبَّرْتُكُمْ بِهِ ؟ ! »

*
* *

وَحُكِيَ لِي عَنْ رَجُلٍ آخَرَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالتَّنَاسُخِ، أَنَّهُ قَالَ : « رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَبِي، وَهُوَ يَقُولُ : « أُبُنَيَّ ! إِنَّ رُوحِي قَدْ نُقِلَتْ إِلَى جَمَلٍ أَعْوَرَ فِي قِطَارِ فُلاَنٍ، وَإِنِّي قَدِ اشْتَهَيْتُ بِطِّيخَةً » فَأَخَذْتُ بِطِّيخَةً ، وَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ الْقِطَارِ ، فَوَجَدْتُ فِيهِ جَمَلاً أَعْوَرَ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ بِالْبِطِّيخَةِ ، فَأَخَذَهَا أَخْذَ مُرِيدٍ مُشْتَهٍ »

ويوهم جهال المحلة أنه ... يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صدره ... لجاء بِمَيْنٍ أو أرَمَّ وجمجما
كأن سحاباً عمهم بضلالة ... فليس إلى يوم القيامة مُنجما
إذا قال أهل اللب : «حان انسفاره» ... تداركه غيم سواه فأثجما
فإن كنت قد وقفت ، فانج بوحدة ... وخل البرايا من فصيح وأعجما
ولا تك — فيما يكره القوم — ساعيا ... ولا مسرجا فى نصر غيرك مُلجما

وانظر إلى قوله فى السخط على المنجمات فى قصيدة « المرأة » الرائعة :

وأبعدهن عن ربات مكر ... سواحر يفتدين معرمات
يقلن نهيج الغياب ، حتى ... يجيئوا بالركاب مزممات
ونعطف هاجر الخلان ؛ كيما ... يزول عن السجايا المسئمات
وجمع طوائف العمار ، سهل ... علينا بالجوالب موذمات
زعمن بأن فى مغنى فقير ... كنوزا للملوك مصتّمات
فلا يدخلن دارك باختيار ... فقد ألفيتهن مـذممات
وإن خالسن غِرّتك ارتقابا ... فحق أن يرحن مشتّمات

أَفَلاَ يَرَى مَوْلاَىَ الشَّيْخُ إِلى مَا رُمِىَ بِهِ هَذَا الْبَشَرُ مِنْ سُوءِ التَّمْيِيزِ ؟ .

ابن الراوندى(١)

وَأَمَّا أبْنُ الرَّاوَنْدِىِّ ، فَلَمْ يَكُنْ إِلَى الْمَصْلَحَةِ بِمَهْدِىٍّ ، وَأَمَّا تَاجُهُ فَلاَ يَصْلُحُ

---

(١) ابن الراوندى

اسمه أحمد بن يحى بن إسحق الراوندى ، كنيته أبو الحسين ، وهو ينسب إلى « راوند » إحدى قرى أصبهان ، مات فى سن الأربعين فى سنة ٢٤٥ ﻫ . ، وكان أبوه يهوديًّا فأسلم ، فكان اليهود يقولون للمسلمين : «ليفسدنّ عليكم هذا كتابكم ، كما أفسد أبوه التوراة علينا ! »

وكان من متكلمى المعتزلة ، وانفرد بمذاهب نقلها أهل الكلام عنه فى كتبهم ؛ قالوا : « ولم يكن فى زمانه أحذق منه بالكلام ، ولا أعرف بدقيقه وجليله » وكان يلازم أهل الإلحاد ؛ فإذا عوتب فى ذلك ، ادعى أنه يريد معرفة مذاهبهم ، ثم صار بعد ملحداً زنديقاً

وأوجز ما ننعته به ، أنه رجل لا يستقر على مبدأ ، وليس للمبادئ قيمة عنده ، فقد كان مسلماً ، ولكن ذلك لم يمنعه أن يصنف « كتاب البصيرة » لليهود ، ردا على الاسلام ، نظير أربعمائة درهم دفعوها له ، فلما قبض المال ، رام نقضه ، فلما أعطوه مائة درهم أخرى عدل عن ذلك ! وكان من متكلمى المعتزلة ، فلم يمنعه ذلك من أن يؤلف كتابه الذى سماه : « فضيحة المعتزلة » وقد ألف كتباً أخرى متناقضة ، ولكن أكثرها كان إلحاديا شديد الجرأة .

وقد نيفت كتبه على المائة — ذكر ابن القارح أهمها وأشنعها فى رسالته — وكان له ذوق خاص فى تسمية كتبه ، فقد أطلق اسم « الزمردة » على كتابه الذى دلل فيه على فساد الرسالة والرسل ، وازدرى فيه بالنبوات ، وعلل هذه التسمية بأن من خواص الزمرد ، أن الحيـة ـ إذا نظرت إليه ـ ذابت وسالت عيناها ، وكذلك يحدثُ لخصومه حين يقرأون كتابه !

ومما زعمه فيه قوله : « إنا نجد فى كلام «أكثم بن صيفى» شيئاً أحسن من «إنا أعطيناك الكوثر» و إن الأنبياء كانوا يستعبدون الناس بالطلاسم ..... الخ »

أَنْ يَكُونَ نَعْلاً ، وَهَلْ تَاجُهُ[١] إِلاَّ كَمَا قَالَتِ الْكَاهِنَةُ : « أُفٌّ وَتُفٌّ » مَا تَاجُهُ بِتَاجِ مَلِكٍ ، وَلَكِنْ دُعِيَ بِالْمُهْلِكِ ؛ وَلاَ اتُّخِذَ مِنَ الذَّهَبِ ، وَسَوْفَ يُصَوَّرُ مِنَ اللَّهَبِ !

وَأَمَّا « الدَّامِغُ[٢] » فَمَا إِخَالُهُ دَمَغَ إِلاَّ مَنْ أَلَّفَهُ . . .

بِئْسَ مَنْ نُسِبَ إِلَى « رَاوَنْدَ » إِنَّمَا هَتَكَ قَمِيصَهُ ، وَأَبَانَ لِلنَّاظِرِ خَمِيصَهُ !

القرآن الكريم

وَأَجْمَعَ مُلْحِدٌ وَمُهْتَدٍ ، أَنَّ هَذَا الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ — صَلَّى اللهُ

وقد ذكر فى كتبه الأخرى آراء لا تقل عن هذه جرأة وشناعة على الأنبياء والدين ، فقد طعن على النبى صلى الله عليه وسلم فى كتابه (الفريد) وطعن على القرآن ، وعاب نظمه فى كتابه (الدامغ) . ومما ورد فيه قوله : « إن الله — سبحانه وتعالى — ليس عنده من الدواء إلا القتل ، فعل العدو الحنق الغضوب ، فما حاجته إلى كتاب ورسول ؟ . . وقال فى وصف الجنة : « فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه » وهو الحليب ، ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع ، وذكر العسل ؛ ولا يطلب صرفا . والزنجبيل ، وليس من لذيذ الأشربة . والسندس ، وهو يفترش ولا يلبس . وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج ، ومن تخايل بأنه فى الجنة يلبس هذا الغليظ ، و يشرب الحليب والزنجبيل ، صار كعروس الأكراد والنبط ! »

وقد مر بك طرف من أخباره فى رسالة ابن القارح ، وسيمر بك طرف آخر فى فصل آخر من هذا الكتاب ، فلنكتف بهذا القدر هنا .

(١) يعنى كتاب « التاج » الذى ألفه ابن الراوندى يحتج فيه لقدم العالم .

(٢) هو اسم الكتاب الذى ألفه ، وطعن فيه على نظم القرآن .

عَلَيْهِ — كِتَابٌ بَهَرَ بِالْإِعْجَازِ ، وَلَقِيَ عَدُوَّهُ بِالإِرْجَازِ ، مَا حُذِيَ عَلَى مِثَالٍ ، وَلاَ أَشْبَهَ غَرِيبَ الْأَمْثَالِ . مَا هُوَ مِنَ الْقَصِيدِ الْمَوْزُونِ ، وَلاَ الرَّجَزِ ، وَلاَ شَاكَلَ خِطَابَةَ الْعَرَبِ ، وَلاَ سَجْعَ الْكَهَنَةِ . وَجَاءَ كَالشَّمْسِ ، لَوْ فَهِمَهُ الْهَضْبُ لَتَصَدَّعَ . وَإِنَّ الآيَةَ مِنْهُ — أَوْ بَعْضَ الآيَةِ — لَتَعْتَرِضُ فِي أَفْصَحِ كَلِمٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُونَ ، فَتَكُونُ فِيهِ كَالشِّهَابِ الْمُتَلَأْلِئِ فِي جُنْحِ غَسَقٍ ، وَالزَّهْرَةِ الْبَادِيَةِ فِي جَدُوبٍ . فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ !

* * *

وَأَمَّا « الْقَضِيبُ[1] » فَمَنْ عَمِلَهُ أَخْسَرُ صَفْقَةً مِنْ « قَضِيبٍ[2] » ، وَخَيْرٌ لَهُ مِنْ إِنْشَائِهِ ، لَوْ رَكِبَ قَضِيباً[3] عِنْدَ عِشَائِهِ[4] ، فَقَذَفَتْ بِهِ عَلَى قَتَادٍ[5] ، وَنَزَعَتِ الْمَفَاصِلَ كَنَزْعِ الْأَوْتَادِ :

إِنَّ الطِّرِمَّاحَ يَهْجُونِي لِأَشْتُمَهُ ... هَيْهَاتَ ! هَيْهَاتَ ! عِيلَتْ — دُونَهُ — الْقُضُبُ

* * *

وَأَمَّا « الْفَرِيدُ[6] » فَأَفْرَدَهُ مِنْ كُلِّ خَلِيلٍ ، وَأَلْبَسَهُ — فِي الْأَبَدِ — بُرْدَ الذَّلِيلِ ، وَمَنِ انْفَرَدَ بِعِزِّهِ لِوَقَارِهِ ، فَإِنَّ « فَرِيدَ » ذَلِكَ الْجَاحِدِ يَنْفَرِدُ لِحَقَارَتِهِ ، كَأَنَّهُ الْأَجْرَبُ . وَإِذَا جَذِلَتِ الْغَانِيَةُ بِفَرِيدِ النِّظَامِ ، فَهُوَ

---

(١) هو اسم الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى فى إثبات أن الله محدث وأنه كان غير عالم ، حتى خلق لنفسه علماً (٢) هو تمّار بالبحرين يضرب به المثل ، وحكايته أنه اشترى « قوصرّة تمر » وكان فيها بدرة ، فلحقه صاحبها واستردها ، واستخرج البدرة منها ، فقتل (قضيب) نفسه لهفة عليها (٣) ناقة لم تُرض (٤) أى ليلاً ، والناقة التى لم ترض ، إذا مشت بالليل ، تحقق لراكبها الويل . . . ! (٥) شجر صلب له شوك كالإبر (٦) هو اسم الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى فى الطعن على النبى صلوات الله عليه

قِلاَدَةُ مَآثِمَ عِظَامٍ . وَأَمَّا « الْمَرْجَانُ » فَإِذَا قِيلَ : إِنَّهُ صِغَارُ اللُّؤْلُؤِ ، فَمَعَاذَ اللهِ أَنْ يَكُونَ « مَرْجَانُهُ[1] » صِغَارَ حَصًى ، بَلْ أَخَسُّ مِنْ أَنْ يُذْكَرَ !

ابن الرومى[2]

وَأَمَّا « ابْنُ الرُّومِيِّ » فَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَالُ : « إِنَّ أَدَبَهُ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ

(١) « المرجان » هو اسم الكتاب الذى ألفه ابن الراوندى فى اختلاف أهل الإسلام

(٢) ابن الرومى — ٢٢١ — ٢٨٣ هـ

اسمه على بن العبـــاس بن جريج (أوجور جيس) مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر ، وكنيته أبو الحسن ، و يعرف بابن الرومى (نسبة إلى أصله)

كانت ولادته بعد طلوع فجر يوم الأربعاء لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ هـ فى الموضع المعروف « بالعقبة ودرب الختلية » فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر — ووفاته يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٢٨٣ هـ فدفنوه فى مقبرة البستان . وكانت ولادته وموته فى بغداد .

وعلى ذلك يكون « ابن الرومى » قد أظلته تسع خلافات ، وهى خلافات : « المعتصم[1] » و « الواثق[2] » و « المتوكل[3] » و « المنتصر[4] » و « المستعين[5] » و « المعتز[6] » و « المهتدى[7] » و « المعتمد[8] » و « المعتضد[9] » .

وكان شعره غير مرتب ، رواه « المتنبى » عنه ، ثم جمعه « أبو بكر الصولى » ورتبه على الحروف ، وجمعه « أبو الطيب » وراق بن عبدوس ، وزاد فى جميع النسخ نحو ألف بيت

« سبب موته »

وصل « ابن الرومى » فى الهجو والتصرف بمعانيه وأساليبه ، والإفحاش فى ذلك ، إلى حد

(١) « ٢١٨ — ٢٢٧ هـ » (٢) « ٢٢٧ — ٢٣٢ هـ » (٣) « ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ »
(٤) « ٢٤٧ — ٢٤٨ هـ » (٥) « ٢٤٨ — ٢٥٢ هـ » (٦) « ٢٥٢ — ٢٥٥ هـ »
(٧) « ٢٥٥ — ٢٥٦ هـ » (٨) « ٢٥٦ — ٢٧٩ هـ » (٩) « ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ »

خافه معه معاصروه ، فلم يكد يسلم أحد من خوفه ، حتى لقد خافه « أبو الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب » وزير الإمام « المعتضد » مع ما اشتهر به هذا الوزير من الاستبداد ، والجرأة على سفك الدماء !

اشتهر ابن الرومى بالجرأة على هجاء الأمراء — بلا هوادة ولا رفق — واشتهر الوزير « القاسم » بالميل إلى الانتقام ، وعدم التردد فى قتل من يناوئه و يناصبه العداء ، وكان يخشى فلتات لسان ابن الرومى ، و يعلم أنه لن يسلم من هجائه أو سلاطته يوماً ما . فلما هجاه « ابن الرومى » استشاط غضباً ، وفكر فى قتله انتقاماً منه . فدس إليــه « ابن فراس » — وهو ممن أفحش « ابن الرومى » فى هجائهم — فأطعمه « خشكنانه » مسمومة — وهو فى مجلس « القاسم » — فلما أكلها « ابن الرومى » أحس بالسم ، وأدرك المكيدة ، فقام ، فقال له الوزير : « إلى أين تذهب ؟ » فأجابه : « إلى الموضع الذى بعثتنى إليه ! » فقال له : « سلم على والدى » فقال : « ليس طريقى على النار ! »

وخرج من مجلسه ، وأتى منزله ، وأقام أياماً ، ومات

« دقة ابن الرومى وتغلغله فى المعانى »

« يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » « ابن خلكان »

قال أحد كتاب الانجليز : « ليست الصعوبة التى تعترض الكاتب أو الشاعر هى أن يكتب أو ينظم فى موضوع ما ، ولكنها فى أن يقول كل ما يعنيه بالضبط فى هذا الموضوع ! »

وأبدع الشاعر العربى فى صوغ هذا المعنى ، فقال :

وفضلنى فى القول والشعر أننى أقول على علم ، وأعـلم ما أعنى

***

هذا فى اعتقادنا هو أكبر فارق جوهرى بين الكاتب المجيد أو الشاعر الفحل المطبوع ، وبين غيرهما من الكتاب أو الشعراء الكثيرين ؛ وهذا الفارق هو أول ما نبحث عنه حين نشرع فى

مطايبة مع أبى بكر بن السراج

وَاسْتَعَارَ مِنْ « أَبِي بَكْر بنِ السَّرَّاجِ » كِتَابًا ، فَتَقَاضَاهُ بِهِ « أَبُو بَكْرٍ »

تعرف شاعر أو كاتب قديم أوحديث ، و إن هذا الفارق لهو أول ميزة تبدهك من شعر ابن الرومى الحافل بالميزات الكثيرة ...

*
* *

خصائص ابن الرومى هى : الدقة التامة فى أداء المعنى الذى قام بنفسه ، واستقصاؤه ، وتحديد ما يعنيه بالضبط ، والغوص على أخفى خفاياه ، والتمشى معه إلى أبعد مداه ، وسبر أقصى أغواره ، و إظهار كل ناحية من مناحيه المختلفة ، فى كلام واضح جلى ، والتوفيق فى الاهتداء إلى كل ذلك ، والوصول إليـه بلا كلفة ولا تعمّل . فهو فطن — دقيق فى فطنته — إلى كل ما تتطلبه صوره الشعرية من الألوان والأصباغ ، ينشر ظلالها وأضواءها ، و يلائم بين ألوانها وأصباغها ، حتى إذا انتهى منها ، وجدتَ ما قام بذهنه من المعانى ماثلاً أمامك فى صورة ناطقة ، مكتملة الحياة ، مشرقة بها فى كل جزء من أجزائها

*
* *

ذلك هو أول ما يسترعى انتباهك حين تقرأ شعر ابن الرومى ، وهو من الصفات التى لازمته فصارت له كالطبع ، واتسم بها تفكيره ، فأصبح نثره — على ندرة ما وصلنا منه — مشتركاً مع شعره فى هذه الميزة الباهرة ، كما ترى ذلك فى الرسالة التالية :

« ترفع عنى ظلمى — إن كنت بريئاً ، وتتفضل بالعفو — إن كنت مسيئاً ؛ فوالله إنى لأطلب العفو من ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولاً ، وأزداد تذللاً ، وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها ، وأسأل الله — تعالى — أن يجعل حظى منك ، بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث أستحق ، والسلام » .

فَقَالَ لهُ « ابْنُ الرُّومِيِّ » : « لَوْ كَانَ « المشترى » حَدَثًا ، لَكانَ مَجُولاً ! »

تشـــيعه

وَالْبَغْدَادِيُّونَ يَدَّعُونَ أَنَّهُ « مُتَشَيِّعٌ » وَيَسْتَشْهِدُونَ عَلَى ذَلِكَ بِقَصِيدَتِهِ الْجِيمِيَّـةِ[1] :

فانظر مليًّا، هل ترى فرقاً بين شعره ونثره فى طريقة الأداء وأسلوب التفكير ؟ وهل تتردد لحظة واحدة فى الحكم على هذا الكلام بأنه شعر لا ينقصه إلا الوزن والقافية ؟

هذه — فى نظرنا — هى أكبر ميزات ابن الرومى وأجدرها بالذكر ، فلنكتف بها فى هذه الإلمامة الآن ، تاركين الكلام فى بقية النقط الأخرى — مثل تأثر « المتنبى » بشعره ، وفساد عصره ، وأثر ذلك فى نفسه ، ووجوه الشبه والاختلاف بين تفكيره وتفكير «المعرى»، والعنت الذى لقيه من معاصريه ، وأثر ذلك فى شعره ، و إقذاعه فى الهجاء ، ورأيه فى الجبر والاختيار ، وعثور جَده ، وشراهته ونهمه فى الأكل ، و إطالته القصائد مع المحافظة على الإجادة ، والأمن — فى أكثر الأحيان — من السقط والتكرير، وما إلى ذلك من المباحث — إلى رسالة خاصة نعدها عن ابن الرومى، ونرجو أن نوفق فى إظهارها قريباً. ونحب أن يرجع القارئ الى كتابنا « صور جديدة من الأدب العربى » ليقرأ الفصل الذى كتبناه عنه وعنوانه : « ابن الرومى ، كيف أغفله صاحب الأغانى ؟ »

(١) هى قصيدته الخالدة التى رثى بها « أبا الحسين يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن على» وأبدع فيها ما شاء له إبداعه وافتنانه وعبقريته الفذة ، التى يراها القارىء ممثلة فى كل بيت من أبياتها ، والقصيدة هى :

أمامك فانظر : أى نهجيك تنهج	طريقان شتى ، مستقيم وأعوج
ألا أيهـــذا النـاس : طال ضريركم	بآل رسول الله، فاخشوا ، أو ارتجوا
أكل أوان للنبى محمـــد	قتيـــل زكى — بالدماء مضرج ؟
تبيعون فيــه الدين شر أئمــة	فلله دين الله ، قد كاد يمرج !
لقـــد ألحجوكم فى حبائل فتنة ،	وَلَلْمُلحِجوكم فى الحبـائل ألحج

* * *

. . . .

بنى المصطفى ! كم يأكل الناس شلوكم ؟ لبلواكم — عما قليل — مُفرّج
أما فيهم راع لحق نبيه ؟ ولا خائف من ربه يتحرّج ؟
لقد عمهوا ما أنزل الله فيكم كأن كتاب الله فيهم ممجمَج
ألا خاب من أنساه منكم نصيبه متاع من الدنيا قليل وزبرج

*
* *

أبعد المكنّى بالحسين شهيدكم تضىء مصابيح السماء فتُسرج ؟
لنا وعلينا — لا عليه ولا له — تسحسح أسراب الدموع وتنشج
وكيف نبكّى فائزاً عند ربه له فى جنان الخلد عيش مخرفج[1]
وقد نال فى الدنيا سناء وصيتة وقام مقاما لم يقمه مزلّج[2]
فإلا يكن حيًّا لدينا ، فإنه لدى الله حى ، فى الجنان مزوج
وكنا نرجيه لكشف عماية بأمثاله أمثالها تتبلج
فساهمنا ذو العرش فى ابن نبيه ففاز به ؛ والله أعلى وأفلج[3]
مضى ، ومضى الفرّاط من أهل بيته يؤم بهم ورد المنية منهج
فأصبحت ، لاهم أبتسوونى بذكره[4] كما قال قبلى فى البسوء مؤرّج
ولا هو نسّانى أساى عليهم بلى ! هاجه ، والشجو للشجو أهيج
أبيت — إذا نام الخلىّ — كأنما تبطن أجفانى سَيال[5] وعوسج

*
* *

أيحيى العلى ! لهفى لذكراك لهفة يباشر مكواها الفؤاد فينضج
أحين تراءتك العيون جلاءها وأقذاءها ، أضحت مراثيك تنسج !
بنفسى - و إن فات الفداء بك الردى - محاسنك اللائى تُمَج فتنهج
لمن تستجد الأرض بعدك زينة فتصبح فى أثوابها تتبرج ؟
سلام وريحان وروح ورحمة عليك ، وممدود من الظل سَجسج[6]

---

(١) واسع (٢) الناقص المروءة (٣) أغلب (٤) ألسونى بذكره
(٥) السيال (مفرده سيالة) نبات شائك (٦) السجسج : المعتدل ، لا حرّ فيه ولا قُرّ

. . . .

ولا برح القاع الذى أنت جاره   يرف عليــه الأقحوان المفلج
ويا أسـفى ألا ترد تحيـــة   سوى أرج من طيب رمسك يأرج
ألا إنمـا ناح الحمـــائم بعدما   ثويت ، وكانت ـ قبل ذلك ـ تهزَج !

*
* *

أذم إليك العين أن دموعها   تداعى بنار الحزن ــ حين توهج
وأحمدها ــ لو كفكفت من غروبها   عليك ، وخلت لاعج الحزن يلعج
وليس البكا أن تسفح العين ، إنما   أحـر البكا أينُ البكاء المولج
أتمنعنى عينى عليك بدمعـــة   وأنت لأذيال الروامس مدرج ؟
فإنى ــ إلى أن يدفن القلب داءه ــ   ليقتلنى الداء الدفين ، لأحـوج
عفاء على دار ظعنت لغـــيرها   فليس بهـــا للصالحين معرج

*
* *

ألا أيهـا المستبشرون بيومه   أظلت عليكم غمة لا تفرج
أكلكم أمسى : اطمأن مهاده   بأن رسول الله فى القبر مزعج ؟
فلا تشمتوا ، وليخسأ المرء منكم   بوجه : كأن اللون منـه اليرندج
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم   ــ غداة التقى الجمعان ــ والخيل تمعج
لأعطى يد العانى ، أو ارتد هاربا ،   كما ارتد بالقـاع الظليم المهيّـج
ولـكنه ما زال يغشى بنحـره   شبا الحرب، حتى قال ذو الجهل: «أهوج»
وحاش له من تلكمُ ، غير أنه   أبى خطـة الأمر الذى هو أسمج
وأين به عن ذاك ؟ لا. أينَ ــ إنه   إليـه بعرقيـه الزكيين محرَج
كأنى به ــ كالليث يحمى عرينه   وأشباله ــ لا يزدهيـه المهجهج
كدأب « على » فى المواطن قبله   أبو حسن ، والغصن من حيث يخرج
كأنى أراه ــ والرماح تنوشـه   شوارع ــ كالأشطان تدلى وتخلـج
كأنى أراه ــ إذ هوى عن جواده   وعفر بالـــترب الجبين المشجَّج

. . . .

فَحُبَّ به جسما الى الأرض ــ إذ هوى ــ وحُبَّ بها روحا ــ إلى الله تعرُج
أأرديتم « يحيى » ولم يطو أيطل طراداً ، ولم يدبر من الخيل منسج ؟
تأتت لكم فيه منى السوء هينة ؛ وذاك لكم بالغى أغرى وألهج
تهدّون فى طغيانكم وضــــلالكم ويستدرج المغرور منكم فيدرج
أجنوا بنى العباس ! من شنآنكم وأوكوا على ما فى العياب، وأشرجوا[1]
وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم ، فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع إلى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا
على حين لا عُـذْرَى لمعتذريكمُ ولا لكم من حجة الله مخرج
فلا تلقحوا الآن الضغائن بينكم وبينهم ، إن اللواقح تنتج
غررتم ، لئن صدقتم أن حالة تدوم لكمُ ، والدهر لونان أخرج[2]
لعل لهم فى منطوى الغيب ثائرا سيسمو لكم ، والصبح فى الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته له زجل[3] ينفى الوحوش وهرمج[4]
إذا شيم بالأبصار أبرق بيضه بوارق لا يسطيعهن المحمَّج[5]
توامضه شمس الضحى ، فكأنما يرى البحر فى أعراضــه يتموج
له وقدة بين السماء وبينــه ، تلم بها الطـــير العوافى فتهرَج[6]
إذا كرّ فى أعراضه الطرف أعرضت حَراج تحار العين فيها فَتَحْرَج[7]
يؤيده ركنان ثبتان ، رَجلة وخيل ــ كأرسال الجراد ــ وأوثج
عليها رجال كالليوث بســـالة بأمثالها يثني الأبىّ فيعنج
تدانوا ، فما للنقع فيهم خصاصة تنفسه عن خيلهم ــ حين ترهج
فلو حصبتهم بالفضـــاء سحابة لظل عليهم حصبها يتدحرج
كأن الزجاج اللهذميات فيهم فتيل بأطراف الرديني مسرج
يود الذى لاقوه أن سلاحه هنالك خلخال عليه ودُملج

(١) شدوا على ما فى قربكم بالوكاء : (رباط القربة) وخيطوا رءوسها حتى لا ينفذ شىء مما تحويه
(٢) الأخرج : ذو اللونين (٣) جلبة (٤) أصوات مختلطة (٥) المحدّق الفزع
(٦) تتحير أبصارها من شدة الحر (٧) تفور فيضيق عليها منافذ البصر

. . . .

فيدرك ثأر الله أنصار دينه ، ولله أوس آخرون وخزرج
ويقضى أمام الحق فيكم قضاءه تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
وتظعن ـ خوف السبي ـ بعد إقامة ، ظعائن ، لم يضرب عليهن هودج
وقد كان فى « يحيى » مذمّر خطة وناتجها ، لو كان للأمر مَنتج
هنالكم يشفى تبيّغ جهلكم إذا ظلت الأعناق بالسيف تودج
محضتكم نصحى ، وإنى بعدها لاعنق فيما ساءكم وأهملج

*
* *

مهٍ لا تعادوا غرة البغى بينكم كما يتعادى شعلة النار عَرفج
أفى الحق أن يمسوا خماصا ، وأنتم يكاد أخوكم — بطنةً — يتبعج ؟
تمشُّون مختالين فى حجراتكم ثقال الخطى — أكفالكم تترجرج
وليدهم بادى الضوى ، ووليدكم من الريف ريان العظام خدلّج
تذودونهم عن حوضهم بسيوفكم ويشرع فيه أرتبيل وأبلج
فقد ألجمتهم خيفة القتل عنكم وبالقوم حاج فى الحيازم حوّج

*
* *

بنفسى الألى كظتهم حسراتكم فقد علزوا ـ قبل الممات ـ وحشرجوا
ولم تقنعوا ـ حتى استثارت قبورهم كلابكم منها بهيم ودَيْزَج
وعَيّرتموهم بالسواد ؛ ولم يزل من العرب الأمحاض أخضر أدعج
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم بنى الروم ! ألوان من الروم نعّج

*
* *

لئن لم تكن بالهاشميين عاهة لما شكلكم ـ تالله ـ إلا المعلهج
بآية أن لا يبرح المرء منكم يُكَبُّ على حر الجبين فيعفج
يبيت ـ إذا الصهباء روّت مُشاشه ـ يساوره عِلج من الروم أعلج

وَمَا أَرَاهُ إِلَّا عَلَى مَذْهَبِ غَيْرِهِ مِنَ الشُّعَرَاءِ ، وَمَنْ أُولِعَ بِالطِّيَرَةِ ، وَإِنَّمَا

فيطعنه فى « سبة السوء » طعنة يقوم لها من تحته وهو أفحَج[1]
لذاك ، بنى العباس ! يصبر مثلكم ، ويصبر للموت الكمى المدجَّج
فهل عاهة إلا كهذى ، وإنكم لأكذب مسؤول عن الحق يلهج
فلا تجلسوا وسط المجالس حسّرا ولا تركبوا إلا ركائب تحْدَج

*
* *

أبى الله إلا أن يطيبوا وتخبثوا وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
وإن كنتم منهم وكان أبوكم أباهم ، فإن الصفو بالرنق يمزج

*
* *

لعمرى لقد أغرى القلوب «ابن طاهر» ببغضائكم ما دامت الريح تنأج
سعى لكم مسعاة سوء ذميمة سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
فلن تعدموا - ما حنت النيبُ - فتنة تحش كما حش الحريق المؤجج
وقد بدأت — لو تزجرون بريحها — بوائجها من كل أوب تبوّج

*
* *

بنى مصعب ! ما للنبى وأهله عدو سواكم — أفصحوا ، أو فلجلجوا
دماء بنى عباسكم وعليهم لكم كدماء الترك والروم تهرج
يلى سفكها العوران والعرج منكم ، وغوغاؤكم — جهلاً بذلك — تبهج
وما بكم أن تنصروا أولياءكم ولكن هنات فى القلوب تنجنج
ولو أمكنتكم فى الفريقين فرصة ، لقد بينت أشياء تلوى وتجنج
إذن لاستقدتم منهما وتر فارس ، وإن وليا كم فالوشائج أوشج
أبى أن تحبوهم - يد الدهر - ذكركم ليالى لا ينفك منكم متوج

*
* *

وإنى على الاسلام منكم لخائف بوائق شتى ، بابها الآن مرتج

(١) ألا ترى إلى ابن الرومى لا يحجم عن الافحاش حتى فى مقام الرثاء ! ! !

هِىَ شَرٌّ مُتَعَجَّلٌ ، وَلِلأَنْفُسِ أَجَلٌ مُؤَجَّلٌ(١) ، وَكُلٌّ ذَلكَ حَــذَرٌ مِنْ

وفى الحزم أن يستدرج الناس أمركم   وحبلهم مستحكم العقـــد مدمج

*
* *

نَظارِ فإن الله طالب وتره   بنى مصعب ! لن يسبق الله مدلج

لعل قلوباً قد أطلتم غليلهـــا   ستظفر منـــكم بالشفاء ، فتثلج

(١) الطيرة والتشاؤم

أبو العلاء متشائم شديد التشاؤم ، بل هو من أشد من عرفناهم تشاؤماً ، ولكنه — مع تشاؤمه الذى لا يقف عند حد — ليس من جماعة المتطيرين ، بل هو أبعد من عرفناهم عن التطير

وإنما نعنى بالتشاؤم ذلك المذهب الذى يسميه الافرنج (Pessimisme) ونرى أن نسميه بالعربية : سخطاً ، ونسمى أصحابه ساخطين ، وهو مذهب جماعة المتبرمين بالعالم ، الذين لا يرون فيه إلا شرًّا مستطيراً ، لا يستطيعون حمله ، ولا أمل لهم فى دفعة أو تهوينه ، ولا ينظرون إليه إلا بمنظار شديد السواد ، وعلى العكس من ذلك مذهب الرضا ، و يسميه الافرنج (Optimisme) وهو مذهب من يحسنون الظن بالأيام ، وينظرون إلى العالم بمنظار رائق ناصع البياض ؛ فيرون كل ما فيه يدعو إلى الغبطة ، ويرونه سائراً فى طريق التقدم والكمال ، وفى هذا مجلبـــة رضاهم وارتياحهم ، وقد أشبع « ماكس نورداو » جماعة الساخطين ، سخرية وتعنيفاً ، ورماهم بنقص فى عقولهم ، فى مقالته التى كتبها عن السخط والرضا (Pessimisme & Optimisem) فى كتابه الفلسفى الذى سماه (الغرائب Paradoxes) وهى مقالة جميلة ، نحب ألا تفوت القارىء ، وقد لخصتها مجلة البيان فى سنتها الرابعة فى جزءيها الثانى والثالث ، تلخيصاً لا يخلو من الفائدة والنفع ، لمن لا تتاح له قراءتها كاملة فى الكتب الافرنجية .

أما الطيرة (Manvais Augure) ، ونقيضها الفأل — أو التيمن (Bon Augure) ، فمذهب آخر يختلف فى نظرنا عن مذهب السخط والرضا كل الاختلاف ، فقد يكون الانسان

ساخطاً أو راضياً ولكنه لا يتطير ولا يتفاءل . وعلى العكس من ذلك ، قد يكون من المتطيرين والمتفائلين ، ولكنه فى الوقت نفسه ساخط على الحياة أو راض عنها .

*
* *

وإنما الطيرة مذهب أساسه ربط الحوادث بغير أسبابها الحقيقية ، وتعليل النفس بما لا يفيد ، وترقب المناسبات والمصادفات ، لاستنتاج شيء وهمى لا أساس له من الصحة ، ولا قيمة له — عند العقلاء — وإنما يدعو إليها ، فى نظرنا ، عدم اطمئنان القلب ، وخفة العقل ؛ ولعله لو رجع المرء إلى نفسه يسائلها فى أى ساعاتها تميل إلى التعلل بأشباه هذه الخرافات ، لرأى أن ذلك كثيراً ما يحدث فى أوقات الهلع والذعر من جراء مصاب فادح مُذهل ، تملَّك على الانسان قلبه ، وأطار لبه ، وحرمه طمأنينته ، فجعله كالغريق يتلمس أتفه الأسباب وأقلها غناء ، لينقذ نفسه من الهلاك . فأما فى ساعات اطمئنانه فقلما يأبه لذلك ، اللهم إلا إن كان من هؤلاء الذين أصبح لهم التطير ديدناً وطبعاً ، وهذا غير السخط الذى أساسه سوء الظن ، وشدة الحذر ، والنقمة على الحياة ، والنظر إليها من جانبها الأسود !

*
* *

انظر إلى تطير الأمين — مثلاً — حين حاصره « طاهر » ولم نكن سمعنا بتطيره من قبل — قال « ابراهيم بن المهدى » وكان حينئذ مع الأمين :

« خرج الأمين ذات ليلة يريد أن يتفرج من الضيق الذى هو فيه ، فصار إلى قصر له بناحية « الخلد » ثم أرسل إلىّ فحضرت عنده ، فقال : « ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر فى السماء وضوءه فى الماء على شاطئ « دجلة » ... فهل لك فى الشرب ؟ » فقلت : « شأنك » فشرب رطلاً وسقانى آخر ، ثم غنيته ما كنت أعلم أنه يحبه ، فقال لى : « ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ » فقلت : « ما أحوجنى إليه ! »

فدعا بجارية متقدمة عنده ، اسمها « ضعف » فتطيرتُ من اسمها ونحن فى تلك الحال فقال لها : « غنى » فغنت بشعر الجعدى :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً   وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه ، وتطير منه ، وقال « غنى غير ذلك » فغنّت :

أبكى فراقكم عينى فأرقها   إن التفرق للأحباب بكّاء

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم   حتى تفانوا — وريب الدهر عدّاء

فقال لها : « لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا ؟ » فقالت : « ما تغنيت إلا ما ظننت أنك تحبه » ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك   إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلاف الليل والنهار ، وما   دارت نجوم السماء فى الفلك

إلا لنقل السلطان عن ملك   قد زال سلطانه إلى ملك

وملك ذى العرش دائم أبداً   ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها : « قومى ، غضب الله عليك ولعنك ! » وكان له قدح من بَلُّور حسن الصنعة ، وكان موضوعاً بين يديه — فعثرت الجارية به فكسرته ، فقال : « ويحك يا إبراهيم ، أما ترى ما جاءت هذه الجارية ، ثم ما كان من كسر القدح ، والله ما أظن أمرى إلا قد قرب » فقلت : « يديم الله ملكك ، و يعز سلطانك ، ويكبت عدوك »

فما استتم الكلام حتى سمعنا صوتاً : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ! »

فقال : « يا إبراهيم ! أما سمعت ما سمعت ؟ » قلت : « ما سمعت شيئاً » وكنت قد سمعت ، قال : « تسمع حساً » فدنوت من الشط فلم أر شيئاً — ثم عاودنا الحديث ، فعاد الصوت بمثله ؛ فقام من مجلسه مغتما إلى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى إلا ليلة أو ليلتان حتى قتل .... »

*
* *

فانظر إلى هذه الحكاية المحزنة ، وتأمل قليلاً ، ألست ترى أن ضعف نفسيهما وحده هو السبب الأكبر فى كل هذه الاستنتاجات ؟ ومثّل لنفسك أن كل ما حدث فى تلك الليلة المروعة قد حدث فى ليلة أنس وطرب ، بل فى ليلة عادية — إن شئت — فهل كانا يهتمان به كل هذا الاهتمام ؟

. . . .

وهذا الروع الذى أحسه إبراهيم المهدى — حين سمع اسم الجارية « ضعف » هل كان يحس مثله — إذا تبدل الموقف وكان انتصاراً وفوزاً — أو لم تكن هذه الجارية متقدمة عند الأمين ؟ فما له لم يتطير من اسمها قبل هذه المرة ؟

وهل تحسبها غنت إلا ما حسبت أن مولاها يحبه — وكم غنته — هى أو غيرها — مثل هذه الأبيات ، فطرب وانتخى ، ومن يدرى فربما كان الأمين يميل إلى هذا النوع من الشعر المشجى ، وكان هذا الميل مغرياً للجارية على غناء تلك الأبيات ! وتمثل الأمين عاقب مسيئاً بالقتل ، على جرم فرط منه ، فخامره شىء من الندم . وإنه لكذلك — إذ غنته هذه الجارية نفسها هذا البيت بعينه :

كليب لعمرى كان أكثر ناصراً   وأيسر جرماً منك ضرج بالدم

ألم يكن فيه حينئذ راحة يثلج لها فؤاده ، وتمثل الجارية تغنيه هذا البيت قبل أن يقتل ذلك المسىء وهو يفكر فى ذلك ، أكان يتطير منه — إذ ذاك — وأى أثر يكون له فى نفسه حينئذ من سماعه ؟ ألا يكون فيه إغراء بقتل ذاك المسىء ؟

*
* *

وتمثل البيتين الآخرين قد غنتهما الجارية فى موقف غير هذا ، فى موقف غرام مثلاً ، فى ساعة يفكر فيها الأمين فى معشوق له ، مات ولم ينعم به طويلاً ، فكيف يكون أثرها فى نفسه ، وكيف يتمثل قولها : « إن التفرق للأحباب بكاء ؟ » ولكن تغير الموقف ، فتغير المعنى

واعكس الآية ، فتمثل الأمين — فى مكان المأمون — وأنه قد أوشك أن ينتصر على أخيه ، وأنه قد سمع الأبيات الأخيرة وهو يحاصر مدينته ، فأى أثر يتركه فى نفسه قولها :

« ما اختلف الليل والنهار وما   دارت نجوم السماء فى الفلك

الا لنقل السلطان عن ملك   قد زال سلطانه الى ملك ! »

وهكذا غير الظروف ، وتمثل آثار تلك الأبيات فى نفسيهما ، تجدها مختلفة يصل اختلافها إلى مسافة ما بين الضد والضد أحياناً

. . . .

ثم ماذا فى هذه الجملة التى غمت الأمين : « قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ؟ » ألم يكن فيها متأول حسن — لو شاء ! ألم يسمعها عقب دعاء له بدوام ملكه ، و إعزاز سلطانه ، وكبت عدوه ، فإذا قضى هذا الأمر ، فقد تم له ما أراد ؟ . .

(ارجع الى كتابنا مصارع الخلفاء ، واقرأ فيه مصرع الأمين)

ولكن إخوان هذه الخليقة — كما يقول أبو العلاء — لا يحملون الأشياء الواردة على الحقيقة !

ومن أجمل ما رووه عن التطير والتفاؤل قول الرسول — عليه الصلاة والسلام — : « ثلاثة لا يسلم منهن أحد — الطيرة ، والظن ، والحسد » ، قيل له : « فما المخرج منهن يا رسول الله ؟ » قال : « إذا تطيرت فلا ترجع ، و إذا ظننت فلا تحقق ، واذا حسدت فلا تبغ »

***

إذا أقررنا ذلك ، سهل علينا أن ندرك ، كيف كان أبو العلاء ساخطاً ، ولم يكن متطيراً .

أما « ابن الرومى » فقد لا يكون شديد السخط على الحياة ، ولكنه كان — على الرغم من ذلك — إماماً من أئمة المتطيرين ، و إذا أضفت هذا الفصل إلى ما فى رسالة ابن القارح ازددت اقتناعاً بطيرته ، وحسبك أن تعلم أنه كان لا يلبس ثيابه الا بعد أن يتعوذ ، فإذا وصل الى الباب نظر من خلال ثقب المفتاح ، فإذا رأى ذلك الأحدب الذى تعود مضايقته ، جالساً ؛ جبن فلم يخرج ، وخلع ثيابه ثانية ، وقد عرف « ابن الرومى » كيف ينتقم منه ، و يثأر لنفسه ، ببيتيه اللذين وسمه بهما آخر الأبد ، وهما قوله :

« قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ ، وطَالَ قَذَالُهُ ... فكأنه متربص أن يُصْفَعَا
وكأنما صُفِعَتْ قَفَاهُ مرةً ... وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعَا

ولابن الرومى — فى تطيره — أخبار شتى . منها أن أبا الحسن الأخفش ، غلام المبرد ، كان كثيراً ما يقرع بابه ، فإذا رد عليه ابن الرومى مستفسراً ، أجابه : « مرة بن حنظلة » فيتطير من ذلك ، ولا يجسر على الخروج بقية يومه ، وقد هجاه فى ديوانه مراراً هجاء مؤلما مقذعا

. . . .

ولما كان هـذا المقام أضيق من أن يحتمل شيئاً من الإسهاب فى تفصيل هذه النزعات وتحليلها والموازنة بينها ، فإنا نكتفى بهذا القدر على إيجازه — ونشير إلى رأى أبى العلاء فى مذهب المتطيرين والمتفائلين ، وتهكمه اللاذع بأصحابه ، وسخريته الشديدة منهم ، علاوة على ما ترى فى هذا الفصل من حججه الباهرة و براهينه القوية التى دلل بهـا على فساد ذلك المذهب . ثم نتبعها بنخبة مختارة تبين لك نزعة ابن الرومى إلى التطير .

و إليك نخبة من كلام أبى العلاء فى ذلك :

نخبة من شعر أبى العلاء فى الطيرة

تروم قيـاساً للحوادث ضـلة   وتلك أصول ليس يجمعها الحصر

تعرض للطـير السوانح زاجـراً   أما لك من عقل — يكفك — زاجر ؟

أغربانك السُّحْم استقلّت مع الضحى   سوانح ؟ أم مرت حمـائمك الوُرْقُ ؟

لا تفرحن بفأل — إن سمعت به —   ولا تَطـيَّر ، إذا ما ناعب نعبا

فالخطب أفظع من سَرّاء تأملها   والأمر أيسر من أن تضمر الرعبـا

آليت لا يدرى بمـا هو كائن   متفـائل بالأمر أو متطـير

كالدار صَبّحها سوى سُكانها   فثَوَوْا بهـا ، وتحمـل المتـدير

زجر الغـراب تطـيراً ، ونقيضه   ديك لأهل الدار أبيض أفرق

شاهدتَ قُبَّرَةً فخفتَ تطـيّراً   ما كل ميت — لا أبا لك — يقبر

لا يتطـير بناعب أحـد   فكل ما شاهد الفتى طـيره

وما طـير اليمـين بمبهجاتى   فأخشى الهم من طـير الشمال

وقد سمى المـرء « الهزبز » تفاؤلا   وليس ببـاق فى الليـالى هِزَبْرُها

وما أسر لتعشير الغـراب أسى   ولا أبَكّى خليطا حل نشارا

ولا توهمت أنثى الأنجم امرأة   ولا ظننت سُهَيْلا كان عشّـارا

. . . .

أى لا أضمر حزناً إذا سمعت الغراب يصيح عشرة أصوات متتابعة ، ولا أبكى جمعاً ذهب إلى ذلك البلد المسمى « نشارا » ولا أتوهم أن الزهرة امرأة ، كما يفعل العرب ، ولا أن سهيلاً كان عشاراً باليمن

وهل لحق التثريب سكان يثرب ... من الناس ؟ لا ، بل فى الرجال غباء !
وذو نجب — إن كان ما قيل صادقاً — ... فما فيه إلا معشر نجباء !

وانظر إلى سخريته الدقيقة فى قوله :

رآنى — فى الكرى — رجل ، كأنى ... — من الذهب — اتخذت غشاء راسى :
« قلنسوة — خصصت بها — نضارا ... كهرمز ، أو كملك أولى خراس
فقلت — معبراً : — « ذهب ذهابى ... وتلك نباهة لى — فى اندراسى »

. . . .

أقمت — وكان بعض الحزم يوماً — ... لركب السفن أن تلقى المراسى

نخبة مختارة

من شعر ابن الرومى فى الطيرة والفال

وإلى القارئ نخبة مختارة من شعر ابن الرومى تبين منزعه واعتقاده فى الطيرة والفأل :

لا تهاون بطيرة أيها النظّار ، وأعلم بأنها عنوان
قف — إذا طيرة تلقتك وانظر ... واستمع — ثَمّ — ما يقول الزمان !
قلما غاب من أمورك عنوا ... ن مبين وللزمان لسان[1]

. . . .

لا تصدق عن النبيين ، إلا ... بحديث — يلوح فيه البيان

(١) قال ابن رشيق :

« وكان ابن الرومى كثير الطيرة . ربما أقام المدة الطويلة لا ينصرف - تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه — حتى إن بعض إخوانه من الأمراء افتقده وأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث إليه خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به . فلما أخذ أهبتــه للركوب . قال للخادم : « انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ، ومنكوس اسمك « لا بقا » وابن الرومى القائل : الفأل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثان . وله فى ذلك احتجاجات وشعر كثير »

. . . .

قد أتى عن نبينا حبه الفأ ل ، مضيئاً بذلك البرهان
فدع الهزل والتضاحك بالطير ة ، فالنصح مثمن مجّان
أترى من يرى البشير بشيراً يمترى فى النذير ، يا وسنان[1]

*
* *

خبر الله أن مشأمة كا نت لقوم ، وخبر القرآن
أفزور الحديث تقبل ، أم ما قاله ذو الجلال والفرقانُ ؟

وقد تفاءلت له — زاجراً كنيته ، لا زاجراً ثعلبا
إنى تأملت له كنية — إذا بدا مقلوبها — أعجبا
يصوغها العكس « أبا سابع » وذاك فأل لم يعد معطبا
بل ذاك فأل ضامن سبعة مثل الصقور استشرفت أرنبا
يأتون من صلب فتى ماجد لا كذب الله ولا خيبا
وقد أتاه منهم واحد فليتنظر ستة غيبا
فى مدة تغمرها نعمة يجعلها الله له تُرتُبا
حتى نراه جالساً بينهم أجل من رضوى ومن كبكبا
كالبدر وافى الأرض فى نوره بين نجوم سبعة ، فاحتبى
يعدى على الدهر — إذا ما اعتدى ويؤمن الناس — إذا استرهبا

تفاءلت والفأل لى معجب فقلت — وما أنا بالعابث — :
« أبو حسن وأبو مثله كنيّاً أبى حسن ثالث ! »

---

(١) كان ابن الرومى يحتج للطيرة ويقول : « إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة . أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده ؟ » ويقول : « إن النبى صلوات الله عليه مر برجل — وهو يرحل ناقة ويقول : « يا ملعونة » فقال : « لا يصحبنا ملعون » وأن عليا — رضى الله عنه — كان لا يغزو غزاة — والقمر فى العقرب ! »

. . . .

أحذر أهل الأرض شؤم ابن طالب ... فما زال مشحوذاً على من يصاحب
وقد جربت منه على « آل مخلد » ... تجارب . ليست مثلهن تجارب
أزيرق مشئوم ، أحيمر قاشر ... لأصحابه ، نحس ـ على القوم ـ ثاقب
وهل أشبه المريخ ـ إلا وفعله ... لفعل شبيه السوء ـ شبه مقارب
أعوذ بعز الله من أن يضمنى ... وإياه فى الأرض البسيطة جانب
شبيه « قدار » بل « قدار » شبيهه ... وإن قيل: « كلّيم » وإن قيل: « كاتب »

* * *

وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب ... لعينيه لون السيف ـ والسيف قاضب
ويدعى أبوه « طالباً » وكفا كم ... به طيرة ـ أن المنية طالب
ألا فاهربوا من « طالب » و « ابن طالب » ... فمن طالب مثليهما ؛ طار هارب !

قل لغراب البين ـ تبا له ـ ... إذا تعاطى القول فى مذهب[1]
أو رفع الصوت ـ بشدْو له ... مثل سقيط الدمق الأشهب
« اسكت ، لحاك الله — من قائل ... أجنف عن قصد الهوى أنكب
لا تنطقن الدهر فى محفل ... واغضض على الكثكث والأثلب
أنت غراب ـ خير أحواله ... ما لزم الصمت ـ ولم ينعب
فاترك نعيبا ـ شؤمه راجع ... عليك ـ يحدوك إلى معطب
يا بين ، أنت البين فى عزة ... بين غراب البين والأخطب[2]
ينتقل الناس وأحوالهم ... وأنت فى الدنيا من الرتّب[3]
إذا جلا عن منزل أهله ... فأنت فى أوتاده الرسّب
أنت أثافيه وآناؤه ... يشعب أهلوه ـ ولم تشعب

والقصيدة طويلة يحسن الرجوع اليها فى ديوان ابن الرومى « فى ص ٤٤٧ ج ٣ »

---

(١) من أبدع ما قرأناه فى إنصاف الغراب وتبرئته من تهمة التفريق ، قول بعض الشعراء :

والناس يلحون « غرا ... ب البين » لما جهلوا
وهل « غراب البين » إلا ناقة . أو جمل ؟
وما على ظهر « غرا ... ب البين » تطوى الرحل ! »

(٢) الصرد (٣) جمع راتب وهو الثابت

وَكَذَلِكَ قَالَتِ الْعَامَّةُ : « الْإِرْجَافُ أَوَّلُ الْكَوْنِ[1] ! »

وَيُقَالُ : إِنَّ النَّبِيَّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — تَمَثَّلَ بِهَذَا الْبَيْتِ — وَلَمْ يُتَمِّمْهُ — :

تَفَاءَلْ بِمَا تَهْوَى يَكُنْ ، فَلَقَلَّمَا يُقَالُ لِشَيْءٍ : « كَانَ » إِلَّا تَحَقَّقَا[2]

وَمَهْمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ اللَّبِيبُ ، فَالْخَيْرُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَلِيلٌ جِدًّا[3] وَالشَّرُّ يَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَجْزَاءٍ لَيْسَتْ بِالْمُحْصَاةِ ، وَقَالَ عَلْقَمَةُ :

« وَمَنْ تَعَرَّضَ لِلْغِرْبَانِ يَزْجُرُهَا عَلَى سَلَامَتِهِ ، لَا بُدَّ مَشْئُومُ »

***

وَكَانَ « ابْنُ الرُّومِيِّ » مَعْرُوفًا بِالتَّطَيُّرِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي أُجْرِيَ عَلَى التَّخَيُّرِ ؟ وَقَدْ جَاءَتْ عَنِ النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ ، تَدُلُّ عَلَى كَرَاهَةِ الِاسْمِ الَّذِي لَيْسَ بِحَسَنٍ ، مِثْلَ مُرَّةَ ، وَشِهَابٍ !

***

---

(١) وقريب من ذلك قول ابن الرومى فى نونيته الجميلة :

وإذا ما ظننت شرًّا فخفه رب شر يقينــه مظنونه

وكان « ابن الرومى » يقول : « إن الطيرة موجودة فى الطباع ، قائمة فيها ، وإنها فى بعض طباع الناس أظهر منها فى بعض ؛ وإن الأكثر فى الناس — إذا لقى ما يكرهه — قال : « على وجه من أصبحت اليوم ؟ »

(٢) ارجع الى ص «٢٧٤» فى هذا الجزء (٣) وفى ذلك يقول أبو العلاء :

نعم ثم جزء من ألوف كثيرة من الخير ، والأجزاء — بعد — شرور

على أن هذا الجزء القليل جدًّا من الخير ، لقد أنكره أبو العلاء فى مكان آخر ، فقال :

لا أزعم الخير مازجا كدراً بل مزعمى أن كله كدر

وَنَحْوٌ مِنْ حِكَايَةِ ابْنِ الرُّومِيِّ الَّتِي حَكَاهَا النَّاجِمُ[1] مَا حُكِيَ عَنِ امْرَأَةٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنَّهَا قَالَتْ لِلأُخْرَى : « سَمَّانِي أَبِي « غَاضِيَةَ » وَإِنَّمَا تِلْكَ نَارٌ ذَاتُ غَضًى ، وَتَزَوَّجْتُ مِنْ بَنِي جَمْرَةَ رَجُلًا كَانَ اسْمُهُ « تَوْرَبًا » وَإِنَّمَا ذَلِكَ تُرَابٌ ، فَشَمِتَتْ بِيَ الْأَتْرَابُ ، وَكَانَ اسْمُ أُمِّهِ « سَوَّارَةَ » فَلَمْ تَزَلْ تُسَاوِرُنِي فِي الْخِصَامِ ».

فَقَالَتِ الْأُخْرَى : « لَكِنْ سَمَّانِي أَبِي « صَافِيَةَ » فَصَفَوْتُ ، وَزَوَّجَنِي مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، فَبَكَّرَ عَلَيَّ السَّعْدُ ، وَاسْمُ زَوْجِي « مَحَاسِنُ » — جُزِيَ الصَّالِحَةَ — فَقَدْ حَاسَنَ وَمَا لَاسَنَ ، وَاسْمُ أَبِيهِ « وَقَّافٌ » — رَعَاهُ اللهُ — فَقَدْ وَقَفَ عَلَيَّ خَيْرَهُ ، وَاسْمُ أُمِّهِ « رَاضِيَةُ » رَضِيَتْ أَخْلَاقِي ، وَلَمْ تَجْنَحْ إِلَى طَلَاقِي ! »

*
* *

وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ خُثَارِماً[2] ، لَمْ يَزَلْ فِي الْكَثْكَثِ[3] آرِماً ، إِنْ رَأَى حَمَامَةً فَرِقَ مِنَ الْحِمَامِ[4] كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ :

هُنَّ الْحَمَامُ — فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَافَةً[5]   مِنْ حَائِهِنَّ — فَإِنَّهُنَّ حِمَامُ

وَإِنْ آنَسَ نَعَامَةً فَمَا يَأْخُذُهَا مِنَ النَّعِيمِ ، وَيَجْعَلُهَا بِالْهَلَكَةِ مِثْلَ الزَّعِيمِ ! يَقُولُ مِنَ الْفَنَدِ[6] : « أَوَّلُهَا نَعِيٌّ » . وَإِنْ نَظَرَ إِلَى عُصْفُورٍ ، قَالَ : « عَصْفٌ مِنَ الْحَوَادِثِ بِوُفُورٍ » فَهُوَ — طُولَ أَبَدِهِ — فِي عَنَاءٍ !

*
* *

وَلِهَذِهِ الطَّوِيَّةِ جَعَلَ ابْنُ الرُّومِيِّ « جَعْفَرًا » مِنَ الْجُوعِ وَالْفِرَارِ ، وَلَوْ هُدِيَ

---

(١) هى الحكاية التى رواها عثمان الناجم عن ابن الرومى ، وذكرها ابن القارح فى رسالته

(٢) متطيراً   (٣) التراب   (٤) الهلاك   (٥) العيافة : زجر الطير

(٦) الخطأ فى الرأى

صَرَفَهُ إِلَى النَّهْرِ الْجَرَّارِ ، لِأَنَّ الْجَعْفَرَ : النَّهْرُ الْكَثِيرُ الْمَاءِ ، وَلَكِنَّ إِخْوَانَ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ ، لَا يَحْمِلُونَ الْأَشْيَاءَ الْوَارِدَةَ عَلَى الْحَقِيقَةِ(١)

وَأَرَادَ بَعْضُهُمُ السَّفَرَ فِي أَوَّلِ السَّنَةِ ، فَقَالَ : « إِنْ سَافَرْتُ فِي الْمُحَرَّمِ ، كُنْتُ جَدِيراً أَنْ أُحْرَمَ ، وَإِنْ رَحَلْتُ فِي صَفَرٍ ، خَشِيتُ عَلَى يَدِي أَنْ تَصْفَرَ » فَأَخَّرَ سَفَرَهُ إِلَى شَهْرِ رَبِيعٍ ، فَلَمَّا سَافَرَ مَرِضَ فَلَمْ يَحْظَ بِطَائِلٍ ، فَقَالَ : « ظَنَنْتُهُ مِنْ رَبِيعِ الرِّيَاضِ ، فَإِذَا هُوَ مِنْ رِبْعِ(٢) الْأَمْرَاضِ »

* * *

وَأَمَّا إِعْدَادُهُ الْمَاءَ الْمَثْلُوجَ فَتَعِلَّةٌ ، وَمَا تُنْقَعُ بِالْحِيَلِ غُلَّةٌ ، وَتَقْرِيبُهُ الْخَنْجَرَ تَحَرُّزٌ مِنْ جَانٍ ، وَتُنْقَضُ الْأَقْضِيَةُ وَمَا بَنَى الْبَانِي . وَرُبَّ رَجُلٍ يَحْتَفِرُ لَهُ

---

(١) ومما يرونه عن تطير ابن الرومى ماحكاه عنه « على بن عبد الله بن المسيب » قال : دخل على ، يوم المهرجان ، وقد أهدى إلى عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء ، وعجوز فى إحدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ، ولم يظهر لى أمره ؛ وأقام باقى يومه ، فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنة لى من بعض السطوح فماتت ، وجفاه القاسم الوزير ، فجعل سبب ذلك المغنيتين ، وكتب إلى :

أيها المتُحِفِي بحول وعور ... أين كانت عنك الوجوه الحسان؟
لقد لعمرى ركبت أمراً مهيباً ... ساءنا فيك أيها الخلصان
فتحك المهرجان بالحول والعو ... ر ، أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك أبنتك الحر ... ة مصبوغة بها الأكفان
وتجافى مؤمـل لى خليل ... لج فيه الجفـاء والهجران

إلى آخر القصيدة ، وارجع إلى ص « ٢٨٠ » من هذا الجزء ، فلقد أسلفنا نخبة مختارة من شعر ابن الرومى فى الطيرة

(٢) حمى الربع : تأخذ يوما وتترك يومين ، ثم تجىء فى اليوم الرابع . وذلك أنها تأخذ فى الأيام الثلاثة ثمانى عشرة ساعة ــ وهى ربع ساعات تلك الأيام الثلاثة ــ فسميت كذلك باعتبار الساعات .

قَبْرًا بِالشَّامِ ، ثُمَّ يُجْشِمُهُ الْقَدَرُ بَعِيدَ الْإِجْشَامِ ، فَيَمُوتُ بِالْيَمَنِ أَوْ بِالْهِنْدِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ، إِنَّ اللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ .

وَكَمَا أَنَّ النَّفْسَ جَهِلَتْ مَدْفَنَ عِظَامِهَا ، فَهِيَ الْجَاهِلَةُ بِالقاطعِ لِنِظَامِهَا . كَمْ ظَانٍّ أَنَّهُ يَهْلِكُ بِسَيْفٍ فَهَلَكَ بِحَجَرٍ[1] ، وَمُوقِنٍ أَنْ شَجَبَهُ[2] يُقْدَرُ عَلَى مِهَادٍ ، فَأَلْقَتْهُ الْأَسَلُ[3] بِبَعْضِ الْوِهَادِ .

* * *

وَالْبَيْتَانِ اللَّذَانِ رَوَاهُمَا النَّاجِمُ عَنِ ابنِ الرُّومِيِّ مُقَيَّدَانِ ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّهُ جَاءَ عَنِ الْفُصَحَاءِ هَذَا الْوَزْنُ مُقَيَّدًا ، إِلَّا فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ ، يَتَدَاوَلُه رُوَاةُ اللُّغَةِ ، وَالْبَيْتُ :

« كَأَنَّ الْقَوْمَ عُشُّوا لَحْمَ ضَأْنٍ فَهُمْ نَعِجُونَ[4] قَدْ مَالَتْ طُلَاهُمْ »

وَهَذَا الْبَيْتُ مُؤَسَّسٌ ، وَالَّذِى قَالَ ابنُ الرُّومِيِّ بِغَيْرِ تَأْسِيسٍ ، وَمَا يَدْرِى النَّاجِمُ[5] — وَلَعَلَّهُ بِالْفِكْرِ رَاجِمٌ — أَفِى الْجَنَّةِ حَصَلَ ذَلِكَ الشَّيْخُ أَمْ فِى السَّعِيرِ ؟

أبو تمـام[6]

وَأَمَّا « أَبُو تَمَّامٍ » ، فَمَا أَمْسَكَ مِنَ الدِّينِ بِزِمَامٍ ، فَإِنْ قُذِفَ فِى النَّارِ « حَبِيبٌ[7] » فَمَا تُغْنِى الْمَدْحُ وَلَا التَّشْبِيبُ !

---

(١) وهذا قريب من قوله :

بينا امرؤ يتوقى الذئب عن عرض أتاه ليث — على العلات — يفترس

(٢) هلاكه (٣) أطراف السيوف (٤) المفرد : « نعج » وهو السمين ، أو الذى أكل لحم الضأن حتى ثقل على قلبه ، وطلاهم : أعناقهم (٥) يعنى : أبا عثمان الناجم

(٦) ارجع إلى ترجمته فى ص « ١٤٣ » فى الجزء الثانى (٧) هو أبو تمام

مناحة القصائد[1]

وَلَوْ أَنَّ الْقَصَائِدَ لَهَا عِلْمٌ؛ لَأَقَامَتْ عَلَيْهِ الْمَمْدُودَتَانِ اللَّتَانِ فِي أَوَّلِ دِيوَانِهِ مَأْتَماً، فَنَاحَتَا عليه كَابْنَتَيْ لبيدٍ، وَقَالَتَا مَا زَعَمَهُ «الْكِلَابِيُّ» فِي قَوْلِهِ:

«وَقُولاَ: «هُوَ الْمَيْتُ الَّذِي لاَ حَرِيمَهُ — أَضَاعَ، ولاَ خَانَ الصَّدِيقَ وَلاَ غَدَرْ»

إِلَى الْحَوْلِ، ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمَا — وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ»

وَكَأَنِّي بِهِمَا — لَوْ قُضِيَ ذَلِكَ — لاَجْتَمَعَتْ إِلَيْهِمَا الْمَمْدُودَاتُ، كَمَا تَجْتَمِعُ نِسَاءٌ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ، وَلَوْ فَعَلْنَ ذَلِكَ لَبَارَتْهُنَّ «الْبَائِيَّاتُ» بِمَأْتَمٍ أَعْظَمَ رَنِيناً. وَإِذَا كَانَ مَأْتَمُ الْمَمْدُودَاتِ فِي مِائَةٍ مِمَّنْ يُسْعِدُهُنَّ وَيُظَاهِرُ، وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَأْتَمُ الْبَائِيَّاتِ فِي آلافٍ، لِأَنَّ البَاءَ طَرِيقٌ رَكُوبٌ[2]، وَالْمَدُّ — فِي الْقَصَائِدِ — سَبِيلٌ مَنْكُوبٌ[3]. وَمَا نَظَمَهُ عَلَى «التَّاءِ»، فَإِنَّهُ لاَ يُعْجِزُ عَنِ الْإِيتَاءِ، وَتَجِيءُ الثَّائِيَّتَانِ فِي حَالِكِ اللَّوْنِ — وَإِنَّ الثَّاءَ لَقَلِيلَةٌ فِي شِعْرِ الْعَرَبِ — إِلاَّ أَنَّهُمَا تَسْتَعِينَانِ كَلِمَةَ كُثَيِّرٍ:

«حِبَالُ السَّلَامَةِ أَضْحَتْ رِثَاثَا — فَسَقْياً لَهَا — جُدُدًا أَوْ رِمَاثَا»

وَبِأَرَاجِيزِ رُؤْبَةَ[4] وَمَا كَانَ نَحْوَهَا مِنَ الْقَوَافِي الْمُتَكَلَّفَةِ، وَالْأَشْعَارِ الْمُتَعَسَّفَةِ، وَلَهُمَا — فِيمَا نَظَمَ «ابْنُ دُرَيْدٍ[5]» — أَعْوَانٌ!

فَأَمَّا الدَّالِيَّاتُ وَالرَّائِيَّاتُ وَمَا بُنِيَ عَلَى الْحُرُوفِ الذُّلُلِ، كَالْمِيمِ وَالْعَيْنِ وَاللَّامِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهُنَّ، فَلَوِ اجْتَمَعَ كُلُّ حَيِّزٍ مِنْهُنَّ، لَضَاقَ عَنْهُنَّ الصَّدَرُ وَالْإِيرَادُ،

---

(١) تمثل أبو العلاء قصائد أبى تمام أحياء تندب صاحبها، كما تمثل من قبل فى (ص ٨٦، ٨٧ فى الجزء الثانى) أبيات لبيد الثلاثة قصورا فى الجنة (٢) طريق ركوب، أى مطروق مذلل (٣) يتنكبه الناس، أى لا يسلكونه (٤) ارجع الى ترجمته فى ص ٨٩ فى الجزء الثانى (٥) ترجمته فى ص ١٦ فى الجزء الثانى

وَزِدْنَ عَلَى مَا ذُكِرَ أَنَّهُ اجْتَمَعَ فِي جَنَازَةِ « أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ[١] » مِنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ

وَيُقَالُ إِنَّهُ لَمْ يَجْتَمِعْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَا الْإِسْلَامِ جَمْعٌ أَكْثَرُ مِمَّا اجْتَمَعَ فِي مَوْتِ أَحْمَدَ ، حُزِرَ[٢] الرِّجَالُ بِأَلْفِ أَلْفٍ ، وَالنِّسَاءُ بِسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ ، وَاللَّهُ الْعَالِمُ بِيَقِينِ الْأَشْيَاءِ !

وَإِنْ كَانَ « حَبِيبٌ » ضَيَّعَ صَلَوَاتِهِ ، فَإِنَّهُ لَضَالٌّ ، لَا يَبْلُغُ فِيهِ كَيْدُ الْعُدَاةِ ، مَا بَلَغَ مِنْ إِهْمَالِ غَدَاةٍ . وَإِنِّي لَأَضَنُّ بِتِلْكَ الْأَوْصَالِ ، أَنْ يَظَلَّ جَسَدُهَا وَهُوَ بِالْمُوقَدَةِ صَالٍ . لِأَنَّهُ كَانَ صَاحِبَ طَرِيقَةٍ مُبْتَدَعَةٍ ، وَمَعَانٍ كَاللُّؤْلُؤِ يَسْتَخْرِجُهَا مِنْ غَامِضِ بِحَارٍ ، وَيَفُضُّ عَنْهَا الْمُسْتَغْلَقَ مِنَ الْمَحَارِ ، فَلَيْتَهُ كَالْجَعْدِيِّ[٣] أَوْ لَيْتَهُ لَحِقَ يَزِيدَ بْنَ مُهَلْهِلٍ ، فَقَدْ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَطَرَحَ عَنْهُ ثَوْبَ الْغَيِّ !

المازيار

وَأَمَّا « الْمَازِيَارُ » ، فَحَلَّالٌ بِالسَّفَهِ سَيَّارٌ ، وَحَسْبُهُ مَا يَتَجَرَّعُ مِنَ الْحَمِيمِ ،

---

(١) أحمد بن حنبل

توفى ٢٤١ هـ

نشأته ببغداد ، اشتهر بحفظه وروايته للحديث ، وكان من أصحاب الشافعى ، صنف كتابه « المسند » وجمع فيه من الأحاديث مالم يتفق لغيره ، وكان ورعاً ، حسن الوجه ، يخضب بالحناء خضباً خفيفا

وحدثت فى زمنه المسألة المشهورة ، وهى القول بخلق القرآن ، فدعى إلى الموافقة عليها ، فلم يجب ، فضرب وحبس

ورووا : أنه لما مات حضر جنازته ثمانمائة ألف رجل ، وستون ألف امرأة ، وروى غير ذلك كما يقول أبو العلاء (٢) أى قدّروا (٣) ارجع إلى ترجمته فى ص ٣٨ فى الجزء الثانى

وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْمَقَالِ الذَّمِيمِ ؛ وَقَدْ خَلَّدَ لَهُ فِي الْكُتُبِ مَا يُوجِبُ لَعْنَهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

ابو مسلم الخراسانى

وَالْعَجَبُ لِأَبِي مُسْلِمٍ ، حَطَبَ لِنَارٍ أَكَلَتْهُ ، وقَتَلَ فِي طَاعَةِ وُلَاةٍ قَتَلَتْهُ ، وَلَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ دَأَبَ لِسِوَاهُ ، وَأَغْوَاهُ الطَّمَعُ فِيمَنْ أَغْوَاهُ ، وَإِنَّمَا سَهِرَ لِأُمِّ دَفْرٍ[1] ، وَتَبِعَ سَرَاباً فِي قَفْرٍ ، فَوَجَدَ ذَنْبَهُ غَيْرَ الْمُغْتَفَرِ ، عِنْدَ صَاحِبِ الدَّوْلَةِ « أَبِي جَعفَرٍ[2] »

***

وَكُلُّ سَاعٍ لِلْفَانِيَةِ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ النَّدَمِ ، فَذَمُّنَا لَهَا يُحْسَبُ مِنَ الضَّلَالِ ، كَمَا تَمَنَّى الْقَنَعَ أَخُو الْإِقْلَالِ ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ فِي النَّصَبِ ، وَفَازَ بِالسَّبْقِ حَائِزُ الْقَصَبِ ، يَذُمُّهَا عَلَى غَيْرِ جِنَايَةٍ — وَلَمْ تَخُصَّ أَحَداً بِالْعِنَايَةِ — بَلْ أَبْنَاؤُهَا فِي الْمِحَنِ سَوَاءٌ ، لَا تُسَاعِفُهُمُ الْأَهْوَاءُ !

أعباء الفقير وأشجان الغنى

فَرُبَّ حَامِلِ حُزْمَةِ عَضِيدٍ[3] ، يَعْجِزُ ثَمَنُهَا عَنِ الْقُوتِ ، وَيُكَابِدُ شَظَفَ

---

(١) الدنيا — وأبو العلاء يكنيها بهذه الكنية ، ومعناها « أم نتن » ، لنقمته عليها ، فهو لا يكاد يذكر الدنيا إلا كناها بها .

(٢) انظر إلى قول أبي العلاء فى ذلك فى لزومياته :

لو بعث المنصور ، نادى : « أيا مدينة التسليم ؛ لا تسلمى »
« قد سكن القفر « بنو هاشم » وانتقل الملك إلى الديلم »
لو كنت أدرى أن عقباهم كذاك ، لم أقتل أبا مسلم »

ونحب أن يرجع القارئ إلى مصرع « أبى مسلم » فى كتابنا « مصارع الأعيان »

(٣) العضيد : الحطب من الشجر اليابس يقطع بالمعضد

عَيْشٍ مَمْقُوتٍ ، يَلِجُ سُلَّاءٌ(١) فِى قَدَمِهِ ، وَيَخْضِبُهُ الشَّائِكُ بِدَمِهِ ، وَهُوَ أَقَلُّ أَشْجَانًا مِنَ الْوَاثِبِ عَلَى السَّرِيرِ . يَنْعَمُ بِرَشَأٍ غَرِيرٍ ، يُجْمَعُ لَهُ الذَّهَبُ مِنْ غَيْرِ حِلٍّ بِإِعْنَاتِ الْأُمَمِ ؛ وَإِذَا مَلأَ بَطْنَهُ مِنْ طَعَامٍ(٢) وَسَبَحَ فِى بَحْرٍ مِنَ التَّرَفِ ، فَتِلْكَ النِّعَمُ وَلَذَّاتُهُ ، تَحْدُثُ لَهَا أَذَاتُهُ ؛ يَخْتَلِجُهُ الْقَدَرُ عَلَى غُفُولٍ ، وَغَايَةُ السَّفَرِ إِلَى قُفُولٍ .

***

وَمَا يَدْرِى الْعَاقِلُ — إِذَا افْتَكَرَ — أَىُّ الشَّخْصَيْنِ أَفضَلُ ؟ أَرِيبٌ عُقِدَ عَلَيْهِ إِكْلِيلٌ ، أَمْ أَرْقَشُ ظِلُّهُ فِى الملكِّ ظَلِيلٌ ، كِلَاهُمَا بَلَغَ آرَابًا ، وَأَحَدُهُمَا يَأْكُلُ تُرَابًا ، وَالْآخَرُ يُعَلُّ بِالرَّاحِ ، وَيُجْتَهَدُ لَهُ فِى الْأَفْرَاحِ .

***

وما علمنا النُّسُكَ مُوَقِّيًا ، وَلَا فِى الْأَسْبَابِ الرَّافِعَةِ مُرَقِّيًا . وَالْعَالَمُ بِقَدَرٍ عَامِلُونَ — أَخْطَأَهُمْ مَاهُمْ آمِلُونَ — وَمَا آمَنُ أَنْ تَكُونَ الْآخِرَةُ بِأَرْزَاقٍ(٣)

---

(١) شوك النخل ، واحدته سلاءة (٢) وفى هذا المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

ساس الأنام شياطين مسلطة ... فى كل مصر من الوالين شيطان
من ليس يحفل خمص الناس كلهم ... إن بات يشرب خمراً — وهو مبطان

(٣) الجـد

ذكر أبو العلاء هذا المعنى على لسان أوس فى (ص١٦٧ ج٢) وذكره فى مكان آخر من لزومياته فقال :

والبخت فى الأولى أنال العلا ... وليس فى آخرة بخت
كذاك قالوا ، وأحاديثهم ... يبين فيها الجزل والشخت

وكرره فى قوله :

أأخشى عذاب الله ، والله عادل ... وقد عشت عيش المستضام المعذب
نعم ! ، إنها الأرزاق ؛ والمرء جاهل ... يهذب من دنياه ما لم يهذب

ولأبى العلاء أشعار أخرى كثيرة فى الجد ، نجتزىء منها هنا بقوله :

والسعد يدرك أقواماً فيرفعهم   وقد ينال إلى أن يعبد الحجرا
وشرفت « ذات أنواط » قبائلها   ولم تباين — على علاتها — الشجرا

سيطلبنى رزقى الذى لو طلبته   لما زاد ، والدنيا حظوظ و إقبال

لا تطلبن بآلة لك رتبة   قلم الأديب ، بغير حظ ، مِغْزَل
سكن السِّماكانِ السماء كلاهما   هـذا له رمح ، وهذا أعزل

إذا صدق الجد افترى العم للفتى   مكارم لاتكرى — وإن كذب الخال

الجد : الحظ ، والعم : الجماعة ، ولا تكرى : لا تنفد ، والخال : المخيلة .

موجز رأى الشعراء فى الحظ

و يحسن فى هذه المناسبة أن نذكر نخبة من آراء الشعراء فى الجد ، و يمكن القول بأن آراءهم جميعاً ، تكاد تجمع على أنه حليف الغباوة ، قال المتنبى :

هو الجد حتى تفضل العين أختها   وحتى يصير اليوم لليوم سيدا

وما الجمع بين الماء والنار فى يد   بأصعب من أن أجمع الجَدَّ والفهما

وقال أبو تمام :

ينال الفتى من دهره ، وهو جاهل   و يكدى الفتى من دهره — وهو عالم
ولو كانت الأرزاق تأتى على الحجا   إذن هلكت من جهلهن البهائم

وقال الضالى :

إذا جمعت بين امرئين صناعة   فأحببت أن تدرى الذى هو أحذق
فلا تتفقد منهما غير ما جرت   به لهما الأرزاق حين تفرق
فحيث يكون الجهل ، فالرزق واسع   وحيث يكون العلم ، فالرزق ضيق !

وقال ابن وهبون :

وحيث ترى زند النجابة واريا   فثم ترى زند السعادة كابيا

وقال ابن الخياط :

وما زال شؤم الحظ من كل طالب كفيلا ببعد المطلب المتــداني
وقد يحرم الجلد الحريص مرامه ويعطى منـاه العاجز المتوانى

وقال المروزى الضرير :

تنافى العقل والمـال فمـا بينهما شكل
فعقل حيث لا مال ومال حيث لا عقل

وقال القاضى الفاضل :

وزيادتى فى الحذق، فَهْـ ى زيادة فى نقص رزقى!

وقال ابن سناء الملك :

هو الجد خذه إن أردت مسلماً ولا تطلب التعليل ، فالأمر مبهم !

ومما نختاره من شعر ابن الرومى فى « الجد » قوله :

عزت مطالب دنيا كل ذى أدب وهان مطلب دنيا الأحمق الخرق
وقدر الله فيهـا أن يذللها فهان مطلبها للجاهل الحمق
فليس ينفك ذو علم وتجربة من مأكل جشب، أو مشرب رنق
وذو الجهالة منهـا فى بلهنيـة من مسمع حسن ، أو منظر أنق
تبارك العدل فيها — حين يقسمها بين البرية قسما غير متفق !

وقوله : لا تعجبن لمرزوق أخِى هوج حظا تخطى أصيل الرأى طرافا
فخالقُ النـاس أعراء بلا وبر كاسى البهائم أو باراً وأصوافا
ما زلت أعرف أهل العجز فى دعة لا يكلفون ، وأهل الكيس كلافا
أما ترى هذه الأنعام قد كفيت فمـا تساوم بالأخفاف أخفافا ؟

وقوله : دنيـا علا شأن الوضـيع بها وهوى الرفيع — يحطه شرفه
كالبحر يرسب فيـه لؤلؤه سَجْـلا ، وتطفو فوقه جيفه

علی بن أبی طالب(1)

أَمَّا الَّذِينَ يَدَّعُونَ فِي « عَلِيٍّ » عَلَيْهِ السَّلَامُ — مَا يَدَّعُونَ ، فَتِلْكَ ضَلَالَةٌ

وقوله :

رأيت الدهر يرفع كل وغد ... ويخفض كل ذى شيم شريفه
كمثل البحر يغرق فيه حى ... ولا ينفك يطفو فيه جيفه
أو الميزان يخفض كل واف ... ويرفع كل ذى زنة خفيفه

ونختم هذا المختار بتلك القصة الجميلة ، التى يحكيها لنا أحد الشعراء عن نفسه ، وهى :

ولما لمست الرزق فانجـذ حبله ... ولم يصف لى من بحره العذب مشرب
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته ... فزوجنيها الفقر — إذ جئت أخطب
فأولدتها الحزن الشقى ؛ فما له ... على الأرض غيرى والد ، حين ينسب
فلو تهت فى البيداء — والليل مسبل ... علىّ جناحيه — لما لاح كوكب
ولو خفت شرًّا فاستترت بظـلة ... لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
ولو جاد إنسان على بدرهم ... لرحت — إلى رحلى — وفى الكف عقرب
ولو يمطر الناس الدنانير ، لم يكن ... بشىء سوى الحصباء رأسى يحصب
وإن يقترف ذنباً ببرقة مذنب ... فإن برأسى ذلك الذنب يعصب
وإن أر خيراً فى المنـام ، فنازح ... وإن أر شراً ، فهو منى مقرب
أمامى من الحرمان جيش عرمرم ... ومنه ورائى جحفل حين أركب

وسيمر بك قول ابن الراوندى فى الجد فى ص «٢٩٦» فى هذا الجزء

(1) لبعض الشيعة آراء متطرفة فى على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ودعاوى لا تقف عند حد ، وقد ادعى قوم أنه لم يقتل ، وإنما الذى قتله « ابن ملجم » شيطان تصور للناس فى صورته ، أما على فقد صعد الى السماء ، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه . وهى دعوى تشبه ما قيل فى عيسى .

وادعى قوم أن الله أرسل جبريل إلى على ؛ فذهب إلى محمد خطأ — لشدة الشبه بين

قَدِيمَةٌ ، وَدِيمَةٌ مِنَ الْغَوَايَةِ تَتَّصِلُ بِهَا دِيمَةٌ ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ حُرِّقَ « عَبْدُ اللهِ

النبي والإمام على ، وهذه الفرقة تقول : « العنوا صاحب الريش » أى جبريل

وادعى آخرون أن الله خلق محمداً ، ثم فوض اليه تدبير العالم وتعميره ، فهو الذى خلق العالم دون الله ، ثم فوض محمد تدبير العالم إلى على بن أبى طالب ، فهو المدبر الثالث

وزعم غيرهم أن عليًّا هو الله ، وشتموا محمداً ، وزعموا أن عليًّا بعثه ليثنى عليه فادعى الأمر لنفسه

ويدعى فيه قوم آخرون أن الرعد والبرق صوته ، ومن سمع منهم صوت الرعد ، قال : « عليك السلام يا أمير المؤمنين » وفى هذه الطائفة يقول أبو إسحق ابن سويد العامرى :

برئت من الخوارج لست منهم ... من الحجاج منهم وابن باب
ومن قوم — إذا ذكروا عليًّا — ... يردون السـلام على السحاب

ولا يزال كثير من العامة يعتقد إلى اليوم أن عليًّا راكب ناقة يطير بها فوق السحاب ، ومما نذكره بهذه المناسبة — على سبيل التندر والفكاهة — أن أحد أشياخنا المعممين ، المشتغلين بنظم الكلام ، أراد أن يبتكر . ليقنع الناس بأنه غير عاكف على أساليب التفكير القديمة ، ويدفع عن نفسه معرة الجمود والجهل بحقيقة الشعر الحى ، الذى يتطلبه هذا العصر المملوء بالحياة والتفكير ، فحسب أن كل ما يتطلبه ذلك التطور الفكرى العظيم ـ من الشاعر ـ هو أن يستبدل وصف النوق والجياد بوصف قطر البخار والطيارات ، فورط نفسه فى الأخذ بتلك الخرافة ، ودعا الله أن يهبه طيارة يسمو بها الى السحاب ، حتى اذا بلغه حظى بلقيا على بن أبى طالب ، فقال :

« فهب لى ذات أجنحة ، لعلى ... بها ألقى على السحب الإماما »

فلم يزدنا اقتناعاً بجموده ، ولكنه وفق إلى اثبات فنده وخرفه بهذا البيت الرائع !

*
* *

وقد نسبوا الى « على بن أبى طالب » علم الجفر ، وهو ما يطلقونه على العلم الاجمالى بلوح القضاء والقدر ، المحتوى على ما كان وما يكون كليًّا وجزئيًّا ، وتدعى طائفة أنه وضع الحروف

ابْنُ سَبَأٍ » ، لَمَّا جَاهَرَ بِذَلِكَ النَّبَأِ ! — وَاعْتِقَادُ « الْكَيْسَانِيَّةِ » فِي « مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ » عَجِيبٌ ، لَا يُصَدَّقُ بِمِثْلِهِ نَجِيبٌ !

الهجائية فى جلد الجفر ، وأنه يمكن استخراج — ما يأتى به الغيب — منها بطريقة خاصة ، ويدعون أن هذا علم انفرد به آل البيت ومن ينتمى إليهم ، وأنهم يتوارثونه . وادعى آخرون أن فهم أسرار هذا الجفر مقصور على المهدى المنتظر ، وأنه — دون غيره — يستطيع أن يفقه حقيقة ما فى هذا الكتاب الذى سموه بهذا الاسم ، لأن علياً كتبه حروفاً متفرقة فى ورق مصوغ من جلد البعير ، وقد اشتهر بين الناس ، لاحتوائه ما حدث للأولين والآخرين ، وفيه يقول أبو العلاء :

يقولون : « مسك الجفر » أودع حكمة — إذا كتبت أطراسها ملأت جفرا [1] »

ولا يزال بعض العامة يعنى بهذه الخرافات وأشباهها ، ويأخذها بلا تدبر ولا روية .

ونحو من هذه الخرافة ما يروونه عن الخضر ، وعن المسيخ الدجال ، وغير ذلك من الترهات ؛ وقد وقف أبو العلاء قسماً كبيراً من رسالة الغفران واللزوميات ، على محاربة أشباه هذه البدع ، والتشنيع على من يقولون بها . وحسبنا أن نستدل بقوله منددا بتلك الخرافة التى يشيعونها عن الخضر :

يقول الغواة : « الخضر حى » عليهم — عفاء ، نعم ليل من الفتن أخضرا
ولو صدقوا ما انفك فى شر حالة — يعانى بها الأسفار ، أشعث مغبرا
جنى قائل بالمين ، يطلب ثروة — ويعذر فيه من تكسب مضطرا

وقوله منددا بالمهدى المنتظر :

مجوسيـــة وحنيفية — ونصرانة ويهـــوديه
تراقب مهديها أن يقوم — فتلفى الى الحق مهديه

وقد ندد بظهوره فى مكان آخر — فى (ص ٢٣٥) فى هذا الجزء — فليرجع من شاء

---

(١) جلد الماعز

دعوى الربوبية

وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا بِالْبَصْرَةِ يُعْرَفُ « بِشَابَاسَ » تَزْعُمُ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ أَنَّهُ رَبُّ الْعِزَّةِ ، وَتُجْبَى إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ الْجَمَّةُ ، وَيَحْمِلُ إِلَى السُّلْطَانِ مِنْهَا قِسْماً وَافِراً ، لِيَكُونَ — بِمَا طَلَبَ — ظَافِراً .

وَحُدِّثْتُ عَنِ امْرَأَةٍ بِالْكُوفَةِ يُدَّعَى لَهَا مِثْلُ ذَلِكَ .

رجعة الى ابن الراوندى

وَقَدْ سَمِعْتُ مَنْ يُخْبِرُ أَنَّ لِابْنِ الرَّاوَنْدِيِّ مَعَاشِرَ تَذْكُرُ أَنَّ اللَّاهُوتَ سَكَنَهُ ، وَيَخْتَرِصُونَ لَهُ فَضَائِلَ ، يَشْهَدُ الْخَالِقُ وَأَهْلُ الْمَعْقُولِ ، أَنَّ كَذِبَهَا غَيْرُ مَصْقُولٍ ، وَهُوَ — فِي هذَا — أَحَدُ الْكَفَرَةِ ، وَقَدْ أَنْشَدَ لَهُ مُنْشِدٌ :

قَسَّمْتَ بَيْنَ الْوَرَى مَعِيشَتَهُمْ ... قِسْمَةَ سَكْرَانَ بَيِّنِ الْغَلَطِ
لَوْ قَسَمَ الرِّزْقَ هَكَذَا رَجُلٌ ... قُلْنَا لَهُ : « قَدْ جُنِنْتَ ، فَاسْتَعِطِ[1] »

وَلَوْ تَمَثَّلَ هَذَانِ الْبَيْتَانِ ، لَكَانَا فِي الْإِصْرِ ، يَطُولَانِ أَرَمَىْ مِصْرَ[2]

أبو جوف

وَقَدْ ظَهَرَ فِي الضَّيْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالنَّيْرَبِ ، رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي جَوْفٍ ،

---

(١) أى أدخل السعوط فى أنفك لتفيق ، والسعوط هو ما يدخل الأنف من مسحوق دقيق كالتبغ . ولابن الراوندى فى هذا المعنى ، بيتان آخران ، أقل شناعة من هذين البيتين ، وهما قوله :

كم عاقل عاقل ، أعيت مذاهبه ... وجاهل جاهل ، تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترك الأوهام حائرة ... وصير العالم النحرير زنديقا !

(٢) أى هرمى مصر

كَانَ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ ، وَيُخْبِرُ بِأَخْبَارٍ مُضْحِكَةٍ ، وَكَانَ لَهُ قُطْنٌ فِي بَيْتٍ ، فَقَالَ إِنَّ قُطْنِي لَا يَحْتَرِقُ ، وَأَمَرَ ابْنَهُ أَنْ يُدْنِيَ سِرَاجاً إِلَيْهِ ، فَأَخَذَ فِي الْقُطْنِ ، وَصَرَخَتِ النِّسَاءُ ، وَاجْتَمَعَتِ الْجِيرَةُ .

*
* *

وَحَدَّثَنِي مَنْ شَاهَدَهُ : أَنَّهُ كَانَ يُكْثِرُ الضَّحِكَ مِنْ غَيْرِ مُوجِبٍ ، وَلَا عِنْدَ حَادِثٍ مُعْجِبٍ ؛ فَقِيلَ لَهُ : « لِمَ تَضْحَكُ ؟ » فَقَالَ كَلاماً مَعْنَاهُ : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَفْرَحُ بِهَيِّنٍ قَلِيلٍ ، فَكَيْفَ مَنْ وَصَلَ إِلَى الْعَطَاءِ الْجَلِيلِ ! »

وَكَانَ بَيِّنَ الْجُنُونِ ، لَيْسَ خَبْلُهُ بِالْمَكْنُونِ ، فَاتَّبَعَهُ الْأَغْبِيَاءُ ، وَكَذَّبَ مَا تَقُولُهُ الْأَنْبِيَاءُ ، حَتَّى قَتَلَهُ وَالِي حَلَبَ

عودة الى على بن أبى طالب

وَبَعْضُ الشِّيعَةِ يُحَدِّثُ أَنَّ « سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ » كَانَ فِي نَفَرٍ جَاءُوا يَطْلُبُونَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ — سَلَامُ اللهِ عَلَيْهِ — فَلَمْ يَجِدُوهُ فِي مَنْزِلِهِ ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ ، جَاءَتْ بَارِقَةٌ ، تَتْبَعُهَا رَاعِدَةٌ ، وَإِذَا عَلِيٌّ قَدْ نَزَلَ عَلَى إِجَّارِ الْبَيْتِ فِي يَدِهِ سَيْفٌ مَخْضُوبٌ بِالدَّمِ ، فَقَالَ : « وَقَعَ شِجَارٌ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، فَصَعِدْتُ لِأُصْلِحَ بَيْنَهُمَا ! »

أَفَلَا يَرَى هَذِهِ الْأُمَّةَ كَيْفَ افْتَتَنَتْ فِي الضَّلَالَةِ ، كَافْتِتَانِ الرَّبِيعِ فِي إِخْرَاجِ الْأَكْلَاءِ ! وَلِلْكَذِبِ سُوقٌ لَيْسَتْ لِلصِّدْقِ . . .

*
* *

وَأَمَّا الَّذِي ذَكَرَهُ مِنْ بُلُوغِ السِّنِّ ، فَإِنَّ اللهَ — سُبْحَانَهُ — خالق مَقِرًّا وشُهْدًا ، وَرَغْبَةً فِي الْعَاجِلَةِ وَزُهْداً ، وَإِذَا اللَّبِيبُ أَنْعَمَ النَّظَرَ لَمْ يَرَ الْحَيَاةَ إِلَّا تَجْذِبُهُ

إِلى الضَّيْرِ ، صُبْحٌ يَتَبَسَّمُ وَإِمْسَاءٌ ، كَأَنَّهُمَا سِيدا إِضْراء ، وَالْعُمُرُ ثُلَّةٌ ، وَهُمَا عَلَى السَّارِحِ يُغِيرَانِ ، فَيُفْنِيَانِ السَّائِمَةَ(١) وَيُبِيرَانِ !

الزواج

وَقَدْ تَحَدَّثَ بَعْضُ طُلَّابِ الْأَدَبِ ، أَنَّهُ ذَكَرَ التَّزْوِيجَ — يُرِيدُ الْخِدْمَةَ — فَسَرَّنِي ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ دَلَّ عَلَى إِقَامَةٍ بِالْوَطَنِ ، وَفِي قُرْبِهِ الْفَرْحَةُ ، إِذْ كَانَ كَالشَّجَرَةِ الْوَارِفِ ظِلَالُهَا فِي الْهَوَاجِرِ، والطَّيِّبِ ثَمَرُهَا لِلذَّائِقِ ، وَالْأَرِجِ نَسِيمُهَا لِلنَّاشِقِ . وَهُوَ يَعْرِفُ حِكَايَةَ الْخَلِيلِ عَنِ الْعَرَبِ : « إِذَا بَلَغَ الرَّجُلُ السِّتِّينَ فَإِيَّاهُ وَإِيَّا الشَّوَابِّ ، وَلَكِنِ النُّصَفَ(٢) »

---

(١) وفى هذه المعنى يقول أبو العلاء فى لزومياته :

هل الناس إلا نظير السوام وآجالهم أسـد تفترس ؟

(٢) كرر أبو العلاء هذه النصيحة أكثر من مرة فى لزومياته ، فمن ذلك قوله :

إذا ما ابن ستين ضم الكعاب إليـه فقد حلت البهله
هو الشيخ ، لم يرضه أهله ولم يرض فى فعـله أهله
فلا يتزوج أخو الأربعين إلا مجـربة كهله
رأى الشيب فى عارضيه المسـن ، فنعم القرين له الشهله

وقوله : إذا أنت زُوجت العجوز على الصبا فأيامها صن عليك وصنبر

وقوله : كأنك — بعد خمسين استقلت لمولدك — البناء ، دنا ليهوى
وإنك — إن تزوَّجْ بنت عشر — لأخيب صفقة من شيخ مهو

وحكاية « شيخ مهو » مشهورة ، لا نطيل بذكرها هنا ، فليرجع إليها من شاء ، فى (ص ٣٥٨ جزء ٢) من اللزوميات

وَلَوْ نَشِطَ لِهَـذِهِ الْمَـأْرُبَةِ ، لَتَنَافَسَتْ فِيهِ الْعُجُزُ وَالْمُـكْتَهِلَاتُ ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ :

« يَا عَزُّ ! هَلْ لَكِ فِي شَيْخٍ فَتًى أَبَداً   وَقَدْ يَكُون شَبَابٌ غَيْرُ فِتْيَانِ »

فَلَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ تَزَوَّجَ — عَلَى السِّنِّ — عَجُوزاً ، كَمَا قَالَ :

« إِذَا مَا أَعْرَضَ الْفَتَيَاتُ عَنِّي   فَمَنْ لِي أَنْ تُسَاعِفَنِي عَجُوزُ

كَأَنَّ مَجَامِعَ اللَّحْيَيْنِ مِنْهَـا   — إِذَا حَسَرَتْ عَنِ الْعِرْنِينِ — كُوزُ »

وَيُرْوَى لِلحَارِثِ بنِ حِلِّزَةَ ، وَلَمْ أَجِدْهُ فِي دِيوَانِهِ :

وَقَالُوا مَا نَـكَحْتَ ؟ فَقُلْتُ خَيْراً   عَجُوزاً مِنْ عُرَيْنَةَ ذَاتَ مَالِ

نَـكَحْتُ كَبِيرَةً ، وَغَرِمْتُ مَالًا   كَذَاكَ الْبَيْعُ مُرْتَخَصٌ وَغَالِ[1]

وَأَعُوذُ بِاللهِ مِمَّا قَالَهُ الآخَرُ :

عَجُوزٌ لَوَ أَنَّ الْمَاءَ يُسْقَى بِكَفِّهَا   لَمَا تَرَكَتْنَا بِالْمِيَـــاهِ نَجُوزُ

وَمَا زَالَتِ الْعَرَبُ تَحْمَدُ الْحَيْزَبُونَ وَالشَّهْلَةَ ، وَلَا تَـكْرَهُ — مَعَ الشَّرْخِ — الْـكَهْلَةَ .

زواج النبي بخديجة

وَقَدْ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — خَدِيجَةَ بنتَ خُوَيْلِدٍ ، وَهُوَ شَابٌّ ، وَهِيَ طَاعِنَةٌ فِي السِّنِّ ، وَقَالَتْ لَهُ أُمُّ سَلَمَةَ ابْنَةُ أَبِي أُمَيَّةَ : « يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنِّي امْرَأَةٌ قَدْ كَبِرْتُ وَمَا أُطِيقُ الْغَيْرَةَ » فَقَالَ : «أَمَّا قَوْلُكِ قَدْ كَبِرْتِ ،

---

(١) نذكر بهذه المناسبة قول بعض الشعراء :

لا تنكحن عجوزاً ، إن دعيت لها   وإن حبيت على تنكيحها الذهبا

فإن أتوك ، وقالوا : إنها نصف   فإن أطيب نصفيها الذى ذهبا !

فَأَنَا أَكْبَرُ مِنْكِ ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ فَإِنِّى سَوْفَ أَدْعُو اللهَ أَنْ يُزِيلَهَا عَنْكِ»

حاجة الشيخ الى الزواج

وَلاَ أَشُكُّ أَنَّه قَدِ اسْتَخْدَمَ فِى مِصْرَ أَصْنَافَ جَوارٍ ، وَلَوْلاَ أَنَّ أَخَا الْكَبْرَةِ يَفْتَقِرُ إِلَى مُعِينٍ ، لَكَانَتِ الْحَزَامَةُ أَنْ يَقْتَنِعَ بِوِرْدِ الْمَعِينِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ قَوْلَ الْقَائِلِ :

« مَا الْعَيْشُ إِلَّا الْقُفْلُ وَالْمِفْتَاحُ وَغُرْفَةٌ تَخْرِقُهَا الرِّيَاحُ »
« لاَ صَخَبٌ فِيهَا وَلاَ صِيَاحُ »

الخـــدم

وَحَدَّثَنِي « ابْنُ الْقِنَّسْرِيِّ » الْمُقْرِئُ — : أَنَّهُ سَمِعَهُ يَسْأَلُ عَنْ غُلاَمٍ لِلْخِدْمَةِ . وَرُبَّمَا كَانَ اسْتِخْدَامُ الأَحْرَارِ ، يَمْنَعُ مِنَ الْقَرَارِ ، فَقَدْ قَالَ أَبُو عُبَادَةَ :

أَنَا مِنْ « يَاسِرٍ وَيُسْرٍ وَنُجْحٍ » لَسْتُ مِنْ « عَامِرٍ » وَلاَ « عَمَّارِ »
مَا بِأَرْضِ الْعِرَاقِ يَا قَوْمِ حُرٌّ يَفْتَدِينِي مِنْ خِدْمَةِ الْأَحْرَارِ ؟

وَأَنْ يَخْدُمَ نَفْسَهُ الْوَحِيدُ ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَلِجَ بَيْتَهُ الْعَبِيدُ ، فَطَالَمَا أَحْوَجُوا الْمَالِكَ إِلَى ضَرْبٍ .

لؤم الخـــدم[1]

وَرُبَّ نَازِلٍ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي خَانٍ ، يَخْدُمُهُ صَبِيٌّ هُوَ مِنَ الرِّقِّ حُرٌّ ، وَفِي خِدْمَتِهِ السَّرَقُ وَالضُّرُّ ، إِذَا أَرْسَلَهُ بِالدَّرَاهِمِ لِيَأْتِيَهُ بِالبِطِّيخَةِ — حِينَ

(١) قال أبو العلاء :

ومن عناء الليالى خادم ضغن إن يُؤمر الأمر يفعل غير ما أُمرا

يَكْثُرُ الْبطِّيخُ — سَرَقَ فى السَّبيلِ الْقِطَعَ ، وَانْتَهَى فى الْخِيَانَةِ وَتَنطَّعَ ، ثُمَّ وَقَفَ بِالْبَائِعِ فَغَبَنَهُ ، فَأَخَذَ صَغيرَةً مِنَ بِطِّيخٍ ، ثُمَّ انْصَرَفَ بِهَا لَاعِباً ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَلَقَّفُ بِهَا فى الطَّرِيقِ حَتَّى كَسَرَهَا ، فَاخْتَلَطَ حَبُّهَا بِالْحَصْبَاءِ .

وَيَجوزُ أَنْ يَحْمِلَهَا — فى حالِ السَّلَامَةِ — وَيَمْضِىَ لِيَسْبَحَ مَعَ الْفِتْيَانِ ، فَإِذا نَزَلَ فى الْمَاءِ اخْتَطَفَهَا بَعْضُ الْعَرِمَةِ مِنَ الصِّبْيَانِ ، فَأَكَلهَا وَهُوَ يَرَاهُ ، لَا يَحْفِلُ بِأَدِيهَا إِذْ فَرَاهُ .

وَقَدْ يُرْسِلُهُ بِالْغِضَارَةِ[1] يَلْتَمِسُ لَبَناً ، فَيُقَابِلُ مِنْ سُوءِ الرَّأْيِ غَبَناً ، فَإِذا حَصَلَ فيهَا الْهُدَبِدُ[2] ، عَثَرَ فَإِذا هُوَ عَلَى الصَّحْرَاءِ مُتَبَلِّدٌ ، وَصَارَتِ الْفَخَّارَةُ خَزَفاً لَا يُرَادُ .

* * *

وَأَمَّا أَهْلُ بَلَدِى — حَرَسَهُمُ اللهُ — فَإِذا كَانَ الْحَظُّ قَدْ أَعْطانِى حُسْنَ ظَنِّ الْغُرَبَاءِ ، فَلا يَمْتَنِعُ أَنْ يُعْطِيَنِى تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ مِنَ الرَّهْطِ الْقُرَبَاءِ ، وَلَـكِنَّهُمْ مَعِى كَطُلَّابِ الْخُطْبَةِ مِنَ الْأَخْرَسِ !

التوبة

وَأَمَّا إِشْفَاقُ الشَّيْخِ ، فَتِلْكَ سَجِيَّةُ الْأَنِيسِ ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا أَخُو الْجُبْنِ عَنِ الشُّجَاعِ ، وَمِنَ الْقُسُوطِ تعرضٌ بالقُنوط « قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ » .

* * *

كَمْ مِنْ أَدِيبٍ شَرِبَ وَطَرِبَ ثُمَّ تَابَ ، فَقَدْ يَضِلُّ الدَّلِيلُ فى ضَوْءِ الْقَمَرِ ،

---

(١) القصعة (٢) اللبن الخاثر

ثُمَّ يَهْدِيهِ اللهُ ، وَكَمِ اسْتُنْقِذَ مِنَ اللُّجِّ غَرِيقٌ فَسَلِمَ .

الفضيل بن عياض

وَقَدْ كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ ، يُسِيمُ فِى أَوْبَلِ رِيَاضٍ ، ثُمَّ حُسِبَ فِى الزُّهَّادِ ، وَجُعِلَ مِنْ أَهْلِ الاجْتِهَادِ ، وَرُبَّ خَلِيعٍ وَهُوَ فَتًى ، تَصَدَّرَ — لَمَّا كَبِرَ — وَأَفْتَى ، وَمُغَنٍّ بِطُنْبُورٍ أَوْ عُودٍ ، قُدِّرَ لَهُ تَوَلِّى السُّعُود ، فَرَقِىَ مِنْبَرًا لِلْعِظَاتِ !

عمر بن عبد العزيز

وَلَعَلَّهُ قَدْ نَظَرَ فِى طَبَقَاتِ الْمُغَنِّينَ ، فَرَأَى فِيهِمْ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَمَالِكَ بْنَ أَنَسٍ ، هَكَذَا ذَكَرَ « ابن خُرْدَاذَبَة » فَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ !

ابو حذيفة وحماد عجرد

وَالْحِكَايَةُ مَعْرُوفَةٌ ، أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ(١) كَانَ يُشَارِبُ حَمَّادَ عَجْرَد وَيُنَادِمُهُ ، فَنَسَكَ أَبو حُذَيْفَةَ ، وَأَقَامَ حَمَّادٌ فِى الْغَىِّ ، فَبَلَغَهُ أَنَّ أَبَا حُذَيْفَةَ يَذُمُّهُ وَيَعِيبُهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ حَمَّادٌ :

إِنْ كَانَ نُسْكُكَ لَا يَتِمُّ ... بِغَيْرِ شَتْمِى وَانْتِقَاصِى
فَاقْعُدْ وَقُمْ بِى كَيْفَ شِئْـ ... ـتَ مَعَ الْأَدَانِى وَالْأَقَاصِى
فَلَطَالَمَا زَكَّيْتَنِى ... وَأَنَا الْمُقِيمُ عَلَى الْمَعَاصِى
أَيَّامَ تُعْطِينِى وَتَأْ ... خُذُ فِى أَبَارِيقِ الرَّصَاصِ

---

(١) هو واصل بن عطاء ، تلميذ الحسن البصرى ، وصاحب مذهب الواصلية ، ورئيس تلك الطائفة المعروفة المنسوبة إليه . وكان فى زمن عبد الملك وهشام ابنه ، ومذهبه مبين فى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، فليرجع إليه من شاء .

عمر بن الخطاب

أَلَيْسَ الصَّحَابَةُ — عَلَيْهِمْ رِضْوَانُ اللهِ — كُلُّهُمْ كَانَ عَلَى ضَلَالٍ، ثُمَّ تَدَارَكَهُ الْمُقْتَدِرُ ذُو الْجَلَالِ؟؟

وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ يُرِيدُ مَجْمَعاً كَانُوا يَجْتَمِعُونَ فِيهِ لِلْقِمَارِ، فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ أَحَداً، فَقَالَ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى الْخَمَّارِ لَعَلِّي أَجِدُ عِنْدَهُ خَمْراً، فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُ شَيْئاً، فَقَالَ لَأَذْهَبَنَّ وَلَأُسْلِمَنَّ!... وَالتَّوْفِيقُ يَجِيءُ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ!

عودة الى النبي

وَفِيمَا خُوطِبَ بِهِ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — : «وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى»

وَذَكَرَ أَبُو مَعْشَرٍ الْمَدَنِيُّ، فِي كِتَابِ «الْمَبْعَثِ» حَدِيثاً مَعْنَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — ذَبَحَ ذَبِيحَةً لِلْأَصْنَامِ، فَأَخَذَ شَيْئاً مِنْهَا، فَطُبِخَ لَهُ، وَحَمَلَهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، وَمَضَيَا لِيَأْكُلَاهُ فِي بَعْضِ الشِّعَابِ، فَلَقِيَهُمَا «زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ» وَكَانَ مِنَ الْمُتَأَلِّهِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَدَعَاهُ النَّبِيُّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لِيَأْكُلَ مِنَ الطَّعَامِ، فَسَأَلَهُ عَنْهُ، فَقَالَ: «هُوَ شَيْءٌ ذَبَحْنَاهُ لِآلِهَتِنَا» فَقَالَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو: «إِنِّي لَا آكُلُ مِنْ شَيْءٍ ذُبِحَ لِلْأَصْنَامِ، وَإِنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — فَأَمَرَ النَّبِيُّ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ بِإِلْقَاءِ مَا مَعَهُ.

تميم بن أوس الداري

وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ — وَقَدْ سَمِعْتُهُ بِإِسْنَادٍ — أَنَّ تَمِيمَ بْنَ أَوْسٍ الدَّارِيَّ(١)

---

(١) نسبة إلى «الدار» وقال أبو العلاء: والدار قبيلة من «لخم»

كَانَ يُهْدِى إِلَى النَّبِيِّ — فِي كُلِّ سَنَةٍ — رَاوِيَةً مِنْ خَمْرٍ ، فَجَاءَ فِي بَعْضِ السِّنِينَ ، وَقَدْ حُرِّمَتِ الْخَمْرُ ، فَأَرَاقَهَا .

أحمد بن حنبل والخمر

وَقَدْ ذُكِرَ عِنْدَ ثَعْلَبٍ ، أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، وإِنْ كَانَ شَرِبَ النَّبِيذَ قَطُّ ، وَالنَّبِيذُ — عِنْدَ الْفُقَهَاءِ — غَيْرُ الْخَمْرِ ، فَقَالَ ثَعْلَبٌ : « أَنَا سَقَيْتُهُ بِيَدِى ! »

الخمـــر

وَإِنَّمَا لَذَّةُ الشُّرْبِ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ مِنَ السُّكْرِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ ، لَكَانَ غَيْرُهَا مِنَ الْأَشْرِبَةِ أَعْذَبَ وَأَدْفَأَ(١) ، وَإِنْ كَانَ الشَّيْخُ قَدْ شَرِبَ ، فَلَهُ

---

(١) رأى أبى العلاء فى الخمر

يعد أبو العلاء الخمر من اللذائذ ، و يعرف لها مزاياها ؛ ولا يمترى فيما تحدثه فى نفس شاربها من نشوة الفرح والطرب ، و يعلم أن ذلك هو السر فى تهافت النـاس على شربها — على اختلاف العصور والأمكنة .

فهو من أعرف الناس بمزايا الخمر ، وإن كان لم يذق لها طعماً ، وقد قرأ جل ما كتبه عنها شعراء العربية — جاهليين و إسلاميين وعباسيين — ودرسه ، كما درس غيره — فأصبح من أعلم الناس بها — وليس ذلك مستغرباً ، فقد أبدَعَ أبو العلاء فى أشعاره كثيراً من التشبيهات الرائعة التى تعتمد على البصر

وحسبك ما أتى به من الأوصاف الكثيرة الدقيقة ، فى وصف الدروع وغيرها . ونكتفى من ذلك كله ببيته المشهور ، الذى وصف به سهيلاً فقال :

« وسهيل كوجنة الحب فى اللو ن ، وقلب المحب فى الخفقان »

ولم يقصر « بشار » فى كثير من تشبيهاته عن شأو المبصرين ، و إجادة الأوصاف

التى كان من حقهم أن ينفردوا بها دون سواهم ، وآية ذلك ، بيته الرائع المشهور :

« كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا — ليل تهاوى كواكبه »

*
* *

إذن فقد كان أبو العلاء يعرف الخمر ، ويدرك مزاياها حقاً ؛ نعم ، وقد تمنى شربها فى كثير من أشعاره ، وود لو أنها أصبحت طلقة محللة ، ولكن لم يفته أن يعقب — فى كل موضع تمناها فيه تقريباً — بالسبب الرئيس الذى يدفعه الى العزوف عنها ، والإحجام عن شربها ، وهو : « إزراؤها باللب » وقد عرفت أن أبا العلاء كان يعتز بالعقل كل الاعتزاز ويجله ، ويفتن فى تقديسه « انظر إلى ص ٢٥٦ فى هذا الجزء » حتى تضاءل أمامه كل اعتبار قيس إليه ، وقد أظهرنا أن من أكبر الأسباب التى أزعجته من لقاء الموت — رغم حنينه الدائم إليه — هو خوفه أن يسلبه الردى ذلك العقل الذى يحرص عليه ، ويضن به . (ارجع إلى ص ٢٠٨ من هذا الجزء)

ولهذا السبب نفسه ، ارتاع من الكبر ، فقال :

وما أتوقّى ، والخطوب كثيرة من الدهر، إلا أن يحل بى الهتر

ويمكننا أن نتخذ البيت التالى مفتاح فلسفته فى الخمر ، وهو :

ولولا أنها باللب تزرى لكنت أخا الندامة والنديم

*
* *

والخمر — بعد ذلك — قد حرمها الإسلام ؛ ولو حلل شربها ، لما شربها أبو العلاء :

أيأتى نبى يجعل الخمر طلقة فتحمل ثقلا من همومى وأوزارى ؟

وهيهات!—لوحلت—لما كنت شاربا مخففة فى الحلم كفة ميزانى

وليس ذلك ببدع على من حرم على نفسه أكل اللحم ، مع إباحة الشرع ذلك .

فهو إذا كان قد دفعته الشفقة على الحيوان ، فلم يأكله ، فقد دفعه الإشفاق على عقله أن يحرم على نفسه الخمر — ولو حللها دينه — وهو لم يحللها بعد !

ومن ثم تدرك السر فى رغبته عنها ، بالرغم من تمنيه إياها أحيانا ، فقد تمناها فى لاميته

بَلْ رُبَّ لَيْلٍ جَمَعَتْ قُطْرَيْهِ لِي بِنْتُ ثَمَانِينَ — عَرُوسٌ تُجْتَلَى !

التى قالها — وهو بالعراقَ — وأظهر فيها حنينه ووجده الشديد إلى بلده « المعرة » فقال :

« تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلنى كيف اطمأنت بى الحال
فأذهل أنى — بالعراق — على شفا ، رزئُ الأمانى ، لا أنيس ولا مال
مقل من الأهلين يسر وأسرة كفى حزنا بَيْنٌ مُشتٌ و إقلال ! »

على أنها أمنية اليائس الذى يفضل الموت على الحياة !

و إليك نخبة مختارة مما قاله فى الخمر ، نستدل بها على ما ذهبنا إليه :

لو كانت الخمر حلا ، ما سمحت بها لنفسى الدهر ، لا سرًّا ولا علنا

ويهجر طيب الراح خوفا من السكر

هى الراح أَهْلاً لطول الهجاء و إن خصها معشر بالمِدَح
فلا تعجبنْك عروس المدام ولا يطربنْك مغن صدح
ومن يفتقد لبه ساعة فقد مات فيها بخطب فدح

وقد شرح فى الأبيات التالية ، ما ينجم عن الذهول ، الذى تحدثه الخمر فى نفوس شاربيها ، فقـال :

البابلية باب كل بلية فتوقينّ هجوم ذاك الباب
جرّت ملاحاة الصـديق وهُجره ، وأذى النديم ، وفرقة الأحباب
هتكت حجاب المحصنات ؛ وجشمت مهن العميد تهضم الأرباب
وتوهم الشيب المدالف ، أنهم لبسوا — على كبر — برود شباب
و إذا تأملت الحوادث ، أُلفيت صهب الدنان أعادى الألباب

*
* *

وجماع القول أن أبا العلاء أكثر من ذكر الخمر والتشنيع عليها ، فى أشعاره ، وكما تستطيع أن تفرد لبعض الشعراء — كأبى نواس مثلا — ديوانا فى مدح الخمر ، تستطيع أن تفرد لأبى العلاء كذلك ، ديواناً فى ذمها !

ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِ الْقَصِيدَةِ(١)

فَإِنْ أَمُتْ فَقَدْ تَنَاهَتْ لَذَّتِي ‏ ‏ ‏ ‏ وَكُلُّ شَيْءٍ بَلَغَ الْحَدَّ انْتَهَى

وَمَا أَخْتَارُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِقَوْلِ الْحَكَمِيِّ :

قَالُوا: «كَبِرْتَ» فَقُلْتُ: «مَا كَبِرَتْ يَدِي ‏ ‏ ‏ ‏ عَنْ أَنْ تَسِيرَ إِلَى فَمِي بِالْكَاسِ(٢)! »

*
* *

وَقَدْ آنَ لِمَوْلَايَ الشَّيْخِ أَنْ يَزْهَدَ فِي شِيمَةِ حُمَيد الأَمَجِيِّ، قَائِلِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

« شَرِبْتُ الْمُدَامَ فَلَمْ أُقْلِعِ ‏ ‏ ‏ ‏ وَعُوتِبْتُ فِيهَا، فَلَمْ أَرْجِعِ

« حُمَيدُ » الذي أَمَجٌ داره ‏ ‏ ‏ ‏ أخو الخمر، ذو الشَّيبة، الأصلع

عَلَاهُ الْمَشِيبُ عَلَى حُبِّهَا ‏ ‏ ‏ ‏ وَكَانَ كَرِيماً فَلَمْ يَنْزِعِ ! »

وَقَالَ آخَرُ :

---

(١) يعنى مقصورة « ابن دريد » المشهورة التى أولها :

يا ظبية أشبه شيء بالمها ‏ ‏ ‏ ‏ ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وقد مر بعض أبياتها فى (ج ٢ ص ١٨ ، ١٩)

(٢) الحكمى : هو أبو نواس ، وقد مرت ترجمته فى (ج ٢ ص١٠ ، ١١) وهذا البيت من سينيته الجميلة التى يقول فيها :

كيف النزوع عن الصبا والكاس ‏ ‏ ‏ ‏ قس ذا لنا ، يا عاذلى بقياس !

وإذا عددتُ سِنِى « كم هى ؟ » لم أجد ‏ ‏ ‏ ‏ للشيب عذراً فى النزول براسى

قالوا : « كَبِرتَ» فقلت : «ما كَبِرت يدى ‏ ‏ ‏ ‏ عن أن تسير إلى فمى بالكاس ! »

صفراء ، زان رواءها مخبورها ‏ ‏ ‏ ‏ فلها المهذب من ثناء الحاسى

وكأن شاربها — لفرط شعاعها ‏ ‏ ‏ ‏ بالليل — يكرع فى سنا مقباس

فالراح طيبة ، وليس تمامها ‏ ‏ ‏ ‏ إلا بطيب خلائق الجلاس !

تُعَاتِبُنِي فِي الرَّاحِ أُمٌّ كَبِيرَةٌ وَمَا قَوْلُهَا — فِيمَا أَرَاهُ — مُصِيبُ
تَقُولُ : « أَلَا تَجْفُو الْمُدَامَ ، فَعِنْدَنَا مِنَ الرِّزْقِ تَمْرٌ مُكْثِبٌ وَزَبِيبُ ؟ »
فَقُلْتُ : « رُوَيْدًا ، مَا الزَّبِيبُ مُفَرِّحِي وَلَيْسَ لِتَمْرٍ فِي الْعِظَامِ دَبِيبُ
فَإِنَّ « حُمَيْدًا » عَلَّهَا فِي شَبَابِهِ وَلَمْ يَصْحُ مِنْهَا — حِينَ لَاحَ مَشِيبُ ! »

توبة ابن القارح

وَإِذَا تَسَامَعَتِ الْمَحَافِلُ بِتَوْبَتِهِ ، اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الشُّبَّانُ الْمُقْتَبِلُونَ ، وَالْأُدَبَاءُ الْمُكْتَهِلُونَ ، وَكُلُّ أَشْيَبَ ؛ فَيَقْتَبِسُونَ مِنْ آدَابِهِ ، وَيُصْغُونَ الْمَسَامِعَ لِخِطَابِهِ ، وَجَلَسَ لَهُمْ فِي بَعْضِ الْمَسَاجِدِ بِحَلَبَ ، حَرَسَهَا اللهُ ، فَإِنَّهَا مِنْ بَعْدِ « أَبِي عَبْدِ اللهِ ابْنِ خَالَوَيْهِ » عُطِّلَتْ مِنَ الْأَدَبِ

حديث طالوت

ذَكَرَ مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ « الْمُبْتَدَا » حَدِيثَ « طَالُوتَ » لَمَّا أَمَرَ ابْنَتَهُ ، وَهِيَ امْرَأَةُ « دَاوُدَ » — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — أَنْ تُدْخِلَهُ عَلَيْهِ — وَهُوَ نَائِمٌ — لِيَقْتُلَهُ ، فَجَعَلَتْ لَهُ فِي فِرَاشِ « دَاوُدَ » زِقَّ خَمْرٍ ، وَدَسَّتْهُ عَلَيْهِ ، وَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ ، وَسَالَتِ الْخَمْرُ ؛ فَظَنَّ أَنَّهَا الدَّمُ ، فَأَدْرَكَهُ الْأَسَفُ وَالنَّدَمُ . فَأَوْمَأَ بِالسَّيْفِ لِيَقْتُلَ نَفْسَهُ — وَمَعَهُ ابْنَتُهُ — فَأَمْسَكَتْ يَدَهُ ، وَحَدَّثَتْهُ مَا فَعَلَتْهُ ، فَشَكَرَهَا عَلَى ذَلِكَ !

عودة الى ذكر الحور

وَإِذَا صَحَّتِ الْأَخْبَارُ الْمَنْقُولَةُ بِأَنَّ أَهْلَ الْآخِرَةِ يَعْلَمُونَ أَخْبَارَ أَهْلِ الْعَاجِلَةِ ؛ فَلَعَلَّ جَوَارِيَهُ الْمُعَدَّاتِ لَهُ فِي الْخُلْدِ ، يَسْأَلْنَ عَنْ أَخْبَارِهِ مَنْ يَرِدُ

عَلَيْهِنَّ مِنَ الصُّلَحَاء، فَيَسْمَعْنَ مَرَّةً أَنَّهُ بِالفُسْطَاطِ، وَتَارَةً أَنَّهُ بِالْبَصْرَةِ، وَمَرَّةً أَنَّهُ بِبَغْدَادَ، وَخَطْرَةً أَنَّهُ بِحَلَبَ؛ فَإِذَا شَاعَ أَمْرُ التَّوْبَةِ، وَمَاتَ نَاسِكٌ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ، أَخْبَرَهُنَّ بِذَلِكَ، فَسُرِرْنَ وَابْتَهَجْنَ، وَهَنَّأَهُنَّ جَارَاتُهُنَّ!

*
* *

وَلاَ رَيْبَ أَنَّهُ قَدْ سَمِعَ حِكَايَةَ الْبَيْتَيْنِ الثابتيْن فى كتاب: «الاعْتِبَارِ»:

أَنْعَمَ اللهُ بِالْخَيَالَيْنِ عَيْنًا ... وَبِمَسْرَاكِ يَا أُمَيْمُ إِلَيْنَا
عَجَبًا! مَا جَزِعْتِ مِنْ وَحْشَةِ اللَّحْدِ، وَمِنْ ظُلْمَةِ الْقُبُورِ عَلَيْنَا

رجعة الى الخمر

أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ قَوْمٍ يَحُثُّهُمُ الْمَشِيبُ عَلَى أَنْ يَسْتَكْثِرُوا مِنْ أُمِّ زَنْبَقٍ(١)

قَالَ حاتِمٌ:

وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ لَوْ أَنَّ حَاتِمًا ... أَرَادَ ثَرَاءَ الْمَالِ كَانَ لَهُ وَفْرُ
يُفَكُّ بِهِ الْعَانِى وَيُؤْكَلُ طَيِّبًا ... وَلَيْسَتْ تُعَرِّيهِ الْقِدَاحُ وَلاَ الْيَسْرُ
أَ «مَاوِىَّ» إِنْ يُصْبِحْ صَدَاىَ بِقَفْرَةٍ ... مِنَ الْأَرْضِ — لاَ مَاءٌ لَدَىَّ وَلاَ خَمْرُ
تَرَىْ أَنَّ مَا أَهْلَكْتُ لَمْ يَكُ ضَرَّنِى ... وَأَنَّ يَدِى — مِمَّا بَخِلْتُ — بِهِ صِفْرُ

وَقَالَ طَرَفَةُ:

فَإِنْ كُنْتَ لاَ تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِي ... فَدَعْنِى أُبَادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِى(٢)

وَقَالَ عبدُ الله بْنُ الْمُعْتَزِّ:

لاَ تُطِلْ بِالْكُؤُوسِ مَطْلِى وَحَبْسِى ... لَيْسَ يَوْمِى يَا صَاحِبِي مِثْلُ أَمْسِى

---

(١) هى الخمر (٢) ترجمة طرفة وحديث معلقته — التى منها هذا البيت — فى ج ٢ ص ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤

لاَ تَسَلْنِى ، وَسَلْ مَشِيبِى عَنِّى   مُذْ عَرَفْتُ الْخَمْسِينَ أَنْكَرْتُ نَفْسِى

فَهَذَا أَحَنْثَهُ كَثْرَةُ سِنِيهِ عَلَى أَنْ يَسْتَكْثِرَ مِنَ السُّلاَفَةِ ، وَمَا حَفِظَ حَقَّ الْخِلاَفَةِ !

وَأَنَا أَضَنُّ بِهِ[1] أَنْ يَكُونَ كَأَبِى عُثْمَانَ الْمَازِنِيِّ ، عُوتِبَ فِى الشَّرَابِ ، فَقَالَ : « إِذَا صَارَ أَكْبَرَ ذُنُوبِى تَرَكْتُهُ ! »

المعتصم وابراهيم المهدى

وَقَدْ رُوِىَ أَنَّ الْمُعْتَصِمَ دَعَا إِبْرَاهِيمَ كَعَادَتِهِ ، فَغَنَّاهُ وَبَكَى ، فَقَالَ لَهُ الْمُعْتَصِمُ : « مَا يُبْكِيكَ ؟ » فَقَالَ : « كُنْتُ عَاهَدْتُ اللهَ إِذَا بَلَغْتُ سِتِّينَ سَنَةً أَنْ أَتُوبَ ، وَقَدْ بَلَغْتُهَا .... » . فَأَعْفَاهُ الْمُعْتَصِمُ مِنَ الْغِنَاءِ ، وَحُضُورِ الشَّرَابِ !

الهيام بالخمر

وَكَانَ فِى بَلَدِنَا رَجُلٌ مُغْرَمٌ بِالْقَهْوَةِ[2] فَلَمَّا كَبِرَ رَغِبَ فِى الْمَطْبُوخِ ، وَكَانَ يَحْضُرُ مَعَ نَدَامَاهُ ، وَعِنْدَهُمْ قَدَحٌ وَاحِدٌ ، فَيَشْرَبُ هُوَ مِنَ الْمَطْبُوخِ وَيَشْرَبُ أَصْحَابُهُ مِنَ النِّيءِ ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدَحُ إِلَيْهِ لِيَشْرَبَ ، غَسَلَهُ مِنْ أَثَرِ الْخَمْرِ ، وَشَرِبَ فِيهِ ، فَإِذَا فَرَغَ الْمَطْبُوخُ ، رَجَعَ فَشَرِبَ مِنْ شَرَابِ إِخْوَانِهِ ! ....

***

وَأَمَّا مُخَاطَبَتُهُ غَيْرَهُ — وَهُوَ يَعْنِى نَفْسَهُ — فَهُوَ كَقَوْلِهِمْ فِى الْمَثَلِ : « إِيَّاكِ أَعْنِى وَاسْمَعِى يَا جَارَهْ » وَلاَ عُنْدَدَ[3] عَنِ الْجِبِلَّةِ ، يُرِيدُ الْمُتَنَسِّكُ أَنْ يَنْصَرِفَ حُبُّهُ عَنِ الْعَاجِلَةِ ، وَلَيْسَ يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ ، كَمَا لاَ تَقْدِرُ الظَّبْيَةُ أَنْ تَصِيرَ لَبُوَةً

---

(١) أى بابن القارح   (٢) الخمر   (٣) فى اللغة : مالى عن ذلك عندد ، كجندَب ، وقنفذ ؛ أى مالى عنه بد ، والمعنى : لا سبيل إلى الخلاص من الفطرة التى فطر الناس عليها

وَلَا الْحَصَاةُ أَنْ تُتَصَوَّرَ لُؤْلُؤَةً(١) « يُوسُفُ: أَعْرِضْ عَنْ هَذَا . وَاسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ »

لَقَدْ عَلِمْتُ، وَلَا أَنْهَاكَ عَنْ خُلُقٍ ... أَلَّا يَكُونَ امْرُؤٌ إِلَّا كَمَا خُلِقَا(٢)

---

(١) الجـــبر

كرر أبو العلاء هذا المعنى فى لزومياته ، وهو بلا ريب فى مقدمة من يدينون بالجبر ، ونجتزئ من أشعاره الكثيرة بالأبيات التالية ، للاستدلال بها على يقينه الثابت و إيمانه الذى لا يتزعزع ، بمذهب الجبر ، و إذعانه للقضاء والقدر ، وهى :

وما فسدت أخلاقنـــا باختيـــارنا ... ولكن بأمر سببتـــه المقـــادر

وفى الأصـــل غش ، والفروع توابع ... وكيف وفاء النجل ، والأب غادر ؟

إذا اعتلّت الأفعال جاءت عليلةً ... كحـــالاتها ؛ أفعالُهـــا والمصادر

فقل للغراب الجون – إن كان سامعاً – ... « أأنت على تغيير لونك قادر ؟ »

والعقل زين — ولكن فوقه قدر — ... فمـاله فى ابتغاء الرزق تقـــدير

ويجرى قضاء ما لـــكم عنـــه حاجز ... فألقـــوا إلى مولاكم بالمقـــالد(١)

نهاب أموراً — ثم نركب هولهـا ... على عنت — مِنْ صاغرين قِمَاء !(٢)

ونحاذر الأشياء — بعـــد يقيننـــا ... ألا يرد الكـائنات حِـــذَارُ

وجِبِلَّة الناس الفساد ، فضـــلٌ من ... يسمو بحكمتـــه إلى تهذيبها

يتحارب الطبع — الذى مزجت به ... مهج الأنام — وعقلهم ، فيفـــله

وقيل : نفوس الناس تسطيع فعلها ... وقال رجال : « بل تبيّن جـــبرها »

ولا ألوم غبيـــا فى غبـــاوته ... فبالقضاء أتتـــه قـــلة الفطن

لا تمـــدحن ولا تذمن امرأً ... فيهـا ، فغـــير مقصر كمقصر !

(٢) هذا يشبه قول ذى الإصبع العَدوانى :

---

(١) المقالد كالمقاليد : المفاتيح (٢) أى : يا لنا من صاغرين قماء ، على الحذف .

وَكَثِيرٌ مِنَ الَّذِينَ يَتْلُونَ الآيَةَ : « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ، كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » وَهُمْ بِهَا مُصَدِّقُونَ ، وَمِنْ خَشْيَةِ إِلٰهِهِمْ مُشْفِقُونَ ، يَضِنُّونَ بِالْقَلِيلِ التَّافِهِ ، وَلَا يَسْمَحُونَ لِلسَّائِلِ(١)؛ فَكَيْفَ تَكُونُ حَالُ مَنْ يُنْكِرُ حَدِيثَ الْجَزَاءِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَنِ الْفَانِيَةِ حُسْنَ الْعَزَاءِ ؟

أبو طلحة واليهودي

وَقَدْ مَرَّ حَدِيثُ « أَبِي طَلْحَةَ » أَوْ « أَبِي قَتَادَةَ » وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ خَاصَمَ يَهُودِيًّا إِلَى النَّبِيِّ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — وَكَانَ لِأَبِي طَلْحَةَ حَدِيقَةُ نَخْلٍ ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْيَهُودِيِّ خُلْفٌ فِي نَخْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَقَالَ النَّبِيُّ — صلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — لِلْيَهُودِيِّ : « أَتَسْمَحُ لَهُ بِالنَّخْلَةِ حَتَّى أَضْمَنَ لَكَ نَخْلَةً فِي الْجَنَّةِ » وَنَعَتَهَا رَسُولُ اللهِ — صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ — بِنُعُوتِ أَشْجَارِ الْجَنَّةِ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : « لَا أَبِيعُ عَاجِلًا بِآجِلٍ ! » فَقَالَ «أَبُو طَلْحَةَ»: « أَتَضْمَنُ لِي يَا رَسُولَ اللهِ كَمَا ضَمِنْتَ لَهُ حَتَّى أُعْطِيَهُ الْحَدِيقَةَ ؟» فَقَالَ : « نَعَمْ » فَرَضِيَ أَبُو طَلْحَةَ بِذَلِكَ ، وَأَخَذَ الْيَهُودِيُّ وَذَهَبَ إِلَى حَدِيقَتِهِ ، فَوَجَدَ فِيهَا امْرَأَتَهُ وَأَبْنَاءَهُ ، وَهُمْ يَأْكُلُونَ مِنْ جَنَاهَا ، وَجَعَلَ يُدْخِلُ إِصْبَعَهُ فِي أَفْوَاهِهِمْ فَيُخْرِجُ مَا فِيهَا مِنْ تَمْرٍ ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ : « لِمَ تَفْعَلُ هَذَا بِبَنِيكَ ! »

كل امرئ صائر يوماً لشيمته ... وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

وقريب منه قول الآخر :

لا ترجع الأنفس عن غيها ... ما لم يكن منها لها رادع

(١) افتن أبو العلاء فى نظم هذا المعنى فقال :

دِنتم بأن سيجازيكم إلهكم ... فما لأفعالكم أفعال إهمال ؟

فَقَالَ : « إِنِّى قَدْ بِعْتُ الْحَدِيقَةَ » فَقَالَتْ : « إِنْ كُنْتَ بِعْتَهَا بِعَاجِلٍ ، فَبِئْسَ مَا فَعَلْتَ ! » فَقَصَّ عَلَيْهَا الْخَبَرَ ، فَفَرِحَتْ بِذَلِكَ .

حرص الناس

وَلَوْ قِيلَ لِبَعْضِ عُبَّادِ هَذَا الْعَصْرِ : « أَعْطِ لَبِنَةً ، لِتُعْطَى فِى الْآخِرَةِ لَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ » لَمَا أَجَابَ . وَلَوْ سُئِلَ أَمَةً عَوْرَاءَ ، يُعَوَّضُ مِنْهَا فِى الآخِرَةِ بِحَوْرَاءَ ، لَمَا فَعَلَ ؛ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْمُصَدِّقِينَ ! . . . فَكَيْفَ مَنْ غُذِىَ بِالتَّكْذِيبِ ، وَجَحَدَ وُقُوعَ التَّعْذِيبِ ؟

ميتة فاذوه

وَأَمَّا « فاذوه » فَلَقِىَ طَائِرَ الْحَيْنِ ، مُتَكَفِّياً مِنْ بَيْنِ جَنَاحَيْنِ ، فَلاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، مَا أُعِدَّ الْمِهْرَاسُ لِيُفْضَخَ[1] بِهِ الرَّاسُ ! وَلَكِنْ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ! مَنَّتْهُ نَفْسُهُ التَّوْبَةَ ، فَكَانَتْ كَصَاحِبَةِ امْرِئِ الْقَيْسِ — لَمَّا قَالَ لَهَا :

« مَنَّيْتِنَا بِغَدٍ ، وَبَعْدَ غَدٍ ،   حَتَّى بَخِلْتِ كَأَسْوَإِ الْبُخْلِ

أبو الهذيل العلاف

وَيُحْكَى عَنْ « أَبِى الْهُذَيْلِ الْعَلَّافِ » أَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ فِى الْأَسْوَاقِ عَلَى حِمَارٍ وَيَقُولُ : « يَا قَوْمِ : احْذَرُوا تَوْبَةَ غُلاَمِى ! » وَكَانَ لَهُ غُلاَمٌ يَعِدُ نَفْسَهُ التَّوْبَةَ ، فَسَقَطَتْ عَلَيْهِ آجُرَّةٌ ، فَقَتَلَتْهُ . . .

بدء التعارف بين المعرى وابن القارح

وَأَوَّلُ مَا سَمِعْتُ بِأَخْبَارِ الشَّيْخِ ، مِنْ رَجُلٍ وَاسِطِيٍّ ، يَتَعَرَّضُ لِعِلْمِ الْعَرُوضِ ،

---

(١) الفضخ : الكسر ، ولا يكون إلا فى شىء أجوف نحو الرأس والبطيخ . ويقال : فضخ عينه ، أى : فقأها

ذَكَرَ أَنَّهُ شَاهَدَهُ بِنَصِيبِينَ، وَفِيهَا رَجُلٌ يُعْرَفُ بِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَصْرِيِّ، مُعَلِّمًا لِبَعْضِ الْعَلَوِيَّةِ، وَكَانَ غُلَامٌ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ يُعْرَفُ «بِابْنِ الدَّانِ» وَقَدِ اجْتَازَ الشَّيْخُ بِبَلَدِنَا — وَالْوَاسِطِيُّ يَوْمَئِذٍ فِيهِ — وَقَدْ شَاهَدْتُ عِنْدَ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ السَّلَامِ — رَحِمَهُ اللهُ — كُتُبًا عَلَيْهَا سَمَاعٌ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ حَلَبَ، وَمَا أَشُكُّ أَنَّهُ الشَّيْخُ، وَهُوَ لَا يَفْتَقِرُ إِلَى تَعْرِيفٍ بِالْقَرِيضِ، كَمَا قَالَ الطَّائِيُّ:

تَحْمِيهِ لَأْلَاؤُهُ — أَوْ لَوْذَعِيَّتُهُ — مِنْ أَنْ يُذَالَ بِمَنْ، أَوْ مِمَّنِ الرَّجُلُ؟

أساتذة ابن القارح

وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ لَقِيَهُمْ، فَأُولَئِكَ مَصَابِيحُ النَّاجِيَةِ، وَكَوَاكِبُ الدَّاجِيَةِ، وَإِنَّ فِي النَّظَرِ إِلَيْهِمْ لَشَرَفًا، فَكَيْفَ بِمَنِ اغْتَرَفَ — مِنْ كُلِّ بَحْرٍ وَجَدَ — غُرَفًا؛ وَإِنَّمَا أَقُولُ ذَلِكَ عَلَى الِاقْتِصَارِ، وَلَعَلَّهُ قَدْ نَزَفَ بِحَارَهُمْ بِالْقَلَمِ وَالْفَهْمِ، وَسَهَّلُوا لَهُ مَا صَعُبَ مِنْ جِبَالِ الْعَرَبِيَّةِ

حجج ابن القارح

وَأَمَّا حِجَجُهُ الْخَمْسُ، فَهُوَ — إِنْ شَاءَ اللهُ — يَسْتَغْنِي فِي الْحَشْرِ بِالْأُولَى مِنْهُنَّ، وَيَنْظُرُ فِي الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِدُ فِيهِمْ مَنْ لَمْ يَحْجُجْ، فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِمْ بِالْأَرْبَعِ وَكَأَنِّي بِهِ، وَعَمَاعِمُ الْحَجِيجِ، يَرْفَعُونَ التَّلْبِيَةَ بِالْعَجِيجِ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي تَلْبِيَاتِ الْعَرَبِ؛ وَأَنَّهَا جَاءَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ: مَسْجُوعٍ لَا وَزْنَ لَهُ، وَمَنْهُوكٍ، وَمَشْطُورٍ ... !

***

وَكَأَنِّي بِهِ لَمَّا اعْتَزَمَ عَلَى اسْتِلَامِ الرُّكْنِ، وَقَدْ ذَكَرَ قَوْلَ الْقَائِلِ:

ذَكَرْتُكِ وَالْحَجِيجُ لَهُ عَجِيجٌ بِمَكَّةَ، وَالْقُلُوبُ لَهَا وَجِيبُ

فَقُلْتُ — وَنَحْنُ فِى بَلَدٍ حَرَامٍ — بِهِ — لِلَّهِ — أُخْلِصَتِ الْقُلُوبُ :
« أَتُوبُ إِلَيْكَ يَا رَبَّاهُ — مِمَّا جَنَيْتُ — فَقَدْ تَظَاهَرَتِ الذُّنُوبُ
فَأَمَّا مِنْ هَوَى « لَيْلَى » وَحُبِّى زِيَارَتَهَا ، فَإِنِّى لَا أَتُوبُ ! »

وَلَعَلَّهُ قَدْ ذَكَرَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ فِى الطَّوَافِ :

أُطَوِّفُ بِالْبَيْتِ — فِيمَنْ يَطُوفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِئْزَرِى الْمُسْبَلِ
وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتْلُو مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
عَسَى فَارِجُ الْكَرْبِ عَنْ يُوسُفٍ يُسَخِّرُ لِى رَبَّةَ الْمِحْمَلِ

وَذَكَرَ عِنْدَ تَفَرُّقِ النَّاسِ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

وَدِّعِى الْقَلْبَ « يَا قَرِيبُ » وَجُودِى لِمُحِبٍّ فِرَاقُهُ قَدْ أَحَمَّا
لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جِمَالَهُمْ فَتُزَمَّا

وَكَأَنِّى بِهِ وَقَدْ مَرَّ بِأَنْطَاكِيَةَ ، فَذَكَرَ قَوْلَ امْرِىءِ الْقَيْسِ :

عَلَوْنَ بِأَنْطَاكِيَّةٍ فَوْقَ عِقْمَةٍ كَجِرْمَةِ نَخْلٍ ، أَوْ كَجَنَّةِ يَثْرِب

أبو الطيب اللغوى

وَأَمَّا أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِىُّ ، وَاسْمُهُ « عَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَلِىٍّ » وَلَا أَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ كَثِيرٌ مِنْ كُتُبِهِ وَتَصْنِيفَاتِهِ ، لِأَنَّ الرُّومَ قَتَلُوهُ وَأَبَاهُ ، فِى فَتْحِ حَلَبَ . وَكَانَ « ابْنُ خَالَوَيْهِ » يُلَقِّبُهُ « دُحْرُوجَةَ الْجُبَلِ » لِأَنَّهُ كَانَ قَصِيراً .
وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ اللُّغَوِىُّ » بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِى الْعَبَّاسِ بْنِ كِلَابٍ « الْبَكْتَمُرِىِّ » مَوَدَّةٌ وَمُؤَانَسَةٌ ، وَلَهُ يَقُولُ :

يَا عَبْدَ[1] ! إِنَّكَ عِنْدَ الْقَلْبِ جَنَّتُهُ حُبًّا ، وَإِنَّكَ — عِنْدَ الطَّرْفِ — نَاظِرُهُ

---

(١) يريد « يا عبد الواحد »

أَزْمَعْتَ سَيْراً ، فَقُلْ مَا أَنْتَ قَائِلُهُ   وَاذْكُرْ لِرَاعِي الْهَوَى مَا أَنْتَ ذَاكِرُهُ

لاَ أَشْتَكِي سَهَراً طَالَتْ مَسَافَتُهُ   اللَّيْلُ يَعْلَمُ أَنِّي الدَّهْرَ سَاهِرُهُ

وَقَدْ كَانَ « أَبُو الطَّيِّبِ » يَتَعَاطَى شَيْئاً مِنَ النَّظْمِ .

وَقَدْ عَلِمَ اللهُ أَنِّي لَا فِي الْعِيرِ وَلاَ فِي النَّفِيرِ ، كُلَّمَا رَغِبْتُ فِي الْخُمُولِ ، قُدِّرَ لِي غَيْرُ الْمَأْمُولِ . كَانَ حَقُّ الشَّيْخِ — إِذْ أَقَامَ فِي « مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ » سَنَةً — أَلاَّ يَسْمَعَ لِي بِذِكْرٍ ، وَلاَ أَخْطُرَ لَهُ عَلَى فِكْرٍ ، وَالآنَ قَدْ غَمَرَ إِفْضَالُهُ ، وَأَظَلَّنِي دَوْحُ أَدَبِهِ . وَهُوَ كَرِيمُ الطَّبْعِ ، وَالْكَرِيمُ يُخْدَعُ ، وَمَنْ سَمِعَ جَازَ أَنْ يَخَالَ !

ابن القارح في مصر

وَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ مِنْ مَيْلِهِ فِي مِصْرَ إِلَى بَعْضِ اللَّذَّاتِ ، فَهُوَ يَعْرِفُ الْحَدِيثَ : « أَرِيحُوا الْقُلُوبَ تَعِ الذِّكْرَ » وَقَالَ أُحَيْحَةُ بْنُ الْجُلاَحِ :

صَحَوْتُ عَنِ الصِّبَا ، وَاللَّهْوُ غُولٌ   وَنَفْسُ الْمَرْءِ — آوِنَةً — مَلُولُ

وَقَدْ عَاشَرَ مُلُوكاً وَوُزَرَاءَ ، وَقَدْ سَمِعَ أَنْبَاءَ النُّعْمَانِ الأَكْبَرِ ، إِذْ فَارَقَ مُلْكَهُ ، وَتَعَوَّضَ مِنَ الْحَرِيرِ الْمُسُوحَ ، وَإِيَّاهُ عَنَى الْعِبَادِيُّ[1] فِي قَوْلِهِ :

وَتَذَكَّرْ رَبَّ الْخَوَرْنَقِ إِذْ فَكَّرَ يَوْماً ، وَلِلْهُدَى تَفْكِيرُ

سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْلِكُ ، وَالْبَحْرُ مُعْرِضاً ، وَالسَّدِيرُ

فَارْعَوَى جَهْلُهُ ، فَقَالَ : « وَمَا غِبْطَةُ حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ » ؟

الهنود والخمر

وَالسُّكْرُ[2] مُحَرَّمٌ فِي كُلِّ الْمِلَلِ ، وَيُقَالُ : إِنَّ الْهِنْدَ لاَ يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يَشْرَبُ مُسْكِراً ، لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُ مُنْكَراً ، وَيَقُولُونَ : يَجُوزُ أَنْ يَحْدُثَ فِي

---

(١) هو عدي بن زيد، وترجمته في جـ٢ ص٨ و٩ (٢) ارجع إلى ص ٣٠٤ و٣٠٥ و٣٠٦ في هذا الجزء

الْمَمْلَكَةِ نَبأً ، وَالْمَلِكُ سَكْرَانُ » لُعِنَتِ الْقَهْوَةُ !

*
* *

وَيَنْبَغِي أَنْ يُزَهِّدَهُ فِي الصَّهْبَاءِ، أَنَّ نَدَامَاهُ الْأَكْرَمِينَ أَصْبَحُوا فِي الْأَجْدَاثِ الْعَافِيَةِ، كَمْ جَلَسَ مَعَ فِتْيَانٍ، أَتَى عَلَيْهِمُ الزَّمَنُ كُلَّ الْإِتْيَانِ، فَكَانَ كَمَا قَالَ الْجَعْدِيُّ[1]:

تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيجُ لِيَ الْهَوَى ... وَمِنْ حَاجَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مُحَرِّقٍ ... فَأَصْبَحَ مِنْهُمْ ظَاهِرُ الْأَرْضِ مُقْفِرَا

وَهُوَ يَعْرِفُ الْأَبْيَاتَ الَّتِي أَوَّلُهَا :

خَلِيلَيَّ ! هُبَّا ، طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا ... أَجِدَّكُمَا لَا تَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا

وَهَلْ يَعْجِزُ أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ الْآخَرُ :

أَمَّا الطِّلَاءُ ، فَإِنِّي لَسْتُ ذَائِقَهَا ... حَتَّى أُلَاقِيَ بَعْدَ الْمَوْتِ جَبَّارَا !

دنانير ابن القارح

وَسَرَّتْنِي فَيْئَةُ[2] الدَّنَانِيرِ إِلَيْهِ، فَتِلْكَ أَعْوَانٌ، تَشْتَبِهُ مِنْهَا الْأَلْوَانُ، وَلَهَا عَلَى النَّاسِ حُقُوقٌ ، تَبَرٌّ إِنْ خِيفَ عُقُوقٌ — قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِمُعَاوِيَةَ : « رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ ، وَجِيءَ بِكَ وَقَدْ أَلْجَمَكَ الْعَرَقُ ! » فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : « هَلْ رَأَيْتَ ثَمَّ مِنْ دَنَانِيرِ مِصْرَ شَيْئًا ؟ ! »

وَهَذِهِ — لَا رَيْبَ — مِنْ دَنَانِيرِ مِصْرَ، لَمْ تَجِئْ مِنْ عِنْدِ السُّوقِ، وَلَكِنْ مِنْ عِنْدِ الْمُلُوكِ ، وَلَمْ تَكُنْ مَهْرَ هَلُوكٍ . فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَلَّمَهَا إِلَى هَذَا الْوَقْتِ ، وَلَمْ تَكُنْ كَذَهَبٍ مَخْزُونٍ ، صَارَ إِلَى الْخَمَّارَةِ مَعَ الْمَوْزُونِ ، كَمَا قَالَ :

---

(١) هو نابغة بنى جعدة ، وترجمته فى ج ٢ ص ٣٨ (٢) عودة

وَخَمَّارَةٍ مِنْ بَنَاتِ الْمَجُوسِ ... تَرَى الزِّقَّ — فِى بَيْتِهَا — شَائِلَا
وَزَنَّا لَهَا ذَهَبًا جَامِداً ، ... فَكَالَتْ لَنَا ذَهَبًا سَائِلَا

أُخِذَتْ مِنْ جَوَائِزِ كِرَامٍ صِيدٍ ، تَارَةً بِالْخِدْمَةِ وَتَارَةً بِالْقَصِيدِ ؛ وَلَمْ تَكُنْ فِى الْعِيدِيَّةِ مُرَهَّنَاتٍ ، وَلَا — عِنْدَ الْغَرَضِ — مُوَهِّنَاتٍ ! وَهِىَ عِنْدَ الْبَلَهِ وَالْكَيْسِ ، أَجْوَدُ مِنَ الْخَاتَمِ الَّذِى ذَكَرَهُ « ابْنُ قَيْسٍ » ، فَقَالَ :

إِنْ خُتِمَتْ ، جَازَ طِينُ خَاتِمِهَا ... كَمَا تَجُوزُ الْعَبْدِيَّةُ الْعُتُقُ[1]

بائع كميته

وَلَوْ أَخَذَ مِثْلَهَا النَّادِمُ عَلَى بَيْعِ كُمَيْتِهِ ، لَأَسْكَنَتِ الْبَهْجَةَ فِى خَلَدِهِ[2] وَبَيْتِهِ ، وَلَمْ يَأْسَفْ أَنْ عُوِّضَ حِمَارًا مِنْ فَرَسٍ ، وَلَوُجِدَ — عَلَى الشَّكْوَى — ذَا خَرَسٍ ، وَلَمْ يَقُلْ :

نَدِمْتُ عَلَى بَيْعِ « الْكُمَيْتِ » وَإِنَّمَا ... حَيَاةُ الْفَتَى هَمٌّ لَهُ وَخَسَارُ
وَلَمَّا أَتَانِى بِالدَّنَانِيرِ سَائِمِى ... أَصَاخَتْ ، وَهَشَّتْ — لِلْبِيَاعِ — « نَوَارُ »
وَقَالَتْ : « أَتِمَّ الْبَيْعَ ، وَاشْتَرِ غَيْرَهُ ، ... فَحَوْلَكَ — فِى الْمَشْتَا — بَنُونَ صِغَارُ
فَأَنْفَقْتُ فِيهِمْ مَا أَخَذْتُ — وَلَمْ يَزَلْ ... لَدَىَّ شَرَابٌ رَاهِنٌ[3] ، وَقُتَارُ[4]
إِلَى أَنْ تَدَاعَى الْجُنْدُ — بِالْغَزْوِ — وَانْجَلَتْ ... غُيُومُ شِتَاءٍ — سُحْبُهُنَّ غِزَارُ
وَأَعْوَزَنِى مُهْرٌ — يَكُونُ مَكَانَهُ — ... كَأَنْ لَيْسَ — بَيْنَ الْعَالَمِينَ — مِهَارُ

(١) قال أبو العلاء : « أراد بالعبدية دنانير نسبها إلى عبد الملك بن مروان » وقد ضرب دنانير باسمه ، وفى عهده بنى الحجاج داراً للسكة فى العراق ، فكانت ترسل منها الدنانير المضروبة إلى سائر المملكة الاسلامية (٢) الخلد : القلب (٣) معدّ حاضر (٤) الدخان من المطبوخ ، فهو دليل عليه

وَسَارَ ـ عَلَى الْخَيْلِ الْمُغِذَّةِ ـ صَاحِبِي، وَسِرْتُ، وَتَحْتِي ـ لِلشَّقَاءِ ـ حِمَارُ!

* * *

وَلِلَّهِ الْمِنَّةُ كَمَا نَجَّاهَا ـ بِالْقَدَرِ ـ مِنْ بُكُورٍ، لَيْسَ مَنْ بَكَّرَهُ بِالْمَشْكُورِ، يَحْمِلُ مَعَهُ دَنَانِيرَ، وَلَا يَصْحَبُ مِنَ الْقَوْمِ صَنَانِيرَ[1]، فيقيمُ بِهِمْ فِى الدَّسْكَرِ أَيَّامًا، أَيْقَاظًا ـ فِى السُّكْرِ ـ أَوْ نِيَامًا، فَتَفْنَى الذَّهَبَ، قال الْجَعْدِيُّ[2] :

وَدَسْكَرَةٍ — صَوْتُ أَبْوَابِهَا كَصَوْتِ الْمَوَاتِحِ فِى الْحَوْأَبِ[3]

سَبَقْتُ إِلَيْهَا صِيَاحَ الدُّيُوكِ وَصَوْتَ نَوَاقِيسَ، لَمْ تُضْرَبِ

وقال آخرُ :

وَقَبضَةٍ من دَنَانِيرٍ غَدوْتُ بها لِلدَّسْكَرِيِّ ـ وحوْلِى فتية سُمُحُ

وَلَم يزَلْ ـ ثَمَّ ـ يسقينا، ويأخذُها حتى استقلَّ بما فى الصُّرَّةِ الْقَدَحُ!

* * *

وَدنانيره — بِإِذنِ اللهِ — مُقَدَّسَاتٌ، وَإِن كانت زائدةً عَلَى الثَّمَانِينَ، فَقَدْ أَوْفَتْ عَلَى عِدَّةِ أَصْحَابِ «مُوسَى» الَّذِينَ جاءَ فِيهِمْ: «وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا» وَعَلَى عِدَّةِ الِاسْتِغْفَارِ فِى قَوْلِهِ: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ» وَعَلَى عِدَّةِ أَذْرُعِ السِّلْسِلَةِ فِى قَوْلِهِ تَعَالَى: «فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا، فَاسْلُكُوهُ».

ولوْ كَانَتْ سِنُو «زُهَيْرٍ» مِثْلَهَا، لَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ بِالسَّآمَةِ، ولوْ أَدْرَكَهُ عُرْوَةُ بْنُ حِزَامٍ، وَهُوَ يقول :

يُكَلِّفُنِي عَمِّى ثَمَانِينَ نَاقَةً وَمَالِى يا «عَفْرَاءُ» غَيْرُ ثَمَانِ[4]

---

(١) الصنانير: البخلاء، جمع صِنَّوْر (٢) ارجع الى ترجمته فى (ج «٢» ص ٣٨)

(٣) الدلو (٤) انظر قصيدته الجميلة التى منها هذا البيت فى ذيل الأمالى

لَجَازَ أَنْ يرِقَّ لهُ ، فَيُغِيثَهُ منْ هذهِ الثمانينَ ببَعْضِها ، أَوْ يَسْمَحَ لهُ بِكُلِّهَا ، لأَنهُ كَرِيمٌ طَبْعٍ . ولوْ صارَتْ فى يَدِ عُرْوَةَ هذهِ الثمانونَ ، لَبَلَغَ بهَا الْأُمْنِيَّةَ ، لِأَنَّ النَّاقَةَ فى ذَلكَ الزَّمانِ كانَتْ رُبَّمَا اشْتُرِيَتْ بعَشَرَةِ دَرَاهِمَ . وفى بَعْضِ أَخْبارِ الفَرَزْدَقِ ، أَنَّ رَجُلًا مِنْ مُلوكِ بَنِى أُمَيَّةَ أَعْطاهُ مِائَةً مِنْ إِبلِ الصَّدَقَةِ ، فَبَاعَها بِأَلْفٍ وَخَمْسِمائَةِ دِرْهَمٍ ، بَعْدَ ما عُنِىَ بهِ ، وَزِيدَ فى الثَّمَنِ .

الجمل فى زمن المنصور

وَقَدْ مَرَّتْ بهِ الحِكَايَةُ الَّتى يَذْكُرُها أَصْحابُ التَّاريخ : « أَنَّ الْجَمَلَ كانَ يُبَاعُ فى زَمَنِ أَبى جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ بدِرْهَمٍ ، وَأَنهُ صادَرَ قَوْمًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكانَتْ لَهُمْ نِعَاجٌ ، فَباعُوها ثَمانِىَ نِعَاجٍ بِدِرْهَمٍ » هَذا ما وُجِدَ بخَطِّ الْمَرْزُبانِىِّ[1] فى تَاريخِ ابْنِ شَجَرَةَ .

فضـــل الذهب

وَهِىَ أَنْصَرُ[2] مِنَ الثَّمانِينَ الَّتى ذَكَرَها الْعَلوِىُّ البصرىُّ فى قوْله :

عَبَرْتُ إِلَيْهِمْ فى ثَمانِينَ فارِسًا   فَأَدْرَكْتُ مِنْهُمْ بُغْيَتِى وَمُرَادِيَا

لِلَّهِ دَرُّ الذَّهَبِ منْ خَليلٍ[3] ، فإِنهُ يَفِئُ بِظِلٍّ ظَليلٍ ، ما هُوَ — كَغَيْرِهِ — بَالٍ .

---

(١) ترجمته فى ج ٢ ص ١٠٤ (٢) أكثر نصرة (٣) من أجمل ما قرأناه فى وصف الدينار مدحا وذما ، قول « الحريرى » فى مقامته الثالثة فى مدحه :

أكرم به أصفر — راقت صفرته   جواب آفاق — ترامت سفرته

مأثورة سمعته وشهـــرته   قد أودعت سر الغنى أسرّته

وقارنت — نجح المساعى — خطرته   وحببت — إلى الأنام — غرته

كأنما — من القلوب نقرته   به يصول من حوته صرته

وإن تفانت — أو توانت — عترته !

والدُّرُّ إذا كُسِرَ ذَهَبَتْ قِيمَتُهُ، وَرُبَّ ذَهَبٍ فِي سِوَارٍ، جُعِلَ فى خَلْخَالٍ، ثم نُقِل إلى جامٍ أو كاسٍ، وهو — بحسنه — ما تغير لبِشَارِ النيرانِ !

ابنـــة أخته

وأما ابنةُ الأُختِ، فإنها أَدَلَّتْ على الْخَالِ — إِذْ كان أحدَ الوالدينْ ! ولا تجعلها أُخْتاً لِلْهِجْرِسِ لأنه طَالَبَ خَالَه بثار، فلم يقبح ما فعل من الآثار

يا حبذا نضاره ، ونضرته وحبذا مغنـــاته ونصرته
كم آمر ، به استتبت إمرته ، ومترف — لولاه — دامت حسرته
وجيش هم — هزمته كرته ومستشيط ؛ تتلظى جمرته
أسرّ نجواه — فلانت شرته ، وكم أسير أسلمته أسرته
أنقذه — حتى صفت مسرته
وحق مولى أبدعته فطرته — لولا التقى — لقلت: «جلت قدرته!»

***

ثم ذمه — بعد ذلك — فى المقامة نفسها — فقال :

تبًا له ! من خادع مماذق أصفر — ذى وجهين — كالمنافق
يبدو بوصفين ، لعين الرامق زينة معشوق ، ولون عاشق
لولاه — لم تقطع يمين سارق ولا بدت مظلمة من فاسق
ولا اشمأز من بخيل طارق ولا شكا الممطول مطل العائق
ولا استُعيذ من حسود راشق وشر ما فيه من الخلائق
أن ليس يغنى عنك فى المضايق ، إلا إذا فر فرار الآبق

***

واهاً لمن يقذفه من حالق ، ومن — إذا ناجاه نجوى الوامق —
قال له — قول المحب الصادق —: « لا رأى فى وصلك لى ، ففارق ! »

« قاتل خاله »

ولكنْ تُشْبه أن تكونَ أختاً لابن مُضَرِّس ـ حين فاتَتْها الأخُوّة من الهِجْرِس !

وهو المعروف بالْحُتُوت ، واسمه « تَوْبَة » وكان له أخٌ يقال له : « طارِقٌ » فقتله رَهْط خالُه ، فرأى أن يقتلَ خالَه ، وقال :

بَكَتْ جَزَعاً أُمّي « رُمَيْلَةُ » أن رأتْ دَماً ـ مِنْ أَخِيهَا ـ فى الْمُهَنَّدِ بَادِيَا

فَقُلْتُ لَهَا : « لاَ تَجْزَعِى ، إنَّ طَارِقاً حَمِيمِى ، الذى كان الخليلَ الْمُصَافِيَا »

« وَما كُنْتُ ـ لَوْ أُعْطِيتُ أَلْفَيْ نَجِيبَةٍ وَأَوْلاَدَهَا ـ لَغْواً[1] تُسَاقُ ـ وَرَاعِيا »

« لِأَرْضَى بِوِتْرٍ مِنْهُمْ ـ دُونَ أَنْ أَرَى دَماًمِنْ« بَنِى عَوْفٍ»عَلَى السَّيْفِ جَارِيا »

« وَمَا كَانَ فِى « عَوْفٍ » دَمٌ لَوْ أَصَبْتُهُ لِيُوفِيَنِى ـ مِنْ طَارِقٍ ـ غَيرَ خَالِيا ! »

أدب الخؤولة

ويجوز أن يكون قد وَشَجَ إلى هذه المرأة شئ من أدبِ الخؤولَة ، فليتق مَعرّةَ بيانها ، أكثر من اتقائه خُلْسَةَ بنَانِهَا !

فهو يعلم أن الشعرَ وَرِثَهُ « زُهَيْرُ بنُ أبى سُلْمىٰ » من خاله « بَشَامَةَ بن الغَدِير » ولم يكن فى « مُزَيْنة » شعرٌ يُذكر . وحضره « زُهَيْر » عند الوفاة ، فأراد أن يُعْطِيَه شيئاً من ماله ، فقال « بشامةُ » : « أَمَا يَكْفِيكَ أنى وَرَّثْتُكَ غَرَائِبَ القصيدِ ؟ »

غريزة المرأة

وربما كانَ فى نِساء «حَلَبَ» شَوَاعِرُ ، فلا يأمنُ من أَنْ تَكُونَ هذهِ منهنّ ، فطالما كُنَّ أَجْوَدَ غَرَائِزَ من رِجَالِهنَّ !

---

(١) اللَّغو : ما لا يُعَدّ فى الدِّيَة ، قال جرير : « كما ألغيت ـ فى الدِّيَة ـ الْحُوارا » والحُوار : ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفطم و يفصل عن أمه .

وَحدَّث رجلٌ ضَرِيرٌ، من أهل « آمِدَ » يَحفظ القرآنَ ، ويأنَسُ بأشياءِ مِنَ الْعِلْمِ ، أنه كان — وهو شاب — له امرأة مُقَيِّنَةٌ (تُزَيِّنُ النساءَ فى الأعراس) وكان يُنَجِّمُ على الطريق ، وكانت لهُ قُرْعَةٌ[1] فيها أشعارٌ — كَنَحْوِ مَا يَكُونُ فى القُرَعِ — وكان يعتمدُ حِفْظَ تِلْكَ الأشعارِ ويدرسُها فى بَيْتِهِ — ولا غريزةَ لَهُ فى معرفةِ الأوْزَانِ ، فيكسرُ البيتَ ، فتقول له امرأتُه الماشطةُ : « ويلى ! ما هذا جَيِّدٌ ! » فيلاجُّها — ويزعم أنها مخطئةٌ ! . . .

فإذا أصبحَ مَضَى ، فسأل من يَعْرِفُ ذلك . فأخبره بأن الصوابَ مَعَهَا ، وَعَرَّفَه كيف يَجِبُ أن يكونَ ؛ فإذا لَقِنَهُ عَنْهُ ، عاد فى الليلةِ الثانيةِ ، فذكرَهُ — وقد أصْلحَ — فتقول الماشطةُ : « هذا الساعةَ جَيِّدٌ »

*
* *

وكان لى كَرِيٌّ مِن أهل البادية يعرف بمُلْوَانَ ، وله امرأةٌ ، تزعم أنها من « طَيّ » فكان لا يعرف موزونَ الأبياتِ من غيرهِ ، وكانت المرأة تُحِسُّ بذلك ، وكانت تتأسَّف على طِفْلٍ مات لَهَا ، يقال له : « لَاحِبٌ » وكانت تنشد هذا البيتَ :

« إذا كُنْتُ مِن جَرَّا رَجِيبكَ مُوجَعاً ... فلا بُدَّ — يَوْمًا — مِنْ فِرَاقِ حَبِيبِ

فقالت يوماً : « إِذَا كنت من جرًا رَجِيب مُوجَعاً » فعلمتْ أن الوزنَ مختلٌّ ، فقالت : « إذا كنت من جرًا رَجِيبٍ مُوجَعاً » ، فحركت التنوينَ ، وأنكرتْ تحريكه بالطبع ، فقالت : « إِذا كنت من جرًا رجيبكَ مُوجَعاً » فأضافته إلى الكاف ، فاستقام الوزن واللفظ !

وفى الكتاب العزيز : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »

---

(١) جراب .

أبو بكر الشبلى

وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ الشِّبْلِيُّ — رحمهُ اللهُ — فلاَ رَيْبَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ ، وأَرْجُو أَنْ يَكُونَ سَالِمًا مِنْ مَذْهَبِ الْحُلُولِيَّةِ ، وَأَنْشَدَنِى لَهُ مُنْشِدٌ :

« بَاحَ مَجْنُونُ عَامِرٍ بِهَوَاهُ وَكَتَمْتُ الْهَوَى فَفُزْتُ بِوَجْدِى
وَإِذَا كَانَ فِى الْقِيَامَةِ نُودِى : أَيْنَ أَهْلُ الْهَوَى؟ تَقَدَّمْتُ وَحْدِى! »

فَإِنْ صَحَّ أَنَّ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَهُ ، فَلاَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَعْتَرِضَ عَلَيْهِ قَائِلٌ ، فَيَقُولَ : «إِنَّ ادِّعَاءَهُ الانْفِرَادَ مِنَ الْعَالَمِ ، لاَ يُسَلِّمُهُ إِلَيْهِ الْبَشَرُ ، إِنْ كَانَ هَوَاهُ لِلْمَخْلُوقِينَ أَوِ الْخَالِقِ فَلَهُ فِى الْأُمَمِ نُظَرَاءُ كَثِيرٌ »

ختام الرسالة

وأنا أعتذرُ إلى مولاى الشيخ الجليل ، من تأخيرِ الإجابةِ ، فإن عوائقَ الزمنِ منعت من إمْلاءِ السَّوْدَاء ، وأنا مستَطيعٌ بغيرى ، فإذا غاب الكاتبُ فلا إملاء ؛ ولا ينكرُ الإطالة علىّ ، فإن الخالص من النُّضَار ، طالما اشْتُرِىَ بأَضْعَافِهِ — فى الزِّنةِ — من اللُّجَيْنِ ، فكيف إذا كان الثمن من النُّفَيَّاتِ[1] اللائى يوجدن فى الطرق مَرْمِيَّات ؟

وعلى حضْرَتِهِ الجليلةِ سلامٌ ، يتبع قرومَه[2] فَأْلُه[3] ، وتلحق بعُوذه[4] أَطْفَالُه .

﴿ تمت رسالة الغفران ، وانتهى الجزء الثالث ﴾

---

(١) جمع نفية وهى ما تنفيه الحوافر من حصى وغيره ، ومعناها هنا الأشياء الحقيرة التافهة (٢) جمع قرم وهو البعير أو الفحل (٣) جمع أفيل وهو صغير الإبل

(٤) جمع عائذ وهى الناقة الحديثة العهد بالنتاج .

مكتبة الأطفال

بقلم كامل كيلانى

قصص فكاهية للأطفال

١ - عمارة . ٢ - الأرنب الذكى .

٣ - عفاريت اللصوص . ٤ - نعمان .

٥ - العرندس . ٦ - أبو الحسن .

قصص جديدة للأطفال

١ - بابا عبد الله والدرويش .

٢ - أبو صير وأبو قير . ٣ - على بابا .

٤ - عبد الله البرى وعبد الله البحرى .

٥ - الملك عجيب . ٦ - خسروشاه .

قصص للأطفال

١ - السندباد البحرى . ٢ - علاء الدين .

٣ - تاجر بغداد . ٤ - روبنسن كروزو .

قصص شكسبير للأطفال

١ - العاصفة . ٢ - تاجر البندقية .

٣ - يوليوس قيصر . ٤ - الملك لير .

أشهر القصص للأطفال

١ - رحلات جلفر . ٢ - دون كيشوت .

٣ - الكوميديا الالهية . ٤ - شمشون الجبار .

٥ - رحلات ابن بطوطة .

قصص علمية للأطفال

١ - النحلة العاملة . ٢ - العنكب الحزين .

قصص عربية للأطفال

حى بن يقظان - عنترة بن شداد

سيف بن ذى يزن - أبو زيد الهلالى

الأميرة ذات الهمة .

ألف يوم للأطفال

ألف ليلة

حكايات جح

جحا فى بلاد الجن - ج

جحا وأصحابه - ج